

فرسان .. من مدرسة النبوة

تأليف د. عبد الرحمن عميرة

الطبعة الأولى

أخبار اليوم
قطاع الثقافة

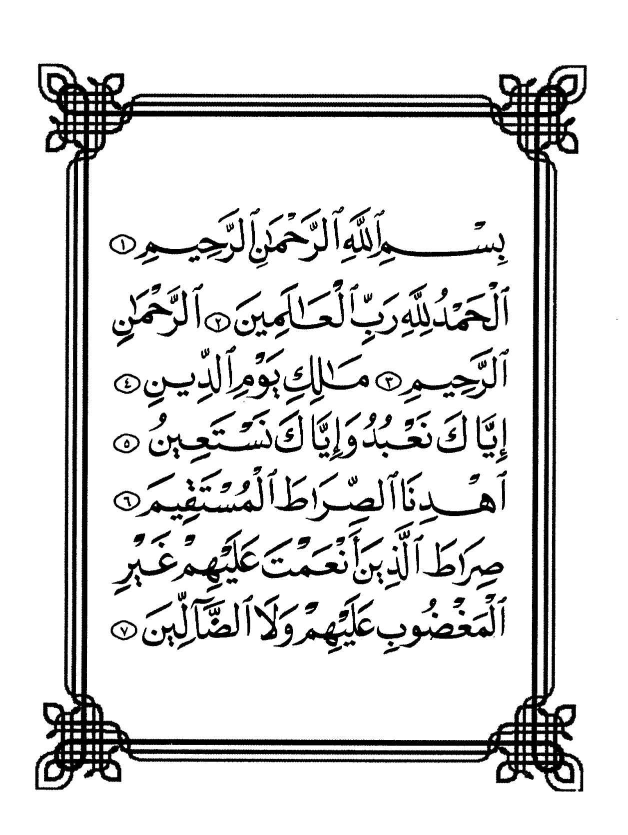
دار أخبـــار اليـــوم
قطـــاع الثـــقـــافـــة
جمهورية مصر العربية
٦ شارع الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

● العنوان على الانترنت
WWW. akhbarelyom. org\ketab
● البريد الالكتروني
akhbar el yom@akhbarelyom. org

رقم الإيداع : ١١٤٢١/٢٠٠٢
الترقيم الدولي: 9 - 1064 - 08 - 977

رئيس مجلس الإدارة :
إبراهيم سعده

غلاف وإخراج : أسامة أحمد نجيب



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٤
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦
صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧

مقدمة

أقسم الله سبحانه وتعالى بالخيل وصهيلها وغبارها وقدح حوافرها النار لأنها عدة المحارب وحصن المقاتل ، وخيلاء المنتصر .

وأكد ذلك بقوله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ..(٦٠) ﴾ [الأنفال]

فالأمة التي تعرف تطوير الحديد إلى معدات للقتال . الحديد الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ (٢٥) ﴾[الحديد] لن تعرف طعم الهزيمة .

والشعب الذي ينفض غبار الكرى في الأسحار يجيد فن الانقضاض على الأعداء ، يصف ابن عباس رضي الله عنه (استراتيجية) المعارك عند أتباع محمد ﷺ فيقول : كانوا إذا أرادوا الغارة سروا ليلاً ويأتون العدو صبحًا لأن ذلك وقت غفلة الناس.

ويصف الله سبحانه وتعالى ما حل بهؤلاء الكسالى بقوله :

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات]

ساء صباحهم لأنهم لم يتمذهبوا بمذهب الرجال .

ولم يتأدبوا بآداب القرآن .

ولم يتخرجوا في مدرسة النبوة . أما أتباع محمد ﷺ فيقول أحدهم وهو خالد بن الوليد في أخريات عمره : « ما ليلة يُهدى إليّ فيها عروس . أنا لها محب أو أبشر فيها بغلام أحب إليّ من ليلة شديدة الجليد في سرية من

المهاجرين أُصبِّح بهم العدو فعليكم بالجهاد »[1].

ومن هنا وصفهم ربهم بقوله تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات]

إنهم فى رباط دائم وصحوة مستمرة .

فى رباط مع ربهم لا يغفلون عنه لحظة ولا ينشغلون عن أوامره خطرة وفى صحوة مستمرة مع أنفسهم . فى صحوة ضد أعداء الدين ، أعداء الوطن سمعوا نداء ربهم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) ﴾ [الصف]

سمعوا ذلك النداء فلبوا صوته وآمنوا بأن هذا طريق النصر وتلك هى شروطه : إيمان عميق بالله ورسوله .

وجهاد فى سبيل الله بالأموال والأنفس .

والإيمان العميق لن يأتى إلا عن طريق العقيدة التى حملها أتباع محمد ﷺ ، فانفتحت أمامهم الدنيا ، وانداحوا فى أركان الأرض الأربعة حتى كأن الأرض تطوى تحت أقدامهم كما يقول بعض المؤرخين : إنهم أبناء أمة التوحيد .

وأتباع محمد ﷺ وأحباؤه .

أدَّبهم بكتاب ربه . وصنعهم على عينه .

ثم وضع كل واحد فى محله فكأنما خُلق له وكأنما كان المكان شاغراً لم يزل ينتظره ويتطلع إليه وكأنما كان جماداً فتحول جسماً نامياً وإنساناً متصرفاً .

وكأنما كان ميتاً لا يتحرك فعاد حياً يُملى على العالم إرادته .

وكأنما كان أعمى لا يبصر الطريق فأصبح قائداً بصيراً يقود الأمم .

(١) (عبقرية خالد) للأستاذ عباس محمود العقاد .

﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا .. (١٢٢) ﴾ [الأنعام]

ومن هذه النخبة الممتازة صنع أمة الجهاد . أمة الأبطال والفرسان .

أمة تحارب الإلحاد والشرك والفوضى .

أمة تحارب التخنث والعبث والإباحية .

أمة تربى أبناءها على الصحوة واليقظة والاستعداد .

أمة ترفض التبعية والانقياد لغير الواحد الأحد .

الإسلام يصنع أمة الجهاد

نعم من هذه النخبة الممتازة صنع الرسول ﷺ أمة الجهاد ، أمة الأبطال والفرسان . وأعدهم إعداداً حربياً .

وعلمهم استراتيجية المعارك وأسباب النصر .

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢) ﴾ [النساء]

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ .. (٦٠) ﴾ [الأنفال]

وأعدهم إعداداً روحياً .

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا .. (٥١) ﴾ [التوبة]

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً .. (١٤٥) ﴾ [آل عمران]

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ﴾ [الأنفال]

ولكن النصر فى النهاية لن يكون بقوة السلاح .

ولن يكون بعدد الجنود .

ولن يكون بصلابة القلاع والحصون .

وكل هذه الأشياء عوامل لابد منها فى الجيش المقاتل ، لا يصح إغفالها بحال من الأحوال .

ولكنها ليست سبباً للنصر .

ولن يتحقق النصر عن طريق العبادة ولا عن طريق القوة الروحية .

ولن يتحقق النصر عن طريق فـرد من الأفراد ، أياً كان هذا الفرد رسولاً أو غير رسول .

النصر فى النهاية من عند الله .

فقد يكون المسـلمون ضعفاء فى قـوة العدد وضعفـاء فى قوة السلاح وفى غير استعداد كامل ومع ذلك يحققون النصر .

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) ﴾ [آل عمران]

وقد يكونون أقوياء أكثر عدداً وعدة ومع ذلك لا يحققون النصر وينهزمون..

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ﴾ [التوبة]

وإذا كان النصر من عند الله .

فعلام يترك الجهاد ؟

وتحتل البلاد ، ونعيش فى خوف ورعب ؟

وممّ نخاف ؟ أمن القتل؟

ومتى كان المسلمون يحرصون على الحياة وكتابهم يقول :

﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) ﴾ [النساء]

قدمت الآية القتل لأن المؤمنين لا يتشبـثون بالبقاء ، ولا يحرصون على هذه الدنيا .

ولكنهم يحرصون فقط على دينهم أو يموتون دونه .

وإذا خرجوا لملاقاة الأعداء كان نصب أعينهم إما النصر وإما الشهادة .

ولم يكن حب البقاء فى حسابهم قط .

ولهذا قال رسول المسلمين فى مجلس ملك الفرس :

(جئنا لكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة) .

وإذا كان النصر من عند الله .

فالهزيمة بسبب سلوك الأفراد .

بسبب بعدهم عن الله .

الهزيمة بسبب المعاصى التى يرتكبها المجتمع .

﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى]

وبهذا الفهم لطبيعة الجهاد فى الإسلام . خرج فرسان النهار، رهبان الليل من الجزيرة العربية ينشرون الأمن بعد الخوف والنور بعد الظلام والهدى بعد الضلال .

خرجوا يحملون المصحف للهداية والسيف لإزالة الباطل وانداحوا فى أرض فارس وحققوا الكثير من النصر .

ثم اعترضتهم مشكلة العبور .

إن أمامهم نهراً .

والعرب ليست لهم خبرة به .

وكانوا دائماً يتحاشون عبوره ويتجنبون ركوبه .

ولكنهم الآن غيرهم بالأمس .

بالأمس كانوا يحرصون على نشر أمجاد القبيلة .

ولكنهم الآن يحرصون على نشر دين الله .

وتلك هى بغيتهم من الخروج .

وأصدر « سعد » أمره إلى الجيش بعبور « نهر دجلة » وقبل أن يبدأ الجيش عملية العبور فطن القائد « سعد » إلى وجوب تأمين مكان الوصول على الضفة الأخرى التى يرابط العدو حولها وعندئذ جهز كتيبتين .

الأولى : وأطلقوا عليها « كتيبة الأهوال » ، وأمّر « سعد » عليها عاصم بن عمرو .

والثانية : واسمها « الكتيبة الخرساء » وأمّر عليها القعقاع بن عمرو .

وكان على جنود هاتين الكتيبتين أن يخوضوا الأهوال لكى يفسحوا على الضفة الأخرى مكاناً للجيش العابر على أثرهم ، ولقد أدوا عملهم بمهارة مذهلة .

ونجحت خطة « سعد » يومئذ نجاحاً يذهل له المؤرخون .

ولقد كان العبور هذا باسم الله .

والتوكل عليه .

وإذا كان القتال باسم الله ، وإذا كانت الحرب لرد العدوان والطغيان وإذا كانت الحرب لنصرة الذين استضعفوا .

فلن يفلح أن يكون فى الجانب الآخر ترسانات من الأسلحة ، لن يجديهم نفعاً أن يكدسوا الفانتوم أو « ف » ١٥ ، ١٦ ، أو حتى الألف .

ولن يفيدهم قلامة ظفر الأسلحة الجديدة والقديمة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٣٨) ﴾ [الحج]

ولأن قتال المؤمنين بإشارة من الله .

وبإذن منه .

وبتوقيت قدره .

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ﴾ [الحج]

لقد كان من أسباب دواعى الهزيمة فى حرب ٦٧ كما وضحها بعض القادة :

وجود الباخرة « لابرتى » .

باخرة بأجهزة معقدة .

تلتقط إشارتنا وبياناتنا .

وتكشف خططنا .

وتقرأ أفكارنا .

وتكاد تعد علينا أنفاسنا .

ويتكشف لها الغيب فتعرف ما نأتى وما ندع .

أحقاً كان ذلك ؟

إن هذه الأجهزة – وبهذه الصورة – قد توجد وقد لا توجد .

قد تخطئ وتصيب . وقد تنجح وقد تخيب .

إنها مرحلة من العلم ، والعلم لا يزال قاصراً فى ميدان الحياة ولا يزال قاصراً فى ميدان الحروب .

والعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة .

ولكن المسلمين كان لديهم السلاح الذى لا يخيب .

كانت عندهم شفافية الإيمان .

وإشراقة الإحسان .

كان عندهم (الرادار) الذى ينقل .

والأجهزة التى تصور .

كـانت عندهم فـراسـة المؤمن وهى أقـوى الأسلحـة وأعتى الحـصـون لأن الرسول ﷺ يقول : « اتقوا فراسة المؤمن لأنه ينظر بنور الله »(١)

وفى إحـدى المعارك الطاحنـة بعيـداً عن الجزيرة الـعربيـة هناك على أرض نهاوند .

يرى القـائد الأول للجـيش الإسـلامى عـمـر بن الخطاب ـ رضى الله عنه – جيشه يحاط من الأعداء .

وينزل فى المعركة منزلاً صعباً .

يراه بنوره ، يراه بإيمانه .

وهذا شىء محال أن يخطىء لأنه من عند الله .

ومحال أن يكذب لأنه من رب الأرباب .

ويسمع الجيش المؤمن نداء القائد .

يسمع نداءه بتعديل سير المعركة .

وبتغيير خطط القتال .

يا سارية، الزم الجبل .. يا سارية الجبل .

ويطيع الجنود أمر القائد الحاضر الغائب .

فيتحقق وعد الله ويكون النصر للمسلمين .

وبهذا الفهم لطبيعة النصر .

وبهذا الوعى لوعد الله لهم .

انداحوا فى أركان الأرض الأربعة وطويت الدنيا تحت أقدامهم .

ولم تمض إلا فترة وجـيزة ، حتى كان صـوت المؤذن « الله أكبر » يدوى فى أنحاء المعمورة .

---

(١) قال فى الدر رواه الطبرانى والترمذى من حديث أبى أمـامة وأخرجه الترمذى أيضاً من حديث أبـى سعيـد ورواه الطبرانى وأبو نعـيم والعسكرى عـن ثوبان رفعه بلـفظ : احذروا دعوة المسلم وفراسته فإنه يـنظر بنور الله ، ورواه العسكرى عن أبى الدرداء موقوفاً بلفظ : « اتقوا فراسة العلماء فإنهم ينظرون بنور الله » .

يدوى صوت الله فى الأندلس ويصل حتى مشارف أوروبا .

ويدوى صوت الله فى الصين ويصل إلى آخر حدود السند والهند .

ويدوى صوت الله فى القيروان حتى يصل إلى « بانزرت » آخر مشارف تونس .

ويدوى صوت الله على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ويشمل قبرص وصقلية وكورسيكا .

ويتحول هذا البحر حتى يصبح بحيرة إسلامية .

ويدوى صوت الله على مشارف روسيا ويتوغل فى داخلها ويستولى على ثلاثة أرباعها .

يستولى على بخارى والقوقاز .

يستولى على طشقند وسيبيريا .

يستولى على جبال الأورال .

وعلى بحر القزوين .

ويدوى هذا الصوت ، صوت الله فى ثلاث قارات : أوروبا وآسيا وأفريقيا .

وتزال الحدود والسدود وتتلاشى الحدود السياسية والجغرافية .

ويسير المسلم بلا جواز أو هوية سوى جواز الإسلام وهوية التوحيد من فارس حتى مراكش ويصل مدهم إلى آسيا الصغرى .

وينطلق من هذه البلاد الجيش الإسلامى ، فيفتح البلاد المتاخمة ويحولها إلى قاعدة إسلامية .

ويتوغلون فى أوروبا حتى بلغوا أسوار فيينا .

وقد كتب معتمد القيصر بطرس الأكبر لدى الباب العالى أن السلطان العثمانى يعتبر البحر الأسود كداره الخاصة . فلا يباح دخوله لأجنبى وأنشأوا أسطولاً عظيماً لا قبَل لأوروبا به حتى اجتمعت لسحقه كل من جيوش إيطاليا وأسبانيا والبرتغالَ ومالطة عام ٩٤٥، ١٠٤٧ ولكن لم تغن عنهم كثرتهم شيئاً ثم ولوا مدبرين .

وإذا كانت القسطنطينية التى فتحها مسلمة بن عبد الملك قد استردها أصحابها مرة أخرى . فإن محمد الفاتح استطاع أن يعيدها ثانية عاصمة إسلامية .

قال البارون كارادفو فى كـتابه « مفكرو الإسلام » فى الجزء الأول منه عند ترجمة محمد الفاتـح :

« إن هذا الفتـح لم يـقيض لمحمـد الفاتـح اتفاقـاً ، ولا تيسر لمجـرد ضعف دولة بيـزنطيـة ، بل كـان هذا السلـطان يدبر التـدابيـر اللازمـة له من قـبل ، ويستـخدم له كل ما كان فـى عصره من قوة العلم ، فـقد كانت المدافع حـينئذ حديثة العهد بالإيجاد فأعمل فى تركيب أضـخم المدافع التى يمكن تركيبها يومئذ وانتـدب مـهندسـاً مـجـرياً ركّب مـدفـعـاً كـان وزن الكرة التـى يرمى بهـا ٣٠٠ كيلوجرام ، وكان مدى مرماه أكثر من ميل .

وقيل : إنه كان يلزم لهذا المدفع ٧٠٠ رجل ليتـمكنوا من سحبه ، وكان يلزم له نحو ساعتين من الزمن لحشوه ، ولما زحف محمد الفاتـح لفتح القسطنطينية كان تحت قـيادته ثلاثمـائة ألف مقاتل ، ومـعه مدفـعية هائـلة ، وكان أسطوله المحاصر للبلدة من البحر ١٢٠ سفينة حربية وهو الذى - من قريحته - تصور سحب جانب من الأسطول أنزله فى البحر من جهة الجبل[1] » .

إذا كان العرب قد اسـتعملوا فى فتوحاتهم السيف ضد المعـوقين والواقفين فى وجه دين الله .

وطوروا أسلحتهم فى فتوحات فارس ، فاستعملوا السفينة والبحر .

واستعانوا فى القضاء على الروم بسلاح الطبـيعة ، فحصروا أعداءهم بينهم وبين البحر وكان هذا من أكبر العوامل لتعجيل النصر .

فإن مـحمد الفـاتـح فى هذه المراحل المتأخرة قـد عمل على تطوير أسلحـته أيضاً .

فلم تعد أسلحة تقليدية .

لم يعد السيف والرمح .

ولا الترس والنبل .

ولكنها كانت المدفع والدبابة .

ووسائل العبور .

وقيام الكبارى ، وتطويق الأعداء ، والخبرة الأجنبية .

ولا مانع من ذلك لأن الرسول ﷺ يقول :

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

« الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها » .

ولأن الإسلام دين التطور ، والإسلام دين العقل ، والإسلام دين الفكر والإسلام دين العلم ، دين الاختراع .

ويحث أبناءه دائماً على اتخاذ العلم سلاحاً إلى السلم ، وسلاحاً إلى النصر وسلاحاً لقهر الطبيعة وتسخير الأرض لصالح البشرية .

تم فتح القسطنطينية التى يقول فيها نابليون :

« لو كانت الدنيا دولة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها » .

كتب أندريا موروا فى كتابه « انهيار فرنسا فى الحرب العالمية الثانية » يقول : من أهم الأسباب لانهيار فرنسا هو تفسخ الشعب الفرنسى نتيجة انتشار الرذيلة بين أفراده .

وأحست اليابان الحديثة بعدما قطعت شوطاً فى الحضارة والتقدم بأن شبابها بدأ يميل للهو والعبث ويتجه إلى الرذيلة والكسل .

فكيف عالجت المشكلة .. ؟

لم تتجه إلى الشرق والغرب لتستورد منهما الحلول .

ولم تتجه إلى علم النفس لأن نظرياته متقلبة متباينة .

ولم تلجأ إلى حلول المخمورين والمتهوسين والعلمانيين .

بل لجأت إلى الدين مباشرة .

لجأت إلى الدين كعامل من عوامل التوجيه والقوة .

فأصدرت القوانين بألا يوظف شاب فى وظيفة عامة إلا بعد أن يدخل المعبد ويمارس فيه رياضة روحية عنيفة ، ويستوعب من الكهنة تعاليم بوذا العظيم[1] .

إن انهيار الأمم فى ساحة الحرب . وانهيارها فى ميدان الحياة مرده إلى الرذيلة والترف .

والقرآن الكريم يؤكد هذه النظرية بقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء]

(١) (رجال مجاهدون) للأستاذ توفيق محمد سبع بتصرف .

وكان من بعض أسباب انهيار العالم القديم أمام ضربات المسلمين :
التفسخ والانحلال .
التفسخ الذى شمل ضروب الحياة .
والانحلال الذى سرى فى أوصال تلك الأمم .
ومن أجل ذلك انهارت دولة الفرس .
وانهارت دولة الروم .
انهارتا أمام ضربات الرجال .
الرجال الذين تربوا فى مدرسة الإسلام .
الرجال الذين يصفهم رجل من قبيلة قضاعة لقيصر الروم فيقول :
« هم رهبان بالليل فـرسان بالنهار ، لو سرق فيـهم ابن ملكهم قطعوا يده ، ولو زنى رجموه إقامة للحد » .
فقال القائد : لئن كنت صادقاً لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها .

وفى هذه الظروف القاسية المريرة التى تمر بها الأمة الإسلامية يطيب لنا أن نقدم لأحـفاد هؤلاء العـمالقـة استـراتيجـيتـهم الحربية الـتى خرجوا بـها من بلادهم . والظلام شامل والجهل حاكم والعقائد زيف وباطل .

فمـدَّنوا الدنيا وهذَّبوا العـالم وقرروا الحق للإنسان . فـهل يقتدى الأحـفاد باستراتيـجية الأجداد؟! لو فعلوا ذلك ، لعادت إلـيهم بلادهم المسلوبة وأرضـهم المغصوبة ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .. ينصر من يشاء ..

أ . د . عبد الرحمن عميرة



عتبة بن أسيد أبو بصير

رضى الله عنه

قال رسول الله - ﷺ -:

« ويل أمه مسعّر حرب لو كان معه رجال .. »

الحديث أخرجه البخارى فى الشروط ١٥
وأبو داود فى الجهاد ٥٧ وأحمد بن حنبل
فى المسند ٤ : ٣٣١ حلبى

■ **يُعرف بأبى بصير.**

كانت ولادته فى مكة ، قريباً من بيتها الحرام ، ولما شب عن الطوق عرف الطريق إلى الكعبة ، وكان يقف أمامها طويلاً ، يشاهد الوفود الجرارة التى تفد إلى تلك البقعة المباركة من كل أنحاء الجزيرة العربية .

وكم رأى بعينيه دموعاً تتساقط ، وابتهالات وأدعية تخرج من شفاه مرتعشة أمام الكعبة .

تصدر من الرجال والنساء الذين يفدون حجاجاً إلى بيت الله الحرام .

وكم سمع تمتمات وهمهمات تعيها أذناه ، ولا يفهم لها معنى .

عندها يطلق قدميه تسبقان الريح ، ويرتمى بين أحضان أمه يسألها مستفسراً ملحاً .

وتجيبه أمه حانية عاطفة ، حتى تأخذه سنَةٌ من النوم ، فتربت على كتفه وتلفه بغطائه وتدعو رب البيت أن يحرسه ويرعاه .

وعاد لها فى يوم من الأيام حزيناً باكياً ، لقد شاهد الرجال يعملون معاولهم فى أركان وجدران الكعبة وتوجه إليها بالسؤال قائلاً :

« لماذا يفعلون ذلك يا أماه .. »

وهدَّأت الأم من روعه ، إنهم يفعلون ذلك لإعادة بنائها حتى تكون جديدة وحتى لا تمتد أيدى اللصوص عن طريق جدرانها الذى هدمه السيل ، فيسرقون ما فيها من حُلى وجواهر ؟؟

وفى اليوم التالى : شاهد أبو بصير تشاحن القبائل ، وتنافر البطون فى مكة

وإشهارهم السلاح ، ودعوتهم للحرب والقتال من أجل التنافس على وضع الحجر الأسود فى موضعه .

وأخيراً اتفقوا على أن يحكِّموا أول داخل عليهم ليختار القبيلة التى يكون لها شرف تثبيت الحجر الأسود فى مكانه .

ولقد كان محمد الأمين ، الذى قرر إن تشترك كل القبائل فى وضعه[1]، وفرش رداءه ووضعه عليه وأمر كل قبيلة أن تأخذ بطرف وحسمت مشكلة الحجر الأسود . وأخذ الرجال يعودون لعملهم فى البناء .

ومن يومها أحب أبو بصير محمداً الأمين كل الحب، وأعجب به كل الإعجاب، فاتخذه قدوة ومثالاً ، يتابعه فى كل ما يأتى من أمر أو يلقى من حديث .

وفى كل يوم يخرج أبو بصير إلى محمد، يجلس إليه إن جلس ، ويتبع خطواته إذا سار وفى يوم ليس كمثله يوم ، وقد ارتفعت الشمس قدر رمح أو رمحين أخذ محمد الأمين يسرع الخطى ناحية الصفا مهرولاً حتى استوى عليه، وأخذ ينادى يا صبحاه يا صبحاه . !!

وكان أبو بصير لا يزال فى فراشه مفتح العينين يفكر فى الذهاب إليه عندما سمع صوته يملأ الكون .

يا صبحاه يا صبحاه ، إن صوت محمد ينادى من فوق الصفا ، وألقى غطاءه من عليه ، وخرج مسرعاً إلى هناك .

واجتمعت إليه قريش تريد أن تعرف ماذا يريد هذا الأمين بدعوته المبكرة إليهم ...؟

لقد عرفوه ميمون الطالع فلا يأتى إلا بخير .

وصادق الكلمة فلا ينطق بغير الحق .

وتربى فى بنى سعد ، فملك ناصية البيان ، فإذا استمعوا إليه ، استمعوا إلى كلام بيِّن ، فصل، ولما رأى رسول الله ـ ﷺ ـ اجتماعهم قال : يا آل غالب ،

---

(١) قال الشاعر :

فلما رأينا الأمر قد جد جده ... ولم يبق شىء غير سل المهند
رضينا وقلنا العدل أول طالع ... يجىء من البطحاء من غير موعد
ففاجأنا هذا الأمين محمد ... فقلنا رضينا بالأمين محمد

راجع سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٩٧

يا آل لؤى ، يا آل مرة، يا آل كلاب ، يا آل قصى ، يا آل عبد مناف، لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدقى ...؟

قالوا : نعم ما جربنا عليك كذباً .

قال : فإنى رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة ، وتلا قول الله تعالى :

﴿ فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) ﴾ [الشعراء]

وانفضوا من حوله بين مصدق ومكذب ، وسرت همهمات لا تفصح ولا تبين وعاد الرسول - ﷺ - إلى بيته .

وعاد أبو بصير بتلك الكلمات التى سمعها ، فأضاءت قلبه وأثلجت صدره ووجهته إلى دار محمد - حيث وضع يده ونطق بكلمة الشهادة وتتابع المؤمنون بدعوة الرسول - ﷺ - .

ولكن قريشاً ركبت رأسها ، وأخذت تشن حرباً لا هوادة فيها على المستضعفين الذين تابعوا محمداً على دينه .

وذهب بعض المستضعفين إلى الرسول - ﷺ - يطلبون منه أن يدعو ربه ليخفف عنهم ما هم فيه ، فجلس مغضباً ثم قال :

« والله إن من كان قبلكم ليؤخذ الرجل فيشق اثنين ما يصرفه ذلك عن دينه ، أو يمشط بأمشاط الحديد ما بين عصب ولحم ما يصرفه عن دينه شىء، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب منكم من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخشى إلا الله أو الذئب على غنمه ، ولكنكم قوم تعجلون » .

وأخذ العذاب يشتد والهول يُصب عليهم صباً ، ويدخل أبو جهل على سمية أم عمار فيرفثها ويركلها ثم يطعنها بالحربة فى قلبها فماتت .

وسرى الخبر بين المستضعفين ، فأهمَّهم وأقلق بالهم أن الرسول - ﷺ - لم يأذن لهم بحرب، فماذا يفعلون .. ؟

وهؤلاء يشنون عليهم حرب إبادة .

واجتمعوا عند الرسول - ﷺ - ووضعوا بين يديه ما يُراد بهم وما ينتظرهم من بلاء على يد هؤلاء القساة ، غلاظ الإكباد .... عندها قال

الرســـول – ﷺ – لو خرجـتم إلى أرض الحبـشة فـإن بهـا ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق . حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه» .

إنها الهجرة إذن ..

والأمر من الرسول – ﷺ – بذلك .

وخرج المستـضعفون إلى تلك الأرض إلى بلد لا يظلم فيـها أحد ، وإلى ملك يعرف ربه ويتـابع أنباء الرسـول مع قريش ، ومعـاركه فى سبـيل نصرة هذا الدين .

ويقول عمرو بن العاص رضى الله عنه :

« كنت أجلس عند النجاشى ، فدخل عمرو بن أمـية الضمرى ، وكان رسول الله ـ ﷺ – قد بعثه بكتاب إليه ، فلما خرج ، قلت للنجاشى : هذا الرجل رسول عدو لنا قد وترنا وقتل أشرافنا فأعطينيه لأقتله .

فغـضب الملك من ذلك ورفع يده فضرب بـها أنفى ضربة ظننت أنه كـسره، فابتدرت أنفى ، فجعلت أتلقى الدم بثيـابى ، فأصابنى من الذل ما جعلنى أتمنى أن تنشق بى الأرض لأتوارى فيها ..

ثم قلت : أيها الملك لو ظننت أنك تكره ما قلت ما سألتك .. ؟؟

قال : فاستحيا وقال :

ياعمرو تسألنى أن أعطيك رسول من يأتيـه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى والذى كان يأتى عيسى لتقتله .. ؟

قال عمرو : فغير الله قلبى عمّا كنت عليه .

وقلت فى نفسى : عرف الحق هذا والعرب والعجم وتخالف أنت .. ؟

ثم قلت : أتشهد أيها الملك بهذا .. ؟

قال : نعم أشهـد به عند الله يا عمرو ، فأطعنى واتبـعه فوالله إنه لعلى الحق وليظهرن على من خالفه ، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده .

قلت : أتبايعنى له على الإسلام .. ؟

قال : نعم . فبسط يده فبايعنى على الإسلام[1] .

ولكن أبا بصير لم يهاجر ولم يخـرج من مكة لأنه لا يستطيع فراق الرسول – ﷺ – .

(١) (البداية والنهاية) لابن كثير جـ ٤ ص ٢٣٧

وعاد المهاجرون مرة أخرى إلى مكة .

واشتد إذاء قريش لهم ، وامتد هذا الأذى إلى الرسول - ﷺ - وفكرت قريش فى قتل محمد - ﷺ .

واجتمع رجالها فى دار الندوة وقرروا أن تقدم كل قبيلة شاباً جلداً من رجالها ويجتمع هؤلاء الرجال ، ويضربون محمداً ضربة رجل واحد حتى يتفرق دمه بين القبائل وبذلك لا تستطيع بنو هاشم أن تأخذ ثأرها من كل القبائل .

وأذن الله سبحانه وتعالى لنبيه بالهجرة إلى يثرب .

وتتابع المسلمون بالهجرة خلف رسولهم خوفاً من طغيان قريش ولكن أبا بصير لم يهاجر إلى يثرب . لاعتقاده أن الرسول - ﷺ - سيعود مرة أخرى إلى مكة ومعه الأنصار والمهاجرون لتأديب قريش ، وتحطيم الأصنام داخل الكعبة . ثم كان صلح الحديبية بين الرسول - ﷺ - وبين قريش وكان من بين بنود الصلح :

« إن من خرج مهاجراً من مكة إلى المدينة مسلماً رده محمد إلى قريش ، ومن خرج من جماعة المسلمين إلى قريش مرتداً لا ترده للرسول - ﷺ ».

عندها فكر أبو بصير فى الهجرة إلى يثرب ، وفى غفلة من رجالات قريش اعتلى ظهر ناقته وترك لها زمامها تسابق الريح وتطوى الصحراء إلى يثرب لينضم إلى كتيبة المسلمين ، ويصير جندياً من جنود الله يدافع عن دينه ويجندل الذين يقفون فى طريقه .

وما كاد يصل أبو بصير إلى يثرب ويلتقى بصحابة رسول الله - ﷺ - ويحس بينهم ببعض الأمان والراحة ، حتى كانت قريش قد أوفدت رسولين إلى رسول الله - ﷺ - ليرد لهم أبا بصير .. تنفيذاً للعهد الذى تم بينهم فى صلح الحديبية .

عندها قال الرسول - ﷺ - : « يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً فانطلق إلى قومك » .

قال أبو بصير : يا رسول الله أتردنى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى .. ؟؟

قال الرسول - ﷺ : « يا أبا بصير انطلق ، فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً » .

واستجاب أبو بصير لما أمره رسول الله - ﷺ - وانطلق مع الرسولين إلى مكة .

وفى الطريق قرر أبو بصير أمراً ، إن قريشاً صاحبة حيلة ومكر ، وأخذت هذه الشروط من الرسول - ﷺ - عن طريق القسر والاضطرار هذه واحدة .

والثانية : لابد من تحرير المستضعفين الذين آمنوا بدعوة محمد - ﷺ - من طغيان قريش .

إذن لن يعود إلى مكة وعليه أن يهب نفسه للجهاد فى سبيل الله ، وويل لقريش ممن استقر الإيمان فى قلبه ، واستضاءت روحه بنور الإيمان .

التفلت من قبضة رسولى قريش

ولما كان بذى الحليفة نزل وحارساه ليتناولوا طعامهم ، ونزل بالسيف على أحد الرجلين فقتله ، وفرَّ الآخر حتى أتى رسول الله - ﷺ - وقال له : قُتل والله صاحبى وإنى لمقتول .

وجاء أبو بصير فقال يا رسول الله : قد والله وفت ذمتك ، وقد رددتنى إليهم فأنجانى الله منهم ، ثم خرج مودعاً الرسول - ﷺ - واتجه صوب مكة حتى نزل مكاناً يسمى « العيص » على ساحل البحر الأحمر بطريق قريش الذى كانوا يمرون عليه إلى الشام .

وفى وسط هذا الطريق - طريق القوافل إلى الشام ومكة - ركز هذا الفارس الشجاع والفدائى الصادق الإيمان حربته ، وتوشح سيفه ، وقرر أن يأخذ على قريش الأرض من أقطارها .

سيحاربها فى تجارتها ويقوّض كل اقتصادها .

ويُجندِّل أبطالها .

ولتعش مكة بغير تجارة ولتأكل حشيش الحمض والسعدان مع أبلها وأغنامها .. !! ولتوقف قريش من اليوم كل معاملتها مع العالم الخارجى .

ويعلم الرسول - ﷺ - بما اعتزمه هذا الفدائى الكبير فقال : « ويل أمه مسعِّر حرب لو كان معه رجال »(١) .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى الشروط ١٥ وأبو داود فى الجهاد ٥٧ وأحمد بن حنبل فى المسند ٤:٣٣١

وتدوى هذه الكلمة فى أرض الله الممتدة الواسعة وتبلغ الرجال المسلمين الذين حبستهم قريش بين دروب مكة .

وفهموا أن ذلك نداء من القائد العام للجماعة المسلمة بالانضمام إلى كتيبة أبى بصير ، فخرجوا جميعاً وعلى رأسهم أبو جندل سهيل بن عمرو حتى بلغ عددهم سبعين رجلاً .

وأخذوا فى مزاولة أعمالهم من التربص لقوافل قريش الخارجة إلى الشام أو القادمة إلى مكة من الشام ويستولون عليها وعلى ما تحمله من عروض التجارة ، وعلى ما فى جيوب الرجال من الذهب والفضة .

وجندلوا من فرسان قريش كل من وقف فى طريقهم .

وعلمت قريش بما يفعله أبو بصير ورفاقه ، فخافت على تجارتها، فلم ترسل إلى الشام فكسدت بضائعها ، وانفض عنها عملاؤها . وأصيبت بضربة موجعة ، وعلتها الكآبة والمجاعة .

ويتجه وفد من مكة بقيادة أبى سفيان بن حرب إلى المدينة لمقابلة الرسول - ﷺ - يسألونه بالرحم أن يقبل أبا نصير ورفاقه ويردهم إلى المدينة .

ويقول الرسول - ﷺ - يا أبا سفيان : والشروط التى أخذتموها فى صلح الحديبية .. ؟

ويرد أبو سفيان راجياً متوجعاً : « يا محمد إنك لتصل الرحم ، وتقرى الضيف وتحمل الكل وتعين على نوائب الدهر » .

اقبل رجاءنا وارحم صغارنا لأنهم يعيشون فى مجاعة طاحنة أرسل إلى أبى بصير وصحبه فضمهم إليك .

واستجاب الرسول - ﷺ - لطلب قريش ، وأرسل رسالة إلى أبى بصير يرده إليه .

ويمسك أبو بصير بكتاب رسول الله - ﷺ - ويقرأه بشفتيه ويبلله بدمع عينيه ويضعه على صدره ، وتفارق روحه جسده . رحمه الله رحمة واسعة.

يقول أبو جندل - رضى الله عنه - رفيق أبى بصير فى الفدائية الأولى التى كسرت غرور قريش : وبعد غسله وسدناه قبره ثم فررنا إلى الله تعالى للانضمام إلى جيش الفتح ، إلى دعاة الدين الخالص ، الذين أزالوا الزيف المتراكم من الألوهية المزيفة عن طريق البشرية قاطبة ..

فدائية القرن العشرين

نقول إذا كانت الفدائية الأولى قد كسـرت غرور قريش ، وساهمت مساهمة فعالة فى محاصرة الشـرك وأهله ، وعبَّدت الطرق والمسالك أمام الدين الجديد . ودوت كلمة « لا إله إلا الله » فى جنبات الأرض حتى نزل قول الله تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣ ﴾ [النصر]

دخلوا فى دين الله أفواجاً وهاجروا إلى ربهم وفروا إلى مولاهم وخلت رقعة الأرض من الزور والبهتان والكفر والطغيان .

حتى قال القائد العملاق عقبة بن نافع وهو واقف على شاطىء البحر المحيط: « والله لو أعلم أن خلف هذا البحر قوماً لا يؤمنون بالله ولا يصدقون بمحمد لخضت لهم بهذا الفرس » .

نقول : إذا كـانت الفدائيـة الأولى قد فـعلت ذلك . فمـاذا يجب على الفـدائية الجديدة أن تفعله أمام غرور الصهيونية العالمية .. ؟

عليها أن تسلك ما سلكته الفدائية القـديمة لأنه لو تم ذلك لركعت الصهيونية العالمية على أقدامها واستجابت لكل متطلبات الأمة العربية .

ومن تتـابع حلقـات التـاريخ وتتطابق أحـداثهـا أن قـريشـاً تنازلت عن كل شروطها التى فرضتها فى صلح الحديبـية عندما استولت الفدائية المسلمة على طريق القوافـل على ساحل البحـر الأحمـر الذى ينقل تجارتهـا إلى بلاد الشام المتاخـمة – فى عصـرنا الراهن للأرض المحتلة التى تتـربع عليهـا الصهيـونية العالمية .

لو اتبعت الفدائية الحديثة استراتيجية الفدائية القديمة لدمرت أكثر من ٧٠٪ من الأغذية والمواد الخام التى تسـتوردها إسرائيل عن طريق البحـر الأحمر من قارة أفريقيا وما جاورها .

ولو اتبعت الفدائية الحديثة خطط الفـدائية القديمة من ضرب العدو ضربات متتابعة خارج حدوده لدمرت كل منتجـاته من الصناعات الخفيفة والثقيلة التى تتسرب عن طريق إحدى الدول الإسلامية ويكتب عليها زيفاً وتضليلاً صنع فى تركيا ، والتى تغمر الأسواق العربية ، فى كل وقت وحين .

ونحن من هذا المنطلق نناشد الفدائية المؤمنة على أرض فلسطين المحتلة أن تنقل أعمالها خارج حدودها ، حتى تتمكن من محاصرة العدو الإسرائيلى ، وقطع الإمدادات الآتية إليه ، وتدمير منتجاته التى يغمر بها الأسواق العربية ، وهذه تعد أقوى الأسلحة فى كسر شوكته وتقريب هزيمته .

عندها لن يحتاج العرب إلى استجداء السلام من العدو الإسرائيلى ، بل هو الذى سيطلبه ويلح فى طلبه خاضعاً ذليلاً .

فهل أنتم يا قادة الأمة العربية فاعلون .. ؟ إن تم ذلك كان لكم النصر والظفر بإذن الله تعالى ، وتصيرون من جند الله الذين لهم شرف تحقيق وعد الله على بنى إسرائيل بقوله :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .. (١٦٧) ﴾ [الأعراف]

فمَنْ من حكام العرب يقول أنا وشعبى من جند الله .. ؟

ومَنْ هو العملاق الذى يتحقق على يديه وعد الله بسوم العدو الإسرائيلى سوء العذاب فى فترة من فترات الدهر .. ؟

إن مَنْ يُقدم على ذلك يفوز برضا الله فى الدنيا ، وبفردوسه الأعلى فى الآخرة . إن العلامة التى وضعها الله تعالى لتدمير بنى إسرائيل هى تجمع فلولهم على أرض فلسطين ، من كل بقاع الأرض ، فقال تعالى :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾ [الإسراء]

ولقد تم تجمعهم واستقرارهم حول المسجد الأقصى مسرى الأنبياء .

ثم ماذا .. ؟ أيرسل الله عليهم جبريل عليه السلام لقلب مدينتهم وتدميرها عليهم كما حدث مع قوم لوط عليه السلام .. ؟

أيرسل الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية تصرعهم وتستأصل شأفتهم كما حدث مع قوم صالح عليه السلام .. ؟

أيرسل عليهم الصواعق المدمرة ، ويفتح عليهم أفواه البراكين القاتلة فتشوى أجسادهم وتزهق أرواحهم .. ؟

إن وعد الله لم يتضمن شيئاً من ذلك ، ولكنه حدد فناءهم وإبادتهم على يد عباد الله المؤمنين من أمة محمد – ﷺ – قال تعالى :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً (٧) ﴾ [الإسراء]

فهؤلاء العباد يقهرونهم ، ويقتلونهم ، ويأسرونهم ، فتعلوا وجوه الأحياء منهم المهانة والمذلة ، والخزى والعار ، لأنهم لا يستطيعون فعل شيء لأنفسهم أو الدفاع عن ذويهم ، ثم إن العباد المؤمنين يدمرون كل شيء عليهم ، ويخربون كل عامر على أرضهم ، ويصبون عليهم النكال والهوان صباً .. !!

فَمَنْ منْ أمة محمد يكون له شرف تنفيذ وعد الله .. على إخوة القردة والخنازير وأحفاد إبليس كما وصفهم عيسى عليه السلام ؟!

مَنْ منكم يا أتباع محمد - ﷺ - يحظى بجريان قضاء الله وقدره على يديه ضد أعداء الله ..؟

مَنْ يا أتباع خاتم الأنبياء والمرسلين .. ؟

مَنْ يا خير أمة أخرجت للناس .. ؟

إنا لمنتظرون ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .. ؟

سعيد بن عامر الجمحى

رضى الله عنه

قال عمر بن الخطاب لأصحابه : دلونى على رجل استعمله فى الولاية :

قالوا : وما شروطك التى ترتضيها فى الوالى ؟

قال : أريد رجلاً إذا كان فى القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم . وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم .

عمر بن الخطاب رضى الله عنه

■ عملاق من عمالقة مدرسة النبوة .

وحكيم من حكمائها ، عرف الدنيا وعرفته ، وعركها وعركته .

وآمن سعيد بما قاله عنها رسول الله ﷺ : « إنها لا تساوى عند الله جناح بعوضة »، وتمذهب فيها بقول الله تعالى : ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ .. (٧٧)﴾ [النساء]

عرف الإسلام طريقه إلى قلبه قبل فتح خيبر ، وما كاد ينطق بالشهادتين أمام رسول الله ﷺ حتى حبب إليه الإيمان ، وزينه الله فى قلبه . حتى كان القرآن دستور حياته ، ونبض فؤاده .

وأنيسه إذا نزل الليل بسدوله على الكون ، واغرقه فى ظلام دامس وراح الناس فى نوم عميق .

عندها يقوم سعيد بسبغ وضوئه ، ويطهّر فراشه ، ويرتل القرآن ترتيلاً فينزل على قلبه برداً وسلاماً ويملأ الكون أمامه نوراً وضياءً .

وفى يوم من الأيام ما كاد ينفلت من صلاة الفجر حتى سمع نفير رسول الله ﷺ يدعو جنود الإسلام للسير إلى أهل خيبر تلك الفئة التى ملأت الأرض فساداً وخراباً ، وذلك بقتلهم الأنبياء وشربهم الدماء ، وإشاعتهم الفرقة بين الناس .

واستجاب المسلمون لأمر نبيهم وخرج فرسان مدرسة النبوة يغزون السير إلى هناك .

وفى الطريق إلى خيبر لاحت التفافة من الرسول الكريم - ﷺ - فشاهد

الصاحبين الجليلين سعيد بن عامر ، وعامر بن الأكوع يتمتمان بكلمات لا تبين ثم يرفعان أكف الضراعة إلى ربهما فى خشوع وابتهال .

عندها قال الرسول ﷺ يا ابن الأكوع اسمعنا من هناتك[١] .

قال : سمعاً وطاعة يا رسول الله .. ؟[٢] .

ثم اعتدل على صهوة جواده ، ووضع سيفه فى قرابه وأخذ يرفع صوته بأهازيجه :

والله لولا الله مـــا اهتـــدينا
ولا تصـــدقنا ولا صلـينا
إنا إذا قـــوم بغـــوا علـينا
وإن أرادوا فـــتنـة أبـينا
فـــأنـزلن سكـينـة علـينا
وثبت الأقـــدام إن لاقـــينا

فقال رسول الله ﷺ : يرحمك الله .

فقال عمر بن الخطاب : وجبت والله يا رسول الله ، لو أمتعتنا به ؟ فقتل يوم خيبر شهيداً[٣].

ولما أشرفوا على حصن خيبر قال الرسول ﷺ لأصحابه قفوا . ثم قال :

« اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين . فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها . أقدموا بسم الله ، وما كاد أهل خيبر يشاهدون الجيش حتى فروا هاربين إلى حصونهم . وهم يرددون : محمد[٤] والخميس معه » .

فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين »[٥].

(١) هناتك : أى أخبارك وأمورك وأشعارك ، وهى جمع (هنة) ، ويكنى بها عن كل شىء لا تعرف اسمه وأراد الرسول عليه السلام أن يحدو بهما .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .
(٤) الخميس : الجيش .
(٥) رواه البخارى فى الصلاة والآذان ٦ ، والخوف ٦ وصاحب الموطأ فى الجهاد ٤٨ .

وتهاوت حصون خيبر ، وجمع المسلمون أموالاً كثيرة ، وأصاب رسول الله سبايا وُمنهم صفية بنت حيى بن أخطب . فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه .

وكانت صفية قد رأت فى المنام وهى عروس بكنانة بن الربيع أن قمراً وقع فى حجرها .

فعرضت رؤياها على زوجها فقال :

ما هذا إلاَّ أنك تتمنين مَلِكَ الحجاز محمداً .

فقالت له : إننى أتمنى ذلك ..

فما كان من زوجها إلا أن لطمها على وجهها لطمة خضَّر عينها منها .

فلما أطمأن رسول الله ﷺ بالاستيلاء على كل الحصون وفتحها جلس يستريح فى خيمته ومعه بعض الصحابة منهم : سعيد بن عامر وبشر بن البراء بن معرور وغيرهما ، فاستأذنت عليهم زينب بنت الحارث امرأة سلام ابن مشكم اليهودى ، وهى تحمل بين يديها شاة مشوية . وكانت قد سألت بعض الصحابة أى عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ ؟

فقيل لها الذراع . فأكثرت فيه السم ، ثم وضعت الباقى على كل جسم الشاة وقدمتها إلى الرسول ﷺ .

ودعا الرسول ﷺ صاحبيه فتقدم بشر بن البراء واعتذر سعيد بن عامر ، وعمر بن الخطاب وغيرهم .

ثم تناول الرسول ﷺ الذراع فَلاَكَ منه مضغة فلم يسغها ولفظها وأخذ بشر جزءاً منها وأخذ فى مضغه وبلعه .

عندها أمر الرسول ﷺ بشراً أن يكف عن الأكل قائلاً : إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم(١).

ثم طلب عليه السلام القبض عليها . فلما مثلت بين يديه اعترفت بفعلتها الشنيعة الماكرة .

فقال لها عليه الصلاة والسلام : ما حملك على ذلك ؟

قالت : قد بلغت من قومى ما لم يخف عليك ؟

فقلت : إن كان محمد ملكاً استرحنا منه ، وإن كان نبياً فسيُخبر !

(١) الحديث رواه الإمام أحمد فى المسند ٣ : ٢١٨ (حلبى) والدارمى فى المقدمة ١١.

قال : فتجاوز عنها رسول الله ﷺ .

تجاوز عن المسيئة المخطئة ، ويقال : إنها أعلنت إسلامها عندما هَمَّ سعيد بن عامر ، وعمر بن الخطاب – رضى الله عنهما ـ بفصل رأسها عن جسدها . فقال لهما الرسـول ﷺ : كفا أيديكما عنها . لقد أسلمت والإسـلام يَجبُّ ما قبله . ثم تلا عليـهـم قـول الله تعـالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَـابِ آمَنُوا وَاتَّقَـوْا لَكَفَّـرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ . . (٦٥) ﴾ [المائدة]

لقد أتم الله النعمة ، وتحقق النصر وأراد الرسـول ﷺ أن يعرِّس بصفية قبل مغادرته أرض خيبـر . فأمر عليه الصلاة والسلام بتجهـيزها ، فقامت أم سليم بنت ملحان أم أنس بن مالك وجعلتها عـروسة مجلية له وأقام الصحابة بنصب قبة له ، ودخل عليها رسول الله ﷺ .

عندها قام سعيد بن عامر ، وأبـو أيوب الأنصارى بحراسة قبة الرسول ﷺ – التى عرس فيها – كلاهما متوحشا سيفه حتى استيقظ رسول الله ﷺ عندما سمع بلال يعلو صوته بالـتكبير والآذان . فخرج من قبـته فشاهد الصاحـبيين الجليلين فقال لهما : ما بكما ؟

فتكلم أبو أيوب فقال : يا رسول الله خفنا عليك من هذه المرأة التى قتلنا أباها وزوجها وقومها . وهى حديثة عهـد بكفر ، فبقينا على مقربة منك وإنا كنا نعلم أن الله حافظك بعنايته ورعايته .

عندها قـال الرســول ﷺ : اللهم احـفظ أبا أيوب اللهـم واحفظ سـعـيـد بن عامر(١) .

إن فرسان مدرسة النبوة هم رهبان الليـل فرسان النهار ، خرجوا إلى الدنيا والظلام شامل والجهل حـاكم ، والعقائد زيف وأباطيل ، فمـدَّنوا الدنيا وهذَّبوا العالم ، وقرروا الحق للإنسان .

الإنســان الذى خلقه الله بيـديه ، ونفخ فيـه من روحه ، وجـعله خليفـة فى أرضـه .

الإنســان فى كل عـصــر ومـصـر ، بغض النظر عن جنـســه ولونه ، دينه ومعتقده .

ليس الإنسان فقط ولكن كل ما خلقه الله سبحانه وتعالى من حيوان أو طير.

(١) راجع أسد الغابة ، وسيرة ابن هشام .

يقول الرسول ﷺ : « بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش ، فنزل بئراً فشرب منها ، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش .

فقال : لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى ، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى البئر فسقى الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له .

قالوا : أفى كل كبد رطبة أجر »(١).

ويقول الرسول أيضاً : « عُذبت امرأة فى هرة سجنتها حتى ماتت ، فدخلت فيها النار ، لا هى أطعمتها وسقتها إذ حبستها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض »(٢) .

وعاد الرسول ﷺ إلى المدينة ، وتوالت الأحداث وتتابعت . بعد ذلك فُتحت مكة التى نزل فيها قول الله تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝﴾(٣) [الفتح]

ثم كانت حجة الوداع ، ووفاة الرسول ﷺ وفيها تم اختيار الخليفة أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – وارتداد الجزيرة العربية عن الإسلام ، واشتعال حروب الردة ، وتم خلالها تطهير الجزيرة العربية من أهل الشرك والارتداد .

وتتابع بعد ذلك إرسال السرايا والبعوث إلى أرض فارس والروم ، تدعو إلى عبادة الله وحده ونبذ ما عداه من الإلوهية المزيفة .

فأين الصحابى الجليل سعيد بن عامر ؟

نعم أين هو خلال هذه الفترة ؟

هل قبع فى بيته مكتفياً بعبادة ربه ؟

هل شارك فى الحروب الطاحنة التى دارت على أرض الجزيرة العربية ؟

---

(١) الحديث رواه البخارى فى المساقاة ٩ والمظالم ٢٣ والأدب ٢٧ وأبو داود فى الجهاد ٤٤.

(٢) الحديث رواه البخارى فى الآذان ٩٠ والمساقاة ٩ والأنبياء ٥٤ ومسلم فى البر ١٣٣ .

(٣) هذه الآيات المقصود بها فتح مكة ، رواه مسروق عن عائشة ، وبه قال السدى ، وقال بعض من ذهب إلى هذا إنما وعد بفتح مكة بهذه الآيات .

هل اختاره الخليفة أبو بكر مستشاراً له للنظر فى شئون الرعية ومتطلباتها وفى تجييش الجيوش ، وإعداد القوة اللازمة لها ؟

هل كان مرافقاً للجيش الزاحف بقيادة خالد بن الوليد - رضى الله عنه - إلى أرض فارس ؟

إن كتب التاريخ تصمت صمتاً مريباً عن ذكر سعيد بن عامر فلا تذكر مشاركته من قريب أو بعيد فى المعارك والحروب التى دارت داخل الجزيرة العربية وخارجها .

حتى إذا كانت غزوة تبوك التى دارت رحاها على أرض الشام وانتصر فيها المسلمون انتصاراً ساحقاً على جحافل الروم . نرى ابن عبد البر[1] يذكر أن الخليفة أبا بكر - رضى الله عنه - عندما طلب منه القائد المغوار أبو عبيدة بن الجراح مدداً .

سارع بإرسال جيش كبير فيه مجموعة من الصحابة بقيادة الصحابى الجليل سعيد بن عامر ، فاخترق بهم الفيافى والقفار حتى وصل فى فترة وجيزة إلى أرض المعركة والتف على الجيش الرومانى من الخلف ، الذى أذهلته المفاجأة ، ففروا مزعورين إلى حصونهم ليحتموا بها من سيوف المسلمين وسهامهم ، وزحف خلفهم جيش سعيد بن عامر يأسرون ويقتلون حتى نزل الليل بسدوله ، فتحاجز الفريقان.

وفى أثناء ذلك نعى الناعى وفاة الخليفة أبى بكر الصديق بعد أن أوصى بالخلافة من بعده إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه .

وأخذ عمر فى اختيار الولاة الذين يَكِل لهم أمر الولايات الإسلامية ، وملء الولايات الشاغرة أيضاً .

ووقعت عينا عمر بن الخطاب الفاحصتان على سعيد بن عامر ليكون والياً على حمص . بعد أن تم تطهير منطقة الشام من آخر قلاع الروم وحصونهم وأخذ سعيد بن عامر - رضى الله عنه - فى مباشرة مهام منصبه الجديد وكلمات عمر للولاة تسيطر على كل جارحة من جوارحه ، حيث قال : إنى لم أبعثكم جبابرة على الرعية ، ولكن بعثتكم أئمة .

(١) راجع الاستيعاب فى معرفة الأصحاب جـ ٢ ص ٦٢٥.

فلا تضربوا المسلمين فتذلوهم .

ولا تحمدوهم فتفتنونهم .

ولا تمنعوهم . ثم قال للصحابة : أريدكم أن تساعدونى فى اختيار الولاة .

قالوا يا أمير المؤمنين وما شروطك فى الوالى :

قال : أريد رجلاً إذا كان فى القوم وليس أميرهم ، كأنه أميرهم وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم .

وكان إذا استعمل رجلاً كتب عليه كتاباً ، وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار « بأنه لا يظلم أحداً فى جسده ولا فى ماله ، ولا يستغل منصبه لفائدة أو مصلحة له ، أو لمن يلوذ به » ، فكان ذلك بمثابة القسم الذى يوجبه القانون على القضاة والأطباء وأمثالهم ، قبل مباشرتهم العمل .

وكان يقول للوالى بعد ذلك محدداً سلطته ، مبيناً له حقيقة عمله : « إنى لم استعملك على دماء المسلمين ، ولا على أعراضهم ، ولكن استعملتك لتقيم فيهم الصلاة ، وتقسّم بينهم بالسوية ، وتحكّم فيهم العدل » .

واستمر سعيد بن عامر يقوم بمهام منصبه خير قيام ، فهو الوالد الرحيم والأخ الشفوق ، والناصح الأمين ، والحارس على أموال الرعية الذى لا تغفل له عين ، ولا يهدأ له بال حتى يطمئن على أموال الناس ونفوسهم وأعراضهم . وفى يوم أشرق فجره ، وهو يؤم المصلين فى صلاة الصبح ما كاد ينفلت من صلاته ، ويستدير أمام المصلين حتى فوجىء بالخليفة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قد صلى خلفه وتعانق الخليفة والوالى . ثم طلب الخليفة من جماعة المسلمين البقاء فى أماكنهم ليسألهم عن أحوالهم ، وسير الوالى معهم .

سعيد بن عامر والخليفة عمر بن الخطاب
- رضى الله عنهما -

قال خالد بن معدان : استعمل علينا عمر بن الخطاب بحمص سعيد بن عامر الجمحى ، فلما قدم عمر حمصاً قال :

يا أهل حمص : كيف وجدتم عاملكم ؟

فشكوه إليه .

وكان يقال لأهل حمص الكوفية الصغرى لشكايتهم العمال .

قالوا : نشكو أربعاً ، لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار .

قال عمر : أعظم بها . وماذا ؟

قالوا : لا يجيب أحداً بليل .

قال : وعظيمة . وماذا ؟

قالوا : إن له يوماً فى الشهر لا يخرج إلينا فيه .

قال : ثم ماذا ؟

قالوا : يغنط الغنطة بين الأيام « أى يغمى عليه ، ويغيب عن حسه » ، فجمع عمر بينهم وبينه وقال : اللهم لا تخيب رأيى فيه اليوم .

وافتتح المحاكمة فقال لهم أمامه : ما تشكون منه ؟

قالوا : لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار .

قال : ما تقول .. ؟

قال : والله إن كنت لأكره ذكره : ليس لأهلى خادم ، فأعجن عجينى ثم اجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزى ، ثم أتوضأ وأخرج إليهم .

فقال عمر : ما تشكون منه ؟

قالوا : لا يجيب أحداً بليل .

قال : ما تقول ؟

قال: إن كنت لأكره ذكره ، إنى جعلت النهار لهم ، وجعلت الليل لله عز وجل.

قال عمر : وما تشكون ..؟

قالوا : إن له يوماً فى الشهر لا يخرج إلينا فيه .

قال : ما تقول ؟

قال : ليس لى خادم يغسل ثيابى ولا لى ثياب أبدلها ، فأجلس حتى تجف ، ثم أدلكها ثم أخرج إليهم من آخر النهار .

قال : ما تشكون منه ؟

قال : يغنط الغنطة بين الأيام .

قال عمر : ما تقول ؟

قال : شهدت مصرع خبيب الأنصارى[1] بمكة ، وقد بضعت قريش لحمه ثم حملوه على جذعة . فقالوا : أتحب أن ترى محمداً مكانك ؟

---

(١) هو خبيب بن عدى بن مالك بن عامر الأنصارى وقتله أبو سروعة ثأراً لقتله الحارث بن عامر يوم بدر وهو الذى قال :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً ... على أى جنب كان فى الله مصرعى

فقال : والله ما أحب أنى فى أهلى وولدى ، وإن محمداً ﷺ شيك بشوكة . ثم نادى يا محمد .

فمـا ذكرت ذلك اليوم وتركى نصـرته فى تلك الحال ، وأنا مـشرك لا أؤمن بالله العظيم ، إلا ظننت أن الله عز وجل ، لا يغـفر لى بذلك الذنب أبداً فتصـيبنى تلك الغنطة ؟

فقال عمر : الحمد لله الذى لم يخيب فراستى .

فبعث إليه بألف دينار وقال : استعن بها على أمرك .

فما كان من سعيد إلا أن فرقها على المحتاجين .

ما أعجب هؤلاء الولاة .

ما أعجب هذه الرعية .

إن الرعيـة تطلب من الحاكم أن يكون عينهـا التى تبصر بها ، وعـقلها الذى تفكر به ، وراعيها فى الصغيرة والكبيرة .

فإذا رابها من أمره ريب ، أو عميت عليها بعض شئونه ، أسرعت إلى الحاكم الآخر لينصفها من هذا الوالى .

وخليفة : لا يمل من الاستماع إلى الرعية ، ويحاول بكل ما يملك من جهد أن يحقق ما تريد – ما دام هذا الذى تريده لا يتـعارض مع شرع الله أو تعطيل حد من حدوده .

والحاكم : لا يستمع للرعية بعيداً عن الوالى ، ولا يقبل كلمة الوالى بعيداً عن الرعـية ، لكنه يلجـأ إلى المواجهـة والمقـابلة . حتى لا يتـرك مجـالاً للتقـول أو الادعاء ، ورمى الأبـرياء بالتهم البـاطلة ، والزج بهم فى أقبـية السـجون كـما يحدث فى عصرنا الراهن .

حيث يُعزل الحاكم عن الرعية بمجمـوعة من الجواسيس والمنافقين ومن فى قلوبهم مرض .

لقـد بُرِّىء سعـيد بن عـامر أمـام الخليـفة ، واطمـأنت الرعيـة إلى واليهـا واستراحت إلى حسن سياسته .

وأخذت تراقـبه بعين الإكـبار ، وتحصى أعـماله بكل الإعزاز ، فـرأته يعيش كفافاً ، ولا يحصل على قوت يومه إلا بكل مشقة وجهد .

فماذا كان من أمر الرعية ؟ لقد أرسلت إلى عمر لتعلمه بحال الوالى .

يقول صاحب كتاب أسد الغابة :

« أرسل عمر إليه بأربعمائة دينار ، وكتب إليه يعزم عليه لينفقها على نفسه وأهله . فلما قرأ سعيد الوالى الكتاب اهتم هماً شديداً حتى تبين ذلك عليه .

فقالت له امرأته : نفسى فداك ما لى أراك مهتماً ، أبلغك موت أمير المؤمنين ؟

قال : أعظم من ذلك .

قالت : أبلغك عن ثغور المسلمين شيء ؟

قال : أعظم من ذلك .

قالت : وما هو ؟

قال : ابتليت بالدينار ، وقد كنت صحبت رسول الله ﷺ فلم ابتل بها ، وصحبت أبا بكر فلم ابتل بها ، وابتليت بها فى صحبة عمر ، ألا فشر أيامى أيام عمر ؟

قالت : وما ذاك بأبى وأمى ؟

قال : إنى أخافك .

قالت : إياى تعنى ؟

قال : نعم .

قالت : فأنت آمن من هذا .

قال : فإن أمير المؤمنين أرسل إلىَّ بأربعمائة دينار ، وعزم علىَّ أن أنفقها علىَّ وعليك ، وإن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً ، ووالله ما أحب أن لى حمو النعم ، وإنى أحبس عن الفوج الأول ؟

قالت : فدونكها فاصنع ما شئت .

فقال : هل من خرق ؟ فأعطته قميصاً لها ، فمزقه خرقاً ثم صرَّ فيه ما بين أربعة إلى عشرة ثم طرحها فى مخلاة ، ثم خرج إلى باب المدينة فجعل يعطى الناس صرة صرة ، حتى بقيت صرة فى المخلاة فدفعها والمخلاة إلى رجل ثم رجع فذهب عنه ما كان يجد واستراح » .

إيه يا أبناء مدرسة الإسلام ..؟

إنهم فرسان بالنهار ورهبان بالليل .

ليست الدنيا أكبر همهم ، ولا مبلغ علمهم .

ولكنهم يعملون لها من أجل رفع كلمة الله ويجمعون حطامها إن جمعوه من أجل أن يبلغوا به إلى أرض الله الواسعة ، لينشروا فيها اسم الله ولهذا كان أثمن شيء يحرص عليه الرجل منهم .

ثوباً يستر عورته .

ودرعاً يتقى به ضربات الأعداء .

ولقماً تسد جوعته .

وسيفاً بتاراً يطيح به الكفر وأهله .

رحم الله بن عامر وأسكنه فسيح جناته .

إنه سميع الدعاء

بين الولاة والعلماء

إن المدرسة التى تعلم فيها الصحابى الجليل سعيد بن عامر – رضى الله عنه – هى مدرسة النبوة ، وهذه المدرسة امتدت عبر الزمن وخرَّجت قادة وعلماء قاموا بنفس الدور الذى قام به سعيد بن عامر . من ذلك أن هارون الرشيد حاكم الدولة الإسلامية فى عهد بنى العباس – أراد أن يزور مالكاً إمام الحرمين ، وعالم العلماء فى عصره . فأوقفه أمام الباب ساعة ثم أذن له فى الدخول .

وعندما دخل الحاكم . قال له مالك :

يا أمير المؤمنين إن العيال سمعوا بمجيئك فأحبوا أن يصلحوا منزلهم – أى يهيئوه – لاستقبال الضيف .

إن الحاكم هو رجل الدنيا .

ومالك رجل الآخرة .

وليست الآخرة فى حاجة إلى الدنيا ، فلينصرف إن أراد وليبق إن أحب حتى يُهيىء له المنزل .

لقد أقام مالك الإسلام فى داخله فأقيم فى دنيا الناس ، وسيّر الملوك أولادهم ليسمعوا منه وينتفعوا بعلمه .

يقول هارون الرشيد لمالك : تواضعنا لعلمك فانتفعنا بك .

وتواضع لنا سفيان بن عيينة فلم ننتفع به .. كان سفيان يأتى قصور الخلفاء ويعرض عليهم الحديث .

وفى الزمن الحديث يأتى الجيش العثمانى بعدته وعدده ويستولى على مصر ، ويطلب القائد المنتصر من أعيان الأمة وعلمائها ، يطلب من رجالها وقوادها تقديم فروض الولاء والطاعة بالحضور إليه .

وهرع الجميع إليه إلا رجلاً واحداً ممن تربوا فى مدرسة النبوة ، وتشربوا روح الإسلام ، ونهلوا من ينابيع الإيمان - يرفض هذا الطلب ، ويمتنع عن الذهاب إلى القائد المنتصر .

ويطلبه القائد ويلح فى الطلب ، ولكن الرجل الربانى يرفض ويصر على الرفض .

ولم يجد القائد المنتصر من وسيلة إلا النزول إليه ، نزل الحاكم وحاشيته ، نزل القائد وجنوده ، ونزل الجميع على رأى الشيخ .

ويقول له القائد : لِمَ لمْ تأت إلينا ؟

ويرد الرجل المؤمن : لم نتعود الخروج إلى أحد . ويطول الصمت بين الرجلين ، ويحس القائد المنتصر بضآلته أمام هذا الرجل يحس بأن نصره وصولجانه وجنوده لا تساوى شيئاً أمام كلمة رضا يسمعها من هذا الرجل .

عندها يقول القائد للشيخ العالم : يا سيدى ألك حاجة نقضيها لك قبل أن نذهب إلى تركيا ؟

ويرد عليه الرجل المؤمن : لسنا فى حاجة إلا إلى الله سبحانه وتعالى .

ويعود القائد من حيث أتى ، ويترك مصر ويعود إلى بلده ، ولكن خمرة النصر لم تنسه هذا النموذج من الرجال ، ويكلف واليه فى مصر ، أن يذهب إلى العالم الجليل : يذهب إليه ليتفقد شئونه ، ويحقق له مطالبه ؟

ولكن متى كان لأولياء الله مطالب ؟

متى كان لهؤلاء الرجال حاجة إلى غير الله تعالى ؟

ويذهب الوالى الجديد إلى منـزل الشيخ ويقول له : إننا أزمعنا الرحيل إلى تركيا ونحن مقربون إلى السلطان ، فهل من حاجة نقضيها لك من سلطان البلاد ؟

ويرد الشيخ المؤمن : إننا مقربون إلى الله أكثر ، فهل لك أنت حاجة ؟

هؤلاء هم رجالات الإسلام ، وأبناء الإيمان ممن تخرجوا فى مدرسة النبوة .
وكانت لهم الصدارة فى مواكب الحياة .

وكانت لهم الصدارة فى توجيه الحكام والرعية .

إنهم حماة الدين وجند الله .

وكان الحكام يطلبون رضاهم وينزلون على حكمهم ، ويذهبون إلى زيارتهم ويملؤهم الخوف والهلع إن ردوا لهم طلباً أو رفضوا لهم هدية . وكان أبو بكر المحلى يتولى نفقات أبى المسك كافور وكان من عادة كافور فى كل عيد من أعياد الأضحى أن يسلم إلى أبى بكر وزيره بغلاً محملاً ذهباً وصحيفة تتضمن أسماء قوم ليقدم لهم العطاء .

يقول أبو بكر - وكان يمشى معى صاحب الشرطة ، ونقيب يعرف المنازل وأطوف من بعد العشاء الآخرة إلى آخر الليل ، حتى أسلم ذلك المال إلى من تضمنته أسماءهم . فأطرق منزل كل إنسان ما بين رجل وامرأة ، وأقول : الأستاذ أبو المسك كافور الأخشيدى يهنئك بالعيد ويقول لك : اصرف هذا فى منفعتك . وادفع إليه ما جعل له . وفى آخر وقت زاد كافور فى الصحيفة اسم الشيخ أبى عبد الله بن جابار .

وجعل له فى ذلك العيد مائة دينار ، فطفت فى تلك الليلة وانفقت المال فى أربابه ، ولم تبق إلا صرة ابن جابار فجعلتها فى كمى ، وسرت مع النقيب ، حتى أتينا منزله ، فطرقت الباب فنزل إلينا الشيخ وعليه أثر السهر ، فسلمت عليه فلم يرد علىّ .

وقال : ما حاجتك ؟

قلت : الأستاذ أبو المسك يخص الشيخ بالسلام .

فقال : والى بلدنا ؟

قلت : نعم .

قال : « حفظه الله ، الله يعلم أنى أدعو له فى الخلوات ، وأدبار الصلوات بما الله سامعه ومستجيبه » .

قلت : وقد أنفذ معى نفقة وهى هذه الصرة ويسألك قبولها لتصرف فى مئونة هذا العيد المبارك .

فقال : نحن رعيته ، ونحبه فى الله تعالى ، وما نفسد هذه المحبة بعلة، فراجعته القول ، فتبين لى الضجر فى وجهه والقلق ، واستحيت من الله أن أقطعه عما هو عليه من عبادة ، فتركته وانصرفت .

قال : فوجدت الأمير قد تهيأ للركوب ، وهو ينتظرنى ، فلما رآنى قال : إيه يا أبا بكر ؟

قلت : أرجو الله أن يستجيب فيك كل دعوة صالحة دُعيت لك فى هذه الليلة ، وفى هذا اليوم الشريف .

فقال : الحمد لله الذى جعلنى لإيصال الراحة إلى عباده ثم أخبرته بامتناع ابن جابار .

فقال : نعم هو جدير لم تجر بيننا وبينه معاملة قبل هذا اليوم .

ثم قال لى : عد إليه واركب دابة من دواب التوبة ، واطرق بابه ، فإذا نزل إليك فإنه سيقول لك :

ألم تكن عندى .. ؟

فلا ترد عليه جواباً ثم استفتح واقرأ :

﴿ طه ① مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ② إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ③ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ④ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ⑤ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ⑥ ﴾ [طه]

يا ابن جابار ، الأستاذ كافور يقول لك :

« ومن كافور العبد الأسود . ومن هو مولاه .. ومن الخلق ، ليس لأحد مع الله ملك ولا شركة تلاشى الناس كلهم هنا .. أتدرى مَنْ هو معطيك ؟ وعلى من رددت .. أنت ما سألت ، وإنما هو أُرسل إليك ؟

يا ابن جابار : أنت ما تفرق بين السبب والمسبب .

قال أبو بكر : فركبت وسرت وطرقت الباب فنزل إلىّ . فقال لى مثل لفظ كافور : ألم تكن عندنا ؟

فأضربت عن الجواب وقرأت طه ثم قلت ما قال لى كافور فبكى وقال لى : أين ما حملت ؟

فأخرجت الصرة فأخذها وقال : علّمنا الأستاذ كيف التصرف .

قلت له : أحسن الله جزاءك ثم عدت إليه ، فأخبرته بذلك ، فسر وسجد شكراً لله تعالى .

وقال الحمد لله على ذلك » .

حاكم المسلمين ، وعالم المسلمين يتمذهبان بمذهب الإسلام ويتأدبان بأدب النبوة ، ويلتقيان على الخير العام . الخير العام للإسلام وللأسرة الإنسانية كلها .

يا مدرسة النبوة : أين بنيك ولماذا تواروا خلف السدود والحدود ولفهم ظلام شامل لا يدرى متى يشرق فجره ؟!

متى يارب ؟

المغيرة بن شعبة بن أبى عامر

رضى الله عنه

قال الشعبى : دهاة العرب أربعة : معاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه .

وكان معاوية يقول : أنا للأناة ، وعمرو للبديهة وزياد للصغير والكبير ، والمغيرة للأمر العظيم .

■ فارس من دهاة العرب فى السلم والحرب .

وعملاق لا يغفل له جفن ، خبير بالداخل والمخارج .

ووال من الولاة الأفذاذ الذى يعلم كـيف يسوس الرعيـة ويدفعهـا إلى الجد والنشاط .

ومجاهد عاش حياته لرفعة الإسلام ونشره فى أرجاء المعمورة .

والده : شعبـة بن أبى عامر ، من رجالات ثقيـف يضرب به المثل فى الحزم والعزم .

والإعزاز والإكبار .

والجود والثراء .

وأمه :امرأة من بنى نصر بن معاوية عاشت حـياتها لإسعاد زوجها وتربية أولادها . وعاشت قانعة راضية ، لم تقف فى حياتها أمام صنم ، ولم يحدث أن قدمت له قرباناً .

وعاش المغيرة كما عاش أتـرابه على بطحاء مكة والسير فى دروبها ومزاولة الصـيد والقنص . وسـقى الإبل ورعى الغنم واختـيار المرعى الملىء بالعـشب ، القريب من الماء .

ولما شب عن الطـوق ، ووصل إلى مـراحل الرجـولة ، سـمـع بدعـوة الدين الجديد الذى جـاء به محمد الأمـين . ولكن لم ينشرح له صدره ولم يقـبل عليه فؤاده فعاش مبعداً عنه .

المغيرة فى الطريق إلى اعتناق الإسلام

يقول المغيرة : أجمع نفر من بنى مالك للوفود على المقوقس ، وجهزوا له الهدايا ، فأجمعت الخروج معهم ، فاستشرت عمى عروة بن مسعود فنهانى وقال :

« ليس معك من بنى أبيك أحد .. » .

قال : فأبيت إلا الخروج ، فخرجت معهم ، وليس معهم من الأحلاف أحد غيرى . حتى دخلنا الإسكندرية ، فإذا المقوقس فى مجلس يطل على البحر ، فركبت زورقاً حتى حاذيت مجلسه ، فنظر إلىَّ فأنكرنى ، وأمر من يسألنى مَنْ أنا وما أريد .. ؟

فسألنى المترجم ، فأخبرته بأمرنا وقدومنا عليه .

فأمر بنا أن ننزل فى الكنيسة ، وأجرى علينا ضيافة ، ثم دعا بنا فدخلنا عليه .

فنظر إلى رأس بنى مالك فأدناه إليه ، وأجلسه معه ، ثم سأله :

« أكُلُّ القوم من بنى مالك .. ؟

فقال : نعم . إلا رجل واحد من الأحلاف . فعرَّفه إياى فكنت أهون القوم عليه .

ثم وضعوا هداياهم بين يديه فَسُرَّ بها كثيراً ، وأمر لهم بجوائز وفضَّلَ بعضهم على بعض .

وقصرَّ بى فأعطانى شيئاً قليلاً لا ذكر له .

وخرجنا فأقبل بنو مالك يشترون هدايا لأهلهم ، وهم مسرورون ولم يعرض علىَّ رجل منهم مواساة .. !!

ثم خرجوا وحملوا معهم الخمر ، فكانوا يشربون وأشرب معهم ، وتأبى نفسى أن تدعهم ينصرفون إلى الطائف بما أصابوا ، وبما حباهم الملك ويخبرون قومى بتقصيره بى وازدرائه إياى ، فأجمعت على قتلهم .

فلما كنا بمكان يُسمى « بُساق » تمارضت وعصبت رأسى .

فقالوا لى : ما لك ... ؟

قلت أُصدَّع .

فوضعوا شرابهم ودعونى . فقلت رأسى يصدع ، ولكنى أجلس معكم فأسقيكم ، فلم ينكروا شيئاً، فجلست أسقيهم وأشرب القدح بعد القدح فلما دبت الكأس فيهم اشتهوا الشراب، فجعلت أصرِّف لهم وأنزع الكأس فيشربون ولا يدرون ، فأهمدتهم الكأس حتى ناموا ما يعقلون ، فوثبت عليهم فقتلتهم جميعاً وأخذت كل ما كان معهم .

ثم قدمت على النبى - ﷺ - فوجدته جالساً مع أصحابه فى المسجد .

فسلمت عليهم بسلام الإسلام .

فردوا علىَّ التحية .

ثم نظر إلىَّ أبو بكر بن أبى قحافة - وكان بى عازماً - فقال : أين أخى عروة[1] ؟ .

قلت : نعم . جئت أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

فقال رسول الله : الحمد لله الذى هداك للإسلام .

فقال أبو بكر : أمن مصر أقبلتم .. ؟

قلت : نعم .

قال : فما فعل المالكيون الذين كانوا معك .. ؟

فقلت : كان بينى وبينهم بعض ما يكون بين العرب ، ونحن على دين الشرك فقتلتهم ، وأخذت أسلابهم ، وجئت بها إلى الرسول - ﷺ - ليخمسها أو يرى فيها رأيه ، فإنما هى غنيمة من مشركين وأنا مسلم مصدق بمحمد - ﷺ - .

فقال رسول الله : أما إسلامك فقبلته ولا آخذ من أموالهم شيئاً ولا أخمسه لأن هذا غدر ، والغدر لا خير فيه .. !

قال : فأخذنى ما قرب وما بعد وقلت :

« يا رسول الله إنما قتلتهم وأنا على دين قومى ، ثم أسلمت حيث دخلت عليك الساعة[2].

---

(١) هو عروة بن مسعود بن معتب بن مالك أسلم بين يدى الرسول - ﷺ - عقب عودته من الطائف ، ثم استأذنه فى الذهاب ليدعو قومه إلى الإسلام . فقال عليه السلام : احذر أن يقتلوك . فقال : أنا أحب إليهم من أبصارهم ، فذهب يدعوهم فقتلوه .

(٢) راجع طبقات ابن سعد : ٤ : ٢٨٥ - ٢٨٦ .

قال : فإن الإسلام يجبُّ ما كان قبله[1] » .

ودخل المغيرة فى رحاب الإسلام ، وأصبح إنساناً جديداً غير الإنسان الأول الذى كان لا يحلل ولا يحرم. إنساناً جديداً تربطه بالسماء أسباب غير منظورة.

فهو يشعر دائماً بأن الله معه ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ .. ④ ﴾ [الحديد]

وبأن الله تعالى عليم بكل حركة من حركاته ، وبكل خفقة من خفقاته ، وبكل تحرك ذرة من ذراته .

﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ⑭ ﴾ [الملك]

المغيرة بن شعبة وصلح الحديبية

خرج رسول الله - ﷺ - عام الحديبية يريد زيارة البيت لا يريد قتالاً ، وساق الهَدْى معه سبعين بدنة ، وكان الناس سبعمائة . حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبى فقال : يا رسول الله ، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا لملاقاتك وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً .

فقال رسول الله - ﷺ - :

« يا ويح قريش ، قد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ، فوالله لا أزال أجاهد على هذا الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله » .

ثم سلك رسول الله - ﷺ - طريقاً وعراً حتى إذا وصل إلى مكان يسمى « ثنية المرار » بركت ناقته ، فأمر أصحابه بالنزول فيها ، ثم توالت الرسل بينه وبين قريش . يسألونه ما الذى جاء به ؟

فيقول عليه السلام : إنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت معظماً لحرمته .

ثم جاء عروة بن مسعود الثقفى فجلس بين يدى الرسول - ﷺ - ثم قال : « يا محمد أجمعت أوشاب[2] الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك [3] لتفضها[4]

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى المسند ٤ : ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ (حلبى) .
(٢) الأوشاب : الأخلاط . (٣) بيضة الرجل : أهله وقبيلته .
(٤) تفضها : تكسرها وتهزمها .

بهم ، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً ، وايم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً .

قال أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - وكان خلف رسول الله - : امصص بظر اللات أنحن ننكشف عنه .. ؟

قال عروة : من هذا يا محمد .. ؟

قال : هذا ابن أبى قحافة .

قال عروة : أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها ولكن هذه بهذه .

قال : ثم جعل يتناول لحية رسول الله - ﷺ - وهو يكلمه والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله - ﷺ - فى الحديد . فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ، ويقول :

اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل ألا تصل إليك .

قال عروة : ويحك ما أفظك وأغلظك .. ؟؟

قال : فتبسم رسول الله - ﷺ - .

فقال له عروة : من هذا يا محمد .. ؟

قال : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة .

قال عروة : أى غدر وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس .

ثم كلمه رسول الله - ﷺ - بما كلم به أصحابه ، وأخبره بأنه لم يأت يريد حرباً .

فقام عروة من عند رسول الله - ﷺ - وقد رأى ما يصنع به أصحابه : لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه .

ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه .

ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه .

فرجع إلى قريش فقال :

« يا معشر قريش إنى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكاً فى قومه قط مثل محمد فى أصحابه ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فروا رأيكم .. !!

عندها أرسلت قريش سهيل بن عمرو[1] ليضع وثيقة الصلح مع محمد ﷺ .
وكانت نصوص الوثيقة كالآتى :

هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب على الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير أذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأنه لا إسلال[2] ولا إغلال ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه . فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن فى عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم ، وإنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب السيوف فى القرب لا تدخلها بغيرها .

إن المغيرة بن شعبة – رضى الله عنه – قد تناسى العمومة والخئولة فى سبيل دينه ونصرة رسوله ، حتى قال لعمه :
ارفع يديك عن رسول الله – ﷺ – وإلا تقطع فلا تعود إليك .

إنهم الرجال الذين أوكل الله إليهم نشر دينه وإبلاغ شرعه ، حتى أنه لم يمض على نزول الوحي إلا سنوات من عمر الزمن حتى نزل قول الله تعالى :
﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ..(٣) ﴾ [المائدة]

---

(١) هو سهيل بن عمرو بن عبد شمس ، كان أحد الأشراف فى قريش وسادتهم فى الجاهلية أُسر يوم بدر كافراً وكان خطيب قريش . فقال عمر : يا رسول الله انزع ثنيته فلا يقوم عليك خطيباً أبداً . فقال عليه السلام : دعه فعسى أن يقوم مقاماً نحمده فيه وكان قد مات شهيداً فى معركة اليرموك .

(٢) الإسلال : السرقة الخفية ، والإغلال : الخيانة .

المغيرة بن شعبة وهدمه اللات آلهة ثقيف

حاصر رسول الله - ﷺ - حصون الطائف لمدة سبع وعشرين ليلة ، ثم انصرف عنها إلى الجعرانة - وقال قبل مسيره :

« اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم » .

قال ابن إسحاق : وبعد رحيل الرسول - ﷺ - وجيشه عنهم ائتمروا فيما بينهم لما رأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا . فقرروا إرسال وفد منهم إلى الرسول - ﷺ - بالمدينة . بقيادة رجل منهم يُدعى عبد ياليل بن عمر .

فلما دنوا من المدينة وجدوا المغيرة بن شعبة - رضى الله عنه - يرعى فى نوبته خيل أصحاب رسول الله - ﷺ - فلما رآهم ذهب يشتد مسرعاً ليبشر رسول الله - ﷺ - بقدومهم ، فلقيه أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - فأخبره عن وفد ثقيف أن حضروا يريدون البيعة والإسلام .

فقال أبو بكر للمغيرة : أقسمت عليك لا تسبقنى إلى رسول الله حتى أكون أول من يبشره بذلك .

ففعل المغيرة . ودخل أبو بكر فبشر الرسول - ﷺ - بحضورهم ثم عاد المغيرة إلى الوفد ، وصحبهم إلى المسجد ، فاستقبلهم الرسول - ﷺ - وعرض عليهم الإسلام ، فأسلموا وبايعوا بعد أن نطقوا بالشهادتين .

يقول الإمام أحمد بن حنبل : ثم اشترطوا على الرسول - ﷺ - :

ألا يحشروا : أى لا يندبون إلى الحروب والقتال .

ولا يعشروا : أى لا يدفعون عُشر أموالهم .

ولا يجبوا : ولا يستعملون فى جباية الصدقات .

ولا يستعمل عليهم غيرهم ، ولا يصلوا ، ولا يكسروا أصنامهم بأيديهم .

فقال رسول الله - ﷺ - :

« لكم ألا تحشروا ولا تعشروا ، ولا تجبوا ، ولا يستعمل عليكم غيركم وأما كسر الأصنام فسنعفيكم من ذلك . أما الصلاة : فلا خير فى دين لا صلاة فيه !! » .

ثم قال الرسول - ﷺ - :

« إنهم سيتصدقون ويجاهدون إذا خالط الإيمان شغاف قلوبهم » .
وقد كان ما قاله الرسول - ﷺ - .

ولما كتب لهم كتابهم أمَّر عليهم عثمان بن أبى العاص - وكان من أحدثهم سناً - وذلك أنه كان أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن .

ثم أرسل معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم طاغيتهم (اللات) .

فساروا حتى طرقوا أبواب الطائف عندها أراد المغيرة أن يقدم أبو سفيان بن حرب لهدم اللات .

فأبى ذلك أبو سفيان وقال للمغيرة : اذهب أنت وقومك لهدمها . فخرجت ثقيف ؛ رجالها ونساؤها وصبيانها حتى خرجت العواتق من الحجال ، ولا يرى عامة ثقيف أنها مهدومة ، ويظنون أن الآلهة ستمتنع عليهم .

فقام المغيرة بن شعبة وأخذ معاوله . وقال لأصحابه : لأضحكنكم اليوم من ثقيف ، فضرب بالمعاول ثم سقط يركض برجلها ، فارتج أهل الطائف بصيحة واحدة وفرحوا وقالوا :

أبعد الله المغيرة قتله الرب !!

فقام المغيرة وقال : يا معشر ثقيف إنما هى مجموعة حجارة ومدر ، فأقبلوا على الله الواحد الأحد واعبدوه .

ثم إنه ضرب بابها فكسره ثم علا سورها وعلا الرجال معه ، فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سووها بالأرض .

ولكن سادة ثقيف كان لا يزال يعشش فى أدمغتهم الكفر ووساوس الشيطان فصاحوا وتنادوا ليغضبن الأساس وليخسفن بهم الأرض .

فلما سمع المغيرة قال لخالد - رضى الله عنه - :

دعنى أحفر أساسها فحفروه حتى أخرجوا ترابها وأحجارها ووصلوا إلى القرب من الماء .

وبهتت عند ذلك ثقيف . ودوى فى الكون كله صوت علوى يرسل قول الله تعالى :

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ

وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ [آل عمران]

ثم دوى من الجانب الآخر صوت علوى يقول الله تعالى :

﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ .. (٤٠) ﴾ [يوسف]

المغيرة بن شعبة فوق صهوات الخيل

المغيرة بن شعبة فارس مغوار وبطل من أبطال المعارك ، وخبير بجندلة الفرسان ، وأساليب القتال .

شارك فى معركة اليمامة ، وأبلى بلاءً حسناً مع صحابة رسول الله - ﷺ - حتى قتل مسيلمة الكذاب ، وما زال ينتقل من معركة إلى أخرى ، حتى عادت الجزيرة العربية مرة أخرى إلى رحاب الإسلام وأخذت الزكاة تتدفق إلى المدينة، حتى امتلأ بها بيت المال ، وكان هذا عاملاً فى تجييش الجيوش وإعداد العدة لنشر الإسلام خارج الجزيرة العربية وإزاحة هؤلاء الذين يقفون فى طريق الإسلام ، والحيلولة بينه وبين أن يعمر قلوب البشرية جمعاء .

وفى معركة القادسية كان المغيرة بن شعبة أحد الرسل الذين بعثهم سعد بن أبى وقاص إلى رستم قائد جيش الفرس ، فأقبل إليهم واخترق جموعهم حتى جلس مع رستم على سريره .

فوثبوا عليه وأنزلوه .

فقال المغيرة : قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوماً أسفه منكم . إنا معشر العرب لا نستعبد بعضنا بعضاً ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، فكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى بأن بعضكم أرباب بعض ، فإن هذا الأمر لا يستقيم فيكم ، ولا يصنعه أحد .

وإنى لم آتكم ولكن دعوتمونى ، اليوم علمتم أنكم مغلوبون ، وإن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ، ولا هذه العقول .. !!

أرأيتم ماذا فعل المغيرة ؟!

لقد كانت له خطة محكمة وهى إيجاد شرخ فى صفوف هؤلاء الرجال .

إنهم سادة وعبيد .

وقادة ومقودون .

فهم يستعبدون بعضهم البعض ، ويستذلون الضعفاء ولا يعطونهم إلا الفتات من المال أو الطعام أو وظائف الدولة .

إنه يقول لهؤلاء الجنود : ثوروا على هؤلاء الذين يحرمونكم حق الحياة .

ثوروا على هؤلاء الذين يستعبدونكم بالباطل .

حطموا هؤلاء الجلادين .

إن ديننا دين الإسلام لا يسمح بهذه الفرقة والتفاضل .

إننا لم نأت لمغنم أو طمع فى عرض من أعراض الحياة ، وإنما جئنا لكم أنتم .

لنخرج من شاء منكم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده .

ومن ضيق الدنيا إلى سعتها .

ومن جور الحكام إلى عدل الإسلام .

وتحقق ما أراده المغيرة .

حتى قال بعض جنود الفرس : صدق والله العربى .

وقال الدهاقين « الأمراء والحكام » : والله لقد رمى بكلام لاتزال عبيدنا ينزعون إليه .

قاتل الله أولينا حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة .. ؟؟

وعاد المغيرة إلى سعد وقال له :

« إنها الحرب » .

والتحم الجيشان فى معركة ضارية . وتوالت الساعات متلاحقة متتابعة حتى ارتفع صوت يهز الكون كله بكلمة الله أكبر ، إن هذا الصوت يعرفه سعد جيداً .

إنه صوت هلال بن علقمة .

وانداح فى أرجاء المعركة ليبشر أتباع محمد - ﷺ - بقتل رستم ، قائد معركة الفرس .

واعتلى هلال بن علقمة فوق سرير رستم قائلاً :

« قتلت رستم ورب الكعبة » .

وما كاد جيش فارس يعلم بقتل قائده ، حتى فروا هاربين وطاردهم الجيش الإسلامى ، يقتل ويأسر ، حتى نزل الليل بظلامه ، فستر الفارين الهاربين . بعد أن تركوا متاعهم وسلاحهم وكنوزهم .

وفرح المسلمون بنصر الله ينصر من يشاء .

أين المغيرة بن شعبة فى هذا النصر العظيم ، إنه يراقب الجنود وهم يحملون كنوز كسرى ، والجواهر والذهب والفضة حتى ترسل إلى خليفة المسلمين الذى يتابع المعركة ، ويرجو النصر من الله تعالى .

غلام المغيرة بن شعبة ومقتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه

كان عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – عندما تولى أمر الخلافة – لا يأذن لسبى من سبايا الحرب قد احتلم فى دخول المدينة .

واستمر الحظر على ذلك فترة طويلة ، حتى كتب له المغيرة بن شعبة يوماً وهو وال على الكوفة يستأذنه فى دخول غلام من غلمان السبى إلى المدينة لأنه يتقن العديد من الحرف والصناعات ، رغبة فى أن ينتفع الناس بما يحسنه من أعمال .

فأذن عمر له . وكان المغيرة قد أوجب على الغلام مائة درهم كل شهر .

واستقر هذا الغلام الذى يسمى « أبو لؤلؤة » فى مدينة الرسول – ﷺ – وصارت له أعمال رائجة تدر عليه ربحاً كبيراً .

ولكنه ذهب إلى الخليفة عمر يشكو له من كثرة الخراج الذى يدفعه إلى المغيرة .

فقال عمر : ليس ما تدفعه من خراج يعد كثيراً ، أمام ما تربحه من الأعمال .

فانصرف « أبو لؤلؤة » ساخطاً يتذمر .

ثم مرت الأيام وكرت الشهور وظهر فجأة « أبو لؤلؤة » أمام الخليفة عمر فدعاه عمر وقال له :

« لقد حُدثت أنك تقول لو أشاء لصنعت رحى تطحن بالريح .. ؟ » .

فنظر « أبو لؤلؤة » ساخطاً عابساً إلى عمر وقال : لأصنعن لك يا أمير المؤمنين رحى يتحدث بها الناس جميعاً .

فلما ولى « أبو لؤلؤة » أقبل عمر على القوم الذين معه وقال :

« إن هذا العبد قد أوعدنى » .

ولم تمر على هذه الكلمة إلا أيام قليلة ، حتى كان « أبو لؤلؤة » قد جهز خنجراً ذا رأسين ، وكمن به فى زاوية من زوايا المسجد ، فى غلس السحر . فلم يزل هناك حتى خرج عمر يوقظ الناس لصلاة الفجر

فلما دنا عمر من المكان الذى يختبئ فيه . وثب عليه فطعنه ثلاث طعنات إحداهن تحت السرة . وهى التى قتلته .

وعندما أحس الغلام بأنه قد أحيط به انتحر بخنجره .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - لما كان غداة أصيب عمر ، كنت فيمن احتمله حتى أدخلناه إلى داره .

قال : فأفاق إفاقة، فقال : مَنْ أصابنى ..؟

قلت : أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة .

فقال عمر : هذا عمل أصحابك ، كنت أريد ألا يدخلها علج من السبى فغلبتمونى على رأيى .

إن هذا الشىء الذى فعله « أبو لؤلؤه » لا يستطيع أن يفعله بمفرده ، ولكن هناك جماعة أخرى تخطط له ، وينفذ ما تمليه عليه بدقة وإلا لماذا قتل نفسه .. ؟

وما الدافع إلى ذلك ، إن أى إنسان يحرص على أن يبقى فى هذه الحياة لحظات - حتى لو كان أبو لؤلؤة يعتقد أنه سيأخذ بجريمته - فهناك أمل له فى الفرار أو الهرب ، أو أى علة أخرى يتعلل بها الإنسان ويتشبث بها فى الحياة . أما أن يقتل نفسه فهذه أوامر له من خارج نفسه . حتى لا يقع تحت طائلة العذاب ، فيضطر إلى كشف حقيقة الآخرين الذين يشاركونه فى هذه الفعلة ، ويبغون من وراء ذلك أهدافاً أخرى أقلها ما حدث من قتل عمر .

إننا نرجح أن قتل عمر ، كان مؤامرة كبرى تقف وراءها بعض الدول ، والذى يؤكد ذلك أن كعب الأحبار جاء إلى عمر وقال : يا أمير المؤمنين اعهد فإنك ميت فى ثلاثة أيام .

قال عمر : وما يدريك .. ؟

قال : أجده فى كتاب الله التوراة .

فقال عمر : آلله إنك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة .. ؟

قال : اللهم لا ، ولكن أجد صفتك وحليتك بأنه قد فنى أجلك .

وعمر – فى هذه اللحظة – لا يحس وجعاً ولا ألماً .

فلما كان من الغد جاءه كعب فقال : يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقى يومان .

ثم جاءه من بعد الغد فقال : ذهب يومان وبقى يوم وليلة هى لك إلى صبحها . فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة وطُعن .

ونتساءل : من أين جاء كعب بهذه الأخبار .. ؟

وهل يوجد فى التوراة شىء يدل على صفة عمر وهيئته .. ؟

اللهم لا ، وليس فى التوراة الصحيحة أو المحرفة .. والتى توجد بأيديهم شىء يدل على ذلك .

إذن كيف استطاع كعب أن يحدد أجل عمر هذا التحديد الدقيق .. ؟ أيعلم الغيب .. ؟ وهذا شىء اختص الله بعلمه ، وليس لنبى ولا لرسول من ذلك شىء إلا بأمره تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) ﴾ [الجن]

إن أصابع اليهود[1] ضليعة فى قتل عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – ويتفق كثير من المؤرخين على ذلك .

رحم الله عمر بن الخطاب بمقدار ما قدم من خير للإسلام والمسلمين وأسكنه فسيح جناته . إنه سميع الدعاء .

(١) إن اليهود تاريخهم فى المؤامرات والكيد والقتل معروف حتى أنهم قتلوا بعض أنبيائهم ، واتهموا أنبياءهم بتهم لا يقدم عليها أشد الناس عصياناً وكفراً قال الله تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) ﴾ [آل عمران]

المغيرة ونصيحته للخليفة على بن أبى طالب رضى الله عنه

قُتل الخليفة عثمان – رضى الله عنه – وبُويع بالخلافة على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ فدخل عليه المغيرة بن شعبة فقال :

« يا أمير المؤمنين إن لك عندى نصيحة » .

قال : وما هى .. ؟

قال : إن أردت أن يستقم لك الأمر فاستعمل طلحة بن عبيد الله على الكوفة ، والزبير بن العوام على البصرة ، وابعث معاوية بعهده إلى الشام حتى تلزمه طاعتك ، فإذا استقرت لك الخلافة فأدرها كيف شئت برأيك .

قال على : أما طلحة والزبير فسأرى رأيى فيهما .

وأما معاوية فلا والله لا أرانى مستعملاً له ، ولا مستعيناً به ، مادام على حاله ، ولكنى أدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المسلمون ، فإن أبَى حاكمته إلى الله ورسوله .

فانصرف عنه المغيرة مغضباً لما لم يقبل نصيحته .. ؟

فلما كان الغد آتاه فقال :

يا أمير المؤمنين ، نظرت فيما قلت بالأمس ، وما جاوبتنى به ، فرأيت أنك وفقت للخير ، فاطلب الحق ، ثم خرج عنه .

فلقيه الحسن بن على وهو خارج . فقال لأبيه :

ما قال لك المغيرة يا أبى :

قال : أتانى أمس بكذا وأتانى اليوم بكذا .. ؟

قال الحسن : نصح لك والله أمس ، وخدعك اليوم .

فقال له علىٌ : إن أقررت معاوية على ما فى يده من بلاد الشام كُنْتُ متخذ المضلين عَضُداً . ؟

وقال المغيرة فى ذلك :

نصحت علياً فى ابن هند نصيحة
فرد فلا يسمع له الدهر ثانية
وقلت له أرسل إليه بعهده

على الشام حتى يستـقر معاوية
ويعلم أهل الشـام أن قـد ملكتـه
فـأمّ ابن هنـد ذلـك هـاوية
فلم يقـبل النصح الذى جئـته به
وكانت له تلك النصيحـة كافية .

لماذا لم يتمسك المغيرة بنصيحته الأولى .. ؟ ولماذا لم يستقر عليها .. ؟ ولماذا ذهب فى اليوم التالى لينقض ما قاله فى اليوم الأول .. ؟

أغضب لأنه لم تُقبل نصيحته فى اليوم الأول .. ؟

هل أراد أن تعم الفتنة حتى يكون له مكان فيها ..؟

أم أن هذا قضاء الله وقدره ، ولا راد لما قضاه الله وقدّره .

إننا لا نملك – ونحن الآن بعيدون عن مسرح الأحداث – إلا أن نقول تلك أمة قد خلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .

ورحم الله الجميع ورضا عنهم .

موقف المغيرة وبعض الصحابة من الفتنة

الفتنة التى كان يستعيذ منها عمار بن ياسر ، بدأت تطل برأسها فى المجتمع الإسلامى وتفـرق جماعة المسلمـين إلى شيع وأحزاب ، وكـان بداية ذلك عندما خرج طلحة والزبير بن العوام ، وعائشة أم المؤمنين من مكة يريدون البصرة .

ولقد تـابعهم فى خـرجتهم هـذه : سعيـد بن العاص ، ومـروان بن الحكم ، وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ، والمغـيرة بن شعبة ، فلما نزلوا مَرّ الظهران . قام سعيد بن العاص فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أما بعد فإن عثمان بن عفان – رضى الله عنه :

عاش فى الدنيا حميداً .

وخرج منها فقيداً .

وتوفى سعيداً شهيداً . فـضاعف الله حسناته ، وحط سيئاته ، ورفع درجاته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقـين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » .

ثم تابع حديثه قائلاً : وقد زعمتم أيها الناس أنكم إنما تخرجون تطلبون بدم عثمان ، فإن كنتم ذلك تريدون ، فإن قتلة عثمان على صدور هذه المطى وأعجازها فميلوا عليهم بأسيافكم ، وإلا فانصرفوا إلى منازلكم ، ولا تقتلوا فى رضا المخلوقين أنفسكم ، ولا يغنى الناس عنكم يوم القيامة شيئاً . !!

فقال مروان بن الحكم : لا بل نضرب بعضهم ببعض فمن قتل كان الظفر فيه ، ويبقى الباقى فنطلبه وهو واهن ضعيف .

وقام المغيرة بن شعبة : فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« إن الرأى ما رأى سعيد بن العاص ، من كان من هوازن فأحب أن يتبعنى فليفعل ، فتبعه منهم أناس وخرج حتى نزل الطائف فلم يزل بها حتى مضت معركة الجمل وصفين » .

لقد اعتزل المغيرة الفتنة التى اشتعل أوارها بين المسلمين ، وجلس فى بيته . وقال : لا علىَّ ولا لى .

فهل هذا هو الرأى الأصوب .. من داهية العرب كما كان يُسمى .. ؟

ألم يكن فى مقدور المغيرة ومن هم على رأيه أن يفعلوا شيئاً غير هذا ..؟

ألم تتضح أمامه الأمور ليعرف من صاحب الحق ، ومن هو الذى يريد أن يظلم ويجور ويعتدى على حقوق الآخرين .. ؟

وكيف غاب عن المغيرة وأتباعه وهم كثير قول الله تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات]

إن الله تعالى يكلف الذين آمنوا من غير الطائفتين المتقاتلتين أن يقوموا بالإصلاح بين المتقاتلين ، فإن بغت إحداهما فلم تقبل الرجوع إلى الحق – وذلك برفض الصلح أو رفض قبول حكم الله فى المسائل المتنازع عليها – فعلى المؤمنين أن يقاتلوا البغاة إذن ، وأن يظلوا يقاتلونهم حتى يرجعوا إلى أمر الله . وأمر الله هو إنهاء الخصومة بين المؤمنين ، وقبول حكم الله فيما اختلفوا فيه ، وأدى إلى الخصام والقتال ..

ولكن ما حدث هو قدر الله وإرادته وما شاء فعل .

المغيرة بن شعبة فى آراء الآخرين

وصفه صاحب الطبقات فقال : كان المغيرة أصهب الشعر جداً . مقلص الشفتين ، أهتم ، ضخم الجسم ، طويل الذراعين ، بعيد ما بين المنكبين وكان يفرق شعر رأسه أربعة قرون .

وقال الشعبى : القضاة أربعة :

أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو موسى الأشعرى رضى الله عنهم جميعاً .

والدهاة أربعة : معاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبيه رضى الله عنهم جميعاً .

وقال الشعبى : سمعت المغيرة يقول : ما غلبنى إلا فتى مرة . أردت أن أتزوج امرأة فاستشرته فيها .

فقال : أيها الأمير لا أرى لك أن تتزوجها .

فقلت له : لمَ ؟

فقال : رأيت رجلاً يُقبِّلها .. ؟؟

ثم بلغنى بعد ذلك أنه تزوجها . فقلت له :

ألم تزعم أنك رأيت رجلاً يُقبِّلها .. ؟

فقال : نعم رأيت أباها يُقبِّلها وهى صغيرة .

ويقول قبيصة بن جابر : صحبت المغيرة بن شعبة ، فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بمكر ، فخرج المغيرة من أبوابها كلها .

وفاة المغيرة رضى الله عنه

توفى المغيرة وهو وال على الكوفة عام خمسين من الهجرة ، وأجمع الناس على ذلك ، وذلك فى رمضان منها عن سبعين سنة . رحمه الله ، لقد كان صوّالاً جوّالاً ، عاقلاً حكيماً ، صاحب رأى ومشورة ، رحمه الله تعالى بمقدار ما قدم من خير للإسلام والمسلمين .

دروس وعــبــر ...

لمــاذا الجهاد فى الإسلام .. ؟

لماذا فرض الله الجهاد فى خاتمة الرسالات السماوية .. ؟

ولماذا خرج المسلمون الأُول من الجزيرة العربية .. ؟

أخرجوا ليفرضوا دينهم بالقوة وبحد السلاح .. ؟

وانداحوا فى أركان الأرض ليخضعوا البشرية إلى هذا الدين الجديد ... ؟

الحقيقة أن كتابهم يرفض القوة لإجبار الناس على اعتناقه ..

ولا يرضى بغيـر الإقناع العقلى بديلاً لدخول الأفـراد فى هذا الدين . يقول الله تعالى مخاطباً رسوله الـكريم عندما رغب فى إيمان بعض أقاربه وألح عليه فى ذلك : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس]

ويقول سبـحانه وتعالى :﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة]

والدعوة إلى الدين فى شرع الإسلام يجب أن تكـون بالكلمة الطيبة والإقناع السليم .

يقول تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]

وإذا كان ذلك كذلك فلماذا خرج المسلمـون من جزيرتهم، واتجهوا فى أركان الأرض الأربعة .. ؟

أهناك ضرورة دفعتهم إلى ذلك .. ؟

أم أن رسولهم أمرهم بالخروج والجهاد .. ؟

الحقيقـة أن هذا الخروج كان من أجل نشر دين الله ، خرجوا ليـبشروا بهذا الدين الجديد .

خرجوا لتكون كلمة الله هى العليا .

هذا هو المبرر الأول للحركة الجهادية فى الإسلام .

ويؤيد هذا الرأى ما يُروى عن الرسول – ﷺ – عندما سُئل :

الرجل يقاتل للشـجاعة ، والرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يـقاتل ليرى مكانه «أى مفاخرة » .

فأى ذلك فى سبيل الله .. ؟

قال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .. ؟

فليس الجهاد من أجل الاستيلاء على البلاد ، وليس الجهاد من أجل الثروة الاقتصادية والغلبة ، وليس الجهاد من أجل الرغبة فى خفض العيش وإيجاد الرخاء فى أساليب الحياة على حساب الآخرين .

وإنما العامل الأساسى فى ذلك أن تكون كلمة الله هى العليا ، وأن يكون الجهاد فى سبيل الله .

والجهاد دفاعاً عن الأهل هو جهاد فى سبيل الله .

والجهاد دفاعاً عن المال هو جهاد فى سبيل الله .

والجهاد دفاعاً عن العرض هو جهاد فى سبيل الله .

والجهاد دفاعاً عن الوطن وتحرير الأرض هو جهاد فى سبيل الله .

يقول الرسول - ﷺ - :

« من قُتل دون عرضه فهو شهيد ، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد ، ومن قُتل دون ماله فهو شهيد » .

ومن هنا وضحت رسالتهم أمام البشرية ، وكما بيَّنها المغيرة بن شعبة رسول المسلمين فى مجلس رستم قائد الفرس :

« الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الرحمن » .

فالأمم جميعها أمام الإسلام سواء ، والناس أمام شرع ربهم أكفاء والخلق جميعاً ينتسبون لآدم وآدم من تراب .

ومن هذا الفهم لطبيعة الجهاد فى الإسلام ، نرى صاحب الدعوة الإسلامية محمد - ﷺ - يُوصى قادة الجيوش بقوله :

« أوصيكم بتقوى الله ومن معكم من المسلمين » ثم يقول :

« اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من الكفار فادعهم إلى ثلاث خصال :

فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم ، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم .. ؟ .

لابد من التقوى للقائد الذى يتأمر على الجيش ، لأن الرجل التقى يخاف الله ويخشى عقابه ، فيأمر بالعدل ويدعو إليه .

والرجل التقى ، يخشى الخديعة ، ولا يقع فيها ، ويحذر الخيانة ولا يأتيها .

والرجل التقى يؤمن بأن لكل أجل كتاباً فلا يخاف ما تأتى به الليالى، فيقاتل وهو واثق من إحدى الحسنيين ، إما النصر ، وإما الشهادة .

ولابد أن تكون الحروب باسم الله ، فلن تكون الحروب فى شرع الإسلام باسم العصبية ..

ولن تقام الحروب فى شرع الإسلام باسم الأفراد .

ولن تقام الحروب للمغنم أو الاستعلاء ، ولن تعلن الحرب إلا على الكافرين ، ولن تعلن الحروب إلا على الملحدين الجاحدين ، أما أهل الكتاب فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين .

يقول الله تعالى :﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) ﴾ [الممتحنة]

يقاتل فقط من يرفض أن يستجيب لواحدة من ثلاث :

١ - إما الإسلام ..

٢ - وإما الجزية ..

٣ - وإما القتال ..

فإن أجابوا داعى الإسلام فلا حرب ولا قتال قال تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .. (٦١) ﴾ [الأنفال]

ولهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، فإن رفضوا الأولى ، فعليهم الثانية ، وهى الجزية ، والجزية بالنسبة للذمى تعادل الزكاة للفرد المسلم . لأن كل فرد فى المجتمع الإسلامى لابد من تقديم بعض ماله مساهمة منه فى حماية الدولة ، وتجهيز الجيوش ، وتأمين الثغور ، وإقامة المرافق العامة ، ومساعدة العاطلين ، والمرضى والعجزة ، وأصحاب الحاجات .

وما دام المسلم يدفع الزكاة وهى فرض عليه لا يجوز إسقاطها ، فمن العدل

أن يدفع غيـر المسلم الذى يعيش على أرض الوطن ما يـعادلها ما :ام الجـميع يعيشون فى رحاب وطن واحد ، ويستـمتعون بخيراته ، ويدفنون تحت ترابه ، فإذا رُفضت الجزية ، كانت الثالثة وهى الحرب .

فإذا أراد الله وفُتـحت هذه البلاد أُقيم أصحاب الأعمـال فى أعمالهم لا تنزع منه ، ولا تعطى لغـيرهم ، ويبـقى فى هذه الدولة حـاكم إسلامى يشـرف على تنفيذ أحكام الإسلام ورعاية شئون الرعـية ، ويشاركه فى إدارة شئون البلاد ، وفى تيسير دفة الحكم أبناء هذه البلاد .

هذا وبالله التوفيق .

عمير بن وهب بن خلف

رضى الله عنه

قال عمير بن وهب يوم بدر لقريش :

يا معشر القوم ، لقد رأيت المنايا تحمل البلايا ثم سكت قليلاً وقال :

نواضح يثرب تحمل الموت الناقع .. !؟

قوم ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم .. أما ترونهم خرساً لا يتكلمون ، يتلمظون تلمظ الأفاعى .. ؟

والله ما أرى نقتل منهم رجلاً حتى يقتل منا رجل، فإذا أصابوا منكم عددهم . فما خير فى العيش بعد ذلك .. ؟ فروا رأيكم ..

عمير بن وهب

■ فارس من فرسان مدرسة النبوة .

ومن قبل : كان فارساً من فرسان قريش المغاوير .

وبطلاً من أبطالها الصناديد .

ولمَ لا يكون كذلك وهو من قبيلة جمح إحدى القبائل العملاقة فى الجاهلية والإسلام .

يصمت التاريخ فلا يتناول طفولته من قريب أو بعيد .

ولكن التاريخ يستدرك ، فيتابع خطوات عمير بن وهب الفتى اليافع الذى يمتلأ شباباً وقوة .

ثم يصغى لأحاديثه المتتابعة فى دار الندوة ، التى كان ينبهر بها الشباب ، ويستحسنها الشيوخ ..

ليس هذا فحسب .

ولكن كانت ذاكرة التاريخ تلتقط حركاته ، ومفاجآته وسبوحاته .

حركاته : وهو يجندل الطيور فى أكنانها .

ومفاجآته : وهو يسابق الغزلان فى قفزاتها .

وسبوحاته : وهو يغوص خلف الأسماك ، فتفر مذعورة مع أسرابها .

ثم يعود عمير فى المساء .

وهو يُحَمِّل بعيره ما ينوء بحمله من طيور برية ، وأسماك بحرية.. تلك كانت حياة عمير مليئة بالسعى الدؤوب .

وتغمرها السعادة والرضا .

وكان عمير يسمع عن فتى بنى عبد المطلب - محمد بن عبد الله .

الذى سفّه الأحلام .

وسخر من الأصنام والأوثان .

ودعا إلى عبادة الواحد الأحد .

عندها ركبت قريش رأسها .

وأكدت العزم على حرب محمد وأتباعه .

وأخذت تدعو شبابها وشيوخها للانضمام إلى الجيش الذى يستأصل أتباع الدين الجديد .

وكان من هؤلاء الذين انضموا إلى جيش قريش عمير بن وهب .

عمير بن وهب فى غزوة بدر

خرجت قريش بعدتها وعتادها وأحباشها ورجالها للقضاء على الفئة المؤمنة .

وساروا حتى إذا بلغوا ماء بدر .

وجدوا المسلمين قد سبقوهم إلى ذلك المكان .

فسقط فى أيديهم .

وأخذوا فى إرسال العيون والجواسيس التى تحيط بجيش المسلمين حتى يعجموا عودهم .

ويتعرفوا على عددهم وقوتهم .

وكان أحد هؤلاء العيون عمير بن وهب ..

وعندما عاد من جولته قال لقيادة جيش قريش :

« لقد صوبت فى الوادى وصعدت . فلم أجد لهم مدداً ولا كميناً .

قالوا : فما عدد القوم .. ؟

قال : ثلاثمائة . إن زادوا زادوا قليلاً . ومعهم سبعون بعيراً وفرسان .. ؟؟».

فتصايح القوم وقالوا :

« ستحصدهم سيوفنا حصدًا .

وَستُروَّى الأرض من دمائهم غداً » .

عندها قال عمير :

« يا معشر القوم ، لقد رأيت المنايا تحمل البلايا » .

ثم سكت قليلاً وقال :

« نواضح يثرب تحمل الموت الناقع .. ؟؟

قوم ليست لهم منعة ، ولا ملجأ إلا سيوفهم . أما ترونهم خُرْساً لايتكلمون .. ؟

يتلمظون تلمظ الأفاعى .. ؟

والله ما أرى نقتل منهم رجلاً حتى يُقتل منا رجل ..

فإن أصابوا منكم عددهم ، فما خير العيش بعد ذلك ..

فروا رأيكم .. ؟ » .

فتكلم حكيم بن حزام .. فقال خيراً ودعا للعودة إلى مكة .. وأتى شيبة وعتبة . وكانا ذوى تقية فى قومهما :

فأشارا على الناس بالانصراف .

وقال عتبة : لا تردوا نصيحتى ولا تسفِّهوا رأيى ..

فحسده أبو جهل حين سمع كلامه ـ فأفسد الرأى ـ ودعا إلى الحرب .. ؟

ثم نشب القتال .

وأبلى المسلمون بلاءً حسناً .

ودارت الدائرة على قريش .

ونصر الله المؤمنين نصراً مؤزراً .

ونزل قول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) ﴾

[آل عمران]

وعاد عمير بن وهب إلى مكة .

عاد مع قافلة المنهزمين يجتر أحزانه وآلامه .

لأن المسلمين أسروا ابنه وفلذة كبده « وهب بن عمير » ..

وأخذ يتذكر كلمات عتبة بن ربيعة ، وهو يطالب الناس بالرجوع إلى مكة وعدم القتال .

وكان مما قال عتبة :

يا معشر قريش :

إنكم والله ما تصنعون شيئاً إذا لقيتم محمداً وأصحابه .

لأنكم إن أصبتموهم ، لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه . لأنه قتل ابن عمه ، أو ابن خاله ، أو رجلاً من عشيرته ..

فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب .

لو استمع الناس إلى كلمات عتبة ما كانت الحرب .

ولو لم يكن قتال ما أُسر ابنه .

ولكن أيترك فلذة كبده هكذا أسيراً فى أيدى محمد وأصحابه .. ؟

محال أن يكون ذلك .. ؟

ولكن كيف الوسيلة وما السبيل .. ؟

عمير يتآمر على قتل محمد ﷺ

نقول : ما كاد عمير يصل إلى هذه المرحلة من الهواجس ، حتى وجد يداً تربت على ظهره وتطالبه بالصبر والحكمة ..

ولم تكن هذه اليد إلا يد صفوان بن أمية .

صفوان الذى قُتل أبوه فى هذه الغزوة أيضاً .

ويأكل الحزن والأسى قلبه على أبيه الميت .

كما يفعل الحزن والأسى بعمير بن وهب على ابنه الحى .

قال صفوان :

« والله ما فى العيش بعدهم خير - يقصد قتلى بدر - .

قال عمير :

والله ، أما والله لولا دين عليَّ ليس له قضاء عندى ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى لركبت إلى محمد حتى أقتله ..

قال صفوان : كيف .. ؟

قال عمير : فإن لى قِبَلَهم علة ... ابنى أسير فى أيديهم ..

فاغتنم صفوان هذه وقال :

عليَّ دينك أنا أقضيه عنك .

وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا ...

قال عمير : فاكتم شأنى وشأنك .

قال صفوان : أفعل .

ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسم .

ولما تم له ذلك أزمع الذهاب إلى يثرب .

وانطلق على فرسه يسابق الريح إلى طلبته .

وما هى إلا أيام قليلة حتى كانت حوافر فرسه تطأ مدخل المدينة .

ثم توغل فى دروبها .

حتى وصل إلى مسجد الرسول – ﷺ – .

فرآه عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وكان يجلس أمام باب المسجد مع جماعة من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ .

وما كاد عمر ينظر إليه حتى قال :

« هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب والله ما جاء إلا لشر ..

وهو الذى حرش بيننا وحزرنا للقوم يوم بدر .. » .

عمير يرجع عن غدره ويعلن إسلامه

ثم دخل عمر على رسول الله – ﷺ – فقال :

« يا نبى الله ، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه ..

قال عليه السلام : فادخله عليَّ .

فاقبل عمر إليه حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلببه بها وقال لرجال ممن كان معه من الأنصار :

ادخلوا على رسول الله - ﷺ - فاجلسوا عنده ، واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون ..

واستجاب الأنصار لأمر عمر ..

ودخل به على رسول الله - ﷺ - .

وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه .

قال عليه السلام : أرسله يا عمر .

ثم قال : ادن يا عمير .

فدنا ثم قال : أنعموا صباحاً .

وكانت هذه تحية الجاهلية بينهم ..

فقال رسول الله - ﷺ - :

قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير :

« بالسلام تحية أهل الجنة » .

فقال : أما والله يا محمد إن كنت بهذا لحديث عهد .

قال : فما جاء بك يا عمير .. ؟

قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه ..

قال : فما بال السيف فى عنقك .. ؟

قال : قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئاً ..!!

قال : أصدقنى ما الذى جئت له .. ؟

قال : ما جئت إلا لذلك .

قال عليه الصلاة والسلام :

« بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش .

ثم قلت : لولا دين علىَّ وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمداً .

فتحمَّل لك صفوان بن أمية بدينك وعيالك على أن تقتلنى له ..

والله حائل بينك وبين ذلك » .

قال عمير : أشهد أنك رسول الله .

قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحى .

وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان .. !

فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله .

فالحمد لله الذى هدانى للإسلام ، وساقنى هذا المساق .

ثم شهد شهادة الحق .

فقال رسول الله – ﷺ :

فقهوا أخاكم فى دينه . واقرئوه القرآن .

وأطلقوا له أسيره .

ففعلوا .... رضى الله عنهم .

عمير يعود إلى مكة ومعه ابنه

ثم قال عمير بن وهب : يا رسول الله ، إنى كنت جاهداً على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل .

وأنا أحب أن تأذن لى فأقدم على مكة .

فأدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله – ﷺ ، وإلى الإسلام .

لعل الله يهديهم إلى الدين الحق .

وإلا آذيتهم فى دينهم كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم .

فأذن له رسول الله .

وركب مطيته مودعاً بالحفاوة والتكريم – يريد مكة .

وأحسَّ عمير بأن فى داخله شيئاً جديداً .

وتغير واقع الأشياء فى نظره .

إنه الآن – هكذا كان يحدث نفسه – ليس عمير بن وهب الذى خرج من مكة منذ فترة ليعيث فى الأرض فساداً ، ويقتل رسول الله – خاتم المرسلين .

ولكنه الآن : المسلم الملتزم الذى يعبد الله كأنه يراه .

فإن لم يكن يراه . فإن الله تعالى يراه .
إنه المسلم القوى الشجاع الذى لا يهاب ملة الكفر مجتمعة .
لأن الله معه . وهو ناصره وحافظه .
وصدق الله فى قوله :
﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد]
وسارت به المطيّة حتى دخل مكة .
وعلم صفوان بحضور عمير .
ولكنه لم يأت إليه .
ولم يسمع بقتل محمد كما كان يترقب .
فعرف أن عميراً قد أسلم .
فقاطعه وحلف ألا يكلمه أبداً . ولا ينفعه بنفع أبداً .
ولم يبال عمير بصفوان .
وأخذ يدعو إلى دين الإسلام .
فأسلم على يديه أناس كثر ..

عمير فى فتح مكة

وتمر الأيام وتكر الليالى ، وعمير بن وهب جالس فى مكة ، داعياً إلى دين الله . حتى أراد الله تعالى أن يفتح للمسلمين فتح مكة .

وعاد المهاجرون والأنصار خلف رسول الله - ﷺ - وهو يطهر بيته من الأصنام والأوثان .

ويزيل هذا الركام المتعفن من الشرك والضلال .

عندها رأى عمير حبيبه رسول الله ، يحيط به الأنصار والمهاجرون . فانضم إلى صفوفهم يشاركهم فرحتهم .

ويحظى بالقرب من سيد الخلق - محمد رسول الله .

يقول عمير :

« عندما فُتحت مكة قام رسول الله - ﷺ - على الصفا يدعو الله وقد أحدقت به الأنصار .

فقالوا فيما بينهم :

أترون رسول الله - ﷺ - إذا فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها .. ؟

فلما فرغ من دعائه قال :

ماذا قلتم .. ؟

قالوا : لاشيء يا رسول الله .

فلم يزل بهم الرسول - حتى أخبروه.

فقال النبى - ﷺ :

« معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم » .

ويقول عمير :

رأيت فضالة بن عمير يريد قتل النبى - ﷺ - وهو يطوف بالبيت عام الفتح.

فلما دنا منه قال رسول الله - ﷺ :

أفضالة .. ؟؟

قال : نعم فضالة يا رسول الله .

قال : ماذا كنت تحدث به نفسك .. ؟

قال : لا شيء . كنت أذكر الله عز وجل .

فضحك النبى - ﷺ - ثم قال :

« استغفر الله » .

ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه .

فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شيء أحب إليَّ منه .

هروب صفوان بن أمية

وفى ذلك الوقت خرج صفوان بن أمية يريد جدة ، ليركب منها إلى اليمن .

فقال عمير بن وهب :

يا نبى الله : إن صفوان سيد قومه .

وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه فى البحر فأمنه يا رسول الله ...

قال عليه السلام : هو آمن ..

قال عمير : يا رسول الله اعطنى آية يعرف بها أمانك ..

فأعطاه رسول الله - ﷺ - عمامته التى دخل بها مكة .

فخرج بها عمير حتى أدركه - وهو يريد أن يركب فى البحر .

فقال : يا صفوان فداك أبى وأمى ، الله الله فى نفسك أن تهلكها . فهذا أمان من رسول الله - قد جئتك به ..

قال : ويحك ! .. اغرب عنى فلا تكلمنى ..

قال : أى صفوان فداك أبى وأمى ثم تابع حديثه بقوله :

« أفضل الناس وأبر الناس .

وأحلم الناس وخير الناس ابن عمك عزه عزك ، وشرفه شرفك .

وملكه ملكك » .

قال : إنى أخافه على نفسى .

قال : هو أحلم من ذلك وأكرم .

فرجع معه حتى وقف به على رسول الله - ﷺ .

فقال صفوان : إن هذا يزعم بأنك قد أمنتنى .

قال عليه السلام : صدق .

قال : فاجعلنى بالخيار شهرين ..

قال : أنت بالخيار فيه أربعة أشهر .

وهكذا أنقذ عمير صفوان من قتل نفسه ، ومن وصمة الكفر التى كان يتصف بها .

عمير فى غزوة حنين

جاءت غزوة حنين بعد فتح مكة .

فأبلى عمير فيها بلاءً حسناً ، ودافع عن رسول الله - ﷺ - واستطاع أن يفتح ثغرة فى صفوف المشركين .

حتى دق فى يده العديد من السيوف .

ومن تاريخ إسلامه أصبح فى المعارك والحروب التى تثار ضد المعوقين الواقفين ضد الدعوة إلى الإسلام .

الفارس الذى لا يشق له غبار ، المقاتل باسم الله .

المجندل جنود الكفر والطاغوت .

فإذا كان سلماً : أصبح المسلم الملتزم بدينه . وتعاليم رسوله .

يقرأ القرآن ، ويتفقه فى الدين ، ويدعو إلى الله على بصيرة .

ومن هذا التاريخ أصبح عـمير بن وهب فارساً من فرسـان مدرسة النبوة .

هؤلاء الرجال الذين خرجوا إلى دنيا الناس .

والظلام شامل ، والجهل حاكم . والعقائد زيف وأباطيل .

فمدَّنوا الدنيا .

وهذّبوا العالم .

وقرروا الحق للإنسان .

فلماذا غاب هؤلاء الرجال عن دنيا الوجود .. ؟

ومتى يعودون إليها رحمة مهداة من رب العالمين .

ومعرفة وإيمان .

حتى يُخرجوا البشرية كلها من ترابية الأرض إلى شفافية السماء .

متى يارب .. ؟

ثم ماذا يا أمة الإسلام .. ؟
منهج القرآن فى تربية الرجال

لقد كان جرحاً غائراً هذا الذى أصاب قريش فى غزوة بدر الكبرى .

لقد استطاع أتباع محمد – ﷺ – فى فترة وجيزة من عمر الزمن أن يتفوقوا على القوة الضاربة لقريش فى فنون الحرب والقتال .

ولم يمض على ذلك كـبـير وقت حـتى كان فـرسـان مدرسـة النبوة القـوة الضاربة الـتى هزمت جيوش الـفرس الجرارة وأوقـعت الهزيمـة الساحـقة فى جيوش الروم على مشارف الشام .

ويتساءل المرء : ما الذى حدث لهم ؟

وما العـامل الجوهرى الذى نقلهم هذه النـقلة الكبيرة فى فـترة وجـيزة من

عمر الزمن .. حتى أصبحوا سادة وقادة ؟

ما الذى جعل هؤلاء الرجال يختطون من شئون المعارك .

ويتفننون فى إدارة دفة الحروب ما عجزت عنه الدول فى تتابع القرون .. ؟

أهو الدربة على القتال .. والتدريب المتواصل فى أوقات متتابعة .. ؟

أهو القراءة والبحث والتعرف على أساليب الدول الأخرى .. ؟

الحقيقة أنه لم يكن هذا ولا ذاك .

وإنما الشىء الذى جعل منهم سادة وقادة .

هو القرآن الكريم الذى نزل به الروح الأمين من رب العالمين .

القرآن هو الذى انتشل أمة العرب من ترابية الأرض إلى شفافية السماء .

القرآن هو الذى جعل بينهم وبين خالق الأرض والسماء خيوطاً غير منظورة فكان كل واحد منهم يعبد الله كأنه يراه .

يراه معه فى كل وقت وحين ...

يراه معه حين يصبح وحين يمسى ..

يراه فى ضوء النهار وفى ظلام الليل ..

يراه فى الحقل ، وفى المصنع ، يراه فى المنتدى وفى المنزل .

يراه فى ظعنه وإقامته .

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ .. ④ ﴾ [الحديد]

ويقول أيضاً :

﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ⑦ ﴾ [المجادلة]

وعندما يصل إيمان الفرد إلى هذا الحد يتحول إلى إنسان جديد .

إنسان تربطه بالسماء أسباب غير منظورة .

فإذا ضعف أمام مغريات الحياة .

واستطاع الشيطان أن يفتح له نافذة إلى الشر .

ثم ارتكب جريمته فى ظلام الليل .

استيقظ إيمانه .
وقتله الحزن والأسى .
ولا يخرجه من ذلك إلا أن يعترف بجريمته .
ويطالب المجتمع بتطهيره من هذا الإثم وذلك بإقامة الحد عليه .
لقد كان الإنسان منهم فى جاهليته .
يشرب الخمر ، ويقتل النفس .
ويرتكب جريمة الزنا ، ويأخذ أموال الناس بالباطل .
حتى إذا دُعىّ إلى الإسلام ونطق بكلمة : لا إله إلا الله .
عندها يتحول إلى إنسان سوى .
وهذا ما حدث لعمير بن وهب .
لقد خرج من بيته يتلمظ غيظاً على قتل محمد .
خرج هذا الرجل بعد أن أعد عدته .
واتخذ سلاحه بعد شحذه .
وجمع الأهبة للسير إلى يثرب .
وفى الطريق إليها كان يحدث نفسه بالخطة التى رسمها .
والشر الذى نواه ، والدماء التى يريد أن يريقها .
حتى لو قدم فى سبيل ذلك نفسه وروحه .
ولكن ما كاد يدخل مدينة الرسول - ﷺ - حتى أخذ الخوف بمجامع قلبه .
والوساوس تناوشه من كل جانب .
إنه لا يستطيع أن يقتل محمداً وحوله هؤلاء الرجال .
ليس فى مقدوره أن يرفع السيف ويقتل هذا الرجل العملاق .
وما هى إلا برهة . حتى خنس الشيطان فى داخله .
وتحول إلى كومة من لحم ، يجذبها عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ويوثقها بحبل لا يستطيع منه فكاكاً .

ثم تأتى الثانية : عندما أخبره الرسول - ﷺ - بخبره مع صفوان ، والاتفاق الذى تم بينهما .

عندها ينهار الرجل ويعترف بكل شيء .

ويشهد بكلمة التوحيد .

ويؤمن إيماناً لا تزحزحه الجبال .

إن ما ينطق به محمد ليس من عند نفسه وإنما هو وحى من الله تعالى

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر]

ويعود رجل الجاهلية ربيب الكفر إلى ساحة الإسلام إلى واحة الإيمان .

ويبرز إلى الوجود فارس آخر من فرسان مدرسة النبوة .. هؤلاء الفوارس الذين هذّبوا الدنيا ، ومدّنوا العالم وقرروا الحق للإنسان .

فمتى يعود أبطالها مرة أخرى إلى ساحة الوجود .. ؟

متى يارب .. ؟

إنا لمنتظرون .. ؟؟



عبّاد بن بشر بن وقش

رضى الله عنه

يقول عبّاد بن بشر - رضى الله عنه :

« شهدنا أحداً مع رسول الله - ﷺ - أنا وأخى .

فرجعنا جريحين ، فلما أذن مؤذن رسول الله - ﷺ - بالخروج فى طلب العدو .

قلت لأخى أو قال لى : أتفوتنا غزوة مع رسول الله - ﷺ - والله ما لنا دابة نركبها وما منا إلا جريح ثقيل ، فخرجنا مع رسول الله - ﷺ - وكنت أيسر جرحاً منه ، فكان إذا تعب حملته حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون .. »

سيرة ابن هشام ٣ : ١٠١

■ عملاق من عمالقة مدرسة النبوة .
وفارس قدم كل مرْتَخَص وغالٍ في سبيل نصرة الإسلام .
ورجل من أفذاذ الرجال .
ومن السابقين إلى الإسلام الذين لبوا داعى الله عندما دعاهم إلى التوحيد الخالص .
وعبادة الواحد الأحد .
وأحد أفراد الكتيبة التى قتلت رأس الكفر كعب بن الأشرف .
ومن الأنصار الذين قال رسول الله - ﷺ - فيهم :
« لو أن الأنصار سلكوا وادياً أو شعباً لسلكت وادى الأنصار .
ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار .. » .
وقال أيضاً :
« الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق ، فمن أحبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله » .

نشأته وحياته

على بطحاء يثرب الخضراء شبت طفولته .
وفوق ثراها الحبيب تفجرت فتوته ، ونما عوده .
وعلى صهوات الخيل عرف عباد بن بشر كيف يدير المعارك .
فيقهر الأبطال ، ويجندل الفرسان .

ويحقق النصر والفوز الكبير .

ولكن من قبل هذا ومن بعده ، كانت حياته كحياة أمثاله فى مجتمع الجاهلية . بلا هدف ولا غاية .

حياة تسير رتيبة ، لا يغير مجراها تعاقب الليل أو مرور النهار إلا الغارة على قبيلة آمنة أو الوقوف فى وجه غارة .

حياة هادئة ساكنة ، كصفحة النهر المنساب إلى غايته .

لا يحرك موجه أو ماءه إلا العواصف المزمجرة ، أو تُلقى فيه بحجر ..

وكذلك كان عباد لا يتحرك من مجلس القبيلة إلا لنجدة الجيران عندما يحل بهم مكروه .

أو الخروج إلى الصحارى الممتدة المترامية إلى غير نهاية لصيد الغزلان القافزة ، أو قتل الوحوش الضارية .

وإن كان بين الحين والحين يثور داخلياً ، ويقف مشدوهاً حائراً عندما تطرق سمعه الأقوال التى يطلقها يهود يثرب . بأن نبياً يبعثه الله تعالى .

وقد اقترب زمانه .

وأن السماء تفتح أبوابها كل حين من الدهر .

لينزل وحى الله على رسوله وأنبيائه .

لهداية البشر إلى الدين الحق .

وهدم الطغيان والبهتان .

وتكسير الأصنام حتى تعود البشرية كلها إلى عبادة خالق الأرض والسماء .

وإن كانت هذه الأقوال لا تكاد تعلق فى ذاكرته طويلاً بعدما يسأل نفسه أسئلة كثيرة . لا يجد لها جواباً .

وكانت أسئلته تبدأ دائماً من أين .. ؟ وإلى أين .. ؟

من أين جاءت السماوات المرفوعة ..؟

وإلى أين تعود .. ؟

وهذه الأرض المبسوطة متى تعود إلى الفناء .. ؟

وعندما يصل إلى هذا الحد من الحيرة والتساؤل .

يضيق صدره ، ويعقد لسانه .

ولا يخرجه من ذلك إلا أن يمتطى صهوة جواده ويطلق له العنان ..

حتى يتوغل خارج العمران بضعة أميال ، فـيشاهد الجبال العالية ، وقممها المرتفعة .

ويتأمل فى اللانهائى الذى لا يصل إليه طرفه ..

ولا يستطيع بأى حال من الأحوال أن يدرك مداه .

وكانت هذه الأشـياء كثيـراً ما تؤرقه ، وتقضى مـضـجعه ، وتملأه بالحـيرة والأسى .

عبَّاد بن بشر فى طريقه إلى الإسلام

فى يوم من الأيام شعر بالنسمات العليلة تملأ الأفق .

وشـاهد من شـرفـة داره الزهور اليـانعة ، والورود المتفـتـحـة تغطى كل الأغصان ، وتتمايل مع فروع الأشجار .

عندها أراد أن يتـجول فى طرقـات المدينة . حتى يلتـقى بأترابه من شـباب يثرب .

وما كـاد يخطو بضع خطوات فى اتجاه ساحـة الخيول حـيث يتدرب فيـها الشبـاب على الكر والفر ، والانقضاص على العـدو . حتى طرق سمـعه صوت ملائكى لم يسمعه من قبل وحديث أثلج صدره لم تألفه أذناه .

لقد حمل له الأثير هذه الكلمات :

﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٦ ﴾ [الحديد]

فتسمرت أقدامه فى الأرض .

وغاب عن الوجـود لحظات لم تطل ، حيث أيقظه منهـا يد تربت على كتـفه . فالتفت خلفه فوجد سعد بن زرارة زميل الطفولة ورفيق الشباب .

يدعوه إلى الدخول فى المكان الذى انبعث منه هذا الصوت الملائكى ..

وما كـاد يدلف إلى داخل الدار .. حـتى وجد شـيخـاً تعلوه المهابة والـوقار ويجلس أمامه :

أسيد بن خضير .

وسعد بن عبادة .

وهما يستمعان إلى هذا الشيخ فى صمت شامل وإعجاب كبير .

ولم يكن هذا الشيخ إلا مصـعب بن عمير القـرشى - رسول النبى الجديد ، الذى ظهر فى مكة . ويوحى إليه من ربه .

وما كاد مصعب ينتهى من قراءته حتى قال أسيد بن خضير :

ما أحسن هذا الكلام وأجمله .. ؟؟

كيف نصنع إذا أردنا أن ندخل فى هذا الدين الحق .. ؟

قال مصعب : تغتسل ، فتطهر ، وتطهر ثيابك ، ثم تشهد شهادة الحق .

وهى « لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » .

ثم تصلى فتركع وتسجد .

وأخذ هذا المشهد بكل مسامع عباد بن بشر .

وأحس بأن نوراً يملأ كل جوانب قلبه .

وضياء يغمره ويضىء له فكره وعقله .

ويداً خفية حانية تدفعه إلى الإسلام دفعاً .

وأمام مصعب سفير الرسول إلى يثرب .

أعلن عباد بن بشر دخوله إلى الإسلام .

ونطق بالشهادتين . وآمن بالخالق المبدع . الواحد الأحد .

خالق الأرض والسماء ، وموجد الحياة والموت .. وهو اللطيف الخبير .

عبَّاد بن بشر فى استقبال الرسول فى يثرب

واستمر عباد فى التفقه فى دينه .

ومعرفة الكثير من تعاليم ربه .

حتى وصل إلى علمه أن الرسول - ﷺ - خرج من مكة مهاجراً إلى يثرب .

فكان يخــرج كل صـبـاح يجلس عـلـى مـشـارف المدينة يتــرقب وصــول الرسول - ﷺ .

وفى يوم مشهود ليس كمثله يوم .

جاء الـبشيـر بوصول الرســول - ﷺ - إلى مشــارف المدينة وجلس عـباد يستمع إلى أطفال المدينة وشبابها وهم يرددون أحلى نشـيد عرفته البشرية فى تاريخها الطويل :

طلـع البــدر علينــا ... مــن ثنيـات الــوداع
وجـب الشكر عـلينــا ... مــا دعـــا لله داع
أيها المبـعوث فـيـنــا ... جئـت بالأمـر المطـــاع
جئت شرفت المديـنـة ... مـــرحبــاً يــا خـيـر داع

لقد أحس عـبَّاد عندما نطق بالشــهادة ـ شهادة التـوحيد ـ بأنه صــار خلقاً جيداً .

وبأنه تخلص من أيامه ولياليه السابقة إلى غير رجعة .

وبأن عليه واجباً جديداً إزاء الدين الجديد .

وعليه أن يعمل جاهداً على إذاعته ونشره .

أما الآن . وبعد وصول الرسول - ﷺ - إلى المدينة .

فقد أحس عبَّاد بأنه يجب أن يعد نفسه إعداداً حربياً ليكون الفارس المدافع .

والجندى المرابط الذى يترقب أوامر الرسول - ﷺ .

أوامر القائد الأعلى للفئة المؤمنة . فيقوم على تنفيذها بلا تكاسل أو توانٍ .

عبَّاد بن بشر فى المعارك الأولى للفئة الباغية

لقد ظهرت بطولة عبَّاد فى المعارك الأولى التى خـاضها المسلمون ضد الفئة الباغية بجندلة أبطالهم ، ومصاولة فرسانهم .

وحدث ذلك وبرزت عبقريته القتالية فى غزوة بدر الكبرى .

تلك الغزوة التى استطاع المسلمون فيها أن يلقنوا عصابات الكفر دروساً فى فن الحروب وإدارة المعارك .

وتساقطت جثثهم وتطايرت رقابهم .

وفر أحياؤهم فرار الأرانب عندما رأت الأسود .

اليهـود والفتنـة

ولكن انتصار المسلمين .. أرهب وأغضب اليهود فى يثرب .

اليهـود الذين وصفـهم القرآن بأنهم إخـوان القردة و الخنازير . ووصـفهم المسيح عليه السلام : بأنهم أحفاد إبليس اللعين .

نقـول هذا النصر الكبـير الذى وهبـه الله تعالى للمـسلمين ، أغـضب هؤلاء اليهود .

فأخذوا فى إثارة الشائعات ، ومحاولة الكيد لجماعة المسلمين .

وقال رأس الكفر كعب بن الأشرف :

« والله لئن كان محمد أصـاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها » .

فلما تيقن عدو الله من ذلك خرج إلى مكة .

وأخذ يحرِّض على قتال رسول الله .

وينشد الأشعار ويُندب على من قُتل من المشركين يوم بدر .

فقال أبو سفيان بن حرب لكعب بن الأشرف :

أناشدك أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه .. ؟

ثم تابع أبو سفيان حديثه :

وأينا أهدى فى رأيك وأقرب إلى الحق .. ؟

فقال له كعب بن الأشرف :
« أنتم أهدى منه سبيلا » .
فأنزل الله على رسوله ﷺ .
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) ﴾ [النساء]
ثم ماذا .. ؟ عاد كعب بن الأشرف إلى المدينة .
عاد ليعلن العداوة ويحرِّض الناس على الحرب . ويقول : إنه لم يخرج من مكة حتى جمَّع حلفاء قريش على حرب محمد وأصحابه .
وأخذ يشبب بأم الفضل بن الحارث ويتغزل فى نساء المسلمين .
فقال رسول الله – ﷺ :
مَنْ لابن الأشرف .. ؟
فقال محمد بن مسلمة : أنا لك به يا رسول الله . أنا أقتله .
واجتمعت الكتيبة المسلمة المكونة من : محمد بن مسلمة .
وعباد بن بشر بن وقش الأنصارى .
وسلكان بن سلامة – وكان أخاً لكعب من الرضاعة .
وتم قتل عدو الله .

عبَّاد بن بشر فى غزوة أحد

وجاءت غزوة أحد تلك الغزوة التى أُكره رسول الله على الخروج لقتال المشركين .
حيث قال رجال قولاً صدقوا به ومضوا عليه منهم :
١ – حمزة بن عبد المطلب – رضى الله عنه ـ الذى قال : والذى أنزل عليك الكتاب لنجالدنهم ..
٢ – نعيم بن مالك – رضى الله عنه ـ الذى قال : يا نبى الله لا تحرمنا الجنة فوالذى نفسى بيده لأدخلنها .
٣ – أنس بن النضر ـ رضى الله عنه ـ الذى قال : والذى نفسى بيده إنى لأجد ريح الجنة من قبل أُحد .

عندها خرج الرسول - ﷺ - وخرج معه عباد بن بشر وأخوه ..
وقاتلوا قتالاً شديداً .
وتكسرت فى أيديهم السيوف .
ثم عادوا إلى المدينة وكلهم كلوم وجراح ..

خروج عبَّاد وأخيه خلف أبى سفيان
لأمر الرسول عليه السلام

يقول عبَّاد سمعت أنا وأخى النداء بتجمع المسلمين وخروجهم مع الرسول - ﷺ - خلف أبى سفيان الذى توعد باستئصال شأفة المسلمين ..
قلت لأخى : أو قال لى :
أتفوتنا غزوة مع رسول الله - ﷺ .
والله ما لنا من دابة نركبها .. !!
وما منا إلا جريح ثقيل .. !!
فخرجنا مع رسول الله - ﷺ .
وكنت أيسر جرحاً من أخى .
فكان إذا غلب حملته .
حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون .
فنزل قول الله تعالى :

﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) ﴾ [آل عمران]

واستمر عباد بن بشر فارس رسول الله - ﷺ - وبطلاً من أبطاله .
يمتثل أوامره .
ويلبى ما يطلبه منه .

ثم توالى كر الليالى والأيام وعباد بن بشر قريب من رسول الله – ﷺ – .

عن عائشة – رضى الله عنها – قالت :

تهجد رسول الله – ﷺ – فى بيتى فسمع صوت عباد بن بشر .

فقال : يا عائشة صوت عباد بن بشر هذا .. ؟

قلت : نعم .

قال : اللهم اغفر له .

وعن يحيى بن عباد عن أبيه عن عائشة قالت :

ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلاً .

كلهم من بنى عبد الأشهل :

سعد بن معاذ .

وأسيد بن خضير .

وعباد بن بشر .

رضى الله عنهم وأسكنهم فسيح جناته .

عبَّاد بن بشر فى حروب الردة

جاء أجل رسول الله – ﷺ – فارتدت الجزيرة العربية إلا من عصم ربى . وادَّعى مسيلمة الكذاب النبوة ..

فانبرى الخليفة أبو بكر لقتال المرتدين وجيَّش الجيوش لذلك وقال كلمته المشهورة :

« والله لو منعونى عقالاً كانوا يعطونها لرسول الله – ﷺ – لقاتلتهم عليه » .

وانخرط عباد بن بشر فى الجيش الذاهب لقتال مسيلمة بقيادة خالد بن الوليد – **رضى الله عنه** .

وفى الطريق إلى اليمامة اقترب من عبَّاد أبو سعيد الخدرى – رضى الله عنه .

فقال له عبّاد :

يا أبا سعيد :

قلت : نعم يا عبَّاد ماذا تريد .. ؟

قال : لقد رأيت الليلة كأن السماء قد فرجت لىّ .

ثم أطبقت علىّ ، فهى إن شاء الله الشهادة .

قلت : خيراً والله رأيت .

ثم أسرعت بنا الخيل عندما اقتربنا من منازل بنى حنيفة .. !!

وما كدنا نبدأ القتال ، ويلتحم الجيش .

حتى رأيت عبَّاد يقف على ربوة عالية ، ويصيح بالأنصار :

« احطموا جفون السيوف . وتميزوا عن الناس .

وجعل يقول : أخلصونا أخلصونا .

فأخـصلوا أربعمائة رجل من الأنصـار . ما يخالطهم أحـد يقدمهم عـبَّاد بن بشر وأبو دجانة والبراء بن مالك .

وتقدموا حتى انتهوا إلى باب الحديقة .

فقاتلوا أشد القتال : ثم أحكموا الحصار على مسيلمة الكذاب .

وشد عليه وحش بن حرب بحربته فسقط مضرجاً فى دمائه .. !!

فتقدم إليه عبَّاد ليجهز عليه ، فرموه بالسهام ... !!

فسقط شهيداً .

سقط الفارس المغوار.

سقط مجندل الكفر وأهله .

سقط قاتل رأس الكفر كعب بن الأشرف .

يقول صاحبه أبو سعيد الخدرى :

رأيت بوجهه إصـابات كثيرة أوجدتهـا السهام المتلاحـقة ، والرماح التى لم تخطىء وجهه وقلبه .

وهكذا يكون الأبطال جند الله .

يقاتلون فى سبيله حتى ينالوا الشهادة .

هكذا يكون الفرسان الذين يدافعون عن كلمة الله لترتفع عالية خفاقة .

وهكذا يموت جند الله وهم واقفون .

يموتون وهم يتلقون سهام الأعداء وهم مقدمون غير مدبرين .

ومن هذا النمط الفريد كان عبَّاد بن بشر .

ثم ماذا .. ؟ سقط فارس من فرسان مدرسة النبوة .

سقط فارس ولا يزال مكانه شاغراً فى مقدمة الجيش .

فمَنْ منْ أبناء المسلمين يملأ هذا الفراغ فى ساحة القتال ؟!

مَنْ منْ أبناء المسلمين يكون عبَّاد بن بشر الجديد .. ؟!

مَنْ يا أتباع محمد - ﷺ ؟!

إنا لمنتظرون ...

ثم ماذا يا أمة الإسلام .. ؟

تاريخ اليهود قديماً وحديثاً

اليهود من قديم لهم تاريخ أسود كالح يتمثل فى تكذيبهم الرسل . وقتلهم الأنبياء .

والمستعرض لتاريخهم يرى عجباً .

فعندما أرادوا أن يخرجوا من مصر ارتكبوا أكبر جريمة سرقة واحتيال فى تاريخ البشرية .

حيث أوهمت كل امرأة يهودية جارتها المصرية .

أنها دُعيت إلى عرس كبير وطلبت منها أن تعيرها حليها ومجوهراتها حتى تتزين بها .

فإذا انتهى العرس . ردت إليها ما أخذته منها ...

واستجابت النسوة المصريات لطلب اليهوديات وقدمن كل ما طُلب منهن عن طيب خاطر .. !

ولكن اليهوديات خرجن بليل إلى أرض التيه .

وهناك وسط الصحراء الممتدة - صنعوا من هذا الذهب عجلاً جسداً له خوار كما عبر القرآن الكريم بقوله تعالى :

﴿ وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [طه]

صنعوا إلههم من ذهب مسروق ..

وعبدوا هذا الإله وقدموا له القرابين .

وطافوا حوله يرتلون الأغانى وينشدون الأناشيد .

وجاء موسى عليه السلام فأخذ من هول المفاجأة .

أتُعْبد الأصنام ويترك الواحد الأحد . الفرد الصمد .. ؟

ونزل باللائمة على أخيه هارون عليه السلام .

ولكن هارون عليه السلام وضح لأخيه ما فعله القوم . وما قاله لهم :

﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) ﴾ [طه]

وطلب منهم موسى عليه السلام الذهاب إلى فلسطين . حتى يبعدهم عن فرعون وناره ، وما فعله بهم من قتل أبنائهم واستحياء نسائهم .

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) ﴾ [المائدة]

وعندما طلب موسى منهم ذلك مرة أخرى قالوا :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) ﴾ [المائدة]

وعندما جاء المسيح عليه السلام رموه وأمه بأقبح التهم .. !

وتقولوا عليه أقوالاً كثيرة .

وطاردوه فى كل مكان .

وأرادوا فى النهاية قتله .

ولكن الله نجاه منهم . قال تعالى :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) ﴾ [النساء]

ثم جاء خاتم النبيين – محمد – ﷺ .

ووقف اليهود له بالمرصاد ، وحاربوه بكل سلاح الكيد والمؤامرة .

وألبوا عليه الأحزاب .

ولكن رجال مدرسة النبوة استطاعوا أن يلقنوا هؤلاء الأعداء درساً قاسياً ..
وقتلوا زعماءهم .
وجندلوا أبطالهم .
وأخرجهم الرسول - ﷺ - من الجزيرة العربية كلها .
خرجوا مقهورين مهزومين قال الله تعالى :
﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) ﴾
[الحشر]

رحم الله عبَّاد بن بشر ، لقد كان فارساً من فرسان مدرسة النبوة .

المقداد بن عمرو بن ثعلبة

رضى الله عنه

قال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه :
لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون صاحبه
أحب إلىَّ مما طلعت عليه الشمس .
وذلك أنه أتى النبى - ﷺ - وهو يذكر المشركين فقال : يا رسول الله :
« إنا والله لا نقول لك كما قال أصحاب موسى لموسى
﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المائدة]
ولكننا نقاتل بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك » .
قال : فرأيت رسول الله - ﷺ - يشرق وجهه لذلك وسرَّه وأعجبه ...
الاستيعاب ٤ : ١٤٨٢

■ فارس عملاق من فرسان مدرسة النبوة .

ومقاتل كان دائماً يخترق صفوف الأعداء فيفروا هاربين ..

وكان أسود الوجه ، أبيض القلب ، صافى السريرة .

وكان عالى الصوت يرج الأرض تحت أقدام الأعداء رجاً .

جاء إلى مكة ـ وهو يخطو الخطوات الأولى فى سلم الفتوة والشباب ، فتعلم فنون الحرب والقتال .

وله دراية وخبرة باستراتيجية المعارك .

وأصبح محارباً لا يعرف طعم الهزيمة .

وفارساً يفر من هيبته الأبطال .

وعندما أعلن الرسول ـ ﷺ ـ الدعوة إلى التوحيد.

بادر المقداد فأعلن إسلامه .

ومن هذا التاريخ أصبح المقداد إنساناً جديداً .

إنساناً جديداً فى معاملة الآخرين .

إنساناً جديداً يعبد الله كأنه يراه .

إنساناً جديداً فى تفكيره وسرعة بديهته .

إنساناً جديداً فى حله وترحاله والتزامه بأوامر الإسلام .

نشأته وحياته

اعتاد المقداد أن يغدو إلى عمله مبكراً ..

التزاماً بقوله عليه السلام :

« البركة فى البكور » .

فإذا جاء المساء فهو مع الرسول - ﷺ .

يتفقه فى دينه ، ويتعرف على شريعة ربه .

فإذا جنَّ الليل فـهو مع ربه راكعاً سـاجداً حتى يلحق بزمـرة الذين قال الله تعالى فـيهم : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا .. (١٦) ﴾ [السجدة]

ويصمت التاريخ فلا يتحدث عن المقداد فى بداية الدعوة فى مكة .

ولا يضعه فى قـائمة المستضـعفين من المؤمنين الذين كانت قـريش تخترع الأساليب فى تعذيبهم والتنكيل بهم .

ونتساءل : كيف نجا المقداد من تعذيب أعداء الدعوة .. ؟

أكان يخفى إسلامه .. ؟

ومن هنا نجا جسده من سياط مردة الشياطين .. !

أم أنه كان قوياً يصرع الرجال ويجندل الفرسان . ؟

ولذلك هابته قريش ولم تفكر فى إيذائه أو الاقتراب منه .. ؟

إننا نميل إلى الرأى الأول .

وهو أنه كان لا يظهر إسلامه .

والدليل على ذلك : إنه عندما أراد الهجرة خرج مع قافلة للمشركين .

وانضم إلى صفوف المسلمين عندما نشبت المعركة بينهم .

وذلك فى السرية التى بـعث فيها رسـول الله - ﷺ - عبيـدة بن الحارث إلى ثنية المرة .

فلقوا جمعاً من قريش عليهم عكرمة بن أبى جهل ..

ولم يكن بينهم كبير قتال .

المقداد فى مدينة الرسول عليه السلام

... ووصل المقداد إلى المدينة والتقى برسول الله - ﷺ .

فآخى بينه وبين جبار بن صخر .

جبار أحد السبعين فى بيعة العقبة الثانية .

ويقول عن نفسه : صليت مع النبى - ﷺ - فقمت عن يساره ، فأخذنى وجعلنى عن يمينه ..

يقول المقداد :

لما نزلنا المدينة عشرنا رسول الله - ﷺ - يعنى فى كل بيت عشرة - فكنت فى العشرة الذين كان النبى - ﷺ - فيهم .

ولهذا قال الرسول - ﷺ :

« إن الله عز وجل أمرنى بحب أربعة من أصحابى ..

وأخبرنى بأنه يحبهم :

فقيل يا رسول الله ، مَنْ هم .. ؟

قال : علىٌّ بن أبى طالب - رضى الله عنه .

والمقداد بن عمرو - رضى الله عنه .

وسلمان الفارسى - رضى الله عنه .

وأبو ذر الغفارى - رضى الله عنه .

زواج المقداد بن عمرو

كان المقداد رجلاً طويلاً ، أسمر اللون ، أبيض القلب .

كثير شعر الرأس ، واسع العينين .

مقرون الحاجبين .. طيب القلب .. صافى السريرة .

تقدم لخطبة إحدى النساء من رجل من قريش . فأبى أن يزوجه ...

وسمع الرسول - ﷺ - بهؤلاء القوم الذين رفضوا أن يزوجوه فقال لهم :

لكنى أزوجه ضُباعة ابنة الزبير بن عبد المطلب .

وبر الرسول - ﷺ - بما وعد .

وتزوج المقداد من ضُباعة .

رؤيا عاتكة وغزوة بدر

وضُباعة هذه عمتها عاتكة بنت عبد المطلب صاحبة الرؤيا المشهورة التى قالت فيها لأخيها العباس بن عبد المطلب قبل غزوة بدر :

يا أخى والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتنى .. !

وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة فاكتم ما أحدثك به ..

قال : وما رأيت .. ؟

قالت : رأيت راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح .

ثم صرخ بأعلى صوته « ألا انفروا يا آل غُدر لمصارعكم فى ثلاث .. »

فأرى الناس اجتمعوا حوله ..

ثم دخل المسجد والناس يتبعونه . فبينما هو حوله مال به بعيره على ظهر الكعبة ثم صرخ بمثلها :

ألا انفروا يا آل غُدر لمصارعكم فى ثلاث .

ثم مال به بعيره على رأس أبى قبيس . فصرخ بمثلها .

ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل تفتت.

فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلها فلقة .

قال العباس : والله إن هذه لرؤيا وأنت فاكتميها .

ثم خرج من عندها فلقى الوليد بن عتبة . وكان صديقا للعباس .

فذكر له الرؤيا فذكرها الوليد لأبيه عتبة .

فشاعت فى مكة وتناقلتها الأفواه .

قال العباس : وفى اليوم التالى غدوت لأطوف بالكعبة .

فإذا أبو جهل مع جماعة من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة .

فلما رآنى أبو جهل قال :

« يا أبا الفضل : متى حدثت فيكم هذه النبية .. ؟

قلت : وما ذاك ..

قال : تلك الرؤيا التى رأت عاتكة .. ؟

قلت : وما رأت .. ؟

قال : يا بنى عبد المطلب ، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم .. !!

ثم تابع حديثه قائلاً :

لقد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال :

« انفروا فى ثلاث » .

فسنتربص بكم هذه الثلاث .

فإن يك حقاً ما تقول فسيكون .

وإن تمضى الثلاث . ولم يكن من ذلك شىء .

نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب بيت فى العرب ..

ثم ماذا : صدقت رؤيا عاتكة ..

ولم يمض ثلاث حتى كان ضمضم بن عمرو الغفارى يصرخ ببطن الوادى وهو يقول :

يا معشر قريش :

اللطيمة اللطيمة !!

أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ..

لا أرى أن تدركوها الغوث .. الغوث .. !!

وخرجت قريش برجالها وعتادها .

خرجت بشبابها ونسائها .

خرجت وهى تعد للشر عدته .

وتريد أن تنال من محمد وأصحابه .

وعلم الرسول ـ ﷺ ـ فنادى فى أصحابه وأنصاره وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر فقال : وأحسن .

ثم قام عمر بن الخطاب فقال : وأحسن .

ثم قام المقداد بن عمرو فقال :

« يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك .

والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى :

﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) ﴾ [المائدة]

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون :

فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه» .

هذه الكلمات الصادقة المخلصة الصادرة من قلب مؤمن تدل على صاحبها وتكشف عن المعدن الأصيل ، والنفس المؤمنة التى يضمها إهاب الصحابى الجليل المقداد بن عمرو ، فلما سمع الرسول - ﷺ - كلام المقداد أشرق وجهه ، ودعا إلى خير ثم قال لأصحابه : سيروا على بركة الله .

وصدقت رؤيا عاتكة .. وتساقط القتلى من كل بيوتات قريش ، كما قالت الرؤيا أن الصخرة تفتت ولم تترك بيتاً إلا أصابته ..!!

المقداد بن عمرو
يأسر النضر بن الحارث

لقد كان المقداد أحد الرماة الشجعان فى تلك الغزوة .

وتمكن من أسر فارسها النضر بن الحارث الذى كان من أشد قريش فى تكذيب النبى - ﷺ - والأذى لأصحابه ..

وقدمه المقداد للرسول - ﷺ - .

فأمر عليه السلام على بن أبى طالب فقتله .

فقالت قتيلة بنت الحارث أخت النضر :

أمحمد يا خير نسل كريمة
فى قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما
منَّ الفتى وهو المغيظ المحنق
لو كنت قابل فدية لفديته
بأعز ما يغلو به ما ينفق
والنضر أقرب من أسرت قرابة
وأحقهم إن كان عتق يعتق

قال ابن هشام إن رسول الله - ﷺ - لما بلغه هذا الشعر قال : « لو بلغنى هذا قبل قتله لمننت عليه » .

واستمر المقداد فى قربه من الرسول - ﷺ - .

ويشارك جماعة المسلمين حلو الحياة ومرها .

ونقول : إن المقداد القائد وجماعة المسلمين الأول الذين التفوا حول نبيهم وأجابوا داعى الله – هم الصفوة المختارة التى اختارها الله لدينه .

فكانوا المقدمة فى الأمة الوسط .

الأمة الوسط التى قال الله تعالى فيها :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) ﴾ [آل عمران]

الأمة الوسط التى ستكون شاهدة على الناس ..

ويكون الرسول شاهداً عليها ، وحاكماً على أعمالها .

الأمة الوسط التى تلقت كتاب الله فعملت به .

الأمة الوسط التى طهّرت الأرض من الشرك والكفر والبهتان .

وأقامت بنود التوحيد عالية خفاقة فى ربوع الكون .

وكان هذا إيذاناً بالطوفان الذى اقتلع الكفر والضلال .

المقداد بن عمرو فى فتح مصر

اشترك المقداد بن عمرو مع الوفد الذى أرسله عمرو بن العاص إلى المقوقس كطلبه ووعى المقداد أن عبادة رسول حرب من الطراز المتفرد .

لقد أرعب المقوقس بسلامة بنيانه وقوة إيمانه .

ثم عرف يضرب فى المحز كما يقولون ، فهو يقول للمقوقس :

إذا شكلى قد أرعبك ، فهناك أصحابى كلهم على شاكلتى .

وإن كان قد أصابنى الكبر ، فهناك على الضفة الأخرى فرسان المعارك.

وهؤلاء جميعاً قد فرغوا من الدنيا وفرغت منهم الدنيا . وكلهم يتمنون أن ينالوا الشهادة .

ويتساءل المرء : مَنْ كان يتصور أن هؤلاء الرجال الذين خرجتهم البادية ، وقست عليهم ظروف الطبيعة وعاشوا حياتهم الجاهلية بعيدين عن خدع الحرب ومعرفة خبايا النفوس . . تكون لهم المقدرة الفائقة من الحرب النفسية التى شنها عبادة على عظيم مصر، فقضى على كل مقاومة عنده وملأ نفسيته بالرعب والفزع ؟!

وإذا مـا وصل قائد إلـى هذه الحالة من الاضطـراب والهول ، فـقـد خسـر المعركة وسلمت بلاده .

وهكذا هُزم القـائد فهُزمت مـصر - وسُـقطت قلاعهـا أمام القـوة الضاربة المسلمة .

واسـتراح المقداد بعـد فتح مصر واطمأن قلبه وهو يشـاهد جيوش المسلمين تخرج من مـصر المسلمة لتنشـر كلمة التوحـيد على هؤلاء الذين يعيـشون فى أحراش أفريقيا على البدائية والفطرة .

ثم تنتقل الكتائب الإسلامية عبر البحر المحيط إلى الأندلس .

فيُنشر الإسلام ، وتُملأ القلوب بالإيمان .

عندها أغمض المقداد عينيه إلى الأبد .

وفارقت روحه جسده إلى بارئها فى منطقة الجرف بأرض مصر .

ثم حُمل إلى المدينة ، فصلى عليه الخليفـة عثمان بن عفان - رضى الله عنهم أجمعين ، وأسكنهم فسيح جناته .

ثم ماذا .. ؟

افتقدت مدرسة النبوة فارساً آخر من فرسانها ..

ولا يزال مكانه شاغراً .

ثم ماذا يا أمة الإسلام .. ؟

المسلمون بين الأمس واليوم

الراصد لحياة الصحابى المقداد بن عمرو - رضى الله عنه .

يلحظ أنه كان دائماً فى معركة ، أو خارجاً من معركة .

فإذا دخل المعركة كان نصب عينيه دائماً إما النصر وإما الشهادة .

ولقد كان لهذه المعارك التى خاضوها أثر كبير فى حياتهم .

فهى تصقل أجسادهم وترفق أرواحهم .

وتجـعل الواحد منهم فى لحـظة يودع هذه الحيـاة الفـانية، وينسم نسـائم الجنة.

واستـمرت هذه الروح مسـيطرة على جماعـة المسلمين ، حتى فى الفـترات الأخيرة من هذا الزمن .

ومصداق ذلك .

إن دولة الأندلس فتحها القائد العظيم طارق بن زياد الذى قال لجنوده يوم المعركة :

العدو أمامكم والبحر خلفكم وليس والله لكم إلا النصر أو الشهادة فاقتحموها اقتحام السيل .

ورددوا فى جنباتها اسم : الله أكبر .

ولم ينس الفرنجة درة بلادهم ـ الأندلس ـ التى سقطت فى أيدى المسلمين فكانوا دائماً يبذلون الجهد لاستردادها .

ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل .. !!

وتقول إحدى الروايات التاريخية :

أرسل الفرنج جاسوساً لهم ليتعرف على قوة المسلمين فوق أرض الأندلس .

فالتقى هناك بفتى يافع يجلس تحت شجرة ودموعه تبلل خديه ، فاقترب منه وسأله : ما بك .. ؟

فلم يجب الطفل .

ولكن الجاسوس لم ييأس وما زال بالطفل حتى قال له : خرجت مع أترابى نتدرب على إصابة الهدف ...

وكلهم أصابوا الهدف برمية واحدة ..

ولكنى فشلت فى ذلك .. !!

فهون الجاسوس عليه الأمر قائلاً :

ألق بسهم آخر ، فلعلك تصيب الهدف ..

فنظر إليه الفتى بغيظ شديد . وقال : إن فشلت فى إصابة الهدف برمية واحدة . فكيف أفعل غداً عند ملاقاة العدو ..

عندها عاد الجاسوس مسرعاً إلى بلده . وقال لمليكه ما سمعه من الفتى العربى ..

فقال الملك :

« إن هؤلاء القوم فى خرجتهم هذه ، معهم دينهم وكتابهم فلا طاقة لأحد بهم الآن .

إنهم كالسيل يحمل من يصادره ، وهم فى إقبال أمرهم ، ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد .

وقلوب تغنى عن حصانة الدروع .

ولكن أمهلوهم حتى تمتلى أيديهم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا فى الرياسة ، ويستعين بعضهم على بعض .

فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر .

فهل تحقق ما تنبأ به ملك الفرنج .. ؟

هل استعان المسلمون على بعضهم بأعدائهم .. ؟

الجواب : أن نعم .

لقد استعان حكام الولايات بالأندلس بأعدائهم من الفرنج لكسر شوكة إخوانهم من أمراء الأندلس .

واستعان ابن العلقمى الوزير الشيعى بالمغول لتحطيم الدولة السنية فى بغداد . واستعان الوزير الفاطمى فى مصر بالصليبيين للقضاء على المناوئين له فى الحكم .

ثم ماذا .. ؟ سقطت دولة الأندلس وسقطت بخارى ، وسمرقند والقوقاز وطشقند وفلسطين . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

سعــد بـن أبى وقـــاص

رضى الله عنه

قال الرسول - ﷺ - لسعد بن أبى وقاص :

« اللهم سدد سهمه ، وأجب دعوته ، وحببه إلى عبادك المؤمنين » .

وكان عليه السلام يشير إليه ويقول :

هذا خالى فليرنى امرؤ خاله ..

طبقات ابن سعد ٣ : ١٤٢

■ القائد الذى حنكته المعارك الضارية .
والفارس المغوار الذى لم يعرف طعم الهزيمة قط .
والجندى الملتزم الذى لم تغب عنه شاردة ولا واردة إذا احتدم القتال .
والصانع الماهر لأدوات القتال وإعدادها .
وأحد رجال الشورى التى وقعت عين ابن الخطاب عليه .
وهو على آخر مشارف الدنيا وأول عتبات الآخرة .
والعابد الأواب .
والقانت التواب .
والمبشر بالجنة التى عرضها السماوات والأرض .
كان يصنع النبال ويقوِّم السيوف فى الجاهلية .
فلما جاء الإسلام كان من أبرع الرماة وأشجع الفرسان .

نشأته ودخوله الإسلام

قال سعد ـ رضى الله عنه :
« لقد مكثت سبعة أيام وإنى لثلث الإسلام .
وتقول ابنته عائشة ـ رضى الله عنها ـ :
دخل أبى الإسلام مبكراً عن طريق داعية الإسلام أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه .

وكان سنه إذ ذاك : سبع عشرة سنة .

تلك الفترة من العمر التى تعتبر أولى مـراحل الشباب ، وتتفتح فيها القلوب لكل شـىء تلتقى به .

لأنها صافية خالية .

وتتكامل فيها شخصية الفرد ، وتنمو ملكاته ..

ولقد تفـتح قلب سعد للنور الجديد . والهـدى الجديد ، فلم يعرف إسـفافات الجاهلية وتقاليدها .

ولا عبث الشباب وانسياقه خلف عواطفه ...

قريش تحكم قبضتها على المسلمين فكانت الهجرة

يتسـاءل الإنسان : ماذا كانـت تصير إليه الأمـور ، لو تركت قريش محـمداً وأصحابه يعبدون الله كما أمرهم . ولا يتعرضون لهم بإهانة أو استهزاء ..

ولا يسددون عليهم المنافذ ويقطعون عليهم الطرق .. ؟!

أكانت تتم الهجرة .. ؟

أكان الله يقيض للإسلام فى مكة أمثال رجال الأنصار ..؟

إن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أمراً هيأ له أسبابه .

وسعد أول من رمى بسهم فى سبيل الله ، عندما انضم إلى كـتيبة عبيدة بن الحارث حين بعثه رسول الله ـ ﷺ ـ إلى رافغ ـ مكان قرب مكة .

ليتلقى عير قريش ، فتراموا بالنبل .

وكان سعد أول من رمى بسهم فى سبيل الله ..

سعد يحرس رسول الله وبعدها يدعى للزود عن الأمة الإسلامية

فى إحدى الليالى فى يثرب أرق الرسول ـ ﷺ . فقال :

« ليت رجلاً صالحاً من أصحابى يحرسنى » .

تقول السيدة عائشة ـ رضى الله عنها :

فلم تمض لحظة واحدة إذ سـمعنا صوت السلاح فـقال الرسول ـ ﷺ : مَنْ هذا .. ؟

قال : أنا سعد بن أبى وقاص ، أنا أحرسك يا رسول الله ..

فدعا له رسول الله بكل خير .

تقول السيدة عائشة : فنام رسول الله حتى سمعت غطيطه .(١)

إن سعداً يحرس رسول الله ـ ﷺ .

يحرس صاحب الرسالة . خاتم النبيين .

فى حين إنه عليه السلام ، ليس فى حاجة إلى حراسة البشر . لأن الله تعالى قال :

﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة]

ولكن سعداً يتدرب على هذه الحراسة .

لأنه قريبـاً جداً سيُدعى لحـراسة الأمة الإسـلامية ، من أقوى قـوة ضاربة عرفتها البشرية فى ذلك الوقت ...

قوة الفرس الكبرى .

الفرس التى كانت تتخذ من العرب عمالاً وحراساً وجنوداً .

هنيئاً لك يا بطل القادسية .

سعد فى غزوة بدر

اشترك سعد فى غزوة بدر الكبرى .

وأبلى فيها بلاءً حسناً ، ودافع دفاع الراغبين فى الشهادة .

يقول عبد الله بن مسعود :

« اشتركت أنا وسعد ، وعمار يوم بدر . فما أصبنا شيئاً من الغنيمة .

وجاء سعد بأسيرين ، ولم أجىء أنا وعمار بشىء .

ولقد رأيته وهو يقاتل قتال الفارس للراجل » .

وفى هذه الغزوة – غزوة بدر – استشهد أخوه عمير بن أبى وقاص .

ويتحدث سعد عن أخيه قائلاً :

(١) الحديث رواه البخارى والترمذى والنسائى من حديث عائشة .

رأيت أخي عمـير قـبل أن يستـعرضنا رسول الله - ﷺ - للـخروج إلى بدر يتوارى .. !

فقلت : ما لك يا أخي .. ؟

قال : إني أخـاف أن يراني رسول الله - ﷺ - فيسـتصغرني فـيردني ، وأنا أحب الخروج لعل الله يرزقني الشهادة ..

قال سعد : فَعُرِضَ على رسول الله . فاستصغره .

فقال : عد من حيث أتيت .

فبكى عمير ، فأجازه رسول الله - ﷺ - فقُتل يوم بدر ...

إيه يا أشبال الإسلام .

يا مَنْ تخرجتم في مدرسة القرآن .

بكم عز الإسلام وانتصر .

وظفرتم به بما كنتم تريدون .

إن هؤلاء الفتيان كانوا يتسابقون إلى القتال .

ويهنيء بعضهم البعض إذا أجازهم رسول الله - ﷺ .

وضمهم إلى الجيش المحارب .

يتسابقون لا فخراً ولا خيلاء .

يتسابقون لا من أجل مال أو غنيمة .

ولكن كانوا يتسابقون ليحظى أحدهم بالشهادة .

وينال هذه الأمنية الغالية التي وصفها الله تعالى بقوله :

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾

[آل عمران]

أين شبابنا الآن من نفير الحرب .. ؟

لقد خرب الغزو الفكري ذاتيته ، وقضى على روحه .

وجعله رخواً مخنثاً ، يبحث عن اللذة . ويصارع الغواني .

ويعشق ذاته فلا تمس .

ويصفف شعره فلا تجرحه نسمات الرياح .

يا حبذا لو كان للإسلام رجال .. !!

سعد والبشرى له بدخول الجنة

إن مدرسة الرسول ـ ﷺ ـ كانت تعقد جلساتها فى رحاب المسجد عقب الصلوات ، يتحلق الرجال والشباب والفتيان حول معلمهم رسول الله .

وفى يوم من الأيام والجمع حاشد ، والناس جلوس والآذان مصغية .

قال الرسول ـ ﷺ ـ :

« يدخل عليكم من ذا الباب رجل من أهل الجنة » .

فإذا سعد بن أبى وقاص هو الداخل .

فلما قام رسول الله ـ ﷺ ـ قال عبدالله بن عمرو بن العاص لسعد بن أبى وقاص :

« إنى غاضبت أبى . فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاث ليال ..

فإن رأيت أن تأوينى إليك حتى تنحل يمينى فعلت .

يقول عبد الله فرمقته ثلاث ليال وأيامهن من ، فلم أجده يزيد فى العبادة شيئًا غير أنى لا أسمعه يقول إلا خيراً .

فلما مضت الليالى الثلاث ، وكدت احتقر عمله قلت :

إنه لم يكن بينى وبين أبى غضب ولا هجر .

ولكن سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ قال فى ثلاثة مجالس :

« يطلع عليكم رجل من أهل الجنة .. » .

فاطلعت أنت أولئك المرات الثلاث .

فأردت أن آوى إليك حتى أنظر عملك فاقتدى بك لأنال ما نلت ..

فلم أرك تعمل كبير عمل .

فما الذى بلغ بك ما قال الرسول ..؟

فقال سعد : ما هو إلا الذى رأيت .

قال : فلما أردت أن أهمَّ بالانصراف دعانى فقال :

غير أنى لا أحمل فى نفسى حقداً لأحد من المسلمين .

ولا أنوى لأحد شراً ولا أريده ..

قلت : هذه التى بلغت بك . وهى التى لا أطيق » .

ونقـول : بالحب الكبيـر الذى كان يمـلأ قلوب الرجال الأول وحـد بهم على بعضـهم البعض .

فُتحت لهم الدنيا ، وسلمتهم مقاليدها .

ثم لما أصبح بأسـهم بينهم شديداً .

صاروا هدفاً لكل طالب .

وبلادهم مطمعاً لكل راغب .

الحب الذى امتلأ به قلب سعد هو الذى فتح الشام ، والعراق .

ونشر الإسلام فى مجاهل أفريقيا والمغرب العربى كله .

سعد فى غزوة أحد

تلك الغزوة التى كانت منحة واختباراً .

وتربية صارمة لتلك الصفوة المؤمنة التى اختارها الله لنشر دينه .

لقد أُكره الرسول ـ ﷺ ـ على الخروج .

وكان رأيه البقاء فى داخل المدينة .

وعاد عبد الله بن أبى زعيم المنافقين بثلث الجيش .

وخالف الرماة أمر قائدهم وتركـوا ظهور المسلمين مكشوفة من أجل الغنائم ثم ماذا .. ؟ اشتد الكرب على المسلمين .

واتسعت آمال الشرك فلم تعد ترضى بأقل من رأس رسول الله ـ ﷺ .

هنا تظهر عبقرية سعد بن أبى وقاص وتظهر قوة إيمانه .

وصلابة جنانه فى الدفاع عن رسول الله .

ووقف شامخاً كالجبل يدافع وينافح ويصد تلك الهجمات المجنونة الحاقدة .. ومن خلفه رسول الله ـ ﷺ ـ يناوله النبل ، ويشد من أزره ويقول :

« ارم سعد فداك أبى وأمى » .

يقول علىٌ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه :

ما سمـعت رسول الله ـ ﷺ ـ يفدى أحداً بأبويه . إلا سـعد بن أبى وقاص ، وإنى سمعته يقول له يوم أحد .

« ارم سعد فداك أبى وأمى » .

سعد على أرض فارس

كانت هناك حوادث جسام شغلت الأمة الإسلامية ، وشغلت التاريخ عن متابعة سعد بن أبى وقاص .

من ذلك : موت الرسول ـ ﷺ .

وتولى أبى بكر الخلافة . وكانت حروب الردة ، ومعارك الخارجين عن الصف وترهات المفرقين بين الصلاة والزكاة .

ثم جاء عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ .

عمر الذى جيَّش الجيوش ، ونظم الكتائب وقذف بهم فى أقطار الأرض الأربعة لنشر دين الله .

وعلى ربى الشام كانت صولات خالد بن الوليد .

وجولات أبى عبيدة بن الجراح .

وعلى مشارف العراق : المثنى بن حارثة يجابه مئات الآلاف الزاحفة الجرارة ، التى تريد أن تلتهم أبناء الصحراء .

حاملين معهم أقوى ما وصلت إليه البشرية ـ فى ذلك الوقت ـ من أسلحة وأساليب حربية .

وجاء رسول المثنى يطلب مدداً ..

عندها اجتمع مجلس الشورى لاختيار مَنْ يقدر على هذه المهمة الشاقة التى تعترض سبيل المسلمين .

وما لبث أن هتف عبد الرحمن بن عوف قائلاً :

يا أمير المؤمنين لقد وجدته .

قال عمر : مَنْ هو .. ؟

قال عبد الرحمن : هو الأسد عادياً سعد بن أبى وقاص يا أمير المؤمنين .

ولكن أين سعد فى ذلك الوقت .. ؟

نعم . أين هو .. ؟ ومَنْ يدلهم على مكانه ؟

لقد كان سعد قريباً منهم إنه الأمين على صدقات نجد .

وجهز عمر له جيشاً من ستة آلاف مقاتل . فيه الكثير من صحابة رسول الله ومن البدريين الذين حضروا موقعة بدر .

وخرج عمر بن الخطاب يودع جيش الفتح .

وانتحى جانباً بقائده وقال له :

« لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ـ ﷺ ـ وصاحب رسول الله .

فإن الله تعالى لا يمحو السيىء بالسيىء .

ولكنه يمحو السيىء بالحسن . وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته .

فالناس فى ذات الله سواء .

والله ربهم وهم عباده .

يتفاضلون بالعافية .

ويدركون ما عنده بالطاعة .

فانظر الأمر الذى رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يلزمه فالزمه ».[1]

ولقد وضع عمر ـ رضى الله عنه ـ بتلك الوصية القواعد والأسس التى ينبغى لقادة المسلمين أن يسيروا عليها .

فقرابة الأفراد لا تغنى فتيلاً من الله ما لم يكن معها الجد والإيمان .

ويُهزم الأعداء بمقدار ابتعادهم عن هدى الله تعالى .

وينتصر المسلمون بمقدار نصرهم الله بإتباع أوامره

فالسيىء والقبيح من الأفعال محال أن يمحوه سيىء أو قبيح مثله .

ولكن يُمحى السيىء بالحسن من الأفعال .

قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود]

وليس بين الناس شريف ووضيع . ولكن الكل عباد الله .

« كلكم لآدم وآدم من تراب » .

وأقربهم إلى الله تعالى وإلى رسوله أقربهم لدينه :

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات]

ثم وضع له عمر فى النهاية قاعدة القواعد : وهى إتباع نهج الرسول ـ ﷺ ـ وخططه فى ساحات القتال وفى رحاب السلم .

---

(١) البداية والنهاية ٧ : ٣٥

عندها . سار سعد ـ رضى الله عنه ـ بجيشه يحث خطاه إلى أرض القتال .

وفى ريف العراق أخذ سعد يعبىء كتائبه ، ويؤمر الأمراء .

حتى وقف على مشارف القادسية .

وعلم رستم قائد جيش الفرس بوصول الأسد فى براثينه .. سعد بن أبى وقاص ، فزحف إليه بجيشه ومعداته وأفياله وعيونه ..

ولما كان قريباً منه ، أرسل إلى سعد أن ابعث إلينا رسولاً نكلمه ويكلمنا ..

فمَنْ يكون هذا الرجل .. ؟

وهل كل فارس مقاتل يصلح للسفارة بين المقاتلين .. ؟

إن اختيار رجل لهذه المهمة .

مهمة السفارة فى وقت الحرب . لا يقل عن الحرب نفسها .

بل فى بعض الأحيان يتوقف عليه سير المعركة .

وتلفت سعد حوله يبحث عن هذا الذى يقوم بهذه السفارة .

ولم يكن بعيداً عنه :

إنه ربعى بن عامر ، أحد رجاله الأبطال .

وذهب ربعى إلى معسكرت الفرس .

وعلم رستم بمجيئه فأظهر زينته . وجلس على سرير من ذهب ، وبسط البسط والنمارق .

وأقبل ربعى على فرسه وسيفه فى خمده ، ورمحه مشدد بعصب وقد .

فلما انتهى إلى البسط قيل له انزل ..

فحمل فرسه عليها ونزل .

وربطها بوسادتين شقهما وأدخل الحبل فيهما .

فقالوا : ضع سلاحك .

فقال : لم آتكم فأضع سلاحى بأمركم . أنتم دعوتمونى .

فأخبروا رستم ..

فقال : ائذنوا له .

فأقبل يتوكأ على رمحه ويقارب خطوه ، فلم يدع لهم وساداً ولا بساطاً إلا

أفسده وهتكه .

فلما دنا من رستم جلس على الأرض وركز رمحه على البسط .

فقيل له : ما حملك على هذا .. ؟

قال : إنا لا نستحب القعود على زينتكم .

فقال له الترجمان : ما جاء بكم .. ؟

قال : الله جاء بنا ، وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها .. ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

فأرسلنا إلى خلـقه فمَنْ قـبله قبلنا منه ورجعنا عنـه وتركناه وأرضه دوننا ومَنْ أبى قاتلناه حتى نفضى إلى الجنة أو الظفر ..

قال رستم :

قد سمعنا قولكم . فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه .. ؟

قــال : نعم . وإن مما سنَّ لنا رســول الله ـ ﷺ ـ ألا نمكن الأعـداء أكثـر من ثلاث . فنحن مرتدون عنكم ثلاثاً .

فانظر فى أمرك .

واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل :

إما الإسلام وندعك وأرضك .

أو الجزية فنقبل ونكف عنك . وإن احتجت إلينا نصرناك .

أو المنابذة فى اليوم الرابع ، إلا أن تبدأ بنا ، وأنا كفيل بذلك عن أصحابى ..

قال رستم : أسيدهم أنت .. ؟

قال : لا . ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض .

يجيز أدناهم على أعلاهم .

ونتساءل :

هل رأيتم كلاماً قط أعز وأوضح من كلام هذا الرجل .. ؟

هكذا قال رستم لأتباعه :

مرحى يا بطل القادسية ، ما أقدرك على اختيار رجالك .

مَنْ علَّم أبناء الصــحراء هذه الحـرب النفـسيـة التى تفت فى قوة الأعـداء ،

وتستل منهم كل مقاومة ؟!

ومَنْ أدَّب أبناء الصحراء بهذا الأدب الجم . الأدب مع الله ..

الأدب الذى جعل ربعى يقول : الله جاء بنا ؟!

إذن لم تكن الغارة على تلك البلاد من عند أنفسهم .

ولم يكن التوغل فى أرض الله رغبة عند حكامهم .

ولم يكن ذلك من أجل المغنم أو السلب والنهب وترويع الآمنين .

ولكن الأمر هو أمر الله تعالى .

الله الذى أمرهم بالدعوة إلى هذا الدين الجديد .

دين الإسلام والسلام .

فليس فيه قهر لأحد حتى يعتنقه .

والله تعالى قال لهم :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ..(٢٥٦) ﴾ [البقرة]

وليس فيه مذلة لإنسان ، لكى يدخل فى رحابه .

ولكنه عز الدنيا والآخرة لقوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. (٨) ﴾ [المنافقون]

والحرب إنما تشن على هؤلاء الطغاة والجبارين الذين يقفون فى وجه أتباعه ، ويحُولون بينهم وبين اعتناق هذا الدين .

فإذا دخل الناس فى دين الله الذى ارتضاه لهم .

فلا حرب ولا قتال ، لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين .

ثم توالت السفارات بين الجيشين وأخيراً عاد السفير الأخير وقال :

يا سعد : إنها الحرب .

عندها وقف الأسد فى براثنه وقال : قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) ﴾ [الأنبياء]

ثم صلى بالناس صلاة الظهر ثم كبر أربعاً وقال : احملوا على أعدائكم ، بعد أن أمرهم أن يقولوا : لا حول ولا قوة إلا بالله .

وأوشكت الفيلة أن تعمل عملها فى صفوف المسلمين ..

ولكن القيادة المؤمنة أبطلت سطوة هذا السلاح الجديد الذى لم تعرفه العرب من قبل .

ونادى القعقاع فى أبناء عمومته ماذا نفعل يا أتباع محمد .. ؟

وكأن الأمر كان معداً .

فلم تمض لحظات حتى خرجت الإبل مجللة مبرقعة ، وعليها فرسان ملثمون يحملون لهباً ومشاعل فى أيديهم يحيط بها الرجال الأقوياء .

الأقوياء : باعتمادهم على خالقهم ومولاهم .

الأقوياء : بإيمانهم وإسلامهم .

الأقوياء : برغبتهم فى النصر والحصول على الشهادة .

الأقوياء : حتى يحققوا وعد الله لهم بدخول الناس فى دين الله .

وما كـادت الفيلة ترى هـذا الهول المرعب حتـى فرت هاربة تحطم صـفوف الفُرس .

وتُوجد الخلل بين تشكيلاتهم .

ففروا لا يلون على شىء .

وتبعـهم فرسان مـدرسة النبوة الديـن تربوا فى ساحة الإيمـان ، يأسرون ويقتلون .

وفى الجانب الآخر صوت يقود المعركة ، ويوجـه سيرها ويشعل الحمية فى قلوب رجالها .

إنه صوت سعد الذى كان يملأ سماء المعركة دوياً وقوة .

تقدم يا قعقاع .

الزم الميمنة يا ابن عامر .

حطم تلك الكراديس يا مغيرة .

يا أصحاب محمد ـ ﷺ .

يا أهل بدر ، يا رجال موقعة اليمامة .

تقدموا فإن الله معكم وناصركم .

ثم رفع سعد بن أبى وقاص أكف الضراعة إلى ربه .

يارب اللهم نصرك الذى وعدت .

اللهم امنحنا أكنافهم ، وهبنا النصر من عندك .

وتقدم الرجال . رجال بدر واليمامة يزيلون هذا الركام المتعفن ، ويطهرون الأرض من عبدة النار .

ويطهرونها من أرجاس الوثنية ..

وارتفع صوت يهز الكون كله بكلمة الله أكبر .. الله أكبر .

إن هذا الصوت يعرفه سعد جيداً .

إنه صوت هلال بن علقمة .

وانداح فى أرجاء المعركة ليبشر أتباع محمد - ﷺ - بقتل رستم قائد الفُرس .

واعتلى هلال فوق سرير رستم قائلاً :

« قتلت رستم ورب الكعبة » .

فتحلقوا حوله وكبروا ، وانتهت المعركة .

وتحققت دعوة سعد واستجاب الله له ونصر عباده المؤمنين .

هل استراح عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بعد أن جيَّش الجيوش لسعد .. ؟ هل أُغمض له جفن .. ؟

هل هدأ له بال .. ؟

هل استقر له قرار .. ؟

إن أوثق المصادر التاريخية تروى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كان يخرج كل يوم إلى خارج المدينة .

يسأل الركبان والتجار .

من حين يصبح - عن أهل القادسية - عن سير المعركة .

عن الروح العامة التى تسيطر على المسلمين فى تلك المنطقة النائية البعيدة، تلك المنطقة التى جمع أهلها كل ما عرفه العقل البشرى فى ذلك الوقت من أسلحة وعتاد .

ويستمر عمر فى ذلك حتى ينتصف النهار .

ثم يرجع إلى دار الخلافة مترقباً منتظراً .

حتى كان يوم التقى بالبشير وسأله : منْ أين أقبلت .. ؟

قال البشير : من أرض العراق ..

قال عمر : يا عبد الله حدثنى .. ؟

قال البشير : هزم الله المشركين .

قال ذلك وعمـر يجرى خلف دابة البشيـر . حتى وصل إلى دار الإمارة وإذا بالناس يسلمون على عمر بقولهم : أمير المؤمنين ..

قال البشير : هلاّ أخبرتنى رحمك الله يا أمير المؤمنين .

قال عمر : لابأس عليك يا أخى .

رحمك الله يا عمر ـ ورضى عنك .

ورحمك الله يا سعد بمقدار ما حققت من نصر وفوز لإسلامك وقومك .

سعد ودعوة الرسول ـ ﷺ ـ

يُروى عن أبى بكر الصـديق ـ رضى الله عنه ـ أنه سمـع رسول الله ـ ﷺ ـ يدعو لسعد فقال :

« اللهم سدد سهمه ، وأجب دعوته ، وحببه إلى عبادك» .(1)

ويروى أن سـعداً قال : يا رسـول الله ادع الله أن يجيب دعـوتى . قال علـيه السلام :

« اطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة » .

وكان الصحابة جميعاً يعرفون ذلك عن سعد .

وأنه إذا رمى عدواً أصابه .

وإذا طلب من ربه أجابه .

ثم ماذا قُتل عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه .

ثم قُتل عثمان ـ رضى الله عنه ـ وتشتعل الفتنة ..

الفتنة التى حذر منها الرسول ـ ﷺ .

ويعتزلها سعد ..

(1) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ٢ : ٦٠٨

ويتقدم إليه ابن أخيه هاشم بن عتبة يقول له :

« يا عم هاهنا مائة ألف سـيف يرونك أحق الناس بهذا الأمر .. فـقال : أريد من مائـة ألف سيف سـيفاً واحـداً إذا ضربت به المؤمن لـم يصنع شيـئاً .وإذا ضربت به الكافر قطع .. » .

رحم الله سعد بن أبى وقاص وأدخله الله الجنة ..

دروس وعـبر

منهج القرآن فى تربية الرجال

مَنْ سعـد بن أبى وقاص قـبل أن يدخل نور الإسلام إلى قلبـه .. ؟ ومَنْ هو قبل أن يتعرَّف على هذا النور الجديد .. ؟

إنه الرجل الذى كـان يقـبع طول يـومه فـى حـانوته يبـرى النبـال ويريش السهام.. ولا شيء غير ذلك ..

إذن الإسلام والقـرآن هو الذى فعل فيـهم ذلك . نقلهم من رعاة إبل، جـفاة، غلاظ، يشنون الحرب لأوهى الأسبـاب إلى هداة ودعاة، هداة إلى الحق ، ودعاة إلى الواحد الأحد .

إن القـرآن الكريم هو الذى صنع هـؤلاء الرجال ، وهـو لا يزال بين أيدينا ، ولكن ليست العبـرة بوجوده ، ولكن العبرة بتلقيـه وتطبيقه . لقد كـان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فى كل المعـارك التى خاضـهـا المسلمون فى عـهده ، صاحب غرفة العمليات الحربية الأولى ـ إن جاز لنا هذا التعبير – فلم يكن عمر بعيداً عن معارك المسلمـين ، فهو الموجه والقائد . يجلس فى المدينة ليكون ردءاً لهم ، يشاركـهم معاركهم عن بعـد بالكلمة ، ويشد أزرهـم بالمشـورة ، ويمدهم بالجنود والعتاد .

وفى معـركة القادسيـة يطلب من سعد أن يـصف له كل شيء ، وأن يحيطه بظروف المسلمـين على تلك الارض ، ويلح عليـه أن يخبره بأحـواله كلهـا حتى كأنه حاضر معهم مشاهد .

ليس هذا فقط . ولكن صاحب العمليات الحـربية يخرج كل يوم إلى مشارف

المدينة ، يترقب وصول رجل البريد ، ولا يطمئن قلبه حتى يصل إليه فى دار الإمارة ، وعندما يراه يخف له ، ويخب بقدميه خلفه ، يريد أن يسمع منه آخر الأخبار ويرى المسلمون عجباً . عامل البريد فوق دابته يسرع إلى دار الإمارة ، وخلفه أمير المؤمنين يسير على قدميه يريد أن يلحق به .. !

لقد كره عمر أن يُوقف جندياً من جنود المسلمين على قارعة الطريق ليسمع منه ، وبذلك يحول بينه وبين وجهته ، حتى لو كانت وجهته مقر الخلافة .

وطلبته أمير المؤمنين نفسه .

ويقول عامل البريد : هلاَّ أخبرتنى بأنك الأمير .. ؟

هكذا بعزة نفس وبكرامة المؤمن .

ويجيبه عمر بتواضع المؤمنين ، وبسماحة القادرين ، لابأس عليك يا أخى يغفر الله لى ولك ..

ويكثر أهل الكوفة من الشكوى عند عمر ضد سعد بن أبى وقاص . ويسأل عمر ، عمرو بن معد يكرب عن سيرة سعد فيهم . فيقول الرجل :

إن سعداً متواضع فى خبائه ، عربى فى سيرته ، أسد فى معاركه ، يعدل فى القضية ، ويقسم بالسوية ، يعطف علينا عطف الأم البارة ، وينقل إلينا حقوقنا كاملة غير منقوصة .

ما أروعك يا سعد .. وما أحق المدرسة التى خرجتك بالتقدير والخلود .. إن سعداً متواضع لا يعرف الكبر .

أسد فى عرينه يحمى الديار .

عادل فى قسمته لا يعرف الظلم .

مقدام يقود جنوده إلى النصر .

رحيم ، عطوف يأنف أن يكون فظاً غليظاً .

يجمع لهم رزقهم ويسوى بينهم فى قسمته .

ومع هذا قرر عمر عزله .. !!

ويقول : والله لم أعزله عن عجز أو خيانة وإنما خوف الفتنة . لأن جيوش الفرس ـ فى ذلك الوقت ـ كانت تتجمع للغزو والثأر ، وكان المسلمون يحشدون جيوشهم فى منطقة نهاوند ، لصد الخطر الفارسى ، فليس من

المصلحة إشعال فتنة فى الكوفة . والكوفة فى ذلك الوقت كانت القاعدة الأولى والكبرى للجيوش الإسلامية فى الشرق . ولعل عمر سره أن يكون سعد بجواره فى المدينة يستشيره فى أمر المسلمين . وتم عزل سعد . ثم ماذا .. ؟ اعتزل سعد ولزم بيته عندما كانت هناك فتنة .. التزاماً بقوله تعالى : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ .. (١٩١) ﴾ [البقرة]

لقد كان سعد بن أبى وقاص ـ راجح العقل ، بعيد النظر ، متين الخلق ، عف اليد واللسان ، باراً بأهله ، وفياً لأصحابه ، وكان يتوقى الشبهات ، وَرِعاً يقتفى آثار النبى ـ ﷺ ، فيعمل بعمله ويستن بسنته ، ويتمسك بشرع ربه .

إن سعداً القائد والإنسان لا يزال مكانه شاغراً . فَمَنْ من أبناء هذه الأمة ـ التى هى خير أمة أخرجت للناس ـ يستطيع أن يملأ هذا الفراغ ويحمى الأمة من الغاصبين الطامعين والمستعمرين الجدد . مَنْ يا أمة محمد .. ؟

إنا لمنتظرون ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

عبد الله بن سعد بن أبى السرح

رضى الله عنه

فاتح الزنبقة السوداء

اختط عبد الله بن سعد داراً وبنى قصراً كبيراً يعرف بقصر الجن وقد أمر ببنائه حين خرج لغزو أفريقيا وحين عاد قال للمقداد بن الأسود نائبه فى قيادة الجيش :

كيف ترى بنيان هذه الدار ..؟

فقال المقداد : إن كنت بنيتها من مالك فقد أسرفت وإن كنت بنيتها من مال المسلمين فقد أفسدت ..؟ هكذا لا يجامله المقداد ولا يزين له عملاً لا يتفق مع مبادىء الإسلام ولكن يجابهه بكلمة حق واستمع الوالى لهذا الرأى، فلم يغضب ولم يثر، بل أحسَّ بخطئه فقال :

لولا أن يقال أفسدت مرتين لأمرت بهدمها .

■ أحد الذين لم يتقبلوا دعوة الإسلام بـالرضا والارتياح ، عندما دعوا إليه . بل كان من هؤلاء الذين حـملوا لواء الصد عن الدعوة الجديدة ، والسـخرية من أتباعها والتنكيل بضعفائها .

ولقد أراد الله سبحانه وتعالى لدينه أن يتم .

ولنوره أن ينتـشر فـأذن بالهجرة لـرسوله ، لتكون يثـرب قاعـدة الإسلام الكبرى ينطلق فى دروبها جنود الله لنشر دينه والدفاع عن حياضه .

وتتابعت وفود المهاجرين ، وتسـابق شباب مكة ورجالها إلى المدينة ليكونوا على مقربة من صاحب الدعوة .

وكان عـبد الله بـن سعد أحـد هؤلاء الرجـال الذين انطلقوا إلى المدينة ولـقد استقبله الرسـول ـ ﷺ ـ كما استقـبل غيره من المهاجرين بالحفاوة والاهتمام ، وزاد مع عـبد الله أن قرّبـه منه ، وجعله أحـد كتّـاب الوحى ، ولكن ذلك لم يدم طويلاً ، فقد ســوّل له شيطانه ـ أن فى مقدوره أن يكون نداً لمحـمد ، وأن يقول مثلما يقول ـ فارتد عن الإسلام وعاد إلى مكة ..

حتى كان يوم الفتح العظيم ـ فتح مكة ـ ودخلت كتائب الإسلام البلد الحرام ، وأخليت الكعـبـة من الأصنام ، عندها صـدر أمـر الرســول ـ ﷺ ـ لجمـاعـة المسلميـن بقتل جمـاعة من الكفـار سماهم بأسـمائهم ـ حـتى لو وجدوا تحت أستار الكعبة ، منهم :

عبد الله بن خطل .

ومقيس بن صبابة .

وعبد الله بن سعد .

وأخذ جنود الله يبحثون عنهم فى كل مكان ، وأحس عبد الله بن سعد بأنه لن يفلت من قبضة هؤلاء الرجال ، ففـر إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه - وكان أخاه من الرضـاعة - فغيبـه عثمان عن عـيون طالبيه ، حـتى أتى به رسول الله - ﷺ - وطلب الأمان له فصمت رسول الله - ﷺ - طويلاً ثم قال : نعم .

فلما انصرف عثمان قال رسول الله - ﷺ - لمن حوله :

« ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه » .

فقال رجل من الأنصار : فهلاً أومأت إلىّ يا رسول الله ؟

فقال : إن النبى لا ينبغى أن يكون له خائنة الأعين .

وأسلم عبد الله بن سـعد أيام الفتح ، وحَسُن إسلامـه ، فلم يظهر منه شىء ينكر عليه بعد ذلك .

وعندما تسـاقطت دموعـه ندماً وتوبة عمـا اقترفـه فى سابق أيامـه ، وقال لرسول الله - ﷺ - أيغفر لى ربى ما أقترفته فى حق الإسلام وحق رسوله ..؟

قال الرسول - ﷺ - الإسلام يَجُبُّ ما قبله .

ومع ذلك فقد عاش عـبد الله فترة لا يستطيع مقـابلة الرسول - ﷺ - وكلما رأه فرّ منه خجلاً وخزياً .

حتى شجعـه عثمان على ذلك . فكان يلتقى بالرسول ويسلـم عليه ويستمع لهديه ، ويشرب بأذنيه كل ما تلفظه شفتاه عليه السلام .

وتمر الأيام ويصـبح عبـد الله بن سعـد مـحل ثقة الصـحابة - رضـوان الله عليـهم - الأمر الذى جـعل عـمر بن الخـطاب - عندما فكر المسلمون فى فـتح مصر - يصـدر أمره بتولية عبد الله بن سـعد قيادة الميمنة فى جـيش عمرو بن العاص الذى سار متوجهاً إلى مصر ..

إن عبد الله بن سعد أحد صناديد قريش ، وفـارس من فرسانها الذين تشهد لهم المعارك بالصلابة والصمود ، وكأنه فى هذه المعـركة التى وجّه إليها خارج الجزيرة العـربية أراد أن يكفـر عن خطاياه ، ويطهر نفـسه فى أتون المعـركة ، فأبلى فيـها بلاءً حسناً ، كان مـوضـع تقدير بقية القـادة والجنود الذى خاضوا معه هذه المعركة الضارية التى انتهت بفتح مصر .

وعندما سمع عمر بن الخطاب بالدور البطولى الذى قام به عبد الله أصدر أمره بتوليه حكم الصعيد .

تلك البقعة المباركة من أرض مصر ، التى تمتاز بصفاء سمائها واعتدال مناخها ، وصلابة رجالها ، وخصوبة أرضها ، والتى كان لأبنائها عندما تشربوا روح الإسلام دور لا يُنكر فى حمل دعوة الإسلام إلى كل بقاع الأرض لا زاد لهم إلا التقوى ، ولا سلاح لهم إلا الإيمان ، ولا مطلب يبغونه إلا الشهادة أو نصر دين الله .

وسار عبد الله مع تلك الفئة المؤمنة سيرة حسنة ، فأحبوه ، وبادلهم حباً بحب ، واستمر على ذلك حتى تولى عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ خلافة المسلمين .

فأصدر أمره بأن يتولى عبد الله بن سعد خراج مصر كلها ، وما كاد يتولى هذا المنصب حتى دب الخلاف بينه وبين واليها العام عمرو بن العاص .. ورفع أمر الخلاف إلى عثمان .. وطلب منه عمرو عزل عبد الله بن سعد .

فامتنع عثمان عن ذلك وقال :

« يا عمرو ولاه عمر بن الخطاب الصعيد ، وليس بينه وبين عبد الله حرمة ولا خاصة ، وقد علمت أنه أخى فى الرضاعة ، فكيف أعزله عما ولاه غيرى ؟»..

فغضب عمرو وقال : لست راجعاً إلى عملى ذلك !..

فكتب عثمان إلى عبد الله بن سعد يؤمره على مصر كلها .

وجاءه كتاب عثمان بالفيوم بتوليته خلفاً لعمرو بن العاص ، فقام بذلك خير قيام ، واستقر له حكم مصر .

وعاد عمرو بن العاص إلى مصر وأخذ أمواله وأهله وعاد إلى المدينة، فلقيه عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ فقال له :

كيف تركت عبد الله بن سعد ؟..

قال : كما أحببت ، فقال : وما ذاك ؟..

فقال : قوى فى ذات نفسه ، ضعيف فى ذات الله ..!؟

فقال : لقد أمرته أن يتبع أثرك .

فقال عمرو : لقد كلفته شططاً .

وجبى عـمرو خراج مـصر وجزيتـها ألفى ألف ، وجبـاها عبد الله بن سـعد أربعة آلاف ألف ، فقال عثمان لعمرو :

« إن اللقاح بمصر درّت بعدك ألبانها » .

فقال : ذاك لأنكم أعجفتم أولادها !

ولكن ، لماذا فـعل عـثمـان ذلك .؟ ولماذا لجـأ إلى عـزل عمـرو بن العـاص ، وتوليته عبد الله بن سعد مصر كلها .؟

ألم يكن فى الإمكان التوفيق بينهما .؟

يقول بعض المؤرخين : لأن السيطرة على عبـد الله أسهل بكثير من السيطرة على عمرو ، كما أن عبد الله له مزايا تؤهله لهذا المنصب العظيم .

أضف إلى هذا أنه أخو عـثمان من الرضـاعة ، وأنه مخلص غـاية الإخلاص لعثـمان ، لا ينس يده عليـه حين اسـتأمن رسـول الله ـ ﷺ ـ ولا ينس عثـمان لعبد الله يده عليه حين أشار على عبد الرحمن بن عوف أن يبايع عثمان قائلاً :

« إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان » .

وهذا ما جعله يفوز بولاية مـصر . ومما يدل على حسن سياسته ومـعرفته بخـبايا النفـوس ، أن استـحوذ على قلب ابن الخطاب ـ رضى الله عنـه ـ وفاز برضـاه ، وجـعل عثمان يسـتريح إليه ، ويطمـئن إلى عدم خروجـه عليه .. ولما استـقر له المقام بمـصر واستـتبت له الأمور .. كـتب إلى عثـمان يخبـره بقرب أفريقيا من بلاد المسلمين ، واستأذنه فى غزوها ..

واستشار عـثمان من عنده من الصحابة ، فأشار أكـثرهم بالإقدام على غزو أفريقيا ودعوة أهلها إلى الإسلام .

فجهـز عثمان ـ رضى الله عنه ـ العـساكر من المدينة ، وأمد عـبد الله بجيش عظيم . وكان فى هذا الجيش مجموعة من أبـناء الصحابة ، وكبار السابقين إلى الإسلام .. منهم عبد الله بن عبـاس ـ رضى الله عنه ـ وعبد الله بن عمر ـ رضى الله عنه ـ وعـبد الله بن عـمرو بن العـاص وعـبد الله بن الزبيـر ، وعبـد الله بن جعفر ، والحـسن والحسين رضى الله عنهم أجمعـين ، لذلك سُمى هذا الجيش (جيش العبادلة) .

وسار عبـد الله بن سعد بجيـشه البالغ تعداده عـشرين ألفاً ، إلى أفـريقيا ..

فلما وصلوا إلى « برقة » لقيهم عقبة بن نافع القائد الإسلامى المعروف، فانضم إليهم فيمن معه من المسلمين .

وكان عقبة بمن معه حامية قوية للمسلمين هناك ، فساروا جميعاً إلى طرابلس . ثم تقدم عبد الله بجيشه نحو أفريقيا .

وأخذ فى بث السرايا والعيون ، ليتعرف على طبيعة هذه البلاد ويعجم قوتهم وعادت العيون تخبره بقوة ملكهم الذى يسمى « جرجير » والذى يستولى على رقعة كبيرة فسيحة من الأرض تمتد من طرابلس حتى نهاية « طنجة » .

وكان مقر ملكه مدينة « قرطاجنة » التى يُحمل منها الخراج إلى هرقل « قيصر الروم » الذى ولاه مُلك هذه البلاد .

والتقى المسلمون بجيش (جرجير) البالغ عدده مائة ألف وعشرين ألفاً بمكان يُدعى (عقوبة) بينه وبين مدينة (سبيطلة) يوم وليلة ، فنشبت معركة حامية بين الطرفين هناك ..

وراسل عبد الله بن سعد ملك الروم (جرجير) يدعوه إلى الإسلام أو الجزية ، فامتنع منهما وتكبر عن قبول أحدهما .

واستأنف عبد الله القتال ، فاستمرت الحرب أياماً ، حتى وصل للمسلمين مدد بقيادة عبد الله بن الزبير رضى الله عنه .

وحين سمع (جرجير) بوصول هذا العدد والمدد للمسلمين فتَّ فى عضده ورأى عبد الله بن الزبير ـ رضى الله عنه ـ أن قتال المسلمين ، يبدأ من الصباح ويستمر حتى الظهر ، فإذا أذَّن الظهر عاد كل فريق إلى خيامه ، كما أنه افتقد فى اليوم التالى عبد الله بن سعد فى المعركة فسأل عنه فقيل :

إنه سمع منادى « جرجير » يقول :

« مَنْ قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتى » .

وهو يخاف من ذلك .

فحضر ابن الزبير مجلسه وأشار عليه إلى أن يأمر منادياً ينادى بين المسلمين : « مَنْ أتانى برأس « جرجير » نقدته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده » .

ففعل ذلك ، فصار جرجير يخاف أشد من عبد الله ..!!

وقال : ابن الزبير ـ رضى الله عنه ـ لعبد الله بن سعد :

« إن أمرنا يطول مع هؤلاء وهم فى إمدادات متصلة ، وبلاد هى لهم ، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين فى خيامهم متأهبين ، ونقاتل نحن الروم فى باقى العسكر إلى أن يضجروا ويملوا ، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ، ركب من كان فى الخيام من المسلمين ، ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ، ونأخذهم على غرة ، فلعل الله ينصرنا عليهم » .

إن الحرب خدعة .

والقائد الكبير لا يجعل جلَّ اهتمامه على القوة وحدها .. بل يلجأ إلى المراوغة تارة ، وعنصر المفاجأة تارة أخرى ، وكلما كان القائد على دراية كاملة بنفسية خصمه كان هذا مدعاة لتقصير أمد المعركة وتقريب النصر .

ولقد اقتنع ابن سعد بالخطة التى وضعها ابن الزبير وعمل على تنفيذها وأقام جمع من شجعان المسلمين فى خيامهم ، وخيولهم عندهم مسرجة وحضر الباقون ، فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديداً ، فلما أذَّن الظهر همّ الروم بالانصراف على العادة ، فلم يمكنهم عبد الله بن الزبير ، وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم ، ثم عاد عنهم هو والمسلمون ، وألقى كل من الطرفين سلاحه ، وكان قد بلغ التعب من الروم حداً بالغاً ، وأخذ ابن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين وهاجم بهم الروم ، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم ، وحملوا حملة رجل واحد ، وكبروا ، فلم يتمكن الروم من أخذ سلاحهم حتى غشيهم المسلمون . وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وتمكن ابن الزبير من التعرف على « جرجير » وحاصره فى مأمنه حتى تمكن من قتله ، وأُخذت ابنته أسيرة .

وأخذت راية الإسلام ترفرف على تلك البقاع ، وصوت الله يدوى فى جنباتها ، ونصر الله المؤمنين نصراً مؤزراً .

واستمر الجيش الإسلامى فى تقدمه حتى وصل إلى (سبيطلة) ورأى ابن سعد فيها من الأموال ما لم يكن فى غيرها . فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار ، وسهم الراجل ألف دينار .

وبعث عبد الله جيوشه إلى داخل أفريقيا ، حتى بلغت (قفصة) فسبوا وغنموا الشىء الكثير .

كما سيَّر جيشاً إلى مكان يسمى (حصن الأجم) وقد احتمى به أهل تلك البلاد فحاصره ، وفتحه بالأمان ، فصالحه أهل أفريقيا على ألفى ألف وخمسمائة ألف دينار .

لقد فُتحت (الزنبقة السوداء) ودخل أهلها فى الإسلام أفواجاً ، وأخذت كلمة (التوحيد) تتردد فى جنباتها ، وعاد عبد الله بن الزبير إلى المدينة يحمل البشرى والنصر بفتح أفريقيا إلى خليفة المسلمين ، عثمان بن عفان رضى الله عنه .

أما عبد الله بن سعد فقد عاد إلى مصر ، بعد أن أمضى بأفريقيا سنة وثلاثة أشهر ، عاد القائد المنتصر ، ليؤدى ما عليه تجاه مصر وأهلها وفى مصر اختط عبد الله بن سعد داراً ، وبنى قصراً كبيراً يعرف بقصر الجن ، وقد أمر ببنائه حين خرج إلى المغرب لغزو أفريقيا ، وحين عاد قال للمقداد بن الأسود الكندى :

كيف ترى بنيان هذه الدار ؟

فقال له المقداد : إن كنت بنيتها من مالك فقد أسرفت ، وإن كنت بنيتها من مال المسلمين فقد أفسدت !

هكذا لا يجامله المقداد ، ولا يزين له عملاً لا يتفق مع مبادىء الإسلام ولكن يجابهه بكلمة حق ، ولا يجبن عن قولها حتى لو كان هو الحاكم الذى بيده أمور الحل والعقد .

تُرى ماذا يكون حال المسلمين ، لو أخلص المقربون إلى حكامهم فى إسداء النصيحة لهم ؟

ومجابهتهم بالحق والصدق ؟

لقد استمع عبد الله لرأى المقداد فيه فلم يغضب ولم يثر ، بل أحس بخطئه إزاء نفسه ، وإزاء دينه ، وإزاء المحكومين له فقال :

لولا أن يقول قائل : أفسدت مرتين لأمرت بهدمها .

وهناك معركة إذا ذُكر عبد الله بن سعد ذُكرت معه ، معركة (ذات الصوارى) وكان من أسبابها أن الروم حشدت أكبر قوة ضارية بحرية لحرب المسلمين وكان مجموع المراكب التى استعملها الروم أكثر من خمسمائة مركب أو ستمائة والمسلمون فى مائتى مركب فقط .

وكان ذلك فى سنة أربع وثلاثين هجرية .

وحين علم عبد الله بخبر قدوم الروم بهـذا الحشد الكثيف ، قام بين ظهرانى الناس خطيباً فقال :

« بلغنى أن ابن هرقل قد أقبل عليكم فى ألف مركب فأشيروا علىّ ؟ » .

فما كلمه رجل من المسلمين .

وجلس عـبد الله قليلاً كـيمـا ترجع إلى سامـعيـه أفئدتـهم ، ثم قام الثـانية وكلمهم .

فما كلمه أحد .!

وجلس ثم قام الثالثة فقال :

(إنه لم يبق شىء فأشيروا علىّ) .

فقام رجل من أهل المدينة كان متطوعاً مع عبد الله بن سعد فقال :

أيها الأمير إن الله جل ثناؤه يقول :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) ﴾ [البقرة]

فتشجع عبد الله ، وتشجع المسلمون وقال لهم :

(اركبوا باسم الله) .

فركبوا وكان فى كل مركب نصف شحنته ، لأن النصف الآخر كان قد خرج إلى البر للقتال فى منطقة أخرى .

وقدم أهل الشام وعـليهم معاوية بن أبى سـفيان ، وعلى البحـر عبد الله بن سعد وكانت الريح على المسلمين .

فأرسى المسلمون والروم ، حتى سكنت الريح .

فقـال المسلمون : الأمـان بيننا وبينكم ، فـباتوا ليلتـهم والمسلمون يـقرأون القرآن ويصلون .

وأصبـحوا وقد أجـمع الروم أن يقاتلوا ، فقـربوا سفنهم ، وقـرب المسلمون سفنهم فربطوا بعـضها إلى بعض . وصفف عبـد الله بين المسلمين على نواحى السفن وجعل يأمرهم بقراءة القرآن ويأمرهم بالصبر .

واقتتل الطرفان بالسـيوف والخناجر ، فقُتل من المسلمين خلق كـثير ، وقُتل من الروم ما لا يحصى .

وصبـر المسلمون يومـئذ صـبراً لم يصـبروا مـثله فى موطن قط ، فـجُرح

قسطنطين ملك الروم وقائدهم فى هذه المعركة، فانهزموا ولم ينج منهم إلا القليل .

وفى هذه المعركة بالذات تعرضت حياة عبد الله لخطر داهم ، فقد قرن مركبه بمركب من مراكب الروم ، فكاد مركب الروم يجره إليهم ، إلا أن أحد رجاله ضرب السلسلة التى تربط المركبين بالسيف فقطعها .

وبذلك نجا عبد الله من الموت أو الأسر .

لقد أظهر عبد الله فى معركة (ذات الصوارى) بطولة فائقة ، تلك الغزوة التى أبعدت خطر الروم ـ بعد اندحارهم ـ عن مصر وأرض الشام كلها .

لقد استطاعت القوة الضاربة للمسلمين أن تؤمن ثغورهم ، ضد الغزو الأجنبى الذى يأتى إليهم من خارج حدودهم .

واستطاعت تلك القوة الضاربة أيضاً فى فترة وجيزة ، أن تشل حركة الفرس القوية التى كانت تهددهم .

وقوة الروم كانت تتوعدهم .

نذر بالشر المستطير

ومع ذلك كانت هناك نذر فى الأفق تنبىء بشر مستطير ، يلف المسلمين فى ليل دامس لا يدرى أحد متى يظهر فجره ؟..

ولم تكن هذه النذر من الخارج وقد خضع الأعداء لقوتهم .

ولكنها كانت فتنة من الداخل جاءتهم على غير ميعاد وقد فتحت الدنيا لهم أبوابها ، وأغدقت عليهم الخير الذى لا يحصى ولا يعد .

وكانت بوادر الفتنة عندما استدعى عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ عبد الله بن سعد إلى المدينة ، فانتهز هذه الفرصة محمد بن أبى حذيفة بن عتبة ، وسرب المصريين إلى عثمان فحاصروه ..

وفى الطريق علم عبد الله بما أحدثه محمد بن أبى حذيفة ، ولكنه ماذا يمكنه أن يفعل ؟ أيعود إلى مصر فيوقع نفسه فى الأسر ؟ أم يذهب إلى المدينة ، وليس فى مقدوره أن يفعل شيئاً إزاء عثمان ؟..

وتغلب الرأى الآخر واتجه إلى المدينة ، فوجد عثمان محاصراً فقال :

أرى الأمر لا يزداد إلا تفاقماً ... وأنصارنا بالمكتين قليل
وآسلمنا أهل المدينة للهوى ... هوى أهل مصر والذليل ذليل

وقال فى حق محمد بن أبى حذيفة :

أبعد الله محمد بن أبى حذيفة ، بغى على ابن عمه ، وسعى عليه ، وقد كان كفله ورباه وأحسن إليه ، فأساء جواره ووثب على عماله ، وجهز الرجال إليه حتى قتل ، ثم ولى عليه من هو أبعد منه ومن عثمان ، ولم يمنعه بسلطان بلاده حولاً ولا شهراً ولم يره بعد ذلك أهلاً .

يقصد عدم إقراره من عليٍّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ على مصر ، ورجع عبد الله بن سعد من المدينة ، فمنعه ابن أبى حذيفة من دخول الفسطاط، فمضى إلى عسقلان ، فأقام بها حتى قُتل عثمان رضى الله عنه .

وقيل : بل أقام بالرملة حتى مات فاراً من الفتنة ، ودعا ربه فقال : (اللهم اجعل خاتمة عملى صلاة الصبح) .

يقال : فتوضأ ثم صلى الصبح وفارقت روحه جسده إلى بارئها ..

مات عبد الله بن سعد بعد حياة طويلة عريضة فى الكفاح والجهاد فى سبيل الله ، وفى رفع كلمة الله .

فجزاه الله خيراً بمقدار ما قدم من نشر لدينه ، وتبليغ رسالته ، إنه نعم المولى ، ونعم المجيب .

دروس وعـــبر..
مصر عبر التاريخ

■ إن ذُكر عبد الله بن سعد ـ رضى الله عنه ـ تبادر إلى الذهن ذكر مصر وتاريخها الطويل الممتد ، الموغل فى أعماق الزمن ، ونقول فى أعماق الزمن ، لأن بعض المؤرخين ، يرجع تاريخها ، وبداية بنائها إلى مصر بن مصرايم بن حاتم بن نوح عليه السلام .

ويقال أيضاً إن مصر من قديم كان شعبها يعرف عقيدة التوحيد ، توحيد الخالق فلا إله إلا الله .

وتوحيد الدين فلا دين إلا الإسلام .

وتوحيد البشرية : كلكم لآدم وآدم من تراب .

نقول ذلك لأن نبى الله إدريس – عليه السلام – دعا أهلها إلى عبادة الله وحده ، ونبذ كل ألوان الشرك .

وقدماء المصريين كانوا يؤمنون بالبعث ، ويصدقون بما يكون بعد الموت، فحرصوا على إقامة القلاع ، وتشييد الحصون من أهرامات وخلافه إيماناً بالخلود والبقاء ، والبعث بعد الموت .

ويحدثنا تاريخهم القديم عن ملامح تصورهم للحياة الآخرة ، وما يكون فيها من حساب وعقاب وجزاء ، عن طريق محكمة مكونة من أربعين قاضياً يرأسها قاضى القضاة (أوزوريس) فالإنسان لا يفنى .

والموت مرحلة انتقالية إلى حياة أخرى .. حياة الأبدية والخلود .
والمستعرض للكتب السماوية السابقة على القرآن الكريم ، كالتوراة التى أنزلها الله على موسى ، والإنجيل الذى أنزله الله على عيسى عليهما السلام ، يلحظ أن

اسم مصر يتردد كثيراً فيها ، أما فى القرآن خاتم الكتب السماوية فقد ذُكر اسم مصر فى خمس آيات :

الآية الأولى : عندما تمرد بنو إسرائيل على رزق الله تعالى لهم وبطروا بأنعم الله ، وطلبوا أن يأكلوا مما تنبت الأرض ، فأجابهم الله إلى طلبهم ودعاهم إلى الذهاب إلى مصر . قال تعالى :

﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ .. (٦١) ﴾ [البقرة]

والآية الثانية : عندما أوصى الله لموسى وأخيه هارون أن يقيما لقومهما بمصر بيوتاً ، وكان الهدف من ذلك اعتزال البيئة الجاهلية ، وتجمع العصبة المؤمنة ، الخيرة النظيفة، لتنظيمها، وتدريبها حتى يأتي وعد الله لها . قال تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾ [يونس]

والآية الثالثة : عندما يتحدث القرآن عن يوسف عليه السلام ، وإلقاء إخوته له فى غياهب الجب ، والسيارة التى حملته إلى مصر بعد خروجه وعرضه فى سوق الرقيق ، وشراء العزيز له ـ عزيز مصر ـ ووصيته لزوجه بإكرام يوسف عليه السلام . قال تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ .. (٢١) ﴾ [يوسف]

والآية الرابعة : عندما مَنَّ الله على يوسف من ربه أن يغفر لإخوته ودعاؤهم مع أبويه لدخول مصر قال الله تعالى :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يوسف]

والآية الخامسة : ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) ﴾ [المؤمنون]

قال : يعنى مصر .

مصر ذات الغلات الوافرة ، والمزارع الشاسعة ، والخيرات العميمة ، حتى سميت بأنها تحوى خزائن الأرض ، على لسان يوسف عليه السلام. قال تعالى:

﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾ [يوسف]

وسمى الله تعالى ملكها بالعزيز ، ولن يكون ذلك كذلك إلا لمكانتها بين الدول ، وإكرام الله لها . قال تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) ﴾ [يوسف]

وقد هاجر إلى مصر على مدار التاريخ مجموعة من الأنبياء منهم : يوسف الصديق عليه السلام ، وإبراهيم عليه السلام ، وموسى وهارون عليهما السلام .

وزعم بعض المؤرخين أن المسيح عليه السلام ولد (بأهناس) وبها نخلة مريم عليها السلام .

ولقد كان اهتمام الرسول ـ ﷺ ـ بمصر عظيماً ، وما كادت الأمور تستقر بالمدينة ، حتى أرسل عليه السلام حاطب بن أبى بلتعة برسالة إلى المقوقس عظيم القبط يدعوه إلى الإسلام .

فأرسل إليه : مارية القبطية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ ـ ومن قبل مارية ـ هاجر أم إسماعيل عليه السلام .

وفى الأثر : إذا فتحتم مصر ، فاستوصوا بالقبط خيراً ، فإن لهم صهراً ونسباً .

أما صفة أهلها فكما وصفهم الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ بقوله :

إذ جاء باغى الخير قلن بشاشة
له بوجوه كالدنانير مرحبا
وأهلاً ولا ممنوع خير تريده
ولا أنت تخشى عندنا أن تؤنبا

ولقد كان لمصر دورها الكبير بالنسبة لبلاد الإسلام والمسلمين ، ومن أهم القضايا التى شغلت خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ المجاعة التى أصابت المسلمين عام الرمادة ، وقلة الماء والمطر التى ترتب عليهما هلاك الماشية والزرع . فما كان من عمر إلا أن طلب مدداً من مصر واستجاب واليها عمرو بن العاص لطلب الخليفة ، وأُخذت الإمدادات تترى حتى طلب عمر بن الخطاب من عمرو أن يكف عن الإرسال .

ومن مصر الإسلامية انطلقت الجيوش المؤمنة لنشر دين الله فى قارة أفريقيا بأسرها ، وكان جند الله يثبون إلى تلك المناطق النائية داخل الأحراش والغابات ، لا يبالون بالأخطار ، ما دام الهدف فى النهاية إعلاء كلمة الله وإبلاغها إلى كل مكان تصل إليه الشمس .

ولا نخالنا تنسى ذاكرة التاريخ موقف القائد الإسلامى عقبة بن نافع عندما

اخترق بجنوده الأرض ، حتى وصل إلى شاطيء البحر . فقال كلمته المشهورة التى ما زالت ترن فى سمع الزمان :

« والله لو أعلم أن خلف هذا البحر قوماً لا يؤمنون بالله ولا يصدقون بمحمد لخضت لهم بهذا الفرس » .

وفى مصر جُيشت الجيوش ، وأُعدت المراكب للوثوب على درة البلاد فى ذلك الوقت « أسبانيا » ولقد كان للجنود السمر الوجوه ، البيض القلوب الصادقى الإيمان دورهم فى نشر اسم الله على ربوع تلك البلاد ، وامتد زحفهم بكلمة (الله أكبر) حتى وصل إلى مشارف فرنسا .

وعندما خرج من وسط آسيا الصغرى مجموعة التتار والمغول بقيادة «هولاكو » وطوقوا البلاد ، واسقطوا الخلافة الإسلامية باستلائهم على بغداد وواصلوا زحفهم إلى بقية البلاد الإسلامية .

خرج الجيش الإسلامى من مصر بقيادة سيف الدين قطز ، والتقى مع هؤلاء المغيرين المعتدين فى معركة فاصلة ، هى معركة (عين جالوت) وفرح المسلمون بنصر الله .

وإذا كانت معارك التتار انتهت بمعركة (عين جالوت) ، فإن المعارك الصليبية التى حشد الغرب لها قوته ومعداته ، وكيد الكنيسة ورجالها، فقد استمرت المعارك لمدة ثلاثة قرون ثم انتهت بمعركة (حطين) .

انتهت الحروب الصليبية بالانتصار الساحق لقوة الإسلام ، وأخذ قادة الغرب ورجاله يتدارسون موقعة (حطين) التى خطط لها قادة الإسلام ونفذ بنودها صلاح الدين .

ونقول : هل كفَّت مصر عن العطاء ..؟

هل توقف أبناؤها عن البذل والجهاد ..؟

هل بخلت تربتها عن النماء ..؟

الله يشهد أن ذلك لم يكن فى مقدورها حتى لو فكرت فيه .

إن مصر لم تكن فى يوم من الأيام لنفسها أو لأبنائها ، وإنما كانت ولا تزال للمسلمين جميعاً . وإذا كانت مواردها قد أنهكتها الحروب المتتابعة مع الصهيونية ومن هم وراءها ، فإن مصر ما زالت تقدم الخبرات وتقدم الكفاءات، وتقدم الرجال .. وهذا أغلى شىء يمكن أن تبذله دولة فى سبيل الآخرين[1] ..

(١) راجع رجال أنزل الله فيهم قرآنا للمؤلف .

أبو محجن الثقفى مالك بن حبيب

رضى الله عنه

فارس معركة (القادسية).

قال أبو محجن الثقفى: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول:

« أخوف ما أخاف على أمتى ثلاث: إيمان بالنجوم، وتكذيب بالقدر، وجور الأئمة ».

■ فارس من فرسان الجاهلية والإسلام ومقاتل لا يشق له غبار وخبير بالنفوس ، عالم بخباياها ، يعرف متى يُقدم وكيف يُحجم، نشأ فى قبيلة ثقيف تلك القبيلة التى لم تعرف معنى الهزيمة قط ، ولم تستطع قبيلة أن تنال منها .

ولقد كانت دائماً تعمل على تطوير أسلحتها . من السيف إلى المدفع ومن الرماية إلى المنجنيق ، ومن الخيل والإبل إلى الدبابة التى تخترق الأسوار وتدمر الحصون ، وتربك العدو فيفر هارباً من أرض المعركة . وكانت أرضها خصبة ، وعيونها فوارة ، خيراتها كثيرة ، وحرفة أهلها صناعة الأسلحة ، وتربية الخيول العتاق ، وعبادة الطاغية (اللات) التى قال الله تعالى عنها : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) ﴾ [النجم] ولقد سمعت ثقيف بالإسلام ولكنها لم تسلم ، وبقيت على شركها وكفرها حتى بعد فتح مكة ثم أراد الله سبحانه تعالى لهم الخير فهداها إلى الإسلام .

إسلام أبى محجن الثقفى

متى أسلم أبو محجن .. ؟ إن أوثق المصادر التى بين أيدينا تقول إن إسلامه تأخر حتى أسلمت ثقيف وكانت بداية ذلك أن عبد يا ليل كان سيد ثقيف والمدافع عنها بعد مقتل عروة بن مسعود . أخذ ستة من رؤساء ثقيف ، وسار بهم إلى رسول الله ـ ﷺ ـ بالمدينة . فلما اقتربوا منها ونزلوا قناة ، ألفوا بها المغيرة بن شعبة ـ رضى الله عنه ـ يرعى فى نوبته ـ ركائب أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فلما رآهم ترك الركائب ، ووثب يشتد ليبشر رسول الله ـ ﷺ ـ بقدوم وفد ثقيف عليه .

فلقيه أبو بكر الصديق قبل أن يدخل على رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبره عن ركب ثقيف أنهم قد قدموا يريدون البيعة والإسلام ، وأن يشترط لهم رسول الله ـ ﷺ ـ شروطاً ، ويكتتبوا من رسول الله كتاباً فى قومهم وبلادهم وأموالهم .

فقال أبو بكر للمغيرة : أقسمت عليك بالله لا تسبقنى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ حتى أكون أنا أحدثه ..

ففعل المغيرة .

فدخل أبو بكر على رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبره بقدومهم عليه .

ثم خرج المغيرة إلى أصحابه ، وأعلمهم كيف يحيون رسول الله ـ ﷺ ـ فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية .

ولما قدموا على رسول الله ـ ﷺ ـ ضرب عليهم قبة فى ناحية المسجد، فكان خالد بن العاص ، هو الذى يمشى بينهم وبين رسول الله ـ ﷺ ـ حتى اكتتبوا كتابهم .

وكان خالد هو الذى كتب كتابهم بيده .

وكانوا لا يطعمون طعاماً يأتيهم من عند رسول الله ـ ﷺ ـ حتى يأكل منه خالد إلى أن أسلموا . وقد كان فيما سألوا رسول الله ـ ﷺ ـ أن يدع لهم الطاغية ـ وهى اللات ـ لا يهدمها ثلاث سنين .

فأبى رسول الله ـ ﷺ ـ ذلك عليهم . فما برحوا يسألونه سنة ، سنة ويأبى عليهم .

حتى سألوا شهراً واحداً بعد مقدمهم . فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى . وكانوا يريدون بذلك ـ فيما يظهر ـ أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وزراريهم ، ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام فأبى رسول الله ـ ﷺ ـ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب ، والمغيرة بن شعبة فيهدمانها .

وسألوه أيضاً : أن يعفيهم من أداء الصلاة ..؟ وألا يكسروا أصنامهم بأيديهم . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة ، فإنه لا خير فى دين لا صلاة فيه. فقالوا : يا محمد فسنؤتيكها .

فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله - ﷺ - كتابهم، أمَّر عليهم عثمان بن العاص ، وكان من أحدثهم سناً ، وذلك أنه كان أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن .

هدم الطاغية

قال ابن إسحاق : فلما فرغوا من أمرهم ، وتوجهوا إلى بلادهم راجعين ، بعث رسول الله - ﷺ - معهم أبا سفيان بن حرب ، والمغيرة بن شعبة لهدم الطاغية ، فخرجا مع القوم حتى قدموا الطائف . وتم هدمها وتسويتها بالأرض .

وتلاشت الآلهة المزيفة - وعلت كلمة التوحيد لتعلن عبودية الله وحده . لا شريك له ، له الملك وإليه المصير وتم إسلام أبى محجن الثقفى وانتقل بذلك نقلة بعيدة حيث لا يعبد إلا الله ولا يرجو الخير من سواه .

أبو محجن وتعاطى الخمر

فى الجاهلية الأولى كان العرب جميعاً يشربون الخمر، يشربونها فى ظعنهم ويشربونها فى إقامتهم . ويشربونها فى الصباح ويشربونها فى المساء ، حتى صارت من العادات التى يصعب على الإنسان أن يقلع عنها . ولقد علم الخبير العليم بخلقه ذلك ، ولذا عندما أراد أن يحرم عليهم الخمر التى تذهب بعقولهم . سلك طريق التدرج فى تحريمها حتى لا يكون عليهم عبء ثقيل لا يطيقون تحمله . والله تعالى يقول :

﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ..(٢٨٦) ﴾ [البقرة]

من هنا كانت الخطوة الأولى فى تحريم الخمر بيان المضار التى تحدثها الخمر أكثر من المنافع قال الله تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

ثم كانت الخطوة الثانية الامتناع عن تناول الخمر فى أوقات الصلاة .

قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ..(٤٣) ﴾ [النساء]

وبذلك اتسعت المسافات بين الشرب والترك ، فهم لا يشربونها فى الصباح مخافة أن تأتى صلاة الظهر وهم سكارى ، ومثله بعد الظهر وبعد العصر وبعد المغرب وبقى وقت واحد يمكن أن يتعاطوا فيه الخمر ـ وهو ما يكون بعد صلاة العشاء الآخرة . ولقد كان للإرادة القوية التى كان يتمتع بها المسلمون الدور الكبير فى تحريم الخمر تحريماً قاطعاً عندما نزل قول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) ﴾ [المائدة]

ولقد شرب أبو محجن الخمر فى خلافة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وحدَّ عليها ثم شربها وأقيم عليه حد الشرب مرة أخرى . ثم فكر عمر فى نفيه إلى جزيرة فى البحر وبعث معه رجلاً ، فهرب منه ولحق بسعد بن أبى وقاص بالقادسية . وكان أبو محجن قد همَّ بقتل الذى بعثه معه عمر ، فأحس الرجل بذلك ، فخرج فاراً فلحق بعمر وأخبره خبره . فكتب عمر إلى سعد بحبس أبى محجن ، فحبسه .

أبو محجن ومعركة القادسية

كانت معركة القادسية من المعارك الضارية فى تاريخ الإسلام . وكانت على أرض فارس . ولقد جمع الفرس فيها كل ما يملكون من قوات ضاربة وأسلحة متطورة وخبرات أجنبية .

ولكن الإرادة القوية ، والإيمان الجياش والرغبة فى الشهادة التى كان يطلبها المحاربون المسلمون ، جعلت كفة الميزان تميل لصالح المسلمين . وكانت المعارك تدار فى الأراضى المكشوفة . وتستمر طوال النهار ، فإذا أوشكت الشمس على المغيب تحاجز الطرفان لينالا قسطاً من الراحة ، وليجمع كل فريق قتلاه استعداداً ليوم جديد .

ولقد كان أبو محجن يتابع المعركة من داخل سجنه ويقتله الأسى والألم ألا

يكون جندياً من جنود الفتح يدافع عن دينه ويدعو الآخرين إليه .

فأخذ يقول :

كـفـى حـزناً أن تـرتدى[1] الخـيل بالـقنا
وأترك مـشـدوداً علـىَّ وثاقـيـا
إذا قـمـت عنـانى الحـديد وغـلـقـت
مـصـارع دونى قـد تصـم المنـاديا
وقـد كنت ذا مـال كـثـيـر وإخـوة
وقـد تـركـونـى واحـداً لا أخـا لى
وقـد شف جـسـمـى أننى كل شـارق
أعـالج كـبـلاً مـصـمـتـاً قـد برانيـا
فـللـه درى يـوم أترك مـوثـقـا
ويذهـل عنـى أسـرتـى ورجـالـيـا
حـبـسنا عن الحـرب العـوان وقـد بدت
وأعـمـال غـيـرى يوم ذاك العـوليـا
فلـله عـهـد لا أخـيـس بعـهـده
لئـن فـرجت ألا أزور الحـوانيـا

فلما كـان يوم قس الناطف بالقادسـية . والتحم القـتال ، سأل أبو محجن امرأة سـعد أن تحل قيـده وتعطيه فرس سـعد ، وعاهدهـا أنه إن سلم عاد إلى حاله من القـيد والسجن ، وإن استـشهد فلا تبـعة عليه فى ذلك فخلَّت سـبيله وأعطته الفـرس . فالتحم مع المقاتلين فـجعل لا يزال يحمل على رجل فيـقتله . فنظر إليه سعد فجعل منه يتعجب ويقول :

مَنْ ذلك الفارس ..؟ إنه يقاتل قتال المستمـيت . يقاتل ليحوز النصر أو يظفر بالشهادة . إنه يقـاتل ليطهر نفسه مما ارتكبه فى سـالف الأيام ، يقاتل لنصرة دين الله لعل الله تعالى يقبل توبته ويغفر له حوبته . إنه يجندل صناديد الفرس، ويخـترق صـفوفـهم . وكأنه النار المـشتـعلة أُلقيت على الـهشـيم فلم تبق منه

(١) قيل : ترتدى أى تعدو وتسرع .

ولم تذر . حتى أراد الله بأمره ، ونصر الله المؤمنين نصراً مؤزراً ، ولكن أبا محجن لم ينل الشهادة . ثم عاد من حيث أتى وردَّ الأمانة التى أُعطيت له ووضع قدميه فى القيد حتى يجعل الله من أمره يسراً . إنها الحرب التى تُطهِّر الرجال فى بوتقتها وتقربهم إلى ربهم ، فيزهدوا فى الدنيا العريضة وما حوت ، ويعافوا الشهوات بكل ما ألمت ويصيروا خلقاً جديداً تربطهم بالسماء أسباب غير منظورة .

ثم عاد سعد إلى أهله وذويه بعد يوم من القتال المرير . فقالت له زوجته :

كيف كان قتالكم ..؟

فجعل سعد يخبرها ويقول : لقينا ولقينا ، حتى بعث الله رجلاً على فرس أبلق ، لولا أنى تركت أبا محجن فى القيود لظننت أنها بعض شمائل وطعنات أبى محجن ..؟؟

فقالت : والله إنه لأبو محجن . لقد كان من أمره كذا وكذا .

فقال سعد : والله ما أبلى أحد من المسلمين ما أبلى فى هذا اليوم ، لا أضرب رجلاً أبلى فى المسلمين ما أبلى . فدعا به وحل قيوده وقال : والله لا نجلدك بعدها أبداً .

قال أبو محجن : وأنا والله لا أشربها أبداً ، كنت آنف أن أدعها من أجل جلدكم إذا يقام علىَّ الحد وأطهر منها ، فإما إذ أسقطتم الحد فو الله لا أشربها أبداً . ثم قال :

رأيت الخمر صالحة وفيها
خصال تهلك الرجل الحليما
فلا والله أشربها حياتى
ولا أشفى بها أبداً سقيما

وعاد مسلماً ملتزماً ومؤمناً قانتاً وربانياً ساجداً وجندياً مجاهداً فى سبيل الله ما يكاد يفرغ من معركة حتى يدخل فى أخرى ليزيل هذا الركام المتعفن الذى يقف أمام دعوة الإسلام .

حتى لم يمض على ذلك فترة وجيزة من عمر الزمن حتى دانت بالإسلام بلاد فارس وما جاورها من بلاد السند والهند ، وبلاد الشام وما حاذاها من بلاد الترك والروم .

إنهم الرجال الذين تربوا فى مدرسة الإسلام ، وعلى مائدة القرآن خرجوا إلى الدنيا العريضة ، فمدّنوا الدنيا وهذّبوا العالم وقرروا الحق للإنسان . الإنسان الذى خلقه الله سبحانه وسواه . الإنسان فى كل بقعة من بقاع الأرض بغض النظر عن جنسه ولونه كما أخبرهم بذلك رسول الله ـ ﷺ ـ كلكم لآدم وآدم من تراب .. إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

حتى قال شاعرهم وهو يشاهد ما فعله هؤلاء الأبطال من حضارة وتمدن :

كانوا رعاة جمال قبل نهضتهم
وبعدها ملأوا الآفاق تمدينا
لو كبِّرت بآفاق الصين مئذنة
سَمِعْتَ فى الغرب تهليل المصلينا

فتح همدان وجرجان وأذربيجان

توغل المسلمون فى بلاد الفرس بقيادة نعيم بن مقرن . وشاهد هولاً كبيراً وجيوشاً جرارة . وكان أبو محجن الثقفى يطلب الشهادة ، ويُلقى بنفسه فى المهالك ، ولكن الله تعالى ـ لم يرد له ذلك ، فكان سيفه ورمحه يحصدان الأعداء حصداً . ويفر من أمامه ما تبقى من تلك الفلول . حتى دانت لهم تلك البلاد ، فبعضهم دخل إلى دين الله أفواجاً ، والبعض الآخر اصطلحوا على دفع الجزية ، وآن للمسافر أن يؤوب وللفارس أن يستريح ، فاستقر أبو محجن على أرض أذربيجان . ثم وفاه أجله ـ رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته .

لقاء بين ضرغام بن أبى محجن وبين معاوية بن أبى سفيان

التقى ضرغام بن محجن الفارس المعلم فى جيش المسلمين على أرض الشام ومعاوية بن أبى سفيان أمير المؤمنين فى ذلك الوقت . فقال معاوية يا ضرغام، أبوك الذى قال :

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة
تروى عظامى بعد موتى عروقها

ولا تـدفنـى بالـفــــلاة فــــإننـى
أخـــاف إذا مــــامُتُّ ألا أذوقــــهـــا

فقال ضرغام : يا أمير المؤمنين لو شئت لقلت أحسن من هذا من شعره .

قال معاوية : وما ذاك ..؟

قال ضرغام : قوله :

لا تســأل الـناس عن مــالى وكــثـرته
و ســائل الناس عن حــزمى وعن خلقى

دروس وعبر..
المخدرات أو حرب التدمير

قال الرسول عليه السلام: إن الخمر أم الفواحش، وأكبر الكبائر
ومَن شرب الخمر ترك الصلاة، ووقع على أمه وخالته وعمته ..!!

■ ويتساءل المرء : لماذا يُطلق على المخدرات بأنها حرب التدمير ..؟

ولماذا كانت بهذه الكثرة الكثيرة فى عالمنا المعاصر .. ؟

ولماذا تُغمر البلاد الإسلامية بالذات بهذا الكم الهائل المتنوع من كل أصنافها . والدين يحرمها .. ؟

ومَنْ هم وراء هذه الكميات المتلاحقة التى تأتى بثمن مرة ومن غير ثمن فى كثير من المرات ..؟

وما الهدف والغاية من وراء حرب المخدرات هذه المعلنة حيناً والمتخفية تحت ستار الدبلوماسية والبروتكولات مرات ..؟

إن ما قرره مجلس الشعب المصرى فى جلسته المنعقدة بتاريخ ٢/١/١٩٨٦م يكشف القناع عن هذه الحرب .

لقد قال المجلس كما جاء فى مضبطته : « إن هناك دولاً أجنبية وفى مقدمتها إسرائيل تسعى سعياً حثيثاً لنشر وترويج السموم البيضاء فى مصر ودول الخليج . وإن هذه الظاهرة قد بدأت مع ازدياد حركة السياحة الإسرائيلية إلى مصر فى بداية الثمانيات »[١] .

وما قاله مجلس الشعب فى جلسته صرح به اللواء حسنى عبد العظيم مدير الإدارة العامة لمكافحة المخدرات فى مدير لمجلة (الشرق الأوسط) حيث قال :

« إن إسرائيل تُعتبر أحد المنافذ الرئيسية، بل والمهمة فى السنوات الأخيرة ، بعد عودة العلاقات بينها وبين مصر لدخول كميات كبيرة من مسحوق

(١) الأخبار المصرية ٣/١/١٩٨٦م .

الهيروين بطريق مباشر أو غير مباشر ، وذلك تمشياً مع سياستها العدوانية فى تحطيم وتشويه صورة الشباب المصرى وإغراق الأسواق المصرية بالسموم »[1] .

ونتساءل : ماذا تستفيد إسرائيل من تشويه صورة الشباب المصرى ..؟

وماذا تجنى من وراء إغراق الأسواق المصرية والعربية بالمخدرات ..؟

هل تبغى الربح ...؟ وهل تبحث عن المال ...؟

أم أن الحقيقة التى تريدها إسرائيل أكبر من الربح ومن المال .. ؟!

ولهذا تعمل جاهدة على شن هذه الحرب فى صورة المخدرات ..

يقول أحد المفكرين المخلصين من أبناء هذه الأمة :

« الدور الإسرائيلى فى تجارة المخدرات دور خطير ، وله أبعاد سياسية متعددة ، وأهداف عليا تتعلق بمخططات إسرائيل التى تطمح إلى إقامة الدولة العالمية التى سيكون مركزها « أورشليم » و « القدس » والتى سيحكم بها اليهود العالم من خلال مسيخهم المنتظر الذى أكدت مجيئه لهم كل التنبؤات منذ عهد أرميا وأشعيا والذى امتلأ به العهد القديم « التوراة » المحرفة .

وأيضاً كتابات الأحبار فى المشناه والجماره من التلمود الذى وضعه أحبارهم . وهو المسيخ الدجال الذى تحدثت عنه الأحاديث النبوية المستفيضة والموجودة فى كتب الصحيحين البخارى ومسلم ، وبقية كتب الصحاح[2] .

ويقول الدكتور « حمد المرزوقى » فى ندوة المخدرات بجامعة الملك عبدالعزيز بالرياض :

« تأكد لدى وزارة الداخلية فى المملكة العربية السعودية أن هناك أطرافاً دولية تعمل بشكل مكثف على غزو المملكة العربية السعودية ودول الخليج بالمخدرات ، وهدفها الرئيسى تفتيت المجتمع العربى والإسلامى وتدميره » .

وما قاله الدكتور المرزوقى ردده النائب العام لجمهورية مصر العربية حيث قال :

« إننا نواجه مخططاً دولياً يستهدف تخريب مصر اجتماعياً وأخلاقياً

(١) مجلة (الشرق الأوسط) العدد ٦٦ فى ١٦ أكتوبر ١٩٨٧م .
(٢) راجع (المذاهب المعاصرة) ـ د. عبد الرحمن عميرة ص ٩٦ ط الهيئة العامة للفتوى والإرشاد السعودية .

واقتصادياً . وهذه المخدرات التى تأتى عبر الحدود والسدود تُدفع قيمتها بالعملة الصعبة بما يصل إلى مليارات من الدولارات ، وهذا يستنزف رصيد مصر من العملات ، بالإضافة إلى أن إدمان المخدرات من شأنه أن يؤدى إلى تفسخ القوة البشرية ـ عصب الأمة ـ التى يكون من نتائج ذلك ضعف الإنتاج »[1] .

ويؤكد هذه الحقيقة اللواء جميل اليمان مدير عام جهاز مكافحة المخدرات بالمملكة العربية السعودية بقوله :

« هناك عصابات يهودية تعمل وتحرِّض ، وتسهِّل عمليات التهريب إلى دول الخليج ، وخاصة المملكة العربية السعودية ، وقد ذكر أن سلطات مكافحة المخدرات بالسعودية تمكنت من ضبط ومصادرة ٢٧٦ ألف حبة مخدرة خلال ست سنوات »[2] .

يا له من خطب جسيم ٢٧٦ ألف قذيفة وقنبلة موقوتة يوجهها الأعداء إلى شبابنا ، ولهذا نستطيع أن نقول ونؤكد أن ما يفعله هؤلاء الأعداء من تصدير هذه السموم إلى بلادنا ليس المقصود به التجارة الرائجة ، ولا البضاعة المزجاة ، وليست هى أسلوباً من أساليب الربح والخسارة ولكنها ـ والحق يقال ـ نوع من أنواع الحرب الموجهة ، التى يشنها هؤلاء الأعداء علينا .

إن الذين يحملون هذه المواد إلى بلادنا ليسوا إلا جواسيس ترسلهم الدول الأعداء ، لا لتدمير المنشآت الحربية ، أو كشف الأسرار التكتيكية ولكنهم جواسيس يدمرون أغلى شىء تملكه الدولة ، وتحرص عليه ، إنهم الشباب رصيد الأمة فى السلم والحرب ، فى العمل والإنتاج ، وفى شتى ميادين الحياة.

ومصداقاً لما نقول ما صرح به شيخ الصحفيين فى مصر « مصطفى أمين » حيث قال :

« أحب أن أحذر كل أب وأم فى بلادنا بخطر داهم يهدد الشعب المصرى كله ، وهو أشبه بقنبلة ذرية ألقيت على بلادنا ، تفتك كل يوم بالآلاف من الشبان والشابات ، وتقضى عليهم أو تحولهم إلى أشباح وإلى مجرمين .

مطلوب من كل أم فى مصر وفى كل البلاد العربية أن تشترك فى هذه

(١) جريدة (الأهرام) العدد ١٤٠٦ فى ٢٩/١٠/١٩٨٥م .
(٢) جريدة (الأهرام) ٢٩ أكتوبر ١٩٨٥م .

المعركة وأن تمنع جريمة قتل يحاول أن يرتكبها عملاء ماتت ضمائرهم، ورضوا أن يكونوا الخنجر الذى يغمد فى ظهر مصر، ومطلوب من الدولة أن تحارب الآن معركة حياة أو موت، وأن تضرب بيد من حديد على هؤلاء المهربين الذين يكونون الطابور الخامس ضد بلادنا »[1] .

لقد وصف شيخ الصحفيين مروجي المخدرات بأنهم عملاء لدولة أجنبية وليسوا تجاراً يبغون الربح ..

واتهمهم بأنهم الطابور الخامس أى جواسيس يعملون لصالح الأعداء ولهذا فهم يخربون ويدمرون ويفسدون فى الأرض ..

وصف عملهم الذى يقومون به بالقنبلة الذرية التى يوشك أن ينزع منها الفتيل عندها لا تبقى ولا تذر .

وبهذا نصل إلى النقطة الثالثة ، حكمة التشريع فى جعل عقوبة مروجي المخدرات الإعدام .

من ذلك : ما أفتت به هيئة كبار العلماء فى المملكة العربية السعودية فى قرارها الصادر برقم ١٣٨ وتاريخ ١٤٠٧/٦/٢٠ هـ متضمناً ما يلى :

أولاً : بالنسبة لمهرب المخدرات، فإن عقوبته القتل لما يسببه تهريب المخدرات وإدخالها البلاد من فساد عظيم ، لا يقتصر على المهرب نفسه ، وأضرار جسيمة وأخطار بليغة على الأمة بمجموعها ، ويلحق بالمهرِّب الشخص الذى يستورد أو يتلقى المخدرات من الخارج ويمون بها المروجين .

وبناء عليه فقد صدر أمر خادم الحرمين الشريفين المبلغ لكل من وزارة العدل ووزارة الداخلية برقم ٤/ب/٩٦٦٦ وبتاريخ ١٤٠٧/٧/١٠ هـ بالعمل بموجبه وتعميمه على المحاكم .

وهناك فى الوقت الراهن دول عديدة تحكم بالإعدام على مهرب المخدرات . ومن هذه البلاد جمهورية مصر العربية التى أصدرت أول قانون بإعدام المهرب والزارع والتاجر .

وقد صدر القانون رقم ١٨٢ عام ١٩٦٠ م .

والدول التى تحكم بإعدام المهرب والتاجر هى : الصين الشعبية (وقد حكمت بإعدام المتعاطى أيضاً) ، وماليزيا ، وسنغافورة، وتايلاند، وأندونيسيا ،

(١) جريدة (الأخبار) المصرية العدد الصادر ١٩٨٥/٨م .

وسيرالانكا ، وإيران ، (وتحكم على المتعاطى أيضاً بالإعدام) .

ويتوقع أن تدخل دول مجلس التعاون قريباً هذه القائمة .

ولا شك أن مجلس هيئة كبار العلماء فى المملكة العربية السعودية عندما أصدر قراره بقتل مروجي المخدرات ، نظر إليهم على أنهم من المفسدين فى الأرض ، العاملين على قتل النفوس بهذه السموم .

والله سبحانه وتعالى حكم على المفسدين فى الأرض بالقتل . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا .. (٣٣) ﴾ [المائدة]

وقال عن قتل العمد :

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا .. (٣٢) ﴾ [المائدة]

ليس هذا فحسب ، ولكن مجلس هيئة كبار العلماء فى المملكة العربية السعودية نظر إلى هؤلاء المروجين على أنهم يعملون بترويجهم المسكر والمخدر على إشاعة الفحشاء فى المجتمع وهؤلاء توعدهم الله بقوله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .. (١٩) ﴾ [النور]

والذى قال فيهم رسول الله ﷺ :

« من شرب الخمر ترك الصلاة ، ووقع على أمه وخالته وعمته »[1] .

وتارك الصلاة عمداً كافر . كما قال الرسول ﷺ :

« العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر »[2] .

والذى يقع على أمه وذوى أقربائه . زان ، والزانى عقابه الرجم فضلاً عن تقطيع الأرحام .

قال تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) ﴾ [محمد]

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث قريباً من قبل .

(٢) رواه الترمذى فى الإيمان ٩ والنسائى فى الصلاة وابن ماجة فى الإقامة ٧٧ وأحمد بن حنبل فى المسند ٥:٣٤٦ .

أما بقية الدول الأخرى التى أصدر قانونها إعدام مروجى المخدرات فهل هذا يتوافق مع شرع الله ؟

ونقول : لقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن إدمان العقل للمخدرات يؤدى إلى الجنون ، أى فقدان العقل ، العقل الذى أوجب فيه الرسول - ﷺ - الدية كاملة على من يتسبب فى فقده ، وذلك فى كتابه إلى عمرو بن حزم - رضى الله عنه .

يقول ابن قدامة : أوجب الرسول - ﷺ - فى العقل الدية كاملة ، لأنه أكبر المعانى قدساً ، وبه يتميز الإنسان عن الحيوان ، وبه تعرف حقائق المعلومات ، ويدخل به تكليف الشرائع ، وهو أيضاً شرط فى ثبوت الولايات وأداء العبادات .

وإدمان الخمر يؤدى فى النهاية إلى الاكتئاب الذى يكون من نتائجه الانتحار.

يقول الشاعر العربى يصف مدمنى الخمر :

يا ساقنى أخمر فى كؤوسكما ... أم فى كؤوسكما همٌّ وتسهيد

أصخرة أنا مالى لا تحركنى ... هذه المدام ولا تلك الأغاريد

إن كثرة الخمر أفقدت الشاعر الرغبة فى الحياة ، ولم تعد - كما كان سابقاً - تسبب له النشوة التى كان يشعر بها ، بل أصبحت الخمر تسبب له الهم والغم والاكتئاب ، حتى أصبح كالصخرة الصماء التى لا تشعر بالفرح ولا تطرب للغناء .

وهذا حال المدمن المكتئب الذى لا تُسَرّ عنه الخمر ، وتصبح الحياة فى نظره بلا طعم فيلفه اليأس ، ويلقى به فى أتون الانتحار .

فإذا علمنا أن إحدى الدول أحصت عدد مدمنى المخدرات الذين أعلنوا عن أنفسهم ، فتجاوزوا المليون ونصف المليون ، فكم يكون عدد المدمنين الذين يتسترون على أنفسهم ..؟

وكم تكون مصيبة هذه الدولة إذا لجأت هذه الأعداد الضخمة إلى الانتحار نتيجة الاكتئاب الذى تصاب به ؟ وكما حدث فى الانتحار الجماعى الذى قام به شباب إحدى الدول المجاورة .

إذا عرفنا ذلك أيقنا أن عقوبة الإعدام التى قررتها بعض الدول على مروجى المخدرات أقل مما يجب بكثير .

وثبت أيضاً أن المخدرات تؤدى إلى الإضرار بالنفس حتى تفضى بصاحبها إلى الموت المحقق .

وفى تقرير الصحة الدولية التابعة لهيئة الأمم المتحدة عام ١٩٩١م إن عدد المصابين بالإيدز نتيجة تعاطيهم المخدرات المغشوشة ببودرة الجماجم البشرية المطحونة ، تجاوز العشرة ملايين فى دول أفريقيا وآسيا وأوربا .

وأن هذه المخدرات أدت إلى التوسع فى انتشار الدعارة وأن عدد الفتيات - فى إحدى الدول التى تدّعى الحضارة والمدنية - واللاتى حملن سفاحاً من سن ١٢ إلى سن ١٧ عن طريق مزاولة هذه المهنة لتوفير ثمن الجرعة من المخدرات - واللاتى لا يصبرن على تعاطيها - بعد أن أصبحن مدمنات تتجاوز ١,٢ مليون فتاة - رغم انتشار استخدام وسائل منع الحمل وتدريسها فى المدارس بدءاً من المرحلة الابتدائية .

ولقد تمت ولادة ٤٩٪ منهن ولادة طبيعية ويطلق عليهن فى تلك البلاد الأمهات العذارى ..

وتم إجهاض الباقى ويبلغ عددهن ٤٠٠,٠٠٠ حالة أى ٣٨٪ من جميع حالات الحمل السفاح .

فهل إذا لجأت هذه الدول إلى فرض عقوبة الإعدام على مروجى المخدرات الذين تسببوا فى هذا الهول الكبير وهو انحطاط فئة من البشرية إلى درجة يترفع عنها الحيوان . تكون ملومة على ذلك ..؟

أم نقول إن هذه العقوبة - والحق يقال - تكون أقل مما يجب .. ؟؟

ولقد ثبت بما لا يدع مجالاً للتزيد أو التهويل أن المخدرات تقضى على ثروات البلاد .

أولاً : ما تنفقه الدولة لمكافحة هذه السموم ، ومنع دخولها ووصولها إلى أيدى المدمنين . ويدخل تحت هذا البند جزء كبير من ميزانية وزارة الداخلية وميزانية حرس الجمارك والموانىء الجوية والبحرية والبرية .

ثانياً : الخدمات الطبية ، والمعالجات النفسية والاجتماعية التى تقدم لعلاج المدمنين ، هذا إلى إجراءات برامج التوعية بجميع مستوياتها، كما قد تشارك فى هذه النفقات وزارات أخرى كالتعليم والإعلام .

ثالثاً : الإنفاق المستتر وهو نوعان :

أحدهما : مـا ينفقه المدمنون ثمناً للمواد المخـدرة ، ويدخل فى ذلك ما يترتب على الإدمان من اختلال ارتباطهم بمواقيت العمل ، وكـثرة الغياب بسبب اعتلال الصحة ، وتناقص إنتاجية المتعاطى .

ثانيهما : الخسائر البشرية التى يتكبدها المجتمع كجزء من المجتمع كجزء من المعاناة مع مشكلة المخدرات ، والمقصود مـجموع الأفراد الذين يخرجون كلياً أو جزئياً من حساب القوة العاملة .

ويأتى فى حساب الأرباح والخـسائر البشرية أيضاً جمـيع الأفراد العاملين فى حقل التهريب والاتجار غير المشروع فى هذه السموم .

إن هذه الخســائر تقدر فى الـدولة الواحدة بمئات المـلايين . ومصداقـاً لذلك يقول الدكتور « التويجرى » :

« إن شاربى الخمر فى عاصمة عربية يتـسببون فى خسارة سنوية مقدارها ٣١٩٥ مليـوناً من الجنيـهـات ، وشـربت دولة مـحـدودة السكان ٣,٥ مليـون كيلوجرام من المشروبات الكحولية عام ١٩٧١م ارتفعت عام ١٩٨١م إلى تسعة مـلايين كـيلوجـرام ، وتنفق دولة عـربية على المخـدرات ١٥٠٠ مليـون جنيـه سنوياً. وتنفق الأمة العربية وهى فى حالتها الراهنة من التخلف ٦٤ ألف مليون دولار (٦٤ بليوناً) سنوياً على الخمور والمخدرات »[١] .

وإذا كان ذلك كذلك فما هو الحل ..؟

هل تكفى عـقوبة الإعـدام مع هؤلاء العـملاء الذيـن يقومـون بدور الطابور الخامس بالنسبة لأوطانهم ..؟

أم أن هذا عـلاج مؤقت قـد يفيـد مع هؤلاء الذين باعـوا دينهم وضمـائرهم للشيطان . وهم المرجون .

وتبقى مشكلة المدمنين فى حياتنا تؤرق كل المخلصين من أبناء هذه الأمة .

إننا نرى ويشاركنا فى هذا الـرأى الكثير ممن يرجون الخـير للبشـرية كلها حيث يتفقون على أن الحل فى الإسلام .

الإســلام الذى يستطيع عن طريق الإيـمان الذى يبـثه فى النفـوس أن يزيل العـوامل الـعـديدة التى تدفع بالإنسـان إلـى تعـاطى المخـدرات وغـيـرها من الموبقات .

---

(١) مجلة (الخليج) العدد ١٦ السنة الخامسة ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥م ص ٩ ـ ٢٩ .

والإسلام يوجه الطاقات إلى غاية سامية ، فلا يجد الشباب هذا الفراغ المدمر الذى يلقى إلى التهلكة .

إن الروح الإسلامية التى حررت الجزيرة العربية من إدمان الخمر فى صدر الإسلام ، قادرة على أن تحرر الإنسان من ربقة الكحول فى القرن العشرين عن طريق الاعتقاد الدينى العميق .

لقد قال الكاتب الأمريكى الأسود جيمس بالدون ـ وهو يخاطب رفاقه السود:

« عودوا إلى دينكم الحقيقى ، انزعوا عنكم أغلال المخدرات ، واحموا نساءكم من الزنى » .

ثم ماذا ..؟ لقد استطاع الإسلام أن يفعل مع هؤلاء السود فى أمريكا ما لم تستطع أن تفعله أجيال موظفى الضمان الاجتماعى ، ومئات القرارات والدراسات واللجان التى كُلفت بإصلاح أحوال السود .

واستطاع الإسلام فى وقت قصير جداً أن يحول هؤلاء البائسين مدمنى الخمور والأفيون والهيروين ، ممن فشل فى علاجهم الأطباء النفسيون والمصلحون الاجتماعيون ، ونفضوا أيديهم عنهم معلنين أنهم لا علاج لهم إلا الطهارة والنقاء ، وتوقفوا فجأة عن الشرب وعن الإدمان .

يقول المؤرخ العالمى « أرنولد توينبى » فى كتابه « محاكمة الحضارة » :

« إن الروح الإسلامية تستطيع أن تحرر الإنسان من ربقة المخدرات عن طريق الاعتقاد الدينى العميق » .

فهل يمكن أن تعود لنا الروح الإسلامية ..؟

نرجو أن يتحقق ذلك . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء .

هاشم بن عتبة بن أبى وقاص

رضى الله عنه

قال أبو الطفيل عامر بن واثلة :
يا هاشم الخير جزيت الجنة .
قاتلت فى الله عدو السنّة ..
أفلح بما فزت به من منة .

■ من الفرسان الذين عرفتهم معارك الجاهلية وفتوحات الإسلام .
وقائد محنك خبير بإدارة المعارك وتحقيق النصر .
ومعاند صلب ابتعد عن دخول الإسلام فترة طويلة من الزمن .

أسلم عام الفتح ـ الفتح الكبير وأخذ يستمع مع عشرة آلاف مقاتل قول الله سبحانه وتعالى ـ وهو يردده بلال مؤذن الرسول عليه السلام بصوته الشجى القوى المعبر :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) ﴾ [الفتح]

وشاهد الأصنام والأوثان وهى تتهاوى وتتساقط متهشمة متحطمة بإشارة من الرسول ـ ﷺ ـ لتفسح المجال لكلمة التوحيد كلمة « لا إله إلا الله » .

ويعلن الرسول ـ ﷺ ـ ميلاداً جديداً لعودة البشرية قاطبة إلى عبادة الواحد الأحد خالق الأرض والسماء وموجد الحياة والموت ..

ويتساءل المرء : كيف تأخر إسلام هاشم بن عتبة إلى ذلك التاريخ وهو ابن أخ لعملاق الإسلام سعد بن أبى وقاص ؟

نعم سعد : القائد المحنك ، والفارس المجرب ، بطل (القادسية) ، ومدائن كسرى وفاتح العراق وناشر على أرضه اسم الله[1] .

سعد : أحد الستة الذين عينهم عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ للخلافة

(١) معركة كانت بين المسلمين والفرس وانتصر فيها المسلمون وقُتل قائد الفرس .

والشورى وقال : وهو يلفظ أنفاسه ، إن إصابته الأمرة فذلك ، وإلا فليستعن به الوالى[1] وهو من قبل هذا ومن بعده خال الرسول ـ ﷺ ـ روى جابر عن عبدالله بن مسعود : قال : أقبل علينا سعد بن أبى وقاص فقال النبى ـ ﷺ ـ هذا خالى فليرنى امرؤ خاله[2] .

وفى إحدى الليالى فى يثرب أرق الرسول ـ ﷺ .

فقال : « ليت رجلاً صالحاً من أصحابى يحرسنى » .

تقول السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ فلم تمض لحظة واحدة إذ سمعنا صوت السلاح فقال الرسول ـ ﷺ ـ مَنْ هذا .. ؟

قال : أنا سعد بن أبى وقاص ، أنا أحرسك يا رسول الله ، فدعا له رسول الله ـ ﷺ .

إن سعداً بات يحرس رسول الله ـ ﷺ ـ صاحب الرسالة وقد دُعى بعد ذلك لحراسة الأمة الإسلامية من أقوى قوة ضاربة عرفتها البشرية فى ذلك الوقت قوة الفرس ، التى كانت تتخذ من أبناء العرب حراساً وعمالاً وجنوداً وخفراء .

وإذا كان هذا وأكثر منه حدث من أقرب المقربين إلى هاشم بن عتبة بن أبى وقاص . فلماذا تأخر إسلام هاشم .. ؟

أليس هذا أمراً يدعو إلى العجب والتساؤل .. ؟

ألم تحدثه نفسه يوماً بالجلوس فى مجلس الرسول ـ ﷺ ـ ويستمع إلى قرآن ربه .. ؟

ألم يسمع قول الله لعباده : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ .. (٥٠) ﴾ [الذاريات]

وإذا كنا لا نجد إجابة واضحة أو أسباباً جوهرية لتخلف هاشم عن الإسلام طوال هذا الفترة . فلا يسعنا إلا أن نكل الأمر إلى الله تعالى الذى قال لرسوله عليه السلام :

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ .. (٧١) ﴾ [الأنعام]

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ .. (٨٨) ﴾ [الأنعام]

---

(١) طبقات ابن سعد ج٣ والاستيعاب فى معرفة . الأصحاب ٢:٦٠٩ .
(٢) المصدر السابق ٢ : ٦٠٩ .

ولقد أراد الله سبحانه وتعالى لعبده هـاشم بن عتبة خيراً فهداه إلى دين الله بإذن من الرسول ـ ﷺ .

هاشم بن عتبة
فى معركة اليرموك

عقد خليـفة المسمين أبو بكر الصـديق على جمع الجنود ليبعـثهم إلى الشام عملاً بقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) ﴾ [التوبة]

وأخذ يرسل الجنود مع القـادة حتى تكامل عدد المسلمـين على أرض الشام إلى أربعة وعشرين ألفاً .

فأفزع ذلك الروم وخافـوا خوفاً شديداً وكتبـوا إلى هرقل يعلمونه بما كان . فلما انتهى إليه الخبر قال لهم هرقل :

« ويحكم إن هؤلاء أهل دين جـديد ، وإنهم لا قـبَلَ لأحد بهم ، فـأطيعـونى وصالحوهم على نصف خراج الشام ، ويبقى لكم جِبال الروم ..

وإن أنتم أبيتم ذلك أخذوا منكم الشام وضيـقوا عليكم جبال الروم . فنخروا من ذلك نخرة حمر الوحش كما هى عادتهم فى المعرفة والرأى بالحرب» .

عند ذلك سـار هرقل إلى حمـص وأرسل الجيـوش بقيـادة الأمراء . وكـان عددهم يزيد على المائة والعشرين ألفاً .

فطلب المسلمـون من أبى بكر مـدداً فأرسل إلـى خالد الذى كـان على أرض العراق أن يـخترق الحـدود والسدود وينضم إلى جـيوش المسلمـين على أرض الشام ، وعندما وصل خـالد إلى أرض الشام أمر بتجميع الجـيوش تحت قيادة واحدة .

وقال : « فـتعالوا فلنـتعاور الإمـارة فليكن عليها بـعضنا اليوم والآخـر غداً والآخر بعد غد حـتى يتآمر كلكم ودعونى اليوم إليكم ، فأمّـره عليهم وخرجت الروم فى تعبئة كاملة يقال إنهم بلغوا مائتين وأربعين ألفاً وتكامل عدد المسلمين قرابة الأربعين ألفاً .

وبينما السـيوف تعمل عـملها ، والرقاب تـتطاير ، والمعارك تشتـد وتساقط القتلى بالألوف من الجانبين .

خرج من صفوف الروم « جرجير » أحد الأمراء الكبار واستدعى خالد بن الوليد فجاء إليه حتى اختلفت أعناق فرسيهما فقال جرجير :

« يا خالد أخبرنى فأصدقنى ولا تكذبنى ، فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله .. هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسله على جمع إلا هزمتهم ..؟

قال : لا .

قال : فبم سميت سيف الله .. ؟

قال : إن الله بعث فينا نبيه فدعانا فنفرنا منه ونأينا عنه جميعاً ، ثم إن بعضنا صدّقه وتابعه ، وبعضنا كذّبه وباعده ، فكنت فيمن كذبه وباعده ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به وبايعناه .

فقال لى : أنت سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين . ودعا لى بالنصر .

فسميت سيف الله بذلك ، فأنا من أشد المسلمين على المشركين .

قال جرجير : يا خالد إلى ما تدعون ..؟

قال : إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء به من عند الله تعالى .

قال : فمَنْ لم يجبكم .. ؟

قال : فالجزية ونمنعهم .

قال : فإن لم يعطها ... ؟

قال : نؤذنه بالحرب ثم نقاتله ..

قال : فما منزلة من يجيبكم ويدخل فى هذا الأمر اليوم .. ؟

قال : منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا ـ شريفنا ووضيعنا وأولنا وأخرنا .

قال جرجير : فلمن دخل فيكم اليوم من الأجر مثل ما لكم من الأجر والزخر؟

قال : نعم وأفضل .

قال : كيف يساويكم وقد سبقتموه ..؟

فقال خالد : إنا قبلنا هذا الأمر وبايعنا نبينا وهو حى بين أظهرنا تأتيه

أخبار السماء ، ويخبرنا بالكتاب ، ويرينا الآيات ، وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع ، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج ، فمَنْ دخل فى هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا ..؟

فقال جرجير : بالله لقد صدقتنى ولم تخادعنى ..

قال : تا الله لقد صدقتك وأن الله ولى ما سألت عنه .

فعند ذلك قلب جرجير الترس ومال مع خالد . وقال : علمنى الإسلام .

ودارت المعركة واشتد وطيسها . وزحف خالد بالمسلمين فضرب فيهم ومعه جرجير من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب وصلى المسلمون صلاة الظهر والعصر إيماء ، وأصيب جرجير رحمه الله ، ولم يصل إلا تلك الركعتين مع خالد ـ رضى الله عنه .

وانهزم الروم وقُتل منهم قرابة المائة والعشرين ألفاً ، وفر الباقون وتركوا أرضهم وديارهم وانبعث فى الأفق صوت قوى جياش يردد قول الله تعالى :

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) ﴾ [الأحزاب]

إلى قوله : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) ﴾ [الأحزاب]

وقدمت جيوش الروم منهزمة إلى إنطاكية ـ مجلس الحكم لهرقل فقال لهم : ويلكم أخبرونى عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشراً مثلكم .. ؟

قالوا : بلى .

قال : فأنتم أكثر أم هم .. ؟

قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافاً فى كل موطن .

قال : فما بالكم تنهزمون دائماً أمامهم ..؟

فقال شيخ من عظمائهم : من أجل أنهم يقومون الليل ، ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتناصفون بينهم . ومن أجل أنَّا نشرب الخمر ، وهم لا يشربون ، ونحن نزنى ، وهم لا يقترفون الفاحشة ، ونأتى الحرام وهم يحللون ، وننقض العهد وهم يوفون ، ونغصب

ونظلم وهم لا يظلمون لأن الظلم عندهم ظلمات يوم القيامة . ونأمر بما يغضب الله وننهى عما يرضيه ونفسد فى الأرض فلا بد أن نقتلع منها ليستولوا عليها تنفيذاً لقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) ﴾

[الأنبياء]

قال هرقل : أيها الشيخ لقد صدقتنى ودللتنى على أسباب الهزيمة .

وإذا كان ذلك كذلك فأين هاشم بن عتبة .. ؟

لقد أبلى فى المعركة بلاءً حسناً ، وكان يتبع خطوات القائد خالد بن الوليد ، ليحمى ظهره من الأعداء ، ولكنهم فتحوا ثغرة فى ميمنة الجيش واخترقوا صفوف المسلمين وليس لهم هدف إلا رأس خالد بن الوليد الذى كان فى شغل شاغل فى جندلة أحد قادة جيش الروم . ولكن هاشم استطاع أن يصدهم ويردهم على أعقابهم خاسئين بعد أن أصابه أحدهم بسهم فى عينه اليسرى فذهب بها . وجلس فى خيمة خالد يطببه بيده حتى جاء أمر أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب بتوجيه هاشم بن عتبة إلى أرض العراق .

وحاول خالد أن يرجئه حتى يبرأ تماماً ، ولكنه قال لقائده : لابد من تنفيذ أمر خليفة المسلمين . فهو ولا شك فيه مصلحة عامة للإسلام والمسلمين .

هاشم بن عتبة
فى معركة القادسية

لقد كانت هذه المعركة من أشد المعارك التى خاضها المسلمون على أرض فارس والسبب فى ذلك أن الفرس دخلت المعركة بسلاح جديد لا خبرة لهم به . وهو سلاح الفيلة هذا الحيوان المتوحش والقوى الصلب الذى يحمل فوق ظهره أكثر من خمسة وعشرين جندياً ، ويستعمل خرطومه كمدفع سريع الطلقات يلتقط به فرسان المسلمين من فوق ظهور خيولهم ليكون لأقدامه وسادة يشب عليها ليتناول فارساً آخر .

وما كاد سعد يشاهد شراسة الفيلة وهى تعمل عملها فى صفوف المسلمين حتى نادى فى أبناء عمومته ماذا نفعل يا أتباع محمد .. ؟

وسمع سعد صوت ابن أخيه هاشم بن عتبة وكأن الأمر كان معداً . فلم

تمض لحظات حتى خرجت الإبل فى كتيبة مجللة مبرقعة وعليها فرسان ملثمون يحملون لهباً ومشاعل يحيط بها رجال أقوياءً يقودهم هاشم بن عتبة .

وشاهدت الفيلة هذا الهول المرعب ففرت هاربة تحطم صفوف الفرس ، وتُوجد الخلل بين تشكيلاتهم ، وتبعهم فرسان المسلمين .

وفى الجانب الآخر صوت يقود المعركة ويوجه سيرها ويشعل الحمية فى قلوب رجالها إنه صوت سعد الذى كان يملأ سماء المعركة دوياً قوياً .

تقدم يا قعقاع .

التزم الميمنة يا ابن عامر .

حطم تلك الكراديس يا مغيرة .

يا أصحاب محمد ، يا أهل بدر ، يا رجال موقعة اليمامة تقدموا فالله معكم وناصركم .

عندها ارتفع صوت علا على صوت سعد ، صوت يهز الكون بالتكبير والتهليل والشكر لله تعالى - إن هذا الصوت يعرفه سعد جيداً .

إنه صوت هلال بن علقمة .

وانداح هذا الصوت فى أرجاء المعركة ليبشر أتباع محمد - ﷺ - بقتل « رستم » قائد الفرس .

واعتلى هلال بن علقمة فوق سريره . وهو يقول :

« قتلت رستم ورب الكعبة » .

فتحلقوا حوله وكبروا خاشعين لله وانتهت المعركة بالنصر المؤزر والفتح المبين.

هاشم بن عتبة
قائداً لمعركة جلولاء

بعد هزيمة الفرس فى المدائن سار كسرى هارباً إلى حلوان وشرع فى أثناء سيره فى جمع الرجال والأعوان والجنود من البلدان ، فاجتمع له جيش كبير ، وأمّر على الجميع مهران ، وسار كسرى إلى حلوان ، وأقام الجمع الذى جمعه بينه وبين المسلمين فى « جلولاء » واحتفر خندقاً عظيماً حولها . وأقاموا بها فى العدد والعدة وآلات الحصار .

عندها كتب سعد بن أبى وقاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يخبره بذلك ..

فكتب إليه عمر أن يقيم بالمدائن ، ويبعث ابن أخيه هاشم بن عتبة أميراً على الجيش الذى يبعثه إلى كسرى ، ويكون على المقدمة القعقاع بن عمرو ، وعلى الميمنة سعد بن مالك ، وعلى الميسرة أخوه عمر بن مالك ، وعلى الساقة عمرو ابن مرة الجهنى .

ففعل سعد الذى أمر به أمير المؤمنين وسير جيشاً تعداده اثنى عشر ألفاً يقودهم هاشم بن عتبة .. وفيه من سادات المسلمين ووجوه المهاجرين والأنصار .

فساروا حتى انتهوا إلى جلولاء وقد خندّق الفرس عليها ـ وملأوا الأرض حولها بحسك الحديد إلا طريقاً يخرجون منه .

فحاصرهم هاشم بن عتبة وكان الفرس يخرجون من خندقهم ويقاتلون المسلمين قتالاً لم يسمع بمثله . حتى كان يوم حمى فيه القتال ، واشتد النزل واضطرمت نار الحرب . وقام هاشم فى الناس خطيباً فحرضهم على القتال والتوكل على الله وقد تعاقدت الفرس وتعاهدت وحلفوا بالنار ألا يفروا أبداً حتى يفنوا العرب واستمر القتال حتى فُنى النشاب من الطرفين ، وتقصفت الرماح من الجانبين فعمدوا إلى استعمال السيوف و « الطرزينات » وذهبت فرقة من الفرس وجاءت مكانها أخرى . فقام القعقاع فى المسلمين فقال : أهالكم ما رأيتم أيها المسلمون .. ؟

قالوا : نعم . إنا كالون متعبون ، وهم مريحون .. !

فقال : بل إنا حاملون عليهم ومجدون فى طلبهم ، حتى يحكم الله بيننا، فاحملوا عليهم حملة رجل واحد حتى نخالطهم ، فحمل وحمل الناس وانفرد القعقاع بمجموعة من الفرسان والأبطال الشجعان حتى انتهى إلى باب الخندق ، عندها نادى المنادى اتبعوا القعقاع إلى باب الخندق ، فزحف المسلمون كالموج المتلاطم وأعملوا فيهم السيوف ، ففروا هاربين فتلقاهم حسك الحديد، فكان من قُتل بهذا الحسك الذى وضعوه بأيديهم أكثر ممن قُتل بسيوف المسلمين . وأخذهم المسلمون من كل وجهة ذهبوا فراراً إليها حتى قدر عدد القتلى بمائة ألف من الفرس .

وغنم المسلمون أرضهم وحليهم وكنوزهم ودوابهم وكانت شيئاً كثيراً تستعذر على الحصر والعد .

ثم بعث هاشم بالغنائم والأموال إلى عمه سعد بن أبى وقاص ، فنفل سعد ذوى النجدة ثم أمر بقسمة ذلك على الغانمين .

ثم بعث سعد بالأخماس من المال والرقيق والدواب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فأمر بوضعها فى المسجد . وأمر عبد الله بن أرقم ، وعبد الرحمن بن عوف بحراستها حتى الصباح .

ثم جاء عمر وأمر بكشفها ، فلما نظر إلى ياقوته وزبرجده ، وذهبه الأصفر وفضته البيضاء بكى عمر .

فقال له عبد الرحمن بن عوف : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ..؟

فوالله إن هذا لموطن شكر .

فقال عمر : والله ما ذاك يبكينى . وتا الله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا . وعندها يصبح بأسهم بينهم شديداً . ثم قسمه بينهم ..

فهل تحقق ما تنبأ به أمير المؤمنين .. ؟

وهل سيوف المسلمين التى كانت تصوب إلى رقاب الأعداء استمرت على ذلك أم أنها شرعت إلى الداخل ..؟

ونتساءل : هل اختلف المسلمون على الذهب والفضة .. ؟

وهل قامت بينهم المعارك والحروب من أجل عروض ومغانم الدنيا ؟

أم أن المعارك التى شُنت والحروب التى اشتعلت كان وراءها أشياء أخرى . شتت وحدتهم وفرقت جمعهم ..؟

إن الخبر اليقين سيقدمه لنا هاشم بن عتبة عند اشتراكه فى معركة (الجمل) ومعركة (صفين) !

أفرزت معركتا (الجمل) و(صفين) جرحاً فى القلوب ، وندماً فى بعض الصدور وتوبة لكثير من المسلمين ـ وكان من أهم نتائج هاتين الموقعتين : ظهور من سموا بالخوارج لخروجهم على الإمام الحق .

عندها قال عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ للإمام على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ : يا أمير المؤمنين ابرد بالصلاة ـ أى أخر الصلاة وادخل بها فى وقت الإبراد فلا تفتنى حتى آتى القوم .

قال ابن عبد البر : فدخل عليهم وهم قائلون ـ مستريحون وقت الظهيرة ـ فإذا هم مسهمة وجوههم من السهر .

وقد أثر السجود فى جباههم ، كأن أيديهم ركب الإبل من كثرة السجود عليهم قُمص مغسولة .

فقالوا : ما جاء بك يا ابن عباس .. ؟ وما هذه الحلة عليك .. ؟

قال ابن عباس : قلت : ما تعيبون منى فلقد رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ أحسن ما يكون من ثياب اليمنية .

قال ثم قرأت هذه الآية :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ .. (٣٢) ﴾ [الأعراف]

فقالوا : ما جاء بك ..؟

فقال : جئتكم من عند أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله . جئت لأبلغكم عنهم وأبلغهم عنكم .

قال بعضهم : لا تخاصموا قريشاً ـ لا تجادلوهم ـ فإن الله تعالى يقول :

﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) ﴾ [الزخرف]

فقال بعضهم : بلى . فلنكلمه .

قال : فكلمنى منهم رجلان أو ثلاثة .

قال : قلت : ماذا نقمتم عليه .. ؟

قالوا : ثلاثاً . قلت : ما هن .. ؟

قالوا : حكَّم الرجال فى أمر الله وقد قال الله تعالى :

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ .. (٥٧) ﴾ [الأنعام]

قلت : هذه واحدة . وماذا أيضاً .. ؟

قالوا : فإنه قاتل ولم يسب ولم يغنم فلئن كانوا مؤمنين ما حل قتالهم ، ولئن كانوا كافرين ، لقد حل قتالهم وسبيهم .

قلت : وماذا أيضاً .. ؟

قالوا : ومحا نفسه من أمير المؤمنين ، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين .. ؟

قلت : أرأيتكم إن أتيتكم من كتاب الله تعالى ما يدل على أن علياً لم يفعل إلا ما ما أمر الله به ، أتعودون إليه .. ؟

قالوا : نعم .

قلت : قال تعالى فى كتابه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ .. (٩٥) ﴾ [المائدة]

وقال فى المرأة وزوجها : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا .. (٣٥) ﴾ [النساء]

فصير الله ذلك إلى حكم الرجال فنشدتكم الله أتعلمون حكم الرجال فى دماء المسلمين أفضل وإصلاح ذات البين بينهم أفضل ، أو فى حكم أرنب ثمنه ربع درهم ، وفى بضع امرأة .. ؟

قالوا : بلى هذا أفضل .

قلت : أخرجت من هذه ..؟

قالوا : نعم .

قلت : فأما قولكم : قاتل ولم يسب ولم يغنم أفتسبون أمكم عائشة .. ؟

فإن قلتم نسبيها فنستحل منها مـا نستحل من غيرها فقد كفرتم ، وإن قلتم ليست بأمنا فقد كفرتم ، فأنتم ترددون بين ضلالتين .

أخرجت من هذه .. ؟

قالوا : بلى .

قلت : وأما قولكم محا نفسه من إمرة المؤمنين ، فأنا آتيكم بمن ترضون به ، إن نبى الله يوم الحديبية حين صالح أبا سفيان ، وسهيل بن عمرو قال رسول الله ـ ﷺ ـ اكتب يا علىّ هذا ما صالح عليه رسول الله .

فقال أبو سفيان وسهيل بن عمرو : لو نعلم إنك رسول الله ما قاتلناك .

قال رسول الله ـ ﷺ ـ اللهم إنك تعلم أنـى رسولك امح يا علىّ واكتب : هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وأبو سفيان وسهيل بن عمرو .

قال : فرجع منهم ألفان .. وبقى بقيتهم . لأنهم لم يستعملوا عقولهم ، ولا لجأوا إلى كتاب ربهم .

دروس وعـــبر ..
الإسلام بين الأمس واليوم

■ المستعرض لحياة القائد العملاق هاشم بن عتبة ، يرى أنه حضر المعركة الفاصلة التى قضت على آخر معاقل الروم فوق أرض الشام وهزمت دولتهم هزيمة منكرة لم تقم لها قائمة أمام دولة الإسلام بعد ذلك .

وكذلك حضر القائد العملاق المعركة الفاصلة على أرض فارس التى قضت على نفوذهم وشتت قواتهم وقضت على أمرائهم وحكامهم .

ثم انداحت جيوش المسلمين فى أركان الأرض الأربعة . وصوت المؤذن ، الله أكبر يدوى فى أنحاء المعمورة .

يدوى صوت الله فى الأندلس ويصل إلى مشارف أوروبا .

ويدوى صوت الله فى الصين ويصل إلى حدود السند والهند .

ويدوى صوت الله فى القيروان حتى يصل إلى « بانزرت » آخر مشارف تونس ..

ويدوى صوت الله على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ويشمل قبرص وصقلية وكورسيكا .

ويتحول هذا البحر حتى يصبح بحيرة إسلامية .

ويدوى صوت الله على مشارف روسيا ويتوغل فى داخلها ويستولى على ثلاثة أرباعها ..

يستولى على بخارى والقوقاز .

ويستولى على طشقند وسيبريا .

ويستولى على جبال الأورال .

وعلى بحر قزوين .

ويدوى صوت المؤذن باسم الله فى ثلاث قارات : أوروبا وآسيا وأفريقيا .

وتُزال الحدود والسدود وتتلاشى الحدود السياسية والجغرافية .

ويسير المسلم بلا جواز أو هوية سوى جواز الإسلام وهوية التوحيد من فارس حتى مراكش ويصل مدهم إلى آسيا الصغرى .

وتنطلق من هذه البلاد الجيوش الإسلامية المتتابعة فتفتح البلاد المتاخمة وتحولها إلى قاعدة إسلامية .

وتوغل المسلمون فى أوروبا حتى بلغوا أسوار فينا .

والسؤال الذى يُطرح الآن : لماذا لا ينتصر الإسلام اليوم كما كان ينتصر بالأمس ؟

ولماذا لا يقوم أتباعه بدور الريادة والقيادة فى العالم كما فعل أجدادهم وآباؤهم عند ظهوره ..؟

أهناك شيء طرأ عليه فغير مفاهيمه فلم تعد تعمل .. ؟

أو انتقص من أركانه فلم يعد يتقدم .. ؟

الله يعلم أن شيئاً من ذلك لم يكن ، فكتابه الذى بين أيدينا الآن هو كتابه من يوم أن أنزله الله على رسوله محمد - ﷺ - .

وإذا كان ذلك كذلك : فما العلة فى ضعف المسلمين وابتعادهم عن دور القيادة ومراكز التوجيه ..؟

وللإجابة عن ذلك نقول : إن الراصد لحركات المسلمين من عدة قرون يرى أن الكثير منهم قد تفلت من تعاليم دينه ، وابتعد عن هدى نبيه وترك نور إسلامه ، فلفهم ظلام شامل ، لا يدرى أحد كيف الخروج منه أو الخلاص من ثقله .

فالذى ينقص الإسلام الآن هم الرجال : الرجال الذين يؤمنون به كعقيدة تحكم تصرفاتهم ، وتضبط سلوكياتهم ، ويحكمونه فى شؤونهم الخاصة والعامة ويجعلونه دستور الدساتير فى شرعهم ، ومصدر القوانين فى حكمهم.

لو وجد هؤلاء الرجال لأعادوا للإسلام مجده ، وللمسلمين عزهم وسلطانهم ولكن أين هؤلاء الرجال .. رجال الإسلام ..؟؟

ونتساءل : لقد كان رجال الإسلام يملأون الساحة ، فلماذا فرغت منهم ..؟

وكان صوتهم يدوى فى جنبات الأرض فلماذا لم يعد العالم يسمع لهم صوتاً أو يرى لهم فعلاً ..؟

الحقيقة التى لا ينكرها أحد من المنصفين ، والراصدين لخطوات التاريخ فى عصرنا الراهن : أن الدعاة للحركات الإسلامية فى كثير من البلاد نزل بهم من البلاء ما لو نزل بالجبال الشُم لدكت أركانه ، وتساقطت بنيانه .

لقد سيقوا إلى السجون فى كثير من الأوقات ، وقُدمت أعضاؤهم طعاماً للكلاب وصب عليهم العذاب صباً ، وديست حرماتهم ، وانتهكت أعراضهم ، ووضعت تحت الأقدام النجسة مصاحفهم ، وتفننت وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة مرئية ومسموعة ، على إلصاق كل الموبقات بهم ، ورميهم بأحط الصفات ، وإخراجهم من زمرة البشر ..

وكثير منهم فارق الحياة داخل أقبية السجون ، وتوارت جثته فى جنح الظلام ومن لم يأته أجله ، خرج من السجن وهو بالأموات أقرب .

ونقول : هذا الذى حدث لكل الدعاة السابقين فى كل عصر ومصر ، ولم يسلم من ذلك الرسل والأنبياء ولا المخلصون وأصحاب الدعوات ، وكأن هذه ضريبة الإيمان .

أو أن الله سبحانه وتعالى قد جعل هؤلاء الجبارين والطغاة أداة تعذيب وتنكيل لأتباع دينه والمخلصين من أبناء الإنسانية ، وذلك لحكمة قد تغيب عن عقولنا ، أو ليختبر صبرهم ، ويبلوا إيمانهم حتى يتميز مَنْ يدّعى الإيمان بلسانه ، ومَنْ هو على الحق واليقين بقلبه .

قال الله تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾ [البقرة]

نعم إن النصر فى النهاية يكون للمؤمنين ، وللعباد المخلصين القانتين لربهم قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) ﴾

[الأنبياء]

اللهم إنا نسألك النصر والظفر ، للإسلام والمسلمين ، حتى يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء .

عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول

رضى الله عنه

قال عبد الله بن أبى بن سلول : لإن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

فقال عبد الله بن عبد الله بن أبى : يا رسول الله أنت العزيز وهو الذليل ، والله لئن أذنت لى فى قتله لقتلته .. !

فقال عليه السلام : « لا يتحدث الناس ويقولون إن محمداً يقتل أصحابه ، ولكن بر أباك ، وأحسن صحبته .. »

الاستيعاب ٣ : ٦٤١

■ من قبيلة الخزرج التى كان لها دوى فى الجاهلية وتاريخ الإسلام .

ومن الصحابة الذين تعمق الإيمان فى قلوبهم فصنع منهم سادة وقادة .

ومن هؤلاء الرجال الذين ضحوا بأموالهم وأرواحهم فى سبيل نصرة الإسلام والمسلمين .

ومن المحاربين الذين خاضوا جل المعارك التى خاضها الإسلام رغبة فى أن يستقر فى كل قلب ، وتكون مبادئه ، هى دستور الحياة ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ونشأ فى بيت عز ومجد ، وتعلم ركوب الخيل ، واستعمال السيف ورمى الرمح وإصابة الهدف وهو فى أول فجر الشباب .

والده : عبد الله بن أُبى بن سلول زعيم الخزرج فى الجاهلية ، وكانت له ثروة كبيرة جمعها من عدة طرق ، منها عروض التجارة ، وقرضه لأصحاب الحاجات بالربا ، ودفع الجوارى إلى مزاولة البغاء طلباً للكسب .

ولذا قال الله تعالى :

﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ..(٣٣) ﴾ [النور]

وقبل هجرة الرسول ـ ﷺ ـ كان أهل المدينة وأصحاب المكانة فيها يجمعون له الخرز ليصنعوا له تاجاً ليتوجوه ملكاً عليهم . فلما جاء الرسول ـ ﷺ ـ انفض الناس من حوله ، والتفوا حول الرسول ـ ﷺ ـ وتبعهم فى ذلك أقرب الناس إليه وأسرته وأهل بيته ولم يجد عبد الله بن أُبى من حيلة ، فاظهر إسلامه ، وأبطن كفره ، وهو الذى أشاع حادث الإفك ومعه مجموعة من المنافقين واليهود .

وكان الهدف من ذلك :

١ - الطعن فى عرض النبى - ﷺ - وأبى بكر الصديق - رضى الله عنه .

٢ - أن يضع من المكانة الخلقية للحركة الإسلامية .

٣ - أن يشعل فى داخل المجتمع الإسلامى جذوة من نار الفتنة بين الحيين الأوس والخزرج ، وبذلك ينفس عن حقده وغيظه الذى يملأ قلبه من جراء الرجل الذى سلبه ما كان يطمع فيه من ملك وتتويج .

عبد الله بن عبد الله يقف فى وجه أبيه ويمنعه من دخول المدينة

غزا رسول الله - ﷺ - بنى المصطلق فنزل على ماء من مياههم يقال لها «المريسيع » فوردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أجير له من بنى غفار يقال له جهجان بن مسعود يقود فرسه - فازدحم جهجان وسنان بن وبر الجهنى حليف بن عون بن الخزرج على الماء فاقتتلا ، فصرخ الجهنى : يا معشر الأنصار ، وصرخ جهجان : يا معشر المهاجرين .

فغضب عبد الله بن أُبى بن سلول ، وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث فقال : أو قد فعلوها ..؟ قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول :

« سمِّن كلبك يأكلك » .

أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأزل .

ثم أقبل على مَنْ حضر منْ قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم .. أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم .. أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ..

فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فمشى به إلى رسول الله - ﷺ - وذلك عند فراغ رسول الله - ﷺ - من عدوه ، فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب .

فقال : « مر به عباد بن بشر فليقتله » .

فقال رسول الله - ﷺ - فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه .. ؟ لا .

ولكن أذن بالرحيل ، وذلك فى ساعة لم يكن الرسول - ﷺ - يرتحل فيها ، فارتحل الناس ، وقد مشى عبد الله بن أبى بن سلول إلى رسول الله حين بلغه

أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع ، فحلف بالله : ما قلت ولا تكلمت به ، وكان فى قومه شريفاً عظيماً . فقال : مَنْ حضر مجلس رسول الله ـ ﷺ ـ من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله ، عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه، ، ولم يحفظ ما قال الرجل . وينزل قول الله تعالى فاصلاً فى هذه القضية : قال تعالى :

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ⑦ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ⑧ ﴾

[المنافقون]

قال ابن إسحاق : فلما استقل رسول الله ـ ﷺ ـ وسار ، لقيه أسيد بن خضير فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال : يا نبى الله ، والله لقد رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها .

فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ أو ما بلغك ما قال صاحبكم .. ؟

قال : وأى صاحب يا رسول الله .. ؟

قال : عبد الله بن أُبى .

قال : وما قال .. ؟

قال : زعم بأنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل .

قال : فأنت يا رسول الله .. والله لتخرجنه منها إن شئت . هو والله الذليل وأنت العزيز .

ثم قال : يا رسول الله أرفق به ، فو الله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد سلبته ملكاً .

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أُبى الذى كان من أمر أبيه ، فأتى الرسول ـ ﷺ ـ فقال : يا رسول الله بلغنى أنك تريد قتل ابن أُبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت لا بد فاعلاً فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه فو الله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبى يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : بل نرفق به ، ونحسن صحبته ما بقى معنا .

وجعل بعد ذلك إذا أحدث حدثاً كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه . وقفل الناس راجعين إلى المدينة وكل منهم فى حلقه غصة مما قال عبد الله بن أُبى بن سلول ..

ثم يفاجأ المسلمون بعبد الله بن عبد الله بن أُبى يقف على باب المدينة وقد استل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه قال له ابنه : وراءك .

فقال الأب : مالك ويلك ..؟

فقال الابن : والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله ـ ﷺ ـ فإنه العزيز وأنت الذليل .

فلما جاء رسول الله ـ ﷺ ـ وكان إنما يسير خلف الجيش فشكا إليه عبد الله ابن أُبى ما صنع ابنه .

فقال ابنه : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له .

فأذن له رسول الله ـ ﷺ ـ .

فقال الابن : أما إذا أذن لك رسول الله ـ ﷺ ـ فجز الآن .

الرسول - يكفن والد عبد الله بقميصه ويصلى عليه عند وفاته

مات عبد الله بن أُبى ، عندما جاءه أجله ، ولكل أجل كتاب ، ولا شك أن الابن امتلأ قلبه حزناً لفراق أبيه بالرغم من عدم رضاه عما كان يصنعه من أعمال .

وهذا ما فعله عبد الله بن عبد الله تنفيذاً لقول الله تعالى :

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمان]

وانطلق عبد الله إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : يا رسول الله أعطنى قميصك أكفنه فيه ـ وصل عليه ـ واستغفر له ، فأعطاه قميصه وقال عليه السلام : إذا فرغتم من تجهيزه فآذنونى .

فلما أراد أن يصلى عليه ـ جذبه عمر . وقال : يا رسول الله، أليس قد نهى الله أن تصلى على المنافقين ..؟؟

فقال رسول الله ـ ﷺ : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ .. (٨٠) ﴾ [التوبة]

فصلى عليه ورضا الابن بذلك وأنزل الله عز وجل :

﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) ﴾ [التوبة]

قال عليه السلام : لو أعلم أنى زدت على السبعين يغفر لهم لزدت عليها .

استشهاد عبد الله في معركة اليمامة

لما توفى رسول الله - ﷺ - ارتدت أحياء كثيرة من الأعراب ونجم النفاق وانحاز إلى مسيلمة الكذاب بنو حنيفة وخلق كثير باليمامة ، وعظم الخطب ، واشتدت الحال .

وجعلت وفود العرب تقدم المدينة يقرون بالصلاة ويمتنعون عن أداء الزكاة واحتجوا بقوله تعالى :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ .. (١٠٣) ﴾ [التوبة]

قالوا : فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى مَنْ صلاته سكن لنا . عندها عقد أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - أحد عشر لواءً وسير كل لواء إلى جهة عينها له وكان عبد الله بن عبد الله بن أُبى فى الجيش الذاهب إلى مسيلمة الكذاب فى اليمامة - ودارت المعركة وحمى الوطيس وتساقط القتلى من الجانبين ويقال إن عدد القتلى من الجانبين يزيد على عشرة آلاف قتيل ، وقُتل من المسلمين ستمائة قتيل من سادات الصحابة : ثابت بن قيس ، وزيد بن الخطاب ، وعبدالله ابن عبد الله بن أُبى ، وأبو دجانة سماك بن خرشة ومنهم الطفيل بن عمرو وغير ذلك .

رحم الله شهداء اليمامة وأسكنهم فسيح جناته ، إنه الغفور الودود مجيب الدعوات ومفرج الكربات .

دروس وعبر عبد الله بن عبد الله بن أبى ومدرسة الإيمان

قامت هذه المدرسة على أسس الإيمان وإشارتها إليه : نعم الإيمان الجياش الصادق ، الإيمان الذى حرر الوجدان من عبادة أحد غير الله أو الخضوع لأحد غير الله .

خرجت امرأة من الأنصـار قُتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله ـ ﷺ .

فقالت : ما فعل رسول الله ـ ﷺ ـ ؟

قالوا : خيراً هو بحمد الله كما تحبين .

قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فلما رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل .

إنها لم تولول ، ولم تفقد صوابها ، ولم تدع بدعوى الجاهلية . لم تفعل ذلك لأنها آمنت إيمـاناً لا تزعزعه الجبـال ، بأن قتلاها فى الجنة عند مليك مـقتدر ، ووعت قول ربها :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾

[آل عمران]

إن قتلاها أدوا ما كُلفوا به ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه أما الرسول ـ ﷺ ـ فخسارة المسلمين فيه عظيمة ، فلا بد من بقائه حتى يُبلِّغ رسالة ربه ويتم نور الله .

ومن هنا كانت كلمتها الصادقة : كل مصيبة بعدك جلل .

وقدم أبو سفـيان المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيـبة زوج الرسول ـ ﷺ ـ فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ـ ﷺ ـ طوته عنه ..

فقال : يا بنية ، والله ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى..؟

قالت : بل هو فراش رسول الله ـ ﷺ ـ وأنت رجل مشرك نجس .

هكذا فعلت الفتـاة العربية مع أبيهـا ، وجابهته بكلمة حق ، وخـرقت القاعدة التى تقول : كل فتاة بأبيها معجبة . ووصفته بحقيقته .

﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ..(٢٨) ﴾ [التوبة]

وما دام الإيمـان لم يخامر قلبـه ، وكلمة التـوحيد لم يجـر بها لسانه، فـهو نجس حتى يتطهر .

وإذا كان ذلك كذلك فمحـال أن يمس هذا الفراش فضلاً عن أن يجلس عليه ، حتى لو كان هو الوالد الذى له حق التربية والتوجيه .

قال عروة بن مسعود الثقفى لأصحابه بعدما رجع من الحديبية التى يعسكر فيها جيش الإسلام بقيادة رسول الله ـ ﷺ ـ :

« أى قوم والله لقد وفـدت على الملـوك : على كسرى وقيـصر ، والنجاشى ، والله ما رأيت ملكاً يعظمـه أصحابه كما يعظم أصـحاب محمد مـحمداً ، والله إن تنخم نخامة إلا وقـعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجـهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمـره . وإذا توضـأ كادوا يقتـتلون على وضوئه . وإذا تكلموا خـفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له » .

ليس الحب فقط ، وليس التـعظيم والاحترام لرسـول الله ـ ﷺ ـ رسول الله الذى أخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمـان ، ومن عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد الديان .

ولكن هناك ما هو أعـمق من ذلك كله إنه بذل الأرواح رخيصة فـداءً لرسول البشرية .

رفعوا الصحـابى الجليل خبيب بن الأرت على خشبة ليـقتلوه أو يصلبوه ثم نادوا عليه : أتحب أن يكون محمد مكانك ..؟

قال : لا والله العظيم . ما أحب أن يفدينى بشوكة يُشاكها فى قدمه . فتعجبوا منه وقتلوه .

وترس أبو دجـانة يوم أحد على رسـول الله ـ ﷺ ـ بظهـره والنبل يختـرق جسده ولا يتحرك فداءً للرسول عليه السلام ..!!

ودعا رسول الله ـ ﷺ ـ عبد الله بن عـبد الله بن أُبى وقال : ألا ترى ما يقول أبوك .. ؟

قال : ما يقول بأبى أنت وأمى يا رسول الله .. ؟

قال : يقول : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ..

فقال : لقد صدق والله يا رسول الله ، أنت والله الأعز وهو الأذل .

أما والله لقد قَـدمت المدينة يا رسول الله ، وإن أهل يثرب ليعلموا مـا بها أحد أبرّ منى ، ولكن لو َكان يرضى الله ورسوله أن أتيهما برأسه لأتيهما به .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : لا . بر أباك وأحسن صحبته .

فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أُبى على بابها بالسيف لأبيه ثم قال :

أنت القائل : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .. ؟

أمـا والله لتـعـرفن العــزة لك أو لرسـول الله ـ ﷺ ـ والله لا يـأويك ظله ، ولا تأويه أبداً إلا بإذن من الله ورسوله .

فقال : يا للخزرج ، ابنى يمنعنى بيتى .. !!

يا للخزرج ، ابنى يمنعنى بيتى .. !!

فقال : والله لا يأويه أبداً إلا بإذن منه .

فاجتمع إليه رجال فكلموه .

فقال : والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله .

فأتوا النبى - ﷺ - فأخبروه .

قال : اذهبوا إليه فقولوا له خله ومسكنه ، فأتوه .

فقال : إما إذا جاء أمر النبى - ﷺ - فنعم .

وعندما عرف شباب الإسلام هذا الطريق ، طريق الإيمان والحب حملوا المصحف للهداية .

وحملوا السيف لإزالة الباطل .

ثم ماذا .. ؟ انداحوا فى أركان الأرض الأربعة ، ينشرون الأمن بعد الخوف ، والنور بعد الظلام ، والهدى بعد الضلال ، فاستقبلتهم الدنيا أحسن استقبال ، وأقامتهم على ظهرها قادة ومعلمين .

إن الإيمان وحده هو الذى فعل فيهم هذا ، نقلهم من رعاة إبل، جفاة، غلاظ يشعلون الحرب لأوهى الأسباب إلى هداة ودعاة ، هداة إلى الحق ، ودعاة إلى الله الواحد الأحد .

فالإيمان هو الذى أزال الصدأ عن الجوهر المكنون فى النفس العربية وجعل من سكان البادية أساتذة العالم ، يختطون من شئون السياسة والتنظيم الاجتماعى ما تعمل الدول جاهدة للوصول إليه .

هؤلاء العملاقة الذين تشربوا روح الإيمان ، أفرغت فيهم الحياة أفضل ما تملك من قوى حسية ومعنوية .

خرجوا إلى الدنيا والظلام شامل ، والجهل حاكم والعقائد زيف وأباطيل فمدّنوا الدنيا وهذّبوا العالم وقرروا الحق للإنسان ، الإنسان بغض النظر عن معتقده وجنسه ولونه - وسرى فى الكون قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل]

البراء بن مالك

رضى الله عنه

قال الرسول ـ ﷺ ـ : « كم من ضعيف مستضعف ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله تعالى لأبر قسمه ، منهم البراء بن مالك » .

■ عملاق من عمالقة الإسلام ورجل من الصناديد الأفذاذ .

وشهيد نال الشهادة ، وهو على صهوة فرسه .

ومؤمن صدق ما عاهد الله عليه .

ومسلم استقر الإيمان فى قلبه ، فشاع على ما حوله نوراً وضياءً ومعرفة وبهاءً ذلكم هو البراء بن مالك .

من الأنصار الذين سمعوا بدعوة محمد ـ ﷺ ـ فركبوا المطايا وقطعوا الفيافى والقفار حتى وصلوا إليه .

وعندما جمعتهم مع رسول الله ـ ﷺ ـ بيعة العقبة ، قالوا : تكلم يا محمد فخذ لنفسك وربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله ـ ﷺ ـ فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب فى الإسلام .

ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال :

نعم . والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه نساءنا وأولادنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحرب، وأهل السلاح، ورثناهما كابراً عن كابر .

فاعترض القول أبو الهيثم بن النبهان فقال :

« يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال ـ يعنى اليهود ـ حبالاً وإنا قاطعوها ، فهل إنْ نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا .. ؟! » .

فتبسم رسول الله ـ ﷺ ـ ثم قال :

« بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » .

وإذا كان هذا هو حال الأنصار فى بدء الدعـوة الوليدة ، فإن البراء بن مالك يعتبـر من خلاصة هؤلاء الذين قال فيـهم رسول الله ـ ﷺ ـ : « فو الذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت أمراً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شـعبـاً لسلكت شعب الأنصـــار . اللهم ارحم الأنصار وأبنـاء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » .

وكيف لا يكون البراء بن مـالك كذلك وأمه سهلة بنت ملحـان التى اشترطت عندما تقـدم لها أحـد صناديد يثرب وسراتهـا للزواج منها ولم يكن قـد عرف الإسلام الطريق إلى قلبه أن يكون مهرها الإسلام .

وأخوه أنس بن مـالك خادم الرسول ـ ﷺ ـ الـذى قدّم من ولده وولد ولده نحواً من مائة فارس كلهم حمل السيف وقاتل فى سبيل الله وذلك أن رسول الله ـ ﷺ ـ دعا له فقال :

« اللهم ارزقه مالاً وولداً وبارك له » .

قال أنس : إنى لمن أكثر الأنصار مالاً وولداً .

ويقال : إنه ولد لأنس بن مالك ثمانون ولداً منهم ثمانية وسبعون ذكراً .

وعمه أنس بن النضر الذى قال :

« غـبت عن أول مـشهـد شـهـده رسول الله ـ ﷺ ـ والله لئن أشـهـدنى الله سبحانه قتالاً ليرين الله ما أصنع » .

فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال :

« اللهم إنى أبرأ إليك مما جـاء به هؤلاء المشركـون ، واعتـذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المسلمين . » .

ثم مشى بسيفـه فلقيه سعد بن معاذ فقال : أى سـعد ، والذى نفسى بيده إنى أجد ريح الجنة دون أحد فقاتلهم حتى قُتل .

قال أنس : فوجـدناه بين القتلى به بضع وثمانون جراحـة ، من بين ضربة بسيف وطعنة برمح ، ورمـية بسهم ، وقـد مثلوا به ، فمـا عرفناه حتى عرفـته أخته ببنانه ونزل فيه قول الله تعالى :

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) ﴾ [الأحزاب]

ثم ماذا.. ؟

يصمت التاريخ فـلا يتحدث عن طفولة البراء من قريب أو بعـيد حتى كانت غزوة أحـد أولى المشاهد التى شـاهدها مع الرسول - ﷺ - فكان بطلاً مـغواراً وفارساً لا يشق له غبار ، فجندل الكثيـر من فرسان قريش ، ووقف سداً منيعاً أمام الرسول الله - ﷺ - يمنع سيوف المشركين التى شرعت لتنال منه .

عن أنس بن مالك قال : دخلت على البراء بن مالك وهو يتغنى بالشعر، فقلت له : يا أخى تتغنى بالشعر ؟ ولقد أبدلك الله به ما هو خير منه - القرآن ؟

قال : أتخاف علىَّ أن أموت على فراشى .. وقـد تفردت بقتل مائة سوى من شاركت فيه .. إنى لأرجو ألا يفعل الله ذلك بى .

ومنذ ذلك التاريخ أصبح البراء بن مالك أصيلاً فى كل المعارك التى خاضعها المسلمون ضد الفئة الباغية سواء فى داخل الجزيرة العربية أو خارجها وتحول سيفه فى يده إلى قدر الله تعالى الذى يحصد به الرؤوس التى كفرت بأنعم الله، وأصبحت لعـبة فى يد إبليس اللعين الذى يدعوهـا إلى عبادة الأوثان والأصنام مرة، وإلى عبادة الكواكب والنجوم ومردة الشياطين ثانية .

وإلى السجود والخضوع للشمس والقمر . وقد قال الله تعالى : ﴿ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت]

وعاش البراء بن مالك الفارس المطيع فى مدرسة الرسول - ﷺ - .

والمجاهد الذى يطلب الشهادة فى كل معركـة يخوضـها ، وفى كل لقاء يلتقى فيه بأعداء الله تعالى .

ومرت السنون وكرت الليالى والأيام وقد بلَّغ الرسول الكريم الرسالة وأدى الأمانة . ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، ونزل قول الله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ [النصر]

عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال : لما نزلت : « إذا جاء نصر الله والفتح» دعا رسول الله - ﷺ - ابنته فاطمة وقال :

« إنه قد نعيت إلىَّ نفسى » .

فبكيت .

ثم قال : « اصبرى فإنك أول أهلى لحوقاً بى » . فضحكت .

ثم مات رسول الله - ﷺ - وتحقق مـا أخبر به : « من أن الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ، ويخرجون منه أفواجاً » .

وارتدت الجزيرة العربية ، وامتنعوا عن دفع الزكاة لخليفة رسول الله - ﷺ . عندها قام الخليـفة الأول بما يجب عليه من تجـييش الجيوش . ومـقاتلة هؤلاء المرتدين حتى يعودوا إلى صوابهم .

وقال كلمته المشهورة :

« والله لو منعونى عقالاً كانوا يعطونها لرسول الله لقاتلتهم عليه » .

وسارت أولى الجيـوش إلى أهل اليمامة بقيـادة خالد بن الوليد - رضى الله عنه - ومعه الفارس المغوار البراء بن مالك - رضى الله عنه .

وعلى أرض اليمامـة التقى الجيشان وقـاتلوا قتالاً مرعبـاً ، وتساقط القتلى بالمئات من الجانبـين ، ورجحت كفة المشركين ، وأوشك المسلمـون أن ينهزموا عندها ووقف ثابت بن قـيس وأخذ ينادى يا مـعشـر المسلمين ، ومـعه زيد بن الخطاب وأخذا يتـقدمان ويعـملان سيفـيهما فـى صفوف الأعداء حـتى سقطا شهيدين .

عندها برز البراء بن مالك إلى مقدمة الجـيش ، وثار كما يثور الأسد ، وأخذ ينادى يا معشر المسلمين ، أنا البراء بن مالك هلمَّ إلىَّ .

وتدافع المسلمون إليه من كل جـانب وأخذوا فى زحزحة الفئة البـاغية حتى أجبروهم على الفرار مـزعورين إلى حديقتهم وأغلقوا بابهـا عليهم ، وتحصنوا بأسوارها من سيوف المسلمين ، وكان بداخلها عدو الله مسيلمة الكذاب . عندها نادى البـراء مرة أخرى - يا مـعشـر المسلمين - يا أتبـاع محـمد بن عـبد الله . يا أنصار رسول الله . ألقونى عليهم فى الحديقة حتى أفتح الباب عليهم .

إنها مخـاطرة جريئة وجولة غـير مأمونة ولكنها هينـة فى سبيل الله ، وهو أيضاً يريد الشهادة ، بعد أن يؤدى واجبه فى الـقتال ويتحقق النصر ، وتتطهر أرض الله من الفئة الباغية المشركة .

وهمَّ المسلمون أن يفعلوا مـا طلبه البراء ، ولكن قائد الجـيش خالد بن الوليد لم يوافق على ذلك ، لأن البـراء إذا أُلقى فى الحديقـة فسيكون طعـمة لسـيوف المشركين . وقد لا تمكنه تلك السيوف المشرعة من فتح الباب .

واستجاب المسلمون لأمر قائدهم .

ولكن البراء لم يهدأ له بال .

وترقب غـفلة خالد ، وسـبات حـراس الحديقـة . وما كـاد ظلام الليل يرمى سدوله على الكون ، حتى شاهد فرسان الله البراء بن مالك يعتلى سور الحديقة ويهتف قـائلاً : الله أكبر الله أكـبر ، ثم ألقى بنفـسه خلف باب الحديقـة ، وأخذ يعالج فتحه بشراسة وقوة إيمان حـتى تمكن من فتحه وسيوف المشركين تعمل عملها فى جسمه ، وهو فى شغل عنهم .

وتدافع جيـش الفتح إلى داخل الحـديقة ، وتمكنوا من قـتل مسيلـمة الكذاب والتقتيل والتنكيل بالرجال الأشداء الذين كانوا يلتفون حوله . وتحقق نصر الله، وقُتل عدو الله . وسرى فى الكون كله صـوت شجى بقوله تعالى : ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾ [الأنفال]

ولكن أين البراء بـن مالك ؟ هكذا هتف خالد : أين مـحطم الأغلال والأقـفال وصاحب الاستراتيجية السريعة فى تحقيق النصر وهزيمة الأعداء ؟

ووقـعت عينا خـالد على جـثة ملقـاة بجوار باب الحـديقـة لها أنين مكتـوم ويعالج صاحبها سكرات الموت .

ولم يكن إلا البراء بن مالك وتقـدم خالد وحمله إلى خيمته وأخـذ فى تطبيبه شهراً كاملاً حتى شُفى من جراحاته .

وكان الجيش فى كل يوم يسمع نحيبه وبكاءه لأنه لم ينل الشهادة .

وطيَّب خالد خاطره .. وذكَّره بأن أجله ما زال فيه بقية وسيدخر الله سبحانه وتعالى له الشهادة لينالها على أرض فارس ، حيث الأسلحة المتطورة ، والخدع الحربية ، والتروس المحكمة .

وعاد فرسان مدرسة النبوة إلى مدينة الرسول ـ ﷺ ـ ومعهم الفارس الذى يطلب الشهادة .

عادوا والفرحة تملأ قلوبهم ، وتيجان النصر فوق رءوسهم .

ولكن لم يطل بهم المقام فى المدينة .

حتى أمرهم خليفة المسلمين بالتوجه إلى أرض فارس لنشر دين الله والدعوة إلى توحيد الله .

ودخل جيش الفتح تلك الأراضى البعيدة ، المليئة بالأشجار والنخيل وتغمر أرضــها الميـاه العـذبة من الأنهـار المتدفقـة .

ولكن أهل فارس ما كادوا يسمعـون بدخول هذا الجيش إلى أراضيهم حتى توجهوا إلى حـصونهم المحكمة . وإلى تحصيناتهم العـالية التى تعلوها الأبراج حتى يتمكن الجنود من رصد تحركات الأعداء .

وكانـت خطة الجيش الإسـلامى محـاصرة تلك الحـصون ، وإغلاق المنـافذ والطرق على أهلهـا ، حتى ينفد مـا بحوزتهم من ميـاه وطعام . فإمـا يشعلون الحرب ، وهم منهكون لقلة الطعـام والشراب فتسهل هزيمـتهم أو ينزلون على شرط من الشروط الثلاثة التى يعرضها الإسلام على أهل البلاد وهى :

إما الإسلام .

وإما الجزية .

وإما الحرب .

وكان من نصيب البراء بن مالك وأخيـه أنس أحد هذه الحصون بمحاصرتها وهى عملية فيها التـرقب الممل ، والانتظار الطويل . وتدعو إلى الاسترخاء وفى يوم من الأيام والبراء يرسل بريد عينيه عبر المجهول شاهد أخاه أنس تمسك به كلاليب قوية وتسحـبه بحبال إلى فوق الحصن لقـتله . وما كاد يرى ذلك حتى طار خلفهـا ، وأمسك بتلك الكلاليب وعالجهـا بيديه حتى لطمهـا ، وخلَّص أخاه منها ثم سـقطا سوياً على الأرض .. سـالمين . لأن الله تعالى أراد أن يخلصهـما من تلك المكيدة التى نصبها الفرس لهما .

ونظر البراء فى يديه ، فإذا هما متفحمتان نتيجة إمساكه بتلك الكلاليب التى كانت تـصهر من قـبل الأعداء على النـار بدرجة عاليـة ، حتى إذا أُطبـقت على الفارس عـسر عليه الـفكاك والخلاص منها بيـديه ، لأنها تتـحول إلى قطع من النار الملتهبة .

وأصبح البراء مشغولاً بيديه واستمر فترة لا يستطيع أن يحمل بيديه رمحاً ولا يستعمل بهـما سيفاً ولا يقدر بمفرده على تناول طعـامه وشرابه ، وأصبح عبئاً على نفسه وعلى الآخرين .

وهمس بينه وبين نفسه مناجياً ربه : لماذا لم أنل الشهادة يا رب ؟

وكأن الوجود كله تحول فى لحظة خاطفة إلى أفواه تردد قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً .. (١٤٥) ﴾ [آل عمران]

ومرت الأيام وكرت الليالى وجمع الفرس جموعهم مرة أخرى بعد هزيمتهم فى معركة القادسية ، وعلم الخليفة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بما يدبره قائدهم ، وإعداده الكتائب وتجيشيه الجيوش على حدود (تستر) وثغورها وكتب « يزدجرد » إلى أهل فارس يذكّرهم بالأحقاد ويؤنبهم ويقول :

« إن قد رضيتم يا أهل فارس أن قد غلبتكم العرب على السواد وما وراءه والأهواز ثم لم يرضوا بذلك حتى طاردوكم فى بلادكم وعقر داركم » .

عندها كتب عمر إلى سعد بن أبى وقاص أن ابعث إلى الأهواز بعثاً كثيفاً بقيادة النعمان بن مقرن .

وكتب إلى أبى موسى الأشعرى فى البصرة أن ابعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً وأمّر عليهم سهل بن عدى ، وابعث معه البراء بن مالك .

واستجاب المسلمون إلى أوامر عمر وتجمعت الجيوش حول (تستر) والأهواز[1] وحاصروهم أشهراً ، وأكثروا فيهم القتال .

وقتل البراء بن مالك - فيما بين أول ذلك الحصار إلى أن فتح الله على المسلمين - مائة مبارز .

وقتل مجزأة بن ثور مثل ذلك .

وقتل كعب بن سور مثل ذلك .

ثم زاحفهم المشركون فى أيام (تستر) ثمانين زحفاً فى حصارهم يكون عليهم مرة ولهم أخرى ، حتى إذا كان فى آخر زحف منها واشتد القتال . قال المسلمون يا براء : إن رسول الله - ﷺ - قال : « لو أقسمت على الله لأبرك » فأقسم على ربك .

---

(١) قال أبو زيد : الأهواز اسمها هرمز سهر وفى الكتب القديمة أن سابور بنى بخوزتان مدينتين سمى إحداهما باسم الله عز وجل وهى هرمز سابور ومعناها : عطاء الله لسابور وسمتها العرب سوق الأهواز وأهلها معروفون بالبخل والحمق وسقوط النفس ، قال مغيرة ابن سليمان : أرض الأهواز نحاس تنبت الذهب ، غزاها أبو موسى الأشعرى حين ولاه عمر البصرة بعد المغيرة بن شعبة ففتح الأهواز عنوة سنة ١٧ هـ .

قال البراء : « أقسمت عليـك يا رب لما منحتنا أكتافكم » ، فطاردوهم واثخنوا فيـهم القتل ، ثم تقـابلوا معهم عـلى قنطرة (السوس) وترس فيـها المشـركون وأوجعوا المسلمين ضرباً .

فقالوا يا براء : أقسم على ربك .

فقال :« أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم ، وألحقنى بنبى الله ـ ﷺ ـ» ، فمنحوا أكتافهم ، وقُتل البراء شهيداً .

قُتل البراء رضوان الله عليه .

قُتل البراء بعد هزيمة الفرس حتى أدخلوهـم خنادقهم ، ثم اقتحموها عليهم وحاصروا (الهرمزان) فلما عاينوه وهمّوا بالقبض عليه .

قال لهم : مـا تريدون .. وأنتم تشاهدون ما أنا فيـه ومعى فى جعبـتى مائة نشابة ، والله مـا تصلون إلىَّ ما دام مـعى منها واحدة ، ومـا قيمـة إسارى إذا أصبت منكم مائة بين قتيل وجريح ؟

قالوا : فتريد ماذا ؟

قال : أن أضع يدى فى أيديكم على حكم عمر يصنع بى ما يشاء .

قالوا : فلك ذلك .

عندها رمى قوسه وأمكنهم من نفسه ، فشدوه وثاقاً . ثم خرجوا إلى المدينة حتى إذا وصلـوا إليها هيـئوا « الهـرمزان » فى هيـئته ، وألبـسوه كـسوة من الديبـاج الذى فيـه الذهب ، ووضـعوا على رأسـه تاجـاً يُدعى « الآذين » مكللاً بالياقوت ، وعليه حليته . كيما يراه عمر والمسلمون فى هيئته ثم خرجوا به على الناس يريدون عمراً فى منزله فلم يجدوه .

فسألوا عنه ، فإذا هو فى المسجد نائم فى ميـمنته متوسد برنسة ، حتى إذا رأوه جلسوا دونه ، وليس فى المسجد نائم ولا يقظان غيره ، والدرة معلقة فقال الهرمزان : أين عمر ؟

فقالوا : هو ذا .

فقال : أين حرسه وحجابه عنه ؟

قالوا : ليس له حارس ولا حاجب ، ولا كاتب ولا ديوان .

قال : فينبغى له أن يكون نبياً .

فقالوا : بل يعمل بعمل الأنبياء .

وكثر الناس ، فاستيقظ عمر بالجلبة التى أحدثوها ، فاستوى جالساً ثم نظر إلى الهرمزان فقال : الهرمزان ؟

قال : نعم .

فتأمله وتأمل ما عليه وقال : أعوذ بالله من النار واستعين بالله .

ثم قال : الحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا وأشياعه .

يا معشر المسلمين ، تمسكوا بهـذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ، ولا تبطرنكم الدنيا ، فإنها غرارة .

فقـال الوفد : هذا ملك الأهواز ، فكلمـه ، فقـال : لا . حتى لا يبقى عـليه من حليته شىء ، فرمى عنه بكل شىء عليه إلا شيئاً يستره ، وألبسوه ثوباً صفيقاً.

فقال عمر : هيه يا هرمزان : كيف رأيت وبال الغدر ، وعاقبة أمر الله ؟

فقال : يا عمر إنا وإياكم فى الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم، فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم ، فلما كان معكم غلبتمونا ؟

فقـال عمر : إنما غلبـتمونا فى الجـاهلية باجتـماعكم وتفـرقنا ، ثم قال له : ما عذرك وما حجتك فى انتقاضك مرة بعد مرة ؟!

فقال : أخاف أن تقتلنى قبل أن أخبرك .

قال : لا تخف ذلك .

ثم طلب ماء ، فـأُتى به فى قدح غليظ . فـقال : لو مت عطشـاً لم أستطع أن أشرب فى مثل هذا وأنا أخاف أن أُقتل قبل أن أشرب الماء .

فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشربه ، فأكفاه .

فقال عمر : أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش .

فقال : لا حاجة لى فى الماء إنما أردت أن استأمن به .

فقال له عمر : إنى قاتلك .

قال : قد أمنتنى .

فقال : كذبت .

فقال أنس : صدق يا أمير المؤمنين . قد أمنته .

قال عمر : ويحك يا أنس ، أنا أؤمن قاتل مجزأة ، والبراء بن مالك ؟ والله لتأتين بمخرج أو لأعاقبنك .

قال : قلت له : لا بأس حتى تخبرنى ، وقلت له : لا بأس عليك حتى تشربه .

فأقبل عمر على الهرمزان وقال : خدعتنى والله لا أنخدع إلا لمسلم .

فأسلم ـ ونطق بالشهادتين فـفرض له على ألفين ، وأنزله المدينة ـ رحم الله البـراء بن مالك ورضى الله عن عـمـر بن الخطاب ـ رضى الله عنه . وصلى الله على سيـدنا محمد خـاتم النبيين الذى قال : « كم من ضـعيف مستـضعف ذى طمْرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره ، منهم البراء بن مالك »[1] .

(١) الحديث أخـرجه البخـارى فى الصلح ٨ والجهاد ١٢ والأدب ٦ والإيمـان ٩ ومسلم فى القسامة ٢٤ ، وفضائل الصحـابة ٢٢٥ والبر ١٣٨ والترمذى فى المناقب ٥٤ وابن ماجة فى الديات ١٦ وأحمد بن حنبل فى المسند ٣ : ١٢٨ ، ١٤٥ ، ١٦٧ (حلبى) .

دروس وعبر ..
حقيقة النصر فى منهج الإسلام

■ فرسان مدرسة النبوة أعدهم رسولهم - ﷺ - إعداداً حربياً ، وعلّمهم استراتيجية المعارك وأسباب النصر ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ .. (٦٠) ﴾ [الأنفال]

وأعدهم إعداداً روحياً :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا .. (٥١) ﴾ [التوبة]

وأيضاً ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا .. (١٤٥) ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ﴾ [الأنفال]

ولكن النصر فى النهاية : لن يكون بقوة السلاح .

ولن يكون بعدد الجنود .

ولكن يكون بصلابة القلاع والحصون .

وكل هذه الأشياء عوامل لابد منها للجيش المقاتل ، ولا يصح إغفالها بحال من الأحوال .

ولكنها ليست سبباً للنصر .

ولن يتحقق النصر عن طريق العبادة ، ولا عن طريق القوة الروحية .

ولن يتحقق النصر عن طريق معرفة الله فحسب .

ولن يتحقق النصر عن طريق فرد من الأفراد ، أياً كان هذا الفرد رسولاً أو غير رسول .

النصر فى النهاية هو من عند الله تعالى .

فقد يكون المسلمون ضعفاء فى قوة السلاح ، وفى غير استعداد كامل ، ومع ذلك يحققون النصر .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) ﴾ [آل عمران]

وقد يكون المسلمون أقوياء أكثر عدداً وعدة ، ومع ذلك لا يحققون النصر وينهزمون . قال الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ﴾ [التوبة]

وإذا كان النصر من عند الله تعالى ، فعلام يترك الجهاد ؟

وفى ترك الجهاد تُحتل البلاد ويعيش أهلها فى خوف ورعب .

وممَّ يخاف هؤلاء الذين ترعبهم كلمة الجهاد ؟

أيخافون من القتل ؟

ومتى كان المسلمون يحرصون على الحياة وكتابهم يقول :

﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) ﴾ [النساء]

قدمت الآية القتل فى سبيل الله ، لأن المؤمنين لا يتشبثون بالبقاء ، ولا يحرصون على هذه الدنيا التى لا تساوى جناح بعوضة ، كما أخبر بذلك رسولهم ـ ﷺ .

ولكنهم يحرصون فقط على نشر دينهم أو الموت دون ذلك .

فإذا خرجوا لملاقاة الأعداء كان نُصب أعينهم إما النصر ، وإما الشهادة ولم يكن حب البقاء فى حسابهم قط .

ولهذا قال رسول المسلمين فى مجلس الفرس لقائدهم :

« جئنا لكم بقوم يحبون الموت ويرغبون فيه ، كما تحبون أنتم الحياة وتتمسكون بها » .

وإذا كان النصر والظفر من عند الله ، فالهزيمة والاندحار أمام الأعداء بسبب سلوك الأفراد !

بسبب بُعد هؤلاء المقاتلين عن ربهم وعدم تنفيذهم لأوامره .

الهزيمة تكون بسبب المعاصى التى يرتكبها أفراد المجتمع .
قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) ﴾ [الشورى]

وبهذا الفهم لطبيعة الجهاد فى الإسلام ، خرج فرسان النهار ، رهبان الليل ، من الجزيرة العربية ، ينشرون الأمن بعد الخوف والنور بعد الظلام والهدى بعد الضلال، خرجوا يحملون المصحف للهداية ، والسيف لإزالة الباطل ، وانداحوا فى أركان الأرض الأربعة .. وحققوا الكثير من النصر .

ولم يكن النصر بقوة السلاح .
ولم يكن النصر بكثرة الجنود .
ولم يكن النصر بيقظة القادة .
وقد كان ذلك كله موجوداً ومعداً .
ولكن كان النصر من عند الله تعالى .
وإذا كان القتال باسم الله ، وإذا كانت الحرب لرد العدوان والطغيان .
وإذا كانت الحرب لنصرة الذين استضعفوا .

فلن يفلح أن يكون فى الجانب الآخر ترسانات من الأسلحة ، لن يجدهم نفعاً أن يكدسوا الفانتوم أو (ف ١٥ ، ١٦) أو حتى الألف .
ولن يفيدهم قلامة ظفر الأسلحة الجديدة والقديمة .
﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٣٨) ﴾ [الحج]

ولأن قتال المؤمنين بأمر الله . وبإذن منه .وبتوقيته وقدره .
قال تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) ﴾ [التوبة]
وقوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ﴾ [الحج]

لقد كان من أسباب دواعى الهزيمة فى حرب ١٩٦٧م كما وضحها بعض القادة وجود الباخرة « لابرتى » .
باخرة مجهزة بأجهزة عجيبة ومعقدة . تلتقط إشارتنا وبياناتنا ، وتكشف

للأعداء عن مخططاتنا ، وتهمس لهم بأفكارنا .

وتكاد هذه الباخرة « الملوعنة » تعد على القادة أنفاسهم ، وتكشف خبايا قلوبهم .

ليس هذا فحسب .

ولكن يتكشف لها الغيب فتعرف ما يأتى السادة قادتنا وما يدعون ؟

أحقاً كان ذلك ؟

إن هذه الأجهزة ـ وبهذه الصورة ـ قد توجد وقد لا توجد .

قد تخطىء وقد تصيب .

قد تنجح وقد تخيب .

إنها مرحلة من العلم ، والعلم لا يزال قاصراً فى ميدان الحياة ، ولا يزال قاصراً فى ميدان الحروب .

والعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة .

ولكن المسلمين الأوَل كان لديهم فى حروبهم مع الأعداء السلاح الذى لا يقهر ، ولا يخيب .

كانت عندهم شفافية الإيمان ، وإشراقة الإحسان .

كان عندهم (الرادار) الذى ينقل والأجهزة التى تلقَّط وتصور .

كانت عندهم فراسة المؤمن ، وهى أقوى الأسلحة ، وأعتى الحصون فى المعارك لأن الرسول ـ ﷺ ـ يقول :

« اتقوا فراسة المؤمن لأنه ينظر بنور الله »(١) .

وفى إحدى المعارك الطاحنة التى خاضها الجيش الإسلامى خارج الجزيرة العربية ـ هناك على أرض نهاوند يرى القائد الأول للجيش الإسلامى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ جيشه يحاط من الأعداء .

وينزل جيش المسلمين فى المعركة منزلاً صعباً .

يرى عمر هذا بنوره وقوة إيمانه .

يراه عمر وبينه وبين الجيش المحارب آلاف الأميال .

(١) الحديث رواه الترمذى فى تفسيره ٣١٢٧ بسنده عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره ثم قرأ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحجر] .

وهذا شىء محال أن يخطىء لأنه من عند الله .

ومحال أن يخالطه عبث أو تضليل لأنه من خالق الأرض والسماء من رب الأرباب .

ويسمع الجيش المؤمن نداء القائد .

يسمع نداءه بتعديل سير المعركة ، وبتغيير خطط القتال .

يا سارية ، الزم الجبل ، يا سارية ، الجبل الجبل .

ويطيع الجنود أمر القائد الحاضر الغائب .

وبهذا الفهم لطبيعة النصر ، وبهذا الوعى لوعد الله لهم حقق النصر ، وتم وعد الله لهم ، وتمت النعمة ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

عبد اللّه بن الزبير بن العوام

رضى الله عنه

قال الرسول ـ ﷺ ـ لوالدة عبد الله بن الزبير ـ أسماء بنت أبى بكر: « يا أسماء .

قالت : نعم يا رسول اللّه .

قال : أرضعى ولدك هذا . ولو بماء عينيك ، لأنه أول مولود يولد للمسلمين بعد الهجرة » .

راجع البداية والنهاية

■ فارس من فرسان مدينة النبوة .

ومحارب عرف « تكتيك » المعارك ، واستراتيجية النصر ، وخبير محنك فى كسر شوكة الأعداء والانتصار عليهم .

ولد فى مهد الإسلام ، وتربى فى محراب العبادة ، وترعرع شبابه فوق صهوات الخيل ، وفوق أسنة الرماح .

والده : الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأول من سلَّ سيفاً فى سبيل الله للدفاع عن دينه .

وهو من حوارى الرسول - ﷺ - لقول النبى - ﷺ - « لكل نبى حوارى وحوارى الزبير بن العوام»[1] .

وقد أنزل الله تعالى فيه قرآناً يتلى بقوله :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧) ﴾ [البقرة]

وأمه : أسماء بنت أبى بكر الصديق - رضى الله تعالى عنها - وكان لها دور كبير عندما هاجر الرسول - ﷺ - .

وما كاد الرسول وصحبه يسرعان الخطى إلى يثرب ، حتى علمت قريش بالهجرة وطاش عقلها ، وركبت رأسها ، وأعلنت عن الجوائز والهبات لمن يأتى بمحمد حياً أو ميتاً قبل ذهابه إلى مأمنه .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى الجهاد ٤٠ ، ٤١ ، ١٣٥ ، وفضائل الصحابة ٤٨ ، وابن ماجة فى المقدمة ١١ ، ومسلم فى فضائل الصحابة ، وأحمد بن حنبل فى المسند ١ - ٨٩ ، ١٠٣ ، ٣ - ٣٠٧ ، ٣١٤ ، ٣٣٨ (حلى) .

وانفلت أبو جـهل إلى بيت أبى بكر لعل محـمداً يكون فـى بيته ، أو يـعرف خبراً عن إقلاعه ، والطريق الذى سلكه . وطرق الباب طرقاً عنيفاً وعندما هرعت أسماء بنت أبى بكر لتفتح الباب ، فوجئت بأبى جـهل أمامها وهو يصيح فيها : أين محمد ..؟

قالت أسماء وهى هادئة مطمئنة إلى رعاية الله وعنايته التى تحفظ رسول الله - ﷺ - وأباها :

لا أدرى ..!!

فـرفع أبو جهل يده ولطـم أسمـاء لطمة قـوية أطارت قـرطها ، ثم غـادرها مسـرعاً ، ليطلب من شـباب قريش الانتـشار فى كل مكان لعلهم يعـثرون على محمد وصحبه .

وكانت أسماء تحمل الطعـام لرسول الله - ﷺ - وأبيها لمدة ثلاثة أيام . وهما فى الغـار ، ولقد شـقت خُمـارها وعقـدت بأحـدهما الطعـام على ظهر الجـمل وتخمرت بالآخر : فسماها رسول الله - ﷺ - « بذات النطاقين » .

مـــولــــده

ولد عبد الله بن الزبير فى المدينة بعد عشرين شهراً من الهجرة . وكان بذلك أول طفل يولد فى المدينة فى ديار الإسلام .

وبعدها مبـاشرة حملته أمه أسمـاء بنت أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - إلى الرســول - ﷺ - فكبّر الصــحـابة والمسلمون بمـولده ، وفرحـوا به فرحـاً شديداً ، وذلك أنهم قيل لهم :

« إن اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم » .

ثم أخـذه الرســول - ﷺ - من أسمـاء ووضــعه فى حـجـره ودعـا بتمـرة فمـضغها ، ثم تــفل فى فِيْه ، فـكان أول شىء يدخـل جـوفه ريق رسـول الله - ﷺ - .

ثم دعا له ، وبارك عليه .

ثم قال لأمه أسماء :

« أرضعيه ولو بماء عينيك » .

وكان عبد الله - وهو مـا زال حدثاً صغيراً يميل إلى الإمـارة ويطلب الزعامة على أترابه فى ساحة اللعب .

وتنبأ له الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بمستقبل باهر ، وسؤدد عظيم ومكانة مرموقة فى دنيا الحياة .

من ذلك أن عمر بن الخطاب مرَّ على مجموعة من الأطفال بينهم عبد الله وهم يلعبون .

وما كاد الأطفال يشاهدون عمراً ـ رضى الله عنه ـ حتى ولوا هاربين بعيداً عن طريقه . لما كانوا يعرفون عنه من وقار وهيبة .

أما عبد الله فقد لزم مكانه ، ولم يفر مع الفارين .

فقال له عمر : ما لك لم تفر معهم ؟

فقال عبد الله : « لم ارتكب جرماً حتى أخافك ، ولم يكن الطريق ضيقاً فأوسعه لك » .

إنه جواب يدل على رجاحة عقل ، ورجولة مبكرة ، وثقة بالنفس سيكون لها أكبر الأثر فى حياة عبد الله المقبلة .

وما كاد عبد الله يبلغ الثامنة من عمره ، حتى نراه يجمع أترابه وزملاء ملعبه، ويتوجهون فى وقار تام ، وصفوف منتظمة إلى بيت الرسول ـ ﷺ ـ ثم يبايعون الرسول ـ ﷺ ـ يبايعونه على أن يكونوا جنوداً لدعوة الإسلام .

يبايعونه على تقديم أرواحهم رخيصة فى سبيل ارتفاع كلمة التوحيد .

يبايعونه على أن يعملوا جادين على تطهير الأرض ، كل الأرض من الأوثان والأصنام ومن كل الألوهية المزيفة ، التى كانت تُعبد من دون الله فى الجاهلية الأولى .

وكان سرور الرسول ـ ﷺ ـ بهم عظيماً . عندها سمح لهؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم بزيارة ساحات تدريب الجيش ، واستعمال ما يعنُّ لهم من أدوات تصقل أجسادهم ، وتربى سواعدهم ، وتملأ قلوبهم شجاعة وقوة ، وثقة واطمئناناً بنصر الله تعالى .

اشتراك عبد الله فى خوض المعارك ووقعة اليرموك

رافق عبد الله بن الزبير ـ رضى الله عنه ـ والده الزبير فى معركة اليرموك تلك المعركة التى كانت بين المسلمين ، وبين قوات الروم التى لا تغيب عنها الشمس ، والتى كانت تعسكر على أرض الشام آمنة مطمئنة ، حتى ظهر هؤلاء

الصناديد الذين يحملون الدعوة إلى هذا الدين الجـديد خاتم الأديان السماوية .
ولقد قـال عنهم هرقل لقادة جيشـه وأمرائهم عندما سمع بمسـيرهم إلى أرض الشام :

« ويحكم إن هؤلاء أهل دين جـديد ، وإنهم لا قـبَلَ لأحد بهم ، فـأطيعـونى وصالحوهم على نصف خراج الشام ، ويبـقى لكمَ جبال الروم ، وإن أنتم أبيتم ذلك أخذوا منكم الشام وضيقوا عليكم جبال الروم » .

ولكنهم أبوا ما عرضه عليهم مليكهم .

ولم يمض على قـوله هذا إلا شهـور معـدودة ، حتى كـانت القوة الضـاربة للمسلمين تدق بعنف أبواب الشام ، وتكتسح أمامها كالسيل الجارف هذا الركام المتعفن من جنود الروم وأتباعهم وصارت الشام ، كل الشام فى حوزة الإسلام وأهله ، وارتفعت مـآذنه فى كل بقعة من بقاعـها لتعلن بأصـواتها المجلجلة فى أعماق الكون الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر لا إله إلا الله .

ولقد شاهد عـبد الله فى هذه المعركة بطولة الأبطـال ، وصدق الرجال الذين صدقـوا ما عـاهدوا الله عليه من نشـر دينه والدعوة إلى توحـيده فى كل أرض فيها خلق الله .

فتـــح مصـــر

ثم رافق عبد الله والده وهو يتجه مع الأبطال الصناديد لفتح مصر التى بشر بفتـحها رسـول الله ـ ﷺ ـ والتى قال فيـها لأتباع دينـه : « إذا فتح الله عليكم مصر أوصيكم بقبطها خيراً لأن لهم عهداً وذمة »[1] .

ولقـد انتشـرت جواسيـس المقوقس حـول جيش الإسـلام ليجـمعوا قـوته ويتعرفوا على عدده وعدته ثم عادوا إلى المقوقس وقالوا له :

أيها الملك : لقد رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة .

والتواضع أحب إليهم من الرفعة .

ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة .

إنما جلوسـهم على التراب .

وأكلهم على ركبهم .

وأميرهم كواحد منهم .

(١) النجوم الزاهرة جـ ١ ، صـ ١٢ .

ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد من العبد .. !!

وإذا حضــرت الصلاة لم يتـخلف عنها منهم أحـد ، يغسلون أطرافـهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم ..

فـقال المقـوقس عند ذلك : والذى يُحلف به لو أن هؤلاء اسـتقـبلوا الجبـال لأزالوها ، وما يقوى على قتالهم أحد .

ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم ، وهم محصـورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم .

ولقد صدق المقوقس فيمـا قال ، ووصف به هؤلاء الرجال ، نعم لو استقبلوا الجبال لأزالوها ـ بإذن الله .

لأن خـرجتـهم هذه لم تكن لمغنم أو حكم أو جـاه ، أو لأى هدف من أهداف الدنيا ، وإنما كانت لله ولنشـر دينه ، وإخراج الناس من عبادة العبـاد إلى عبادة الله وحده .

عندها ، أرسل المقـوقس إلى جـيش المسلمـين أن ابعـثـوا إلينا رسـلاً منكم نتعاون ـ نحن وهم ـ إلى ما عساه يكون فيه صلاح لنا ولكم .

واختار عـمرو بن العاص وفداً إلى المقـوقس فيهم عبـد الله بن الزبير وعلى رأسهم عبادة بن الصامت . وأمَّره عمرو أن يكون متكلم القوم وأميرهم .

نعم عبادة الذى طـوله ـ كما يصفه الرواة ـ عـشرة أشبار ، مهـيب الطلعة ، قوى التراكيب ، ترى فـى عينيه قوة الشكيمة والإيمـان ، أسود البشرة ، أبيض القلب . الأمر الذى جعـل المقوقس عندما دخلوا عليه يرتعـد منه ويخاف ويقول لهم :

« نحوا عنى هذا الأسود وقدموا غيره يكلمنى »(١) .

فقال أصحاب عبادة :

« إن هذا الأسـود أفضلنا رأياً وعلمـاً ، وهو سـيدنا وخـيرنا والمقـدم علينا ونرجع جميـعاً إلى قوله ورأيه ، وقد أمَّر الأميـر دوننا ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله » .

فقال : وكيف رضيتم بأن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وإنما ينبغى أن يكون هو دونكم . عندها رد عليهم عبد الله بن الزبير قائلاً :

(١) النجوم الزاهرة جـ ١ ، صـ ١٢ .

« أيها الملك ، إنك تقيس الناس بمقاييسك الأرضية ، ولم تسمع أن هذا الدين ـ الذى جاءنا به الله تعالى ـ كانت أولى توجيهاته لنا على لسان رسولنا ﷺ : « كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم »(1) .

فلن يتفاضل الناس أيها الملك بالحسب والنسب ، ولن يتفاضلوا باللون والجنس ، وإنما التفاضل عن طريق شيء آخر ـ هو التقوى ومعرفة الله تعالى خالق الأرض والسماء .

ثم تابع عبد الله بن الزبير حديثه قائلاً :

وإن كان أميرنا أسود أيها الملك ـ كما ترى ـ ولكنه من أفضلنا موضعاً وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأياً ، وليس ينكر السواد فينا أحدٌ .

ولم يجد المقوقس حيلة لإبعاد عبادة عنه . فقال لعبادة :

تقدم إليَّ يا أسود ، وكلمني برفق ، فإنني أهاب سوادك ، وإن اشتد كلامك عليَّ ازددت لك هيبة .

فتقدم إليه عبادة ، فقال :

قد سمعت مقالتك ، وإن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل كلهم مثلي ، وأشد سواداً مني ، وأفظع منظراً لو رأيتهم كنت لهم أهيب مني ، وأنا لقد وليت وأدبر شبابي ، وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلوني جميعاً وكذلك أصحابي .

ثم تابع عبادة حديثه قائلا :

وذلك لأن رغبتنا في الجهاد في الله وإتباع رضوانه ، وليس غزونا لرغبة في الدنيا ونعيمها الزائل . وما يبالى أحدنا أكانت له قناطير من ذهب أم كان لا يملك درهماً لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يسد به جوعه ، في ليله ونهاره ، وشملة يلتحفها ، وإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه .

وإن كانت عنده قناطير من الذهب أنفقها في طاعة الله تعالى ، واقتصر على هذا الذى بين يديه .

أرأيتم يا أتباع محمد ـ ﷺ ـ ماذا قال عبادة ..؟ لقد أرعب الرجل بسلامة بنيانه ، وقوة إيمانه . ثم كان رسول حرب من طراز فريد ، عرف كيف يضرب المحز كما يقولون .

(1) الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير ٣٢٧٠ ، والمناقب ٧٣ وأبو داود فى الأدب وأحمد بن حنبل فى المسند ٢ : ٣٦١ ، ٥٢٤ (حلبى) .

إذا كان شكله قد أرعبه ، فهناك ألف من أصحابه على شاكلته .

وإن كـان أصـابه الكبـر ، فهنـاك على الضـفة الأخـرى من النيل فـرسـان المعارك ، رهبان الليل .

آه لو رأيتهم أيها المقوقس لخرجت روحك قـبل أن يحادثوك . وهؤلاء جميعاً فرغوا من الدنيا ، وفرغت منهم الدنيا ، أصحاب رسالة يؤدونها كما أمرهم الله ، وبعدها يذهبون إلى هناك فى مقعد صدق عند ربهم .

وكل هؤلاء الرجال يدخلون المعركة يتسابقون إلى الموت ليقربهم إلى ربهم، ويجمعهم مع حـبيبهم ونبيهم . إنهم ليسوا طـلاب دنيا يا زعيم القبط ، ولكنهم عشاق شهادة .

لا تشغلهم النسـاء ولا الأولاد . لأن أميرهم عندما دفعـهم إلى نشر دين الله قال لهم حتى لا ينشغلوا بغير الجهاد :

« سيروا على بركة الله وأنا أبو العيال حتى تعودوا »[1] .

فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله :

هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط ..؟

لقـد هبت منظره ، وإن قـوله لأهيـب عندى من منظره ، إن هذا وأصـحـابه أخرجهم الله لخراب الأرض كلها .

ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت قائلاً له :

أيهـا الرجل الصالح قـد سمـعت مقـالتك ، وما ذكـرت عنك وعن أصحـابك ولعمرى ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت عنك وعن أصحابك .

وما ظهرتم على مَنْ ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها .

ثم قال : وقـد توجه إلينا لقتالـكم من جمع الروم ما لا يحصى عـدده ، قوم معـروفون بالنجـدة والشدة ، ممن لا يبـالى أحدهم من لقى ولا من قـاتل وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ، ولن تطيقونهم لضعفكم وقلتكم .

فقال عبادة : يا هذا لا تغرنَّ نفسك ولا أصحابك ، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وإنا لا نقوى عليهم .

إن كان ما قلتم حقاً فذلك ـ والله ـ أرغب ما يكون فى قتالهم وأشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند الله إذا قَدمنا عليه إن قُتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا من رضوانه وجنته .

(١) راجع (هذا هو الطريق) للمؤلف .

وما من شيء أقرُّ لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك ، وإنا منكم حينئذ على إحدى الحسنيين ، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم . أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا .

وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الإجهاد منا .

وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) ﴾ [البقرة]

ونتساءل : مَنْ كان يتصور أن هؤلاء الرجال الذين خرَّجتهم البادية وقست عليهم ظروف الطبيعة ، وعاشوا حياتهم الجاهلية ، بعيدين عن خدع الحرب ومعرفة خبايا النفوس ، تكون لهم هذه المقدرة الفائقة من الحرب النفسية التى شنها عبادة بن الصامت على عظيم مصر ، فقضى على كل مقاومة عنده ، وملأ نفسيته بالرعب والفزع ، وإذا ما وصل قائد من قواد الدول والجيوش إلى هذه الحالة من الاضطراب والهول ، فقد خسر المعركة ، وسلمت بلاده .

أما ما جاء بعد ذلك ، فهى توسلات المقتول إلى قاتله أن يترفق به فى ذبحه، ويحد شفرته حتى لا يحس بألم القتل .

وتمت سفارة عبادة بن الصامت ، وعبد الله بن الزبير ، وعادوا إلى عمرو بن العاص يزفون إليه فتح مصر . بعد أن خرَّبوا نفسية القائد ، وفتوا فى عضد جنوده .

ثم دانت المحروسة إلى دين الله ، وأصبحت عاصمتها صاحبة الألف مئذنة . ترتفع من أعلى أعاليها خمس مرات فى اليوم كلمة : الله أكبر الله أكبر الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

عبد الله بن الزبير
فوق أرض الزنبقة السوداء

استقر المقام فى مصر للوالى الجديد عبد الله بن سعد بن أبى السرح .

عندها كتب إلى الخليفة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ يخبره بقرب أفريقيا من بلاد المسلمين ويستأذنه فى غزوها .

واستشار الخليفة كبار الصحابة ، فأشار أكثرهم إلى الإقدام على غزو أفريقيا ودعوة أهلها إلى الإسلام .

وجهز الخليفة العساكر لهذه المهمة ، وأمده بجيش عظيم فيه مجموعة من أبناء الصحابة على رأسهم عبد الله بن الزبير ـ رضى الله عنه .

وسار الجيش الزاحف إلى الزنبقة السوداء حتى وصلوا إلى « قرطاجنة » التى يُحمل منها الخراج إلى هرقل « قيصر الروم » .

والتقى المسلمون بجيش القائد « جرجير » البالغ عدده مائة وعشرين ألفاً بمكان يُدعى « عقوبة » .

وراسل عبد الله بن سعد القائد « جرجير » يدعوه إلى الإسلام أو الجزية . ولكنه امتنع عنهما وتكبر عن قبول أحدهما .

واستأنف القتال ، واستمرت الحرب شهوراً حتى وصل للمسلمين المدد بقيادة عبد الله بن الزبير - رضى الله عنه - .

وحين سمع « جرجير » بوصول هذا العدد والمدد للمسلمين فُتَّ فى عضده .

ورأى عبد الله بن الزبير أن قتال المسلمين يبدأ من الصباح ويستمر حتى الظهر ، فإذا أُذن الظهر عاد كل فريق إلى خيامه ، كما أنه افتقد فى اليوم التالى عبد الله بن سعد فى المعركة ، فسأل عنه فقيل :

إنه سمع منادى « جرجير » يقول : « مَنْ قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتى، فهو يخاف من ذلك » .

فحضر ابن الزبير مجلسه وأشار عليه بأن يأمر منادياً ينادى بين المسلمين:

« من أتانى برأس « جرجير » نقدته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده » .

ففعل ذلك وصار « جرجير » يخاف أشد من خوف ابن سعد .

وقال ابن الزبير - رضى الله عنه - لقادة المسلمين :

« إن أمرنا يطول مع هؤلاء وهم فى إمدادات متصلة ، وبلاد هى لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين فى خيامهم متأهبين ، ونقاتل نحن الروم فى باقى العسكر إلى أن يضجروا ويملوا ، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ، ركب من كان فى الخيام من المسلمين ، ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ، ونأخذهم على غرة ، فلعل الله ينصرنا عليهم» .

إن الحرب خدعة

والقائد الكبير لا يجعل جُلَّ اهتمامه على القوة وحدها .. بل يلجأ إلى المراوغة تارة وعنصر المفاجأة تارة أخرى .

وإذا كان القائد على دراية كاملة بنفسية خصمه ، كان هذا مدعاة لتقصير أمد المعركة وتقريب النصر .

ولقد اقتنع ابن سعد بالخطة التى وضعها ابن الزبير وعمل على تنفيذها .

وأقام جمعٌ من شجعان المسلمين فى خيامهم ، وخيولهم عندهم مسرجة وحضر الباقون ، فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديداً ، فلما أُذن الظهر همَّ الروم بالانصراف على العادة ، فلم يمكنهم عبد الله بن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم . ثم عاد عنهم هو والمسلمون ، وألقى كل من الطرفين سلاحه ، وكان قد بلغ التعب من الروم حداً بالغاً وأخذ ابن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين وهاجم الروم فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم ، وحملوا عليهم حملة رجل واحد ، وكبروا فلم يتمكن الروم من أخذ سلاحهم حتى غشيهم المسلمون ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة .

وتمكن ابن الزبير من التعرف على « جرجير » وحاصره فى مأمنه ، حتى تمكن من قتله ، وأُخذت ابنته أسيرة .

وأخذت رايات الإسلام ترفرف على تلك البقاع البعيدة ، وصوت الله يدوى فى جنباتها ، ونصر الله المؤمنين نصراً مؤزراً .

موقف ابن الزبير من الخليفة معاوية ابن أبى سفيان ـ رضى الله عنه ـ

نجح معاوية ـ رضى الله عنه ـ بعد مقتل الإمام على ـ رضى الله عنه ـ فى جعل الحسن والحسين يركنان إلى الهدوء والسلام ، ولكن ـ فى رأيه ـ بقى أمامه خصم عنيد هو عبد الله بن الزبير ـ رضى الله عنه ـ لأنه انفرد بزعامة حزب أبناء الصحابة .

وأخذ معاوية يبذل جهداً خارقاً لاستمالة ابن الزبير ليكون فى طاعة الدولة الأموية .

وكان معاوية إذا التقى بابن الزبير قال له :

« أهلاً بابن عمة رسول الله ـ ﷺ ـ وابن حوارى رسول الله ـ ﷺ ـ ثم يأمر بمنحه مائة ألف درهم » .

ولكن سلاح المال لم يجد نفعاً مع ابن الزبير ، ولم يجعله ينسى ولو للحظة واحدة أن معاوية اغتصب الخلافة من مستحقيها .

عندها لجأ معاوية إلى أساليب الإقناع وطرح أساليب المناظرة بينهما . قال معاوية لابن الزبير :

لمَ تنازعنى هذا الأمر كأنك أحق به منى .. ؟

فقال ابن الزبير : لمَ لا أكون أحق به منك يا معاوية ؟

قال معاوية : كيفَ ؟

قال ابن الزبير : اتبع أبى رسول الله - ﷺ - على الإيمان واتبع الناس أباك على الكفر .

فقال معاوية له : غلطت يا ابن الزبير ، وبعث الله ابن عمى نبياً فدعا أباك فأجابه ، فما أنت إلا تابع لى ضالاً كنت أو مهدياً .

وهكذا تفاخر ابن الزبير بسبق أبيه فى الإسلام على أبى سفيان والد معاوية . وقد قاد أبو سفيان - كما نعلم - جيوش قريش التى قاتلت الرسول - ﷺ - ابن عمه . إذ أن بنى أمية هم أبناء عمومة بنى هاشم - قبيلة رسول الله - ﷺ - .

وفى مجلس آخر تناظر معاوية وابن الزبير وتفاخرا ، وساق كل منهما الحجج والأسانيد ، ثم رأيا أن يحتكما إلى واحد ممن حضروا هذا المجلس وهو أبو جهم بن[1] حذيفة .

فقال أبو جهم لمعاوية : نعم أمك هند ، وأمه أسماء بنت أبى بكر وأسماء خير من هند ، وأبوك أبو سفيان ، وأبوه الزبير ، ومعاذ أن يكون أبو سفيان مثل الزبير ، وأما الدنيا يا معاوية فهى لك ، وأما الآخرة فله إن شاء الله .

روى هشام بن سليمان المخزومى عن أبيه قال : أذن معاوية للناس يوماً فدخلوا عليه، فامتلأ المجلس ومعاوية جالس على سريره ، فأجال بصره فيهم ثم قال : أنشدونى لقدماء العرب ثلاثة أبيات جامعة من أجمع ما قالتها العرب . ثم نظر لابن الزبير وقال :

يا أبا خبيب أنشد ذلك .

قال : نعم يا أمير المؤمنين بثلاثمائة كل بيت ؟..

قال معاوية : نعم ، إن ساوت .

قال ابن الزبير : أنت بالخيار وأنت واف كاف . ثم أنشد للأفوه الأزدى قوله:

---

(١) يُعد من مشيخة قريش ، عالماً بالنسب ، وهو من المعمرين حضر بناء الكعبة مرتين، مرة فى الجاهلية ، حين بنتها قريش ومرة حين بناها ابن الزبير ، وهو أحد الأربعة الذين دفنوا عثمان بن عفان ، وتوفى فى آخر خلافة معاوية .

بلـوت النـاس قـــــرناً بـعـــــد قـــــرن
فلـم أر غـــيــــر خـــــتـــــال وقـــــال

فقال معاوية : صدق .

ولم أر فـي الخطـوب أشـــد وقـــعـــاً
وكـــيـــداً مـن مـــعـــادات الرجـــال

فقال معاوية : صدق .

وذقـت مـــــرارة الأشـــيـــاء طـراً
فـــمـــا شيء أمـــرَّ من الســـؤال

فقال معاوية : صدق.

ثم قال معاوية : هيه يا خبيب . قال : إلى هنا انتهى .

قال : فدعا معاوية بثلاثين عبداً على عنق كل واحد منهم بدرة ، وهي عشرة آلاف درهم ، فمروا بين يدي ابن الزبير حتى انتهوا إلى داره .

وعن سعيد بن يزيد قال :

دخل ابن الزبير على معاوية ، فأمر ابناً له صغيراً فلطمه لطمة دوخ منها رأسه . فلما أفاق ابن الزبير قال للصبي :

ادن مني ، فدنا منه ، فقال له : الطم معاوية ؟

قال الصبي : لا أفعل .

قال : ولمَ ؟

قال : لأنَه أبي .

فرفع ابن الزبير يده ، فلطم الصبي لطمة جعل يدور منها ، كما تدور الدوامة.

فقال معاوية : تفعل هذا بغلام لم تجز عليه الأحكام ؟

قال : إنه والله قد عرف ما يضره مما ينفعه، فأحببت أن أُحسن أدبه .

وعن عبد الله بن أبي بكر قال : لحق ابن الزبير معاوية وهو سائر إلى الشام، فوجده وهو ينام على راحلته فقال له :

أتنعس وأنا معك ..؟ أما تخاف مني أن أقتلك ؟

فقال : إنك لست من قتال الملوك ، إنما يصيد كل طائر قدره .

قال : لقد سرت تحت لواء أبي إلى عليّ بن أبي طالب وهو من تعلمه .

فقال : لا جرم قتلكم والله بشماله .

قال : أما إن ذلك كان في نصرة عثمان ، ثم يجز بها .

فقال : إنما كان لبغض عليّ لا لنصرة عثمان .

فقال له ابن الزبير : إنا قد أعطيناك عهداً ، فنحن وافون لك به ما عشت . فسيعلم من بعدك .

رحم الله عبد الله بن الزبير ، ورحم الله معاوية بن أبى سفيان ، فلقد كانا رجالاً أديا ما عليهما لربهما ودينهما وكانا أمة سلفت. فهل يجود بمثلها الزمان.؟!

عندها ستكون للإسلام أربعة أركان الكرة الأرضية كما كانت سابقاً . ونهتف مع الشاعر :

كانوا رعاة جمال قبل نهضتهم
وبعدها ملؤا الآفاق تمدينا
لو كبرت بآفاق الصين مئذنة
سمعت فى الغرب تهليل المصلينا

استشهاد ابن الزبير - رضى الله عنه -

قدم الحجاج من الشام فى ألفى فارس ، وانضم إليه طارق بن عمر فى خمسة آلاف .

وروى محمد بن سعد أن الحجاج حاصر ابن الزبير وأنه اجتمع معه أربعون ألفاً . وأنه نصب المنجنيق على جبل أبى قبيس ليرمى به المسجد الحرام وأنه خيّر ابن الزبير بين ثلاث :

أولاً : أن يذهب فى الأرض حيث شاء .

ثانياً : أو يبعثه إلى الشام مقيداً بالحديد .

ثالثاً : أو يقاتل حتى يُقتل .

عندها خرج أهل مكة إلى الحجاج بالأمان وتركوا ابن الزبير ، وقلَّ أتباع ابن الزبير جداً ، حتى خرج ابناه حمزة وخبيب ، فأخذا لنفسيهما أماناً من الحجاج فأمنهما .

عندها دخل عبد الله بن الزبير على أمه ، فشكا إليها خذلان الناس له وخروجهم إلى الحجاج حتى أولاده وأهله . وأنه لم يبق معه إلا اليسير ، ولم يبق لهم صبر ساعة . والقوم يعطوننى ما شئت من أمر الدنيا ، فما رأيك ؟

فقالت : يا بنى ، أنت أعلم بنفسك . إن كنت تعلم أنك على حق وتدعو إلى حق، فاصبر عليه ، فقد قُتل عليه أصحابك ، ولا تُمكن من رقبتك يلعب بها غلمان بنى أمية .

وإن كنت تعلم أنك إنما أردت الدنيا، فلبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ، وأهلكت مَنْ قُتل معك . وإن كنت على حق ، فما وهن الدين وإلى كم خلودك فى الدنيا القتل أحسن .

فدنا منها فقبَّل رأسها وقال : هذا والله رأيى .

ثم قال : والله ما ركنت إلى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمته ، ولكنى أحببت أن أعلم رأيك فزدتينى بصيرة مع بصيرتى ، فانظرى يا أماه، فإنى مقتول فى يومى هذا، فلا يشتد حزنك ، وسلمى الأمر لله ، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر ، ولا عمل بفاحشة قط ، ولم يجر فى حكم الله ، ولم يغدر فى أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغنى ظلم عن عامل فرضيته، بل أنكرته ، ولم يكن عندى آثر من رضا ربى عز وجل ، اللهم إنى لا أقول ذلك تزكية لنفسى .

اللهم أنت أعلم بى منى ومن غيرى ، ولكنى أقول ذلك تعزية لأمى لتسلو عنى .

فقالت أمه : إنى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسناً إن تقدمتنى أو تقدمتك ، ففى نفسى اخرج يا بنى حتى أنظر ما يصير إليه أمرك ؟

فقال : جزاك الله يا أماه خيراً ، فلا تدعى الدعاء قبل وبعد .

فقالت : لا أدعه أبداً لمن قُتل على باطل ، فلقد قتلت على حق ، ثم قالت : اللهم ارحم طول ذلك القيام ، وذلك النحيب ، والظمأ فى هواجر المدينة ومكة ، وبره بأبيه وأمه .

اللهم : إنى قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت، فقابلنى فى عبد الله ابن الزبير بثواب الصابرين الشاكرين .

ثم أخذته إليها، فاحتضنته لتودعه ، واعتنقها ليودعها ، فوجدته لابساً درعاً من حديد .

فقالت : يا بنى ، ما هذا لباس مَنْ يريد الشهادة ؟

فقال : يا أماه ، إنما لبسته لأطيِّب خاطرك وأسكن قلبك به .

فقالت : لا يا بنى ، ولكن انزعه ، فنزعه وجعل يلبس بقية ثيابه ويتشدد .

وهى تقول : شمر ثيابك ، وجعلت تذكره بأبيه الزبير ، وجده أبى بكر الصديق ، وجدته صفية بنت عبدالمطلب ، وخالته عائشة زوج رسول الله ـ ﷺ ـ

وترجِّيه القـدوم عليهما إذا هو قُـتل شـهيداً، ثم خـرج من عندها فكان ذلك آخر عهدها به ـ رضى الله عنهما وعن أبيه .

ثم ماذا استُشهد الصوّام القوّام .

استُشهد الحافظ لحدود الله تعالى ، القانت مع كتابه .

استُشهد صاحب « الاستراتيجية » المحكمة فى فتح أفريقيا .

اســتُشــهد ابن حـوارى رسول الله ـ ﷺ ـ وابن ذات النطاقـين ـ رضى الله عنه ـ وأسكنه فسيح جناته .

ثم إن الحجـاج صلبه على جـذع فوق الثنية . فلمـا علمت أمه خـرجت حتى وقفت عليه ، وهى على دابة . فأقـبل الحجاج فى أصحابه ، فسأل عنهـا فأُخبر بها، فاقبل حتى وقف عليها فقال :

كيف رأيت . نصر الله الحق وأظهره ؟

فقالت : ربما أديل الباطل على الحق أهله .

فقال : إن ابنك ألحد فى هذا البيت وقد قال تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) ﴾ [الحج]

وقد أذاقه الله ذلك العذاب الأليم .

قالت : كذبت . كان ابنى أول مولود ولد فى ديار الإسلام بالمدينة ، وسرَّ به رسول الله ـ ﷺ ـ وحنكه بيـده الشريفة ، وكبـر المسلمون يومئـذ حتى ارتجت المدينة فـرحاً به ، وقـد فرحت أنت وأصـحابك بمقـتله ، فمن كـان فرح يومـئذ بمولده خيـر منك ومن أصحـابك ، وكان مع ذلك براً بالوالدين صـوّاماً، قـوّاماً بكتاب الله ، معظّماً لحُرم الله ، يبغض من يعصى الله عز وجل .

ثم قالت : أشهد أنى سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول :

« يخرج من ثقيف كذّاب ومبير » .

يقال : فانكسر الحجاج وانصرف .

وقال مـسلم بن الحجـاج فى صحـيحـه : مرَّ عـبد الله بن عمـر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ على ابن الزبير وهو مصلوب فقال : السلام عليك أبا خبيب ، أما والله إن كنت مـا علمت صوّاماً ، قـوّاماً ، وصولاً للرحم ، أمـا والله لأمة أنت شرها لأمة خير .

ثم بلغ الحجاج ما قاله ابن عـمر ـ رضى الله عنه ـ فأمر بإنزاله فوراً ودفن فى قبره رضوان الله عليه .

عــبر وعظـات

■ لا يستطيع أى مؤرخ منصف لتاريخ هذه الفترة من حياة المسمين بعامة ، وخلافة معاوية ، وعبد الله بن الزبير بخاصة أن يعفى حاشية كل من الخليفتين، وما كان يحيط بكل منهما من أنصار وأصهار من مسئولية ما حدث، من إشعال الفتنة بينهما ، الفتنة التى سارت بين المسلمين سريان النار فى الهشيم ، وجعلت هممهم العالية المتجهة إلى خارج حدود الجزيرة العربية لنشر دين الله ، وإعلاء كلمة الحق ، تتحول إلى الداخل فتصبح سيوفاً مشرعة ، تحصد الرؤوس المؤمنة وتجندل الأبطال المخلصة وتأيم النساء ، وتيتم الأطفال وتملأ الحياة خوفاً واضطراباً .

وحاشية الحاكم أو الوالى يكون لها دور كبير فى استقرار الحكم وسلامته أو زعزعته واضطرابه ، ولا يستطيع أى منصف أن يقول غير ذلك .

بعد أن نزلت الفتنة بين المسلمين ، ففرقت وحدتهم ، بعد أن منَّ الله عليهم بنعمه الظاهرة والباطنة ، وهداهم إلى الإسلام دين الوحدة والاتحاد ، وكان يجب أن يكون أمرهم جميعاً ، بعد أن فتح الله لهم الدنيا وأصبح الكثير من أهلها يدينون بما يدينون به من التوحيد والإيمان وكان كل مسلم من الجيل الأول يتمنى أن تبقى سيوف المسلمين مشرعة دائماً إلى الخارج لتعمل على نشر دين الله وتجاهد لرفع راية الله ، وتبقى هكذا عالية خفاقة تنشر العدل وتحقق السلام .. فماذا جرى للمسلمين حتى ردت سيوفهم إلى الداخل ؟

أهو الطمع والحرص ؟

أم الرغبة فى الملك والسلطان ؟

أم أن بعض النفوس كانت وما زالت تسيطر عليها روح الجاهلية ، لأنها

دخلت الإسلام رهبة لا رغبة .

إن الإنسان ليصاب بالغثيان ويلفه ما يشبه الدوار كلما تذكر أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ تطعنه يد آثمة .

وعثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ تقتله عصابة خارجة .

وعلىٌّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ تُحاك له الدسائس ، وتُدبر له المكايد ، ويُقتل غيلة وغدراً .

والحسين بن بنت رسول الله ـ ﷺ ـ وأطفاله الصغار ونساؤه الضعاف يحال بينهم وبين شربة ماء ؟!

ويقتلون شر قتلة !!

ونتساءل : هل ارتكب الحسين ـ رضى الله عنه ـ جريرة ؟

هل قاتل أحداً من الناس ؟

هل اغتصب ملكاً أو خلافة ؟

اللهم لا .

وعبد الله بن الزبير ابن حوارى رسول الله ـ ﷺ ـ وابن ذات النطاقين . يُقتل وهو معلق بأستار الكعبة ، ثم تحز رأسه لترسل إلى الحاكم القابع فى دمشق حتى يقر عيناً ويهدأ بالاً .

إنها الفتنة التى لا تبقى ولا تذر .

الفتنة التى يقول عنها الله تعالى فى كتابه : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ .. (٢١٧) ﴾ [البقرة]

وقتل النفس الذى يقول الله تعالى عنه :

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا .. (٣٢) ﴾ [المائدة]

وكما استغل قميص عثمان فى تفريق الكلمة، وإشاعة الفتنة وتفريق الصف.

استغل مقتل الحسين ـ رضى الله عنه ـ لهذا السبب ذاته ، ونستقرىء سوياً صفحات التاريخ فيأخذنا الهول والفزع .

أهؤلاء هم الرجال ، أو أبناء الرجال الذين فروا بدينهم ، وهاجروا مع نبيهم ، وتركوا كل ما يملكون من حطام الدنيا ، بل ما هو أغلى من ذلك وأكبر : الأهل ، والولد ، والحبيب والصديق ؟!

ونتساءل : ما الذى غير تلك النفوس ؟

ما الذى بدل هذه الطبائع ..؟

ما الذى طمس على تلك الأفئدة ؟

لقد حُمل رأس الحسين ـ رضى الله عنه ـ كما تقول بعض الروايات إلى قلعة الكوفة حيث يجلس عبيد الله بن زياد واليها الجديد من قبَل بنى أمية .

وكأن هذا العمل الذى قام به جيش زياد إزاء قوم عزَل عمل بطولى يفتخر به على التاريخ .

ولم تكد تجف دماء الحسين وأهل منزله ، حتى شاهدت الكوفة جيشاً كبيراً يضم صفوة مختارة من أبناء المسلمين ، ساروا خلف رجل راغب فى الحكم وطامع فى الخلافة ، ويريد أن يحوز الدنيا لتكون مواردها خالصة له ـ وهم ينادون يالثارات الحسين ..

وحاصروا جيش عبيد الله بن زياد[1] وتم القضاء عليه ، وقُتل شر قتلة وحُملت رأسه إلى قلعة الكوفة ، ووضعت أمام المختار[2] الثقفى ، فى نفس

---

(١) هو عبيد الله بن زياد المعروف بزياد بن أبيه ، وابن سمية ، وأمير العراق بعد أبيه زياد ، ويقال له عبيد الله بن مرجانة ، وهى أمه ، وكانت مجوسية وقد روى ابن عساكر أن معاوية كتب إلى زياد أن أوفد إلىَّ ابنك، فلما قدم عليه لم يسأله معاوية عن شىء إلا نفد منه ، حتى سأله عن الشعر ،فلم يعرف منه شيئاً. فقال له : ما منعك من تعلم الشعر؟.. فقال: يا أمير المؤمنين إنى كرهت أن أجمع فى صدرى كلام الرحمن وكلام الشيطان. فقال معاوية : أغرب فوالله ما منعنى من الفرار يوم (صفين) إلا قول ابن الاطنابة حيث يقول :

أبت لى عفتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإعطائى على الإعدام مالى ... وإقدامى على البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمى بعد عن إنف صحيح

ثم كتب إلى أبيه أن روِّه الشعر فرواه حتى كان لا يُسقط منه شيئاً بعد ذلك .

(٢) هو المختار بن أبى عبيد الثقفى أسلم أبوه فى حياة النبى ـ ﷺ ـ ولم يره وبعثه عمر بن الخطاب فى جيش كثيف لقتال الفرس فى معركة (الجسر) فقُتل يومئذ شهيداً وله من البنات صفية بنت عبيد ، وكانت من الصالحات العابدات وهى زوجة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أما أخوها المختار ، فإنه كان ناصبياً يبغض علياً وأولاده بغضاً شديداً ، ولكنه تستر للوصول إلى الحكم بقضية المطالبة بثأر الحسين وقيل كان يدّعى الوحى . وقد قيل لابن عمر ـ رضى الله عنه ـ إن المختار يزعم بأن الوحى يأتيه . فقال : صدق . لأن الله تعالى يقول:﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ..(١٢١)﴾[الأنعام] قُتل سنة ٦٧هـ .

الموضع الذى وضعت فيه من قبل رأس الحسين .

ماذا جرى يا أتباع محمد ؟

هل هو الطمع والحرص ؟

أم الرغبة فى إراقة الدماء ؟

أم إنها الفتنة التى كان يستعيذ منها عمار بن ياسر ؟

ولم يستطع المجتمع الإسلامى ـ فى ذلك الوقت ـ أن يحول بينها وبين انتشارها ، حتى عششت فى كل نفس ، وفرَّخت فى كل قلب .

ثم ماذا ؟. لم يدم السلام طويلاً للمختار الثقفى .

ولم يتحقق له أن ينعم بالحلم الجميل الذى راوده فى يوم من الأيام ، ولم يرع الله تعالى فى أبناء المسلمين الذين قذف بهم فى أتون متأجج وحط بهم على معركة خاسرة .

وكيف لا تكون خاسرة . والأخ يقتل أخاه ، والوالد يقتل ابنه والابن يقتل أباه ، ولم يدر أى منهم ما يدع أو ما يفعل .

لأنها الفتنة ورياحها التى لا تبقى ولا تذر .

لقد استيقظ المختار فى يوم من الأيام على صوت يدوى ويهز أرجاء الكوفة هزاً ، إنه جيش مصعب بن الزبير الذى جاء من أرض الحجاز يطلب البيعة لأخيه فى مكة عبد الله بن الزبير .

إن البيعة عادة تكون عن طريق الإعلان وتتم عن طريق الرغبة .

إن البيعة تكون عن طريق المحبة والولاء والإقناع التام بصلاحية مَنْ أبايعه للقيام بدور الخلافة لجماعة المسلمين ولن تكون بيعة تلك التى تؤخذ عن طريق الجيوش الجرارة ، وتتم من فوق جثث مَنْ سقطوا فى ساحة القتال .

ولكن هذا الذى حدث ، والتحم الجيشان فى معركة وحشية ضارية لعب فيها بريق الدينار ، وسحر الذهب دوراً كبيراً ، ودارت على المختار وسقط صريعاً على أرض المعركة .

ثم ماذا ؟ حزت رأسه ، وهناك فى قلعة الكوفة كان يجلس مصعب ابن الزبير ينتظر رأس المختار، ينتظرها فى قلق حيناً ، وفى رعب حيناً آخر . وكأن شيطاناً يتقمص هؤلاء الطامعين فى الملك، الراغبين فيه. فلا يستقر لهم قرار ، ولا يهنأ لهم بال ، حتى يشاهدوا رأس الغريم أمامهم ، ويتأكدوا منها على موت صاحبها ، ومغادرته هذه الديار إلى الأبد .

وانفرجت أسارير مصعب ، وأخذ ينكت الرأس أمامه بقضيب كان فى يده .

وكأننى به أخذ يوزع بدراته وذهبه ، ويقرب فرسانه وجزاريه إلى مقعده الوثير . ويطلب من كاتبه أن يزف البشرى لأخيه عبد الله بن الزبير فى مكة .

هل جاء الأمان وحل السلام ؟

هل جاء الاستقرار ووضعت السيوف فى أغمادها ؟

لا . لم تدم أيام الاستقرار .

ولم يهدأ للمسلمين بال .

وكيف يكون ذلك والفتنة التى كان يستعيذ منها عمار بن ياسر تطاردهم وتسخر من أحلامهم ، وتقلب دنياهم رأساً على عقب .

وفى اللحظة التى تسلم فيها عبد الله بن الزبير خطاب أخيه مصعب كانت على أرض الحجاز والطائف جيوش جرارة تزحف بقيادة الحجاج الثقفى لتحاصر الكعبة - بيت الله الحرام - الذى قال الله تعالى عنه : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران]

نقول تحاصر الكعبة وتدك بنيانها بالمنجنيق . وضُربت أسوار الكعبة وتساقطت الأحجار فى فنائها ؟!

شُلت أيديكم يا أتباع الشيطان .

إن صاحب الفيل لم يستطع أن يفعل ما فعله هؤلاء الذين قدت قلوبهم من صخر ، فلا تنبض برحمة ، ولا تدعو إلى خير ، ونزع الله من قلوبهم كل بارقة من إيمان أو وشيجة تدل على خير وفى الوقت الذى تمكن فيه رجال الحجاج من قتل عبد الله بن الزبير وقطع أطرافه وتعليق جثته ، كان هناك على أرض الكوفة جيش يحاصر مصعباً ، ويبدد رجاله . ويجندل فرسانه .

ويقدم لنا أحد المؤرخين صورة من هذه الاضطرابات والثورات فى فترة قصيرة من عمر الزمن ، تبين حقيقة ما نرمى إليه وما نقصد تبيانه فى هذه العجالة.

يقول : لقد شاهدت رأس الحسين - رضى الله عنه - ملقى فى قلعة الكوفة أمام عبيد الله بن زياد قائد الجيش الأموى على أرض العراق . وهو يُنكت الرأس بقضيب كان فى يده .

وما ليس أن ثار المختار الثقفى ، وقاد جيشاً جراراً من المطالبين بثأر الحسين ، وحاصر جيش عبيد الله بن زياد ، وما هى إلا جولات قليلة حتى هُزم

الجيش الأموى ، وقُتل عبيد الله بن زياد ، وما هى إلا لحظات حتى حُمل رأسه إلى قلعة الكوفة ووضع أمام المختار الثقفى .

ثم ماذا ؟

لم يمض على ذلك وقت طويل حتى كان جيش مصعب[1] بن الزبير ينكل بجيش المختار الثقفى ، ويوقع به هزيمة منكرة ، ثم تحز رأس المختار لتوضع أمام الثائر الجديد مصعب بن الزبير فى قلعة الكوفة . فهل وقف الأمر عند هذا الحد ؟

يقول راصد حركة التاريخ :

« لقد خشى الأمويون على ملكهم من الانتصار الباهر الذى حققه مصعب ابن الزبير ، فأرسل عبد الملك[2] بن مروان جيشاً لجباً حاصر جيش مصعب ، وتمكن قائده فى النهاية من هزيمته ، وحز رأس مصعب لتوضع أمام عبد الملك ابن مروان فى قلعة الكوفة .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فما لبث أن زحفت الجيوش المجيشة بقيادة أبى مسلم الخرسانى لتحطيم الدولة الأموية ، وإعلان قيام الدولة العباسية ، وتم للجيش المغير ما أراد ، وخرِّبت المدن العامرة وقُتل مئات الألوف من أبناء الإسلام وشُرد آلاف آخرون ؟!

فهل هدأت الأوضاع بقيام الدولة العباسية ؟

هل وقف الأمر عند تحطيم دولة وقيام دولة أخرى ؟

هل استقر العرب فى أوطانهم وبلادهم ؟

هل رفرف السلام عليهم وصارت حياتهم رخاء ؟

---

(١) هو مصعب بن الزبير بن العوام ـ أمه كرمان بنت أنيف الكلبية ، وكان ممن يجالس الصحابى أبا هريرة ، وكان من أحسن الناس وجهاً . ولى إمرة العراق لأخيه عبد الله بن الزبير حتى قتله عبد الملك بن مروان واجتمع مصعب عندَ الحجر الأسود ومعه بعض أبناء الصحابة. فقالوا : ليقم كل واحد منكم وليسأل من الله حاجته . فقال عبد الله فأنا أتمنى من الله الخلافة وقال عروة أما أنا فأتمنى أن يؤخذ عنى العلم ، وقال مصعب أما أنا فأتمنى إمرة العراق والجمع بين عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين ، وقال عبد الله ابن عمر، أما أنا فأتمنى المغفرة. قال : فنالوا كلهم ما تمنوا ولعل ابن عمر قد غفر الله له .

(٢) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص أمير المؤمنين وأمه عائشة بنت معاوية ابن المغيرة ـ أول من سار بالناس إلى بلاد الروم سنة ٤٢هـ وكان أميراً على أهل المدينة، وكان يجالس العلماء والفقهاء والعباد والصالحين وروى عن أبيه وعن أبى سعيد الخدرى أنه بويع له بالخلافة سنة ٦٥ هـ وتوفى سنة ٨٦ هـ رحمه الله رحمة واسعة .

إن حقائق التـاريخ تقرر أنه لم يهدأ لهم بال ، ولم يستـقر لهم قرار بدءاً من هذه القلاقل البعيدة حتى يومنا هذا .

وفى عـصرنـا الراهن شُرد أبنـاء الكويت ، واحتـلت بلادهم ، بواسطة دولة عربيـة ، وجنود إسلاميـة ، وتم ذلك أمام سمع وبصـر الأمة العربيـة كلها من المحيط إلى الخليج .

فى عصـرنا الراهن أُلقيت آلاف الأطنان من القنابل ـ قنابل الدمـار الشامل ، واللهب القاتل ـ على شـعب العراق ، فتـحولت بلادهم وديارهم إلى بلاقع دون أن تمس قيادته بسوء ، أو يتعرض جلادوه لأذى .

وفى عصـرنا الراهن : رد مئات الآلاف من الأكراد ، وهامـوا على وجوههم وسط الجـبـال الوعرة ، والصـحـراء القـاتلة ، فـارين من الصـواعق المرسلة ، والأسلحة الكيميائية القاتلة ، التى تُصب عليهم بيد إخوانهم فى العقيدة والدين، فحولت الكثير منهم إلى جثث متفحمة وأشلاء ممزقة .

أمـا من نجـا من هذا الهـول ، فـهم أشـبـاح بلا أرواح لا يملكـون حـيلة ولا يهتدون إلى سبيل .

إن الفتنـة بكل أشكالها وصورهـا نقطة سوداء قاتمة فى تـاريخ هذه الأمة ، وما أجمل ألا تكون ولكنها عظة وعبرة .

ودرس يجب أن يعيه الأبناء والأحفاد ليتعلموا منه :

« إن الفتنة لا تأتى بخير » .

وصدق الله فى قوله : ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ .. (٢١٧)﴾ [البقرة]

زيد بن سهل أبو طلحة الأنصارى

رضى الله عنه

قال الرسول - ﷺ - : «صوت أبو طلحة فى المعركة خير من ألف رجل» .

ويقول أبو طلحة عن نفسه :

أنا أبو طلحة واسمى زيد وكل يوم فى سلاحى صيد

يا رسول الله : إنى قوى جلد ، فوجهنى فى حوائجك وابعثنى حيث شئت .

■ من الأبطال المغاوير ، ومن الفرسان الذين آووا ونصروا .
لم يتخلف عن غزوة من غزوات الرسول ـ ﷺ .
وكان كريماً سخياً قدم في سبيل دينه القليل والكثير .
وكان محباً لرسوله ، عاملاً لمرضاة ربه ، عطوفاً على إخوانه .
روى عن رسول الله ـ ﷺ ـ الكثير من الأحاديث ، ومنها :
« لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب أو صورة »(1) .

إســـلام زيـد

زوجته سهلة بنت ملحان كان قد تزوجها مالك بن النضر وأنجب منها أنس خادم الرسول ـ ﷺ ـ فلما جاء الإسلام إلى المدينة ـ أسلمت سهلة وحسُن إسلامها ـ وكان زوجها غائباً، فلما جاء أخبرته بإسلامها ودعته إلى الإسلام ـ فأبى ـ وقال : إن هذا الرجل ـ يعني رسول الله ﷺ ـ يحرِّم الخمر ، وأنا لا أطيق ذلك . فتركها وانطلق إلى الشام فمات هناك .

فتقدم لها زيد بن سهل ، وكلمها في ذلك .

فقالت : يا أبا طلحة ما مثلك يرد ولكنك امرؤ كافر ، ألست تعلم أن إلهك الذي تعبد نبت من الأرض ؟

قال : بلى .

قالت : أفلا تستحي أن تعبد شجرة.. ! إن أسلمت فإني لا أريد منك صداقاً غيره ..

(1) الحديث أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ٧ : ١٧ وفي كتاب النكاح ٧٦ والمغازي في الطهارة ٨٩، واللباس ٤٤ – ٤٥، والترمذي في الأدب٤٤ ، والنسائي في الطهارة: ١٦٧.

قال : حتى أنظر فى أمرى ..

فذهب ثم جاء . فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

فقالت لابنها : يا أنس زوّج أبا طلحة فزوجها له .

وفى رواية قال : فمن لى بذلك .. ؟

قـالت : اذهب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فـانطلق أبو طلحـة يريد النبى ـ ﷺ ـ ورسول الله جالس فى أصحابه ، فلما رآه قال :

« جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام بين عينيه » .

قال ثابت : فمـا بلغنا أن مهراً كان أعظم منه ، إنها رضيت بـالإسلام مهراً ، وكانت امرأة مليـحة العينين معتـدلة القوام ، قانتة عابدة ، عـملت على مرضاة زوجهـا ، وملأت حيـاته سعادة وهناء ، ثم ولدت لـه صبيـاً ، فكان أبو طلحة يحبه حباً شـديداً ، فمرض فتألم أبو طلحة لمرضه كثـيراً ولما اشتد عليه المرض ذهب إلى الرسول ـ ﷺ ـ عله يجـد عنده طباً أو رقية ـ ولكن الطفـل مات قبل أن يعود أبوه من مجلس الرسول ـ ﷺ ـ عندها قالت أم سليم لأولادها : لا أحد منكم ينعين الولد إلى أبيه ، حتى أكون أنا أنعاه له ..

ثم هيأت الصبى ووضعته .

وجاء أبو طلحة من عند الرسول ـ ﷺ ـ فلما دخل عليها قال :

كيف حال ابنى ..؟

فقالت : يا أبا طلحة ما كان منذ اشتكى أسكن منه الساعة .

فحمد الله تعالى وشكره .

ثم أتته بعشائه فأصاب منه ، ثم قامت فـتطيبت وتعرضت له ، فأصاب منها ما يكون بين الرجل وزوجه .

فلما تم ذلك قالـت : يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوماً أعـاروا عارية لآخرين ثم سألوهم إياها أكان لهم أن يمنعوها .. ؟

قال : لا .

فقالت : إن الله عز وجل كان قد أعارك ابنك عاريـة ثم قبضه إليه ، فاحتسب ابنك واصبر .

فغضب أبو طلحة غـضباً شديداً وقال : تركتنى حتى وقعت فـيما وقعت به فنعيت إلىَّ ابنى .. !

ثم غدا على رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبره .

فقال الرسول - ﷺ - بارك الله لكما فى غابر ليلتكما .

واستجاب الله لدعـوة رسوله . وما كادت تنقضى شهـور الحمل حتى ولدت أم سليم ولداً .

وعلم الرسـول - ﷺ - بذلك فقال عليـه السلام : فـأتونى به، فقـال لابنها أنس: انطلق به إلى الرسول - ﷺ - فأخذه أنس، فـانطلق به إليه ، فلما نظر إليه عليه السلام قال لأنس : أولدت بنت ملحان .. ؟

قال : نعم . فألقى عليه السلام مـا فى يده ، فتناول الصبى ، وقال : ائتونى بتمـرات عجـوة ، فأخـذ التمر، فـجعل يحنك الصـبى ، وجعل الصـبى يتلمظ ، فحنّكه وسماه عبد الله ، وكان يعد من خيار المسلمين .

ثم قال عليه السلام لأنس : اذهب إلى أمك فقل لها : بارك الله لك فيه .

وجاءت غزوة بدر ، واشترك فيـها أبو طلحة . غزوة بدر التى قال الله تعالى فيها :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران]

ونزل فيها أيضاً قوله تعالى :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنفال]

يقول أبو طلحة : ولقد سقط السيف من يدى يوم بدر لما غشينا من النعاس.

ولقد نصـر الله الفئـة المؤمنة ودحرت الفـئة الباغـية ، ورد الله الذين كـفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً .

ثم جاءت غزوة أحد ، وأبلـى فيها أبو طلحة بلاءً حسناً ، وكـان رجلاً رامياً وكان الرسول - ﷺ - خلفـه ، وكان إذا رمى أبو طلحة سهـمه رفع رسول الله - ﷺ - رأسه ينظر أين يقع سهمه ، وكان أبو طلحة يدفع صدر الرسول - عليه السلام - ويغطيه بجسمه كله مخافة أن يصيبه سهم . فإذا هدأت المعركة بعض الشىء قال أبو طلحة :

« يا رسول الله، إنى جلد قوى، فوجهنى فى حوائجك وابعثنى حيث شئت» .

ولقد انهـزم ناس من المسلمين عن رسول الله - ﷺ - فى هذه الغـزوة، فقام

أبو طلحة بين يدى الرسول - ﷺ - يحوطه بجسمه كله يدافع عنه ويفديه بروحه .

حتى تكسرت بين يديه قوسان أو ثلاثة ، وكان الرجل يمر ومعه الجعبة من النبل فيقول له رسول الله - ﷺ - .

« انثرها لأبى طلحة » .

قال أنس : ولقد رأيت عائشة وأم سليم - رضى الله عنهما - وإنهن مشمرات ، أرى خدم سوقهما وهم ينقلون القرب على متونهما ثم تفرغانه فى أفواه القوم ، وترجعان فتملآنها لتفرغانه فى أفواه القوم .

وكان أبو طلحة يقول للنبى - ﷺ - : نفسى لنفسك الفداء ووجهى لوجهك الوفاء .

وأخرج الحافظ وأبو يعلى عن أنس أن رسول الله - ﷺ .

كان يقول : « صوت أبى طلحة فى الجيش خير من فئة » .

وفى رواية : « لصوت أبى طلحة على المشركين أشد من فئة » ، وفى رواية أخرى : « خير من ألف رجل » .

إنه مقاتل عملاق ، وفارس شجاع ، ورام من هؤلاء الرماة الذين لا يخطئون عيون الأعداء .

لهذا لم يتخلف عن غزوة واحدة من غزوات الرسول - ﷺ .

وكان له فى كل موقعة باع طويل ، وسيف بتار يجندل به أعداء الله تعالى وأعداء دينه .

وكان لا يهاب الموت ، ولكنه يرحب به وكان هو وجماعة الصحابة رضوان الله عليهم يتمنون فى خرجتهم هذه إحدى الحسنيين : إما النصر ، وإما الشهادة .. ولمَ لا .. ؟ والله سبحانه وتعالى يقول لهم :

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ﴾ [آل عمران]

روى الإمام أحمد بسنده عن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « مَنْ تفرد برجل فقتله فله سلبه » يقال : فجاء أبو طلحة بسلب أحد وعشرين رجلاً .

تفرد بقتل هذه العصابة الكبيرة من أتباع إبليس الذى أغواهم بعبادة الشجر والحجر والأوثان والأصنام .

ثم ماذا .. ؟ لقد دانت الجزيرة العربية كلهـا بكلمة التوحيد ، ودخلوا فى دين الله أفواجاً ونزل قول الله تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ③ ﴾ [النصر]

عندها أمر الرسـول ـ ﷺ ـ أن يجهز لأداء فـريضة الحج وخرج معـه جمع كبير من الصحابة رضوان الله عليهم .

وخرجوا جميعاً قاصدين بيته الكريم ، الذى جعله الله للناس أمناً وآماناً وهم يلبون : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك .

وكان صوت أبى طلحة يجلجـل عالياً فتجاوبه مكة كلها . سـهولها ووديانها جبالها وصحاريها .

ولما ألقـوا الجمـار وذبحـوا البـدن . أسلم رسول الله ـ ﷺ ـ شـقـه الأيمن للحلاق فحلقـه، فقسم شعره بين الصـحابة الشعرة والشعـرتين ثم أسلم شقه الأيسر للحلاق فلما حلقه أعطاه كله لأبى طلحة رضوان الله عليه .

ثم عاد الركب الميمون إلى المدينة طاهرين مطهرين كـما ولدتهم أمهاتهم كما أخبرهم الرسول ـ ﷺ ـ :

« من حج فلم يرفث ولم يفسق عاد كيوم ولدته أمه »[1] .

كرم أبى طلحة وإنفاقه

كان أبو طلحة أكـثر الأنصار بالمدينة أموالاً وله نخل وبـساتين ، وكان أحب الأموال إليه بيرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يدخلها ويشرب من ماء بها طيب .

قال أنس ـ رضى الله عنه ـ فلما نزل قول الله تعالى :

﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ .. ㊈㊁ ﴾ [آل عمران]

قـال أبو طلحة : يا رسـول الله إن أحب أموالى إلىَّ بيـرحاء ، وإنهـا صدقـة أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله .

فـقـال رسـول الله ـ ﷺ ـ « بخ بخ ذلك مـال رابح ، ذلك مـال رابح ، وقـد

(١) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الحج ٤ ، وابن ماجة فى المناسك ٣ ، والدارمى فى المناسك ٧ .

سمعت ما قلت ، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين » .

فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله . فقسمها أبو طلحة فى أقاربه ، وبنى عمه .

وقيل فى سبب ذلك أن أبا طلحة كان يصلى فى بستان له، فطار طائر فطفق يلتمس مخرجاً فلم يجده لالتفاف النخل، فأعجبه ذلك فاتبعه بصره ساعة ثم رجع، فإذا هو لا يدرى كم صلى ..؟

فقال : لقد أصابنى فى مالى هذا فتنة، فأتى النبى - ﷺ - فذكر ذلك له . وقال : يا رسول الله هو صدقة ، فضعه حيث أراك الله .

صيام أبى طلحة

روى الإمام أحمد بسنده عن أنس قال : كان أبو طلحة لا يكثر الصوم على عهد رسول الله - ﷺ - فلما مات عليه السلام كان أبو طلحة لا يفطر إلا فى سفر أو مرض . وفى رواية فصام بعده أربعين سنة .

ولماذا لا يصوم : والصوم جُنة[1] .

ولماذا لا يصوم : والرسول - ﷺ - يقول « لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك »[2] .

ولماذا لا يصوم : والرسول - ﷺ - يقول : « قال الله تعالى : كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به »[3] .

أبو طلحة والنفير إلى القتال

جلس أبو طلحة يوماً يقرأ فى كتاب الله تعالى حتى وصل إلى سورة التوبة وقرأ فيها نداء رب العزة للفئة المؤمنة :

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [التوبة]

(١) الحديث أخرجه البخارى فى الصوم ٢ ، والتوحيد ٣٥ ، ومسلم فى الصيام ١٦٢ ، ١٦٣ ، وأبو داود فى الصيام ٢٥ والترمذى فى الإيمان ٨ ، والجنة ٧٩ ، وابن ماجة فى الصيام : ١ .

(٢) فى الصيام ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، والترمذى فى الصوم ٥٤ ، والأدب ٨٨ ، وابن ماجة فى الصيام ١ ، وأحمد فى المسند ١ : ٤٤٦ .

(٣) فى المسند ١ : ٤٤٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٨١ ، ٣١٣ (حلبى) وابن ماجة فى الأدب ٥٨ .

فقال : « يا بنى ، جهزونى جهزونى . فقال بنوه :

يرحمك الله . لقد غزوت مع النبى - ﷺ - حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك ..

قال : لا . جهزونى » .

وأسند الطبرى عمن رأى المقداد بن الأسود بحمص على تابوت صراف ، وقد فضل على التابوت من سمنه وهو يتجهز للغزو .

فقيل له : قد عذرك الله .

فقال : أتت علينا سورة البعوث « انفروا خفافاً وثقالاً » .

وقال الزهرى : خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو ، وقد ذهبت إحدى عينيه .

فقيل له : لقد عذرك الله . وأنت عليل .

فقال : استنفر الله الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكنى الحرب كثَّرت السواد وحفظت المتاع .

وروى أن بعض الناس رأى فى غزوات الشام رجلاً قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر .

فقال له :

« يا عم إن الله قد عذرك » .

فقال : يا ابن أخى قد أمرنا بالنفر خفافاً وثقالاً .

ولقد قال الصحابى الجليل ابن أم مكتوم - رضى الله عنه - يوم أحد أنا رجل أعمى ، فسلموا لى اللواء ، فإنه إذا انهزم حامل اللواء انهزم الجيش وأنا ما أدرى مَنْ يقصدنى بسيفه فما أبرح . ولقد أعفوه من ذلك وحمل اللواء مصعب بن عمير(1) - رضى الله عنه .

روى أن بعض الملوك عاهد كفاراً على ألا يحبسوا أسيراً ، فدخل رجل من المسلمين جهة بلادهم فمرَّ على بيت مغلق فنادته امرأة أنى أسيرة . فأبلغ صاحبك خبرى ، فلما اجتمع به ، انتهى الخبر إلى هذه المعذبة . فما أكمل حديثه حتى قام الأمير على قدميه وخرج غازياً من فوره ومشى إلى الثغر حتى أخرج الأسيرة ، واستولى بجيشه على الموضع .

ثم ماذا .. ؟

(1) راجع ترجمة وافية لمصعب بن عمير فى كتابنا « رجال أنزل الله فيهم قرآناً » .

يقول القرطبى ـ رحـمه الله ـ : ولقد نزل بنا العدو ـ قصـمه الله ـ سنة سبع وعشـرين وخمسمـائة ، فجاس خلال ديـارنا وأسر خير رجـالنا ، وقبع وسط بلادنا فى عـدد هال الناس عدده ، فقلت لـلوالى والمولى عليه : هذا عـدو الله قد وقع فى الشَّرَك والشبكة ، فلتكن عندكم بركـة ، ولتظهر منكم إلى نصرة الدين عليكم حـركة ، فيـخرج إليـه جميـع الناس حتى لا يبـقى منهم أحد فى جـميع الأقطار فـيحاط به ، فـإنه هالك لا محـالة إن يسركم الله له ، ولكن الـذنوب قد غلبت ، والقلوب قد رجـفت بالمعاصى ، وصار كل واحـد من الناس ثعلباً يأوى إلى جـحـره ، حتـى إن رأى المكيدة تحـل بجاره ، إنا لله وإنـا إليه راجـعـون ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وفاة أبى طلحة ـ رضى الله عنه ـ

لقد سافر أبو طلحة إلى الشام والتقى بالفارس المغوار أبى عبيدة بن الجراح ـ رضى الله عنه ـ وعـملا مـعـاً فى الدعوة إلى ديـن الله ، وقتـال من يقف فى طريق الدعوة . ولـقد نزل بتلك البلاد المـرض الذى يسمى بالطاعـون ، وعندما علم عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ذلك أخذ مجموعة من كبار الصحابة إلى الشام . وعلى مدخل المدينة ، اسـتقبله أبو طلحة وأبو عبيـدة بن الجراح فقالا : يا أميـر المؤمنين إن معك وجـوه أصحـاب رسول الله ـ ﷺ ـ وخـيارهم ـ وإنا تركنا فى الداخل مثل حريق النار يعنى الطاعـون ، فارجع العام فرجع ـ رضى الله عنه .

فلما كان العام المقبل جاء فدخل .

ثم إن أبا طلحة غزا البحر ، فمـات فى البحر ، فلم يجدوا جزيرة يدفنونه بها إلا بعد سبعة أيام ، فدفنوه بها ، وهو لم يتغير .

رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته .

دروس وعـــبر ..
سبل النهضة الإسلامية

■ من حق الإسلام وهو خاتم الأديان السماوية ، ويحتل أبناؤه رقعة فسيحة من المعمورة ، أن يكون له دور الريادة والقيادة فى كل ما يتصل بشئون العقيدة والشريعة والحياة .

ومن حق أتباعه ، وهم قوة بشرية لها دورها فى مجال السياسة والاقتصاد أن يكون لهم حق التوجيه والإرشاد .

ولكن كيف يمكن أن يقوموا بهذا الدور .. ؟

وما هى الوسائل والسبل التى يجب أن تتبع حتى يكون لنا حق السيادة والقيادة على الأرض الفسيحة والممالك العريضة ؟

لقد كان لنا فيما سبق صوت يدوى بالتكبير فى أنحاء المعمورة كلها .

دوى فى الأندلس حتى وصل إلى مشارف أوربا .

ودوى فى الصين حتى وصل إلى آخر حدود السند والهند .

فما الذى أخفت هذا الصوت .. ؟

ودوى فى القيروان حتى وصل إلى بانزرت آخر مشارف تونس .

ودوى على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، فوصل إلى قبرص وصقلية وكورسيكا موطن نابليون آخر مشارف فرنسا .

فلماذا غاب هذا الصوت ؟

ودوى صوت التكبير حتى وصل إلى مشارف روسيا ، وتوغل فى داخلها واستولى على أجزاء كبيرة منها .

استولى على بخارى والقوقاز .

واستولى على طشقند وسيبيريا .

واستولى على جبال الأورال وعلى بحر قزوين .

وتوغل أصحاب التكبيرة الطاهرة أفواههم بكلمة التوحيد فى أوربا كلها حتى بلغوا أسوار فينا .

فكيف خفت هذا الصوت ..؟

وكيف غاب هذا الصوت ..؟

ومَنْ الذى حجبه عن الأسماع ، وجعله يتوارى خلف الغمام والضباب حتى أبعده عن مركز الصدارة والتوجيه ..؟

لقد كتب معتمد القيصر « بطرس الأكبر » لدى الباب العالى : أن السلطان العثمانى يعتبر البحر الأسود كداره الخاصة فلا يباح دخوله لأجنبى .

وعندما فتحت القوة الضاربة للمسلمين القسطنطينية قال « البارون كارادفو» فى كتابه (مفكرو الإسلام) :

إن هذا الفتح لم يقيض لمحمد الفاتح اتفاقاً ، ولا تيسر لمجرد ضعف دولة بيزنطة ، بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل ، ويستخدم كل ما كان فى عصره من قوة العلم ، فقد كانت المدافع حينئذ حديثة العهد بالإيجاد، فأعمل فى تركيب أضخم المدافع التى يمكن تركيبها يومئذ وانتدب مهندساً مجرباً ركّب مدفعاً كان وزن الكرة التى يرمى بها ٣٠٠ كيلوجرام ، وكان مدى مرماه أكثر من ميل .

وإذا كان المسلمون فى صدر الإسلام قد استعملوا السيف ضد المعوقين والواقفين فى وجه دين الله ، وطوروا أسلحتهم فى فتوحات فارس، فاستعملوا السفينة والبحر .

واستعانوا فى القضاء على الروم بسلاح الطبيعة، فحصروا أعداءهم بينهم وبين البحر ، وكان هذا من أكبر العوامل لتعجيل النصر .

فإن محمد الفاتح القائد المسلم فى هذه المرحلة المتأخرة قد عمل على تطوير أسلحته أيضاً .

فلم تعد أسلحة تقليدية .

لم يعد السيف والرمح .

لم يعد الترس والنبل .

ولكن كان المدفع والدبابة .. ووسائل العبور ، وقيام الكبارى وتطويق الأعداء والخبرة الأجنبية . نعم الخبرة الأجنبية ، ولا مانع من ذلك لأن الرسول ـ ﷺ ـ يقول :

« الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها » .

وتم فتح القسطنطينية التى قال عنها نابليون القائد الفرنسى المعروف :

« لو كانت الدنيا دولة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها » .

فكيف نعيد هذا المجد .. ؟ وكيف يتحقق ذلك ..؟

هل يقتضينا الوضع الراهن أن تكون لدينا قادة أمثال : سيف الدين قطز هازم التتار .

وقائد عملاق مثل صلاح الدين محطم جيوش الغرب ..

وبطل محنك مثل محمد الفاتح فاتح القسطنطينية ..

أم يجب على الأمة لكى تعيد مجدها أن يكون لها ابن خطاب جديد يعزل القائد فى أوج انتصاره ، ويقاسمه أمواله ما دامت خمرة النصر قد قلبت موازينه ، فأسرف فيما أعطاه .

وإلى عثمان آخر لم تمنعه صلة الرحم أن يعزل أخاه عن ولاية الكوفة ويقيم عليه حد الشرب فى الميدان العام .

وإلى حاكم من نوع فريد كعمر بن عبد العزيز يحبس الولاة المعزولين حتى يدفعوا لخزينة الدولة آخر درهم أخذوه بغير حقه واستولوا عليه بطريقة غير مشروعة .

فهل عقمت الأمة الإسلامية أن تقدم لنا أمثال هؤلاء ..؟

محال أن يكون ذلك .

لأن الرسول - ﷺ - يقول :

« الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة » .

أم يجب لكى تعيد الأمة مجدها وتصل إلى أوج عزها ويكون لها دور السيادة والقيادة أن تخرج لنا علماء أجلاء .

أمثال الفضيل بن عياض الذى تقع يده فى يد هارون الرشيد حاكم الدولة الإسلامية العريضة فيقول له :

« يا لها من كف .. ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله » .

يد الحاكم هى التى توقّع وتصدر الأحكام وتعفو عن الناس وتقسّم بينهم أرزاقهم .

يد الحاكم تشارك مشاركة فعالة فى كل شئون الرعية .

أيمكن أن تنجو غداً من عذاب النار ..؟

نعم . إن كانت على الجادة ، إن أقامت العدل بين الرعية .

أم علماء أمثال : سالم بن عبد الله ، ومحمد بن كعب ، ورجاء بن حيوة الذين ذهبوا لنصح الحاكم عمر بن عبد العزيز فى ذلك الوقت .

فقال له سـالم بن عبد الله : إن أردت النجاة من عـذاب الله ، فصم عن الدنيا وليكن إفطارك منها الموت .

وقال له محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله ، فليكن كبير المؤمنين عندك أباً ، وأوسطهم عنـدك أخاً ، وأصـغـرهم عندك ولداً ، فـوقر أباك وأكـرم أخاك ، وتحنن على ولدك .

وقال له رجـاء بن حيوة : إن أردت النجـاة من عذاب الله ، فأحب للمـسلمين ما تحب لنفسك ، وأكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت إذا شئت .

الحاكم فى منطق الإسلام رجل من عامة المسلمين ، يرى أن كبير المؤمنين له أب فينزل على رأيـه ، ويستمع إلى نصـحه ، وله عليه حق الـتعظيم والتوقـير وأوسطهم له أخ ، لأن الله تعالى يقول :

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .. ⑩﴾ [الحجرات]

وأصغرهم ابن ، فله عليه حق الرعاية حتى يكبر ، وله عليه حق التعليم حتى يتعلم .

ولقد قالها عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قالها لإخوة مدججين بالسلاح يريدون نشر دين الله خلف السهوب والبحار .

قالها حتى لا يترك فى قلوبهم شغلاً بهؤلاء الصغار :

« سيروا على بركة الله وأنا أبو العيال حتى تعودوا» .

أم إننا فى حاجة إلى شيخ من معـدن جديد يذهب إليه أحد الولاة ويقول له: لماذا لا تزورنا لكى نقضى لك ما تحتاج ..؟

فيرد عليه الشيخ : لسنا فى حاجة إلا إلى الله سبحانه وتعالى .

ولكن الوالى لم ييأس . ويقول له : إننا مقربون إلى السلطان، فهل لك حاجة نقضيها لك منه .

فيرد الشيخ للوالى قائلاً : إننا مقربون إلى الله أكثر .. ألك أنت حاجة ..؟

أم إننا فى حـاجة إلى عالم مـثل : سعـيد بن المسـيب يسمع بالنفـير يدوى

فينخرط مع الجيش الذاهب للقتال . وكان هذا العالم الجليل قد فقد بصره ، فرأى القائد أن يمنعه من الذهاب لأنه لا يستطيع الاشتراك في المعركة . ولكن الشيخ الجليل أصرَّ على الخروج قائلاً :

« إن لم أقاتل الأعداء كثَّرت السواد وحفظت لكم المتاع » .

وما فعله سعيد بن المسيب فعله شيخ الإسلام ابن تيمية في معارك المسلمين مع التتار .

أم إننا في حاجة إلى ابن حنبل جديد محطم الكفر والزندقة .

وأبي حنيفة آخر صاحب مدرسة الرأى والتجديد في الإسلام .

والشافعي عملاق العلماء وموجه ومرشد الملوك .

ونتساءل : هل إذا وجد القادة خبراء المعارك ، حماة الحدود والثغور بأسلحتهم الرادعة وخططهم الباهرة التي تشل حركة الأعداء وتقضي على غرورهم وكفرهم .

وإذا وجد الحكام الذين هم متحدون لا متفرقون ، متعاونون غير متباعدين يحكمون بكتاب ربهم ويلتزمون بهدى نبيهم .

وإذا وجد العلماء الأجلاء الذين يأمرون فيطاعون ، فرغوا من دنياهم وفروا إلى خالقهم .

فهل يمكن أن يعود للإسلام مجده وللأمة قوتها وصلابتها ؟!

أم أن الأمر يحتاج إلى وقفات كثيرة ، والطريق يحتاج إلى هداة ودعاة ، والبحر أمواجه عالية متلاطمة ، والأعداء يتربصون بنا الدوائر ، ويفرقون جمعنا ويشتتون وحدتنا ، وحصوننا عارية وسلاحنا مفقود .

فهل يمكن أن نعود إلى الله ونفر إليه ونسأله الهداية والرشاد ونطلب منه النصر والتأييد ؟!

إذا كان ذلك كذلك ، فعلينا أن نقطع شوطاً آخر في المبحث ، وعلى الله قصد السبيل .

العلاء بن الحضرمى

رضى الله عنه

قال تعالى: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) ﴾ [يونس]

عن أبى هريرة قال:

« لما بعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمى إلى البحرين: رأيت منه ثلاث خصال:

١ - لما انتهينا إلى ساحل البحر فقال: سموا الله وتقحموا.
فسمينا وتقحمنا فعبرنا، فما بلَّ الماء إلا أسفل خفاف إبلنا..

٢ - ثم صرنا معه بفلاة من الأرض وليس معنا ماء فشكونا إليه. فقال صلوا ركعتين ثم دعا. فإذا سحابة مثل الترس ثم أرخت ماءها سقينا واسقينا.

٣ - ولما مات دفناه فى الرمال ولم نلحد له، فقلنا نعود فنلحد له، فلم نعثر له على قبر. رضى الله عنه..
رواه الطبرانى فى الثلاثة

■ فارس من فرسان مدرسة النبوة التى دوت أعمالها فى أركان الأرض الأربعة . وعالم علمه ربه ، فصدق عليه قول الله تعالى :

﴿ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]

رزقه الله الفراسة والفهم ، والحجى والعقل ، فكان من الذين عناهم الرسول - ﷺ - بقوله :

« اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله »(1) .

وما كاد يسمع بدعوة الرسول - ﷺ - حتى أقدم على الإسلام بقلبه وكيانه كله .

فحاز ثقة الرسول - ﷺ - فكان عليه السلام يدخره لعظائم الأمور .

وكان ولياً خالصاً لربه ، فلم يجبن ولم يحزن ، لم يعرف الخوف طريقه إلى قلبه ، فكان من هؤلاء الذين نزل فيهم القرآن يبشرهم ويمنيهم . قال تعالى :

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس]

وفرَّ إلى ربه استجابة لقوله تعالى :

﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الذاريات]

(1) قال النجم : رواه البخارى والترمذى والعسكرى والخطيب ، وابن جرير وابن أبى حاتم ثم قرأ : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحجر] .

نشأته وأسرته

كان له عشرة من الإخوة الذكور تجاهلتهم ذاكرة التاريخ فلا تذكر إلا نتفاً من هنا ونتفاً من هناك .

وأخته الصعبة ابنة الحضرمي ، والدة عبيد الله بن طلحة .

الذى قال عنه الرسول ـ ﷺ ـ :

« مَنْ أحب أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة » وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة .

وأحد الستة الذين جعل عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فيهم مجلس الشورى . نشأ على الأرض التى قال الله تعالى عنها :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) ﴾ [سبأ]

لقد نشأ العلاء فى أرض مخصبة ، لا تزال منها بقية إلى اليوم ، وقد ارتقى أهلها فى سلم الحضارة حتى تحكموا فى مياه الأمطار الغزيرة التى تأتيهم من البحر فى الجنوب والشرق ، فأقاموا خزاناً طبيعياً يتألف جنباه من جبلين ، وجعلوا على فم الوادى بينهما سداً به عيون تفتح وتغلق ، وخزنوا الماء بكميات كبيرة وراء السد وتحكموا فيها وفق حاجتهم ، فكان لهم من هذا مورداً مائياً عظيماً . وقد عرف باسم « سد مأرب » .

وهذه الجنان التى كانت عن اليمين والشمال ، رمز لذلك الخصب والوفرة والرخاء ، والمتاع الجميل ، ومن ثم كانت آية تذكّر بالمنعم الوهاب وقد أُمروا بأن يستمتعوا برزق الله شاكرين . قال تعالى : ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) ﴾ [سبأ]

فى هذه البلدة الطيبة كانت طفولة العلاء الحضرمى .

وعلى ثراها الذى تغطيه الخضرة والنماء كانت أولى خطواته . وفتح عينيه على الجنان المليئة بالثمار ، الفواحة بالأريج ، التى تسر الناظر وتملأ قلبه بالشكر لله خالق الأرض والسماء .

وكان كثيراً ما يداعب أقدامه سيلان الماء إلى المكان المنحدر ، ويتطاير رزازها إلى وجهه ، فيعيد له البهجة والسرور .

وعندما شب عن الطوق ، اشتغل بالزراعة ، وزاول بعض الصناعات الصغيرة التى كانت منتشرة فى ذلك العصر ، مثل : دبغ الجلود ، وغزل الصوف ، وصناعة الملابس ، والأسلحة الصغيرة ، وغير ذلك .

سماع العلاء بدعوة الإسلام ودخوله فيه

واستمر الوضع على ذلك بالنسبة للعلاء ، حتى كان يوم ليس كمثله يوم ، عندما سمعت الجزيرة العربية بأسرها : أن يتيم بنى طالب وقف على الصفا وأعلن أنه رسول من رب العالمين يدعو لعبادة الواحد الأحد، الفرد الصمد ، وإلى ترك عبادة الأصنام والأوثان ، إلى عبادة خالق الأرض والسماء وموجد الحياة والموت ، ومقدر الآجال والأرزاق !!

وعندها نفر الكثير من أبناء تلك البلدة إلى مكة للاستماع إلى النبى الجديد ، وكان العلاء أحد هؤلاء الأفراد الذين رحلوا إلى الرسول الكريم وجلسوا بين يديه ثم استمعوا لحديثه ، وأعلنوا إسلامهم .

وبعث العلاء الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العبدى . فماذا كان من بعث العلاء إلى أرض البحرين وما جاورها .. ؟

العلاء مبعوث الرسول - عليه السلام - إلى البحرين

وجه رسول الله - ﷺ - سنة ثمان من الهجرة العلاء الحضرمى إلى البحرين لدعوة ملكها فى ذلك الوقت - المنذر بن ساوى العبدى - وشعبه إلى الإسلام .

ولقد استجاب المنذر وشعبه لدعوة الرسول - ﷺ - فأسلموا وأسلم معهم جميع العرب هناك على أرض البحرين ، ومعهم بعض العجم .

أما أهل الأرض من المجوس واليهود والنصارى ، فإنهم صالحوا العلاء على الجزية وكتب بينهم كتاباً هذا نصه .

« بسم الله الرحمن الرحيم - هذا ما صالح عليه العلاء الحضرمى أهل البحرين ، صالحهم على أن يكفونا العمل ، ويقاسمونا الثمر ، فمن لا يفى بهذا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » ..

ويقول العلاء : كنت آتى الحائط بين الإخوة قد أسلم بعضهم ، فآخذ من المسلم العشر ، ومن المشرك الخراج .

وقال قتادة : لم يكن بين البحرين قتال ، ولكن بعضهم أسلم ، وبعضهم صالح العلاء على أنصاف الحب والتمر .

ثم بعث العلاء إلى الرسول - ﷺ - مالاً من البحرين فى حدود الثمانين ألفاً .

ويقول راوى الخبر : ما أتاه لم يأته أكثر منه لا قبله ولا بعده .

فلما توفى رسول الله - ﷺ - توفى المنذر بعده بقليل وكان قد حضر عنده قبل موته عمرو بن العاص - رضى الله عنه - .

فقال له : يا عمرو ، هل كان رسول الله - ﷺ - يجعل للمريض شيئاً من ماله قبل أن يحين أجله .. ؟

قال : نعم الثلث .

قال : ماذا أصنع به .. ؟

قال : إن شئت تصدقت به على أقربائك وإن شئت على المحاويج ، وإن شئت جعلته صدقة من بعدك حبساً محرماً .

فقال : أكره أن أجعله كالبحيرة والسائمة ، والوصيلة والحام ، ولكنى أتصدق به ، ففعل ثم مات . فلما مات المنذر ارتد أهل البحرين ، وملّكوا عليهم المغرور : المنذر بن النعمان بن المنذر(١) .

وقال قائلهم : « لو كان محمداً نبياً ما مات ؟ » .

ولم يبق بالبحرين بلد على الإسلام سوى بلدة تسمى « جواثا » كانت أول قرية أقامت الجمعة من أهل الردة . ولقد حاصر المرتدون أهل هذه القرية ، وضيقوا عليهم الخناق ، ومنعوا عنهم الأقوات ، فجاعوا جوعاً حتى فرج الله عنهم .

(١) هو المنذر النعمان الثالث ابن المنذر الرابع بن امرىء القيس اللنجى آخر ملوك المناذرة أصحاب الحيرة فى الجاهلية يلقب بالمغرور . لم تطل مدة ولايته وقبل أيام فتح البحرين عام ١٢ هـ حتى أفتتحها العلاء الحضرمى .

ويقول عبد الله بن حذف أحد المسلمين المحاصرين مخاطباً أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ :

ألا أبلـغ أبـا بـكر رسـولاً   وفـتـيـان المدينة أجـمـعـينا
فهل لكم إلى قـوم كـرام   قعود فى « جواثا » محاصرينا
كأن دماءهم فى كـل فـج   شـعاع الشمس تعش الناظرينا
توكلنـا عـلى الـرحمن إنـا   قـد وجدنا الصـبـر للمتـوكلينا

وقد قـام فيـهم رجل من أشرافهم ـ هو الجـارود بن المعلى[1] ـ وكان ممن هاجر إلى رسول الله ـ ﷺ ـ خطيباً وقد جمعهم فقال :

يا مـعـشر عـبـد القـيس ، إنى سائلـكم عن أمر فـخـبـرونى إن علمـتمـوه ولا تجيبونى إن لم تعلموه ..

فقالوا : سل .

قال : أتعلمون أنه كان لله أنبياء قبل محمد .. ؟

قالوا : نعم .

قال : تعلمونه أم ترونه ..؟

قالوا : نعلمه .

قال : فما فعلوا ؟

قالوا : ماتوا.

قال : فإن محمداً ـ ﷺ ـ مات كما ماتوا وقد قال الله تعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [آل عمران]

وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

فقـالوا : ونحن أيضاً نشـهد أن لا إله إلا الله وأن مـحمـداً رسول الله ، وأنت أفضلنا وسيدنا ، فثبتوا على إسلامهم ، وتركوا بقية الناس فيما هم فيه ..

---

(١) الجارود بن المعلى ، كان سيداً فى عبد القيس ، وقدم على رسول الله ـ ﷺ ـ عام عشرة من الهجـرة ، وكان نصـرانياً فأسلم ، وكـان قدومه على المنـذر ساوى فى جمـاعة من عبد القيس ، ساكن أرض البصرة وقاتل مع النعمان فى معركة (نهاوند) .

العلاء قائد الجيش فى حرب المرتدين على أرض البحرين

سار العلاء بجيشه حتى وطىء أرض البحرين ، فجاء إليه ثمامة بن آثال[1] فى محفل كبير من قبيلته ، وجاء كل أمراء تلك النواحى فانضموا إلى جيش العلاء ، فأكرمهم ورحب بهم وأحسن إليهم . وكان العلاء من سادات الصحابة العلماء العباد مجابى الدعوة ، وقد أظهر الله على يديه العديد من الكرامات . من ذلك :

إنه فى هذه الغزوة نزل منزلاً فلم يستقر الناس على الأرض حتى نفرت الإبل بما عليها من زاد الجيش وخيامهم وشرابهم ، وبقوا على الأرض ليس معهم شىء سوى ثيابهم ، وحدث ذلك ليلاً ولم يقدروا منها على بعير واحد .

فركب الناس من الهم والغم ما لا يحد ولا يوصف وجعل بعضهم يوصى إلى البعض . فنادى منادى العلاء ، فاجتمع الناس إليه . فقال : أيها الناس ألستم المسلمين .. ؟ ألستم فى سبيل الله ؟ ألستم أنصار الله ؟ قالوا : بلى .

قال : فابشروا : فوالله لا يخذل الله من كان فى مثل حالكم .

ونادى للصلاة فى الصبح حين طلع الفجر فصلى بالناس ، فلما قضى الصلاة ، جثا على ركبتيه ، وجثا الناس ، ونصب فى الدعاء ورفع يديه ، وفعل الناس مثله حتى طلعت الشمس ، وجعل الناس ينظرون إلى سراب الشمس يلمع مرة بعد أخرى وهو يجتهد فى الدعاء ، فلما بلغ الثالثة إذ قد خلق الله إلى جانبهم غديراً عظيماً من الماء القراح .

فمشى ومشى الناس إليه فشربوا واغتسلوا ، فلما علا النهار أقبلت الإبل من كل فج بما عليها . لم يفقد الناس من أمتعتهم شيئاً ، فسقوا الإبل عللاً بعد نهل، فكان هذا مما عاين الناس من آيات الله بهذه السرية ..

ثم إن المرتدين جمعوا جموعهم ، وصفوا كتائبهم ، وشحذوا أسلحتهم وكانوا عدداً كبيراً لا يحصى ولا يعد، ثم نزلوا منزلاً قريباً من منزل المسلمين .

---

(١) هو ثمامة بن آثال الحنفى سيد أهل اليمامة أسلم قديما ومنع الميرة عن قريش حتى يسلموا ، وأمره الرسول ـ ﷺ ـ بردها عليهم وحارب مع علاء الحضرمى المرتدين ، وقتل مع المسلمين قومه الذين قادوا مسيلمة الكذاب .

وجاء الليل وأرخى سدوله ، ولم يكن بين القوم قتال . وانتظر الفريقان حتى يأتى الصباح .

ولكن لم يمض إلا هزيع من الليل حتى سمع العلاء أصواتاً عالية ، تنبعث من معسكرات الأعداء ، وهرج ومرج .

فقال العلاء : مَنْ منْ رجل يكشف لنا خبر هؤلاء .. ؟

فقام عبد الله بنَ حذف ، ودخل فيهم فوجدهم سكارى لا يعقلون من الشراب، فرجع إلى العلاء ، فأخبره بما عليه القوم .. !!

المرتدون تحت سيوف جيش العلاء

عندها ركب العلاء من فوره ، يقود الجيش إلى معسكرهم وأطبقوا عليهم من كل جانب ، وأعملوا فيهم القتل ، فقتل منهم مقتلة عظيمة .

وقلَّ من هرب منهم من هذا الهول الكبير الذى أنزله بهم العلاء وجيشه .

ونصر الله المؤمنين نصراً مؤزراً .

واستولى العلاء على جميع أموالهم ، وأسلحتهم وغنائمهم ، وكانت شيئاً لا يمكن حصره أو عده ..

وكان الحطم بن ضبيعة أخو بنى قسى بن ثعلبة من سادات القوم نائماً ، فقام دهشاً حين اقتحم المسلمون عليهم معسكرهم . فركب جواده ، فانقطع ركابه .

فجعل يصيح ويقول : مَنْ يصلح لى ركابى .. ؟

فجاء رجل من المسلمين فى الليل فقال : أنا أصلحها لك . ارفع رجلك، فلما رفعها ضربه ضربة بالسيف فقطعها مع قدمه .

عندها قال له الحطم : أجهز علىَّ .

فقال الرجل : لا أفعل .!

فوقع صريعاً كلما مر به أحد يسأله أن يقتله فيأبى ، حتى مر به القيس بن عاصم[1] .

فقال له: أنا الحطم، فاقتلنى. فقتله. فلما وجد رجله مقطوعة ندم على قتله .

ثم ركب المسلمون فى آثار المنهزمين ، يقتلونهم بكل مرصد وطريق ، وذهب جزء كبير من الفارين إلى « دارين » وركبوا السفن إليها .

(١) هو قيس بن عاصم بن سنان قال الرسول ـ عليه السلام ـ عندما رآه فى وفد قومه : هذا سيد أهل الوبر . وكان ـ رضى الله عنه ـ عاقلاً حكيماً .

العلاء يتابع الفارين

وما كاد العـلاء يقسم الغنائم التى غنموها بين جنده ، حتى أمـرهم بمتابعة الفارين إلى « دارين » للقضاء على البقية الباقية من المرتدين .!؟

فأجابوه إلى طلبـه فسار بهم حتى أتوا إلى سـاحل البحر ، ليركـبوا السفن وما كـاد العلاء يصل إلى السفن ، حـتى عدل عن ركوبهـا ، وقال لجيـشه : إن السفن بطيئة ، ولا نستطيع عن طريقها أن نلحق بالأعداء .

إذا .. ماذا يفعل العلاء .. ؟

ولا توجد وسيلة غير ذلك ..

أيترك أعـداء الله فى مأمن .. وخـصوصـاً أنهم بعدوا عن أرضـه وفروا إلى أماكن بعيدة ؟

ولكن العلاء رأى أن الأرض جميعاً هى لله تعالى ، فكيف يبقى عليهم مشرك بالله وهو قادر أن يزيله من على هذه الأرض ..

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

فكيف يشرك مع الله غيره ؟

والظلم أفحش الذنوب ، وأكبر الكبائر التى لا يغفرها الله تعالى ، ولهذا يقول الله فى محكم كتابه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (١١٦) ﴾ [النساء]

وعندها صمم العلاء على اللحاق بهم .

وعندها كبر الـعلاء ، واقتحم البحـر بفرسه ، وقال للجيـش اتبعونى ، وهو يقول :

« يا أرحم الراحـمين ، يا حكيم يا كـريم يا أحد يا صـمد ، يا حى يا مـحيى يا قيوم ، يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا أنت يا ربنا » .

وأمر الجيش أن يقولوا ذلك ، ففعلوا ذلك ، فجاز بهم الخليج بإذن الله يمشون على مثل رملـة فوقهـا ماء ، لا يغمـر أخفاف الإبل ، ولا يصـل إلى ركب الخيل ومسيرته للسفن يوم وليلة ، فقطعهـا إلى الساحل الآخر . والتقى بعدوه فقتلهم وقهرهم وحاز غنائمهم ، ثم رجع فقطعها إلى الجانب الآخر ، وعاد إلى موضعه الأول ، وذلك كله فى يوم .

واستـاق الذرارى والأنعام والأموال ، ولم يفـقد المسلمون فى البـحر شيـئاً

سوى عليقة فرس لرجل من المسلمين ، ومع هذا رجع العلاء فجاءه بها ، ثم أخذ العلاء فى توزيع الغنائم على الجيش ، فكان نصيب الفارس ألفين ، والراجل ألفاً مع كثرة أعداد الجيش .

وكتب العلاء إلى الخليفة أبى بكر الصديق ـ فأعلمه بذلك .

وقد قال رجل من المسلمين يصف ما كان منهم فى اجتياز البحر :

ألم ترى أن الله ذلل بحره   وأنزل بالكفار إحدى الجلائل
دعونا إلى شق البحر فجاءنا   بأعجب من فلق البحر الأوائل

كيف تم هذا؟! وكيف استطاع هؤلاء الرجال أن يخترقوا الماء ويجتازوا البحر ..؟!

وهل ذلك فى الإمكان ..؟

وإن كان قد حدث ذلك فكيف حدث ..؟! وهل يمكن تكراره .. ؟

إن الله سبحانه وتعالى يقول : « ما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ولأن سألنى لأعطينه ، ولأن استعاذنى لأعيذنه »[1] .

ولقد طلب العلاء من ربه فاستجاب له ، وتحول البحر إلى طريق معبّد سار به الجيش حتى وصل إلى مطلبه . وليس فى ذلك عجب أو مستحيل لقوله تعالى : « عبدى أحببنى تكن ربانياً تقول للشىء كن فيكون » .

ولقد طلب العلاء من ربه ، وتضرع إلى مولاه ، عندها أزيلت الحجب ، وتلاشت المساتير وعندها قال الرب للعبد . « عبدى قل للشىء كن فيكون » .

ولقد قال تعالى وقوله الحق : ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ .. (٦٠)﴾ [غافر]

وقد ذكر سيف بن عمر التميمى أنه كان مع المسلمين فى هذا الموقف راهب، فأسلم حينئذ . فقيل له : ما دعاك إلى الإسلام ..؟

فقال : خشيت إن لم أفعل أن يحولنى الله قرداً أو خنزيراً لما شاهدته من الآيات التى أجراها الله على عباده .

قال : وقد سمعت فى الهواء وقت السحر دعاءً .

(١) سبق تخريج هذا الحديث قريباً من هذا .

قالوا : وما هو ؟

قال : سمعت صوتاً ملائكياً يناجي ربه بقوله : « اللهم أنت الرحمن الرحيم ، لا إله غيرك ، البديع ليس قبلك شيء ، والدائم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم، الحى الذى لا يموت ، الخالق لكل ما يرى وما لا يرى ، وكل يوم هو فى شأن وعلّمت ما خلقت كل شيء علماً » .

قال : فعلمت أن القوم لم يعانوا بالملائكة إلا وهم على أمر الله تعالى .

واستقر المقام بالعلاء الحضرمى بعد هذه الرحلة المباركة التى أعادت الاطمئنان والراحة إلى قلوب المسلمين . وعاد أولئك المرتدون عن دينهم إلى رحاب الإسلام وأصبحوا من جنود الله المخلصين فى تلك البلاد الطيبة المباركة.

العلاء والياً على البصرة

فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كتب إليه كتاباً قال فيه :

« بعد الحمد والثناء على الله سر إلى عتبة بن غزوان فقد وليتك عمله ، وأعلم أنك تقوم على رجل من المهاجرين الأولين الذين سبقت لهم من الله الحسنى لم أعزله إلا يكون عفيفاً صليباً شديد البأس ، ولكنى ظننت أنك أغنى عن المسلمين فى تلك الناحية منه فاعرف له حقه ، وقد وليت قبلك رجلاً فمات قبل أن يصل .

فإن يرد الله أن تلى وليت ، وأن يرد الله أن يلى عتبة، فالخلق والأمر لله رب العالمين .

وأعلم أن أمر الله محفوظ يحفظه الذى أنزله ، فانظر الذى خلقت له، فاكدح له ودع ما سواه ، فإن الدنيا أمل ، والآخرة أبد ، فلا يشغلنك شيء مدبر أمره عن شيء باق شره . واهرب إلى الله من سخطه ، فإن الله يجمع لمن شاء الفضيلة فى حكمه وعلمه .

نسأل الله لنا ولك العون على طاعته ، والنجاة من عذابه » .

قال : فخرج العلاء الحضرمى من البحرين فى رهط فيهم أبو هريرة وأبو بكرة - رضى الله عنهما - وكان يقول لأبى بكرة حين قدم البصرة البحرانى .

قال : فلما كان بمكان يسمى « بلياس » قريباً من أرض بنى تميم مات العلاء الحضرمى - رضى الله عنه .

فرجع أبو هريرة إلى البحرين ، وقدم أبو بكرة إلى البصرة . فكان أبو هريرة يقول : رأيت من العلاء الحضرمى ثلاثة أشياء لا أزال أحبه أبداً من أجلها :

أولاً : رأيته قطع البحر على فرسه يوم « دارين » وقدم من المدينة يريد البحرين ، فلما كان بالدهناء نفد ماؤهم ، فدعا الله فنبع لهم من تحت رمله ماء فارتوا وارتحلوا ..

ثانياً : ونسى رجل منهم بعض متاعه ، فرجع فأخذه ولم يجد الماء ..

ثالثاً : خرجت معه من البحرين إلى البصرة ، فلما كان بـ « بلياس » مات ونحن على غير ماء ، فأبدى الله لنا سحابة فمطرنا فغسلناه ، وحفرنا له بسيوفنا ، ولم نلحد له ، ودفناه ومضينا ..

فقال رجل من أصحاب رسول الله - ﷺ - : دفناه ولم نلحد له .

فرجعنا لنلحد له ، فلم نجد موضع قبره .

رحم الله العلاء وأسكنه فسيح جناته .

دروس وعــبـر..
رجال اللّه وإجابة الدعاء

■ يقول الله سبحانه وتعالى فى الحديث القدسى :

« ما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ولأن سألنى لأعطيته ، ولأن استعاذنى لأعيذنه »[1] .

ويقول أيضاً :

« عبدى أحببنى تكن ربانياً تقول للشىء كن فيكون » .

وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) ﴾ [آل عمران]

أى تخلقوا بالأخلاق التى يأمر بها الله تعالى ، وابتعدوا عن السفاسف التى ينهى الله تعالى عنها .

فإذا التزم العبد بأوامر الله ونواهيه ، والتزم بالتقوى فى كل شئون حياته كان ربانياً وكان مؤمناً وكان تقياً .

يقول الله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) ﴾ [يونس]

كيف يخافون وكيف يحزنون ، وهم على اتصال بالله لأنهم أولياؤه ..؟

(١) الحديث أخرجه الإمام البخارى فى كتاب الرقاق ٣٨ باب التواضع ٢ : ٦٥ بسنده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ قال الله تعالى : وذكره .

وعلام يحزنون وهم لا يخـافون والبشرى لهم فى الحيـاة الدنيا وفى الآخرة ، إنه الوعد الحق الذى لا يتبدل . لا تبديل لكلمات الله .

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) ﴾ [فصلت]

وهؤلاء الأولياء هم أقرب الناس إلى الله لأنهم دائماً كما وصفهم الله تعالى :

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) ﴾ [السجدة]

فهم دائماً فى ركـوع وسجود ، والسجود وسيلة القـرب إلى الله تعالى، فهم دائماً فى قرب من ربهم قال تعالى : ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩) ﴾ [العلق]

ويقـول الرسـول ـ ﷺ ـ : « أقـرب ما يكون الـعبـد من ربه وهو سـاجـد، فأكثروا من الدعاء » .

والله سبحانه وتعالى يستجيب لدعاء الأولياء . يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ .. (١٨٦) ﴾ [البقرة]

ويقول أيضاً : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ .. (٦٠) ﴾ [غافر]

ومن إجابة الدعـاء ما حدث من أحـد الرقيق مع الملك عندما أراد أن يشـتريه من سوق الرقيق .

فقال العبد للملك : إن اشتريتنى فلى شرط عليك .

قال الملك : وما هو الشرط .. ؟

قال العبد : لك نهارى وليلى لربى .

قال الملك : قبلت شرطك ما دمت تعرف ربك وتعـمل على مرضاته ، واستمر الحال بين الملك والعبد سنين طويلة لا يقصر العبد فى خدمة مليكه بالنهار فإذا جنَّ الليل كان عمله لربه .

وفى ليـلة من الليـــالى : طلب الملك شربة مـاء ولم يـكن فى قـصره خـدم ولا حشم إلا هذا العبد ، فأخذ ينادى عليه حتى يناوله جرعة ماء .

ولكن العبد كان فى شغل شاغل مع ملك الملوك .

فمـا كان من الملك إلا أن يتـجه إلى حجـرة العبـد ليوقظه من نومـه إذا كان نائماً، أو ينزل عليه العقاب إن كان مستيقظاً ، وما كاد الملك يفتح باب الحجرة ، حتى وجد العبد ساجداً تحوطه هالة من النور وتخترق سقف الحجرة إلى عنان

السماء . فخر الملك أمام عبده . وقال له : من الآن فأنت الملك وأنا عبدك ، وكان العبد قد انفلت فى سجوده ، وسمع ما قاله الملك ..

عندها رفع العبد أكف الضراعة إلى ربه قائلاً : يا إلهى كُشف سرك ، فاقبض روحى . يا إلهى أجب دعائى إنك مجيب الدعاء .

ونظر الملك ، فإذا العبد أمامه جثة هامدة لا حراك فيها بعد أن استجاب الله لدعائه ، وخرجت روحه إلى بارئها وصدق قوله تعالى :

« عبدى أحببنى تكن ربانياً تقول للشىء كن فيكون » .

ومن يكن ربانياً تُزال من أمامه الحجب وتُكشف له المساتير ، فينظر ببصيرته لا ببصره إلى هذا العالم الكبير كأنه حجرة أمامه فيرى كل ذرة ، ويسمع كل همسة وكل ما صغر وكبر يستوى ذلك عنده فى ضوء النهار أو فى ظلام الليل قربت المسافات أو ابتعدت .

وصدق ربى فى قوله : « ما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه...» ولقد كان العلاء الحضرمى من هؤلاء الرجال الذين التزموا بتعاليم ربهم وساحوا فى أنواره واستقبلوا تجلياته ، فغمرتهم أنواره ، فصاروا يسمعون بأمر الله ، ويبصرون بقدرة الله ، وينتصرون فى معاركهم الضارية بنصر الله .

سارية بن زنيم بن عمرو بن عدى

رضى الله عنه

قال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ :

« يا سارية بن زنيم الجبل ، يا سارية بن زنيم الجبل .

يا سارية بن زنيم الجبل .

ومَن استرعى الذئب ظلم .

يقول سارية : فسمعت صوت عمر، فعلوت بأصحابى الجبل ، ونحن قبل ذلك فى بطن واد ، ففتح الله علينا . وهزمنا العدو هزيمة منكرة .. »

البداية والنهاية ٧ : ١٣١

■ عملاق من عمالقة الحروب الضارية .

وفارس من فرسان مدرسة النبوة .

وصحابى استمع إلى آيات الوحى المتتابع فأضاء الإيمان قلبه ، وتشربت روحه تعاليم الإسلام . فاستمعت الدنيا لصليل سيفه وهو يحصد رؤوس الكفر ويجندل طواغيت الشرك ويعلن فوق أرض فارس كلمة الله أكبر .

نشأ على بطاح مكة ، فعرف مسالكها ودروبها وتوغل فى صحاريها واقتنص غزلانها ، وطارد ذئابها . واقتحم الجحور على ثعالبها .

عرف الرسول - ﷺ - عندما جاء من رحلته البعيدة إلى أرض الشام حيث كانت تجارة رائجة ، ومال كثير .

ودعا قومه إلى الإسلام ورغّبهم فيه ، فأبوا أن يستجيبوا له حتى يجلسوا مع صاحبه محمد ويستمعوا له . فإن راقهم حديثه ، واستقر كلامه فى قلوبهم أعلنوا إسلامهم وتركوا دين آبائهم من عبادة الأصنام والتقرب إلى اللات وعزة ومناه .

سارية فى مجلس الرسول مع وفد قومه

على أرض يثرب الخضراء . وفوق ثرى المدينة الجديدة التى حظيت بهجرة خاتم الأنبياء إليها . جاء وفد بنى عبد بن عدى وفيهم رؤساؤهم : الحارث بن وهبان وعويمر بن الأخرم ، وحبيب وربيعة ابنا ملة ، ومعهم رهط من قومهم .

فاستقبلهم الرسول - ﷺ - وصحابته بالترحيب والتكريم وحسن الضيافة .

ثم تكلم الرسول - ﷺ - فتلى القرآن ودعا إلى الإسلام ، وأمرهم بحسن

الخلق ، وأداء ما افترضه الله عليه تنفيذاً لأمره ، واستجابة لتعاليم دينه .

عندها قال الحارث بن وهبان : يا محمد ، نحن أهل الحرم وساكنوه ، وأعز من به ، ولا نريد قتالك أو البعد عن دين الله الذى أرسلك بالهدى والدين الحق ولو قاتلك غير قريش قاتلنا معك ، ولكنا لا نقاتل قريشاً ، وأنا لنحبك وقد أتيناك ، فإن أصبت منا أحداً خطأ فعليك ديته ، وإن أصبنا أحداً من أصحابك فعلينا ديته إلا رجلاً قد هرب ، فإن أصبته أو أصابه أحد من أصحابك ، فليس علينا ولا عليك .

ثم ماذا ..؟ ثم أسلموا وأعلنوا كلمة التوحيد ، وآمنوا بخالق السموات والأرض وموجد الحياة والموت .

ثم وقف عويمر بن الأخرم وقال لقومه : إننا نريد أن يكون بيننا وبينك عهد يا رسول الله لا نحيد عنه ولا يخرقه أحد من أصحابك .

فقالوا جميعاً : لا . إن محمداً لا يغدر ولا أحداً من صحابته ولا يريد أن يُغدر به . عندها قال صحابة الرسول عليه السلام : ونحن رضينا بذلك .

فقال حبيب بن ربيعة : يا رسول الله ، إن أسيد بن أبى أناس ، هو الذى هرب وتبرأنا منه إليك ، وقد نال منك .

عندها التفت الرسول ـ ﷺ ـ إلى سارية وقال : أحدث منه هذا يا سارية ..؟

قال : نعم . يا رسول الله .

عندها : أباح الرسول ـ ﷺ ـ دمه .

وعاد الوفد من حيث أتى ، ولمعة الإيمان تضىء ما بين جوانحهم وهدى الدين الجديد الذى جاء به محمد ـ ﷺ ـ يصنع منهم أمة جديدة كان لها أعمق الأثر فى نشر دين الله حتى دخل الناس فى دين الله أفواجاً .

سارية وأسيد بن أبى أناس

خرجت جحافل الإيمان فى جيش تعداده يربو على عشرة آلاف مقاتل ، إلى مكة إلى بيت الله الحرام لتطهيره من الأوثان والأصنام وإزالة هؤلاء المعوقين الواقفين فى طريق نشر الإسلام وكان سارية أحد أفراد كتيبة الفداء التى ترافق الرسول ـ ﷺ ـ فى نومه ويقظته ، فى حله وترحاله . وأراد الله سبحانه وتعالى أن يتم نعمته ، ويكمل رسالته ، ويطهر بيته ودخلت جيوش الإسلام إلى بيت الله الحرام مكبرين مهللين ، ملبين داعين . وتهاوت الأصنام وأُزيلت

الأوثان ونزل الوحى المتتابع على الرسول - ﷺ .

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ② وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ③ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ④ ﴾ [الفتح]

وبعد فتح مكة توجه سارية إلى الطائف . تلك المدينة التى ذهب إليها الرسول - ﷺ - ليدعو أهلها إلى الإسلام ويرشدهم إلى الدين الحق . ولكنه لقى منهم أذى كثيراً حتى قال عليه السلام :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى مَنْ تكلنى .. ؟ إلى بعيد يتجهمنى ..؟ أم إلى عدو ملكته أمرى .. ؟ إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى .

ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل علىَّ سخطك .. لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »[1] .

نقول على أرض الطائف التقى سارية وأسيد بن أبى أناس . فقال أسيد : ما وراءك يا سارية .. ؟

قال : أظهر الله نبيه ونصره على عدوه ..

قال أسيد : إذن ما العمل .. ؟

قال سارية : اخرج إليه ، فإنه لا يقتل من أتاه .. فهو نبى الرحمة ..

فحمل أسيد امرأته وخرج وهى حامل - فأقبل بها ، فألقت غلاماً عند موضع يسمى « قرن الثعالب » .

وأتى أسيد أهله فلبس قميصاً وأعتم ، ثم أتى رسول الله - ﷺ - وسارية قائم بالسيف عند رأسه يحرسه .

فأقبل أسيد حتى جلس بين يدى الرسول - ﷺ - .

فقال : يا محمد ، أهدرت دم أسيد ..؟!

---

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٣٦ .

قال : نعم .

قال : أفتقبل منه إن جاءك مؤمناً ؟

قال : نعم .

فوضع يده فى يد الرسول ـ ﷺ ـ وقال : يا محمد هذه يدى فى يدك أشهد أنك رسول الله ، وأن لا إله إلا الله .

إنه الإسلام الذى يمحو ما قبله .

إنها كلمة التوحيد التى تجعل الإنسان خلقاً جديداً ، قريباً إلى ربه وخالقه ورازقه الصحة والعافية ومجيبه إذا دعاه .

ولهذا قال الله تعالى لرسوله ـ ﷺ ـ ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ .. (١٨٦) ﴾ [البقرة]

وقال لعباده مباشرة :

﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ .. (٦٠) ﴾ [غافر]

وأصبح أسيد بعد نطقه بالشهادة فى رحاب الإسلام ، وفرداً من أفراد المسلمين له ما لهم ، وعليه ما عليهم .

عندها أمر الرسول ـ ﷺ ـ رجلاً يصرخ وينادى : يا معشر المسلمين ، إن أسيد بن أبى أناس قد آمن . وقد أمنه رسول الله ـ ﷺ ـ ومسح رسول الله ـ ﷺ ـ بيده على وجهه وألقى بها على صدره .

فيقال : إن أسيداً كان يدخل البيت المظلم فيضىء ويقال : إنه قال :

أأنت الذى يهدى معداً لدينها ... بل الله يهديها وقال لك أشهد

فما حملت من ناقة فوق كورها ... أبرّ وأوفى ذمة من محمد

وأكسى لبرد الحال قبل ابتذاله ... وأعطى لرأس السابق المتجرد

فلما قال أسيد : أأنت الذى تهدى معداً لدينها ؟

قال رسول الله ـ ﷺ ـ : بل الله يهديها(١) .

فقال أسيد حينئذ : بل الله يهديها وقال لك أشهد . ويُروى أن هذا الشعر لسارية .

---

(١) راجع تهذيب ابن عساكر ٦ : ٤٦ .

المسلمون ومعركة (نهاوند)

كان ابتـداء ذلك عندما كـتب النعمان بـن مقرن إلى أمـير المؤمنين عـمر بن الخطاب يخبره بأن سعد بن أبى وقاص استعمله على جباية الخراج وقد أحببت الجهاد ورغبت فيه .

فكتب عمر إلى سعد : إن النعمان بن مقرن كتب إلىَّ يذكر أنك استعملته على جباية الخراج ، وأنه قد كره ذلك ورغب فى الجهاد ، فابعث به إلى أهم وجوهك إلى (نهاوند) .

ثم كتب عمر إلى النعمان بن مقرن :

(بسم الله الرحمن الرحيم ـ من عـبد الله عمر أميـر المؤمنين إلى النعمان بن مقـرن سلام عليك ، فـإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو أمـا بعد ، فـإنه قد بلغنى أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جُمعوا لكم بمدينة (نهاوند) .

فإذا أتاك كـتابى هذا فسـر بأمر الله ، وبعون الله ، وبنصـر الله بمن معك من المسلمـين ، ولا توطـئهـم وعـراً فتـؤذيهـم ، ولا تمنعـهم حـقـهم فـتكفـرهم ، ولا تدخلهم غـيضـة ، فإن رجـلاً من المسلمين أحب إلىَّ من مـائة ألف دينار . والسلام عليك).

فسار النعمـان ومعه وجوه أصحاب النبى ـ ﷺ ـ منهم : حـذيفة بن اليمان وعبد الله بن عمـر بن الخطاب ، والمغيرة بن شعبة وسـارية بن زنيم ، وطليحة ابن خويلد وغيرهم .

فلما انتـهى النعمـان بن مقـرن فى جنده إلى (نهاوند) . نشـر الأعداء فى طريق المسلمين حسك الحديد .

واستطاعت المخابرة المضرية أن تكتشف لؤم الأعداء .

عندها خطب النعمان : وقال أشيروا علينا أيها الناس ..؟

فـوقف سارية : وقـال أرى أن تنتـقل من منزلك هذا حـتى يروا أنك هارب منهم ، فيخرجون فى طلبك .

فانـتقل النعـمان بجنده من هذا المكان فـما كـان من الأعداء إلا أنهم كنـسوا حسك الحديد ، ثم خرجوا فى طلب النعمان وجنده .

فكرَّ عليهم النعـمان ـ وكانت مـفاجأة لهم ـ والحـرب خدعة وقال النعـمان لجنده : إنى مكبر ثلاثاً .

فإذا كبرت الأولى : فليشد كل جندى شسعه ويصلح شأنه ..

فإذا كبرت الثانية : فليشد كل جندى ازاره ويتهيأ لوجه حملته .

فإذا كبرت الثالثة : فاحملوا عليهم فإنى حامل . وخرجت الأعاجم وقد شدوا أنفسهم بالسلاسل لئلا يفروا ، وحمل عليهم المسلمون فقاتلوهم قتالاً شديداً ، ورُمى النعمان بنشابة فقُتل ـ رحمه الله .

فلفه أخوه مقرن فى ثوبه ، وكتم عن الجند قتله حتى فتح الله عليهم ، ونصروا نصراً مؤزراً ، وافتتحت (نهاوند) ، فلم يكن للأعاجم بعد ذلك جماعة .

قال سارية : فلما فتح الله على المسلمين (نهاوند) ، أصابوا غنائم عظاما ، فأرسل عمر السائب بن الأقرع ليقسم الغنائم بين الجند .

وما كادت الغنائم تقسم حتى جاء علج من أهلها : فقال : أتؤمننى على نفسى وأهلى وأهل بيتى على أن أدلك على كنوز آل كسرى .. ؟

قال سارية : ثم ماذا ..؟ قال : تكون هذه الكنوز لك ولصاحبك .

قال : قلت : نعم .

قال : فابعث معى من أدله عليها . فبعثت معه ، فأتى بسفطين عظيمين ليس فيهما إلا اللؤلؤ والزبرجد والياقوت .

فلما فرغ السائب من القسمة بين الجنود . يقول سارية : حمّلته السفطين وقدم بهما على أمير المؤمنين .

فقال له عمر : ما وراءك يا سائب ..؟

قلت : خيراً يا أمير المؤمنين . فتح الله عليك بأعظم الفتح ، واستشهد النعمان ابن مقرن ـ رحمه الله .

فقال عمر : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

قال : ثم بكى فنشج . فلما رأيت ما لقى . قلت :

والله يا أمير المؤمنين : ما أصيب بعده من رجل يعرف وجهه ..

فقال عمر : المستضعفون من المسلمين .

لكن الذين أكرمهم الله بالشهادة تُعرف وجوههم وأنسابهم ، وما يصنعون بمعرفة عمر بن أم عمر .. ؟

ثم قام ليدخل . فقلت : إن معى مالاً عظيماً قد جئت به ، ثم أخبرته بخبر السفطين .

قال : ادخلهما بيت المال حتى ننظر فى شأنهما ، وألحق بجندك . قال : فأدخلتهما بيت المال ، وخرجت سريعاً إلى الكوفة .

قال : وبات عمر تلك الليلة التى خرجت فيها . فلما أصبح بعث فى أثرى رسولاً . فو الله ما أدركنى حتى دخلت الكوفة ، فأنخت بعيرى ، وأناخ بعيره خلفى فقال :

ألحق بأمير المؤمنين فقد بعثنى فى طلبك ، فلم أقدر على اللحاق بك إلا الآن .

قال : قلت ويلك ؟؟ ماذا ولماذا .. ؟؟

قال : لا أدرى والله .

قال : فركبت معه حتى قدمت عليه ، فلما رآنى قال : مالى ولابن أم السائب..؟؟ بل مال بن أم السائب ومالى .

قال : قلت : وما ذاك يا أمير المؤمنين .. ؟؟

قال : ويحك والله ما هو إلا أن نمت فى الليلة التى خرجت فيها ، فباتت ملائكة ربى تسحبنى إلى ذينك السفطين يشتعلان ناراً ويقولون : لنكوينك بهما . فأقول: إنى سأقسمهما بين المسلمين. فخذهما عنى لا أبالك وألحق بهما ، فبعهما فى أعطية المسلمين وأرزاقهم .

قال : فخرجت بهما حتى وضعتهما فى مسجد الكوفة ، وغشيتنى التجار ، فابتاعهما منى عمر بن حريث المخزومى بألفى ألف .

ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم ، فباعهما بأربعة آلاف ألف ، فأصبح أكثر أهل الكوفة مالاً .

ثم كتب حذيفة بن اليمان لهم كتاب أمان :

(بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى حذيفة بن اليمان أهل هذه البلاد. أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأراضيهم لا يغيرن عن ملة ، ولا يحال بينهم وبين شرائعهم ، ولهم المتعة ما أدوا الجزية فى كل سنة إلى من وليهم من المسلمين ، على كل حالم فى ماله ونفسه على قدر طاقته ، وما أرشدوا ابن السبيل ، وأصلحوا الطرق وقروا « ضيفوا » جنود المسلمين من مر بهم ، فأوى إليهم يوماً وليلة ، ونصحوا فإن غشوا وبدلوا فذمتنا منهم بريئة) .

إن المسلمين كانوا يؤمِّنون أهل البلاد المفتوحة ، ممن يخالفهم فى العقيدة،

يؤمِّنونهم على أنفســهم وأموالهم وأراضيهم ، ولا يطالبونـهم بتغيير عـقيدتهم ما داموا لم يرغبوا فى ذلك . التزاماً بقول الله تعالى :

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ [الكافرون]

وقوله أيضاً :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. ۝٢٥٦ ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى للرسول الكريم :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. ۝١٢٥ ﴾ [النحل]

لهم ذلك مـا دامـوا يؤدون الجزية التـى تقرر عليـهم ، ومع أداة الجـزية أن يرشدوا ابن السبيل إلى الطريق التى يسلكها إلى غايته .

وأن يصلحـوا الطرق ، ويزيلوا مـا بها مـن حفـريات وأشـواك تعطل سيـر الدواب وتؤذى المارة .

وأن يقـوموا بإكـرام الضيف وتقـديم الغـذاء والماء إن كان فى حـاجة إليـه شريطة ألا يتعدى ذلك يوماً وليلة .

وأن يقدموا النصيـحة ، النصيحة الخالصة التى ليس فـيها غش أو خداع أو مراوغة .

فهل وفىَّ أهل فارس بتلك المعاهدات ؟؟

إن حقـائق التاريخ تقول غيـر ذلك ولهذا كان لعـمر بن الخطاب ـ رضـى الله عنه ـ منهم أمر أبطل كيدهم ورد مكرهم فى نحورهم من ذلك .

ســـاريـة بـن زنـيـم
قائد الجيش لتأديب الذين خرقوا المعاهدة

يقول الحافظ بسنده : قصد سارية بن زنيم إلى الجهات المتمردة على أرض فارس، فحاصـر العسكر هناك ، ثم أنهم تجمعوا وتجمـعت إليهم أكراد فارس ، فدهم المسلمين أمر عظيم وجمع كبير .

ورأى عمر فى تلـك الليلة فيما يرى النائم مـعركتهم وعددهـم فى ساعة من النهار، فنادى مـن الغد : الصلاة جـامعة ، حـتى إذا كان فى السـاعة التى رأى فيهـا ما رأى خرج إليهم ، وكـان قد رأى المسلمين فى صـحراء إن أقاموا فـيها أحيط بهم ، وإن استندوا إلى الجبل من خلفهم لم يؤتوا إلا من وجه واحد .

ثم قام فقـال : يا أيها الناس إنى رأيت هذين الجمعـين ، وأخبر مجـالهما ثم قال : « يا سارية الجبل الجبل ..
ومن استرعى الذئب ظلم » .
ثم أقبل عليهـم وقال : إن لله جنوداً ولعل بعضها أن يبلغـهم ، ولما كانت تلك الساعة من ذلك اليوم أجمع سـارية والمسلمون على الإسناد إلى الجبل ، ففعلوا وقاتلوا القوم من وجه واحد فهزمهم الله عز وجل .
وكتـبوا بذلك إلى عمر وبـاستيلائهم على البـلد . وأرسل بالكنوز والجواهر إلى عمر، فقدم الرجل المدينة على عمر ، فوجده يطعم الناس ، ومعه عصاه التى يزجر بها بعيره ، فنظر لعمر ، فأقبل عليه بها .
فقال عمـر للرجل : اجلس فجلس . حتى إذا أكل انصرف عمر وقـام فأتبعه فظن عمر أن الرجل لم يشبع .
فـقال عـمر حـين انتهى إلـى باب داره : ادخل وقد آمـر الخبـاز بأن يذهب بالخوان إلى مطبخ المسلمين .
فلما جلس الرجل فى بيت عمر أُتى بغدائه خبز وزيت وملح جريش فوضع .
وقال عمر : ألا تخرجين يا هذه فتأكلين ـ يقصد زوجته .. ؟
فقالت من خلف الخباء : إنى أسمع صوت رجل .
فقال عمر : أجل .
فقالت : لو أردت أن أبرز للرجال اشتريت لى غير هذه الكسوة .. !
فقال : أما ترضين أن يقـال : أم كلثوم بنت علىٍّ بن أبى طالب ـ وامرأة عمر ابن الخطاب .. ؟!
قالت : ما أقل غناء ذلك عنى .
ثم قال عمر للرجل : إذن فكلْ فلو كانت راضية لكانت أطيب مما ترى ..
فأكلا حتى اذا فرغ قال رسول سارية :
يا أمير المؤمنين ..
قال عـمر : مرحبـا وأهلاً ثم أدناه حتى مست ركبـته ركبتـه . ثم سأله عن المسلمين .
وسأله عن سـارية فأخبـره ، ثم أخبره الرجل بما غنمـه المسلمون من كنوز الذهب والفضة ، وقدمها إلى عمر .

فنظر عمر إليها ثم صاح به . ثم قال : لا ولا كرامة حتى تقدم به مرة أخرى على سارية فيقسم بين الجنود ، ثم همَّ بطرده .

فـقال : يا أمـير المؤمنين ، إنى أنصـبت بعـيرى واقـترضت على جـائزتى ، فاعطنى ما أتبلغ به .

عندها أمر عمر أن يسـتبدل بعيره من إبل الصدقـة . ورجع الرجل مغضوباً عليه محروماً حتى قدم البصرة .

إن أمير المؤمنين لا يأخذ من الغنائم شيئاً إلا ما يُفرض من هذه الغنائم لبيت المال . وليس من حكم الإسلام أن يأخـذ الخليفة أكثر ممـا افترض له وألا يكون قد أخذ أكثـر مما يستحق . وهذا يغضب الله سبحانه وتعـالى وعمر حريص كل الحرص على عدم إغضاب ربه . ومـقتنع تمام الاقتناع بما قاله الرسول - ﷺ - إن الدنيا لا تسـاوى جناح بعوضة . الدنيـا بما حوت ، بكل ما فـيها من حـقول وزروع ، وبكل مـا تحـوى من مـعـادن وجـواهر ، وكنوز فـوق ظهـرها ومـا يختبىء فى باطنها .. لا يساوى جناح بعوضــة ولهذا خرج عمر من الدنيا لا له ولا عليه .

وكان ســارية - رضى الله عنه - على شاكلة عمـر ، طاهراً ، عفيفـا ، قنوعاً، راضياً لا يريد من الدنيا إلا ما يسد الرمق .

ولهذا كافأهم الله سبحانه وتعـالى فجعلهم سادة وقادة مدّنوا الدنيا وهذّبوا العالم وقرروا الحق للإنسان .

ولهذا كـان وعد الله لهم حـقاً وصـدقاً وعـدهم بالجنة ، وبالنعيم المقـيم فى الآخـرة وبأن يرثوا الأرض فى الدنيـا ، ويقومـوا بعـمارتهـا ، ويحـققـوا دور الخلافة فى الأرض .

قال الله تعـالى :﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) ﴾ [الأنبياء]

ولقد تحقق وعد الله لهم فورثوا الأرض وما عليها وطبقوا فى أرجائها شرع الله وحظوا بوصف الله تعالى لهم بأنهم خير أمة أخرجت للناس .

قال الله تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران]

وفاة سارية بن زنيم ـ رضى الله عنه ـ

متى توفى سارية بن زنيم ؟

وهل مات على فراشه أم قتل فى إحدى المعارك ..؟

إن كتَّاب السير يتجاهلون موت سارية ، ولا يذكرونه من قريب ولا بعيد .. هل اعتزل الجندية وجلس فى بيته ؟

هل آلمته الأحداث التى حلت بالمسلمين فى خلافة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ فنزل فى كهف من الكهوف ، أو فى مغارة من المغارات حتى جاءه أجله .

إن نجاحه فى معركة (نهاوند) جعل الخليفة عمر ـ رضى الله عنه ـ يمده بالعدد والعدة حتى يتمكن من نشر دين الله فى البلاد التى لم تفتح وفى الأصقاع البعيدة التى لم تطأها أقدام الدعاة .

وعندما جاء عثمان ـ رضى الله عنه ـ ثبته فى موقعه وكان دائماً موضع التقدير لفروسيته وحسن سياسته فى إدارة المعارك .

رحم الله سارية وأسكنه فسيح جناته إنه نعم المجيب لدعوات عبيده وأرأف بهم من أنفسهم .. لقوله تعالى :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ..(٥٣) ﴾ [الزمر]

الشفافية والإشراق أو التخاطب عن بعد

يتساءل المرء كثيراً : كيف استطاع بصر عمر أن يخترق الحجب والمساتير التى تتراكم وتتكاثر بين المدينة ومنطقة (نهاوند) ويرى الجيش المحارب ويخاطبهم فيسمعون خطابه : يا سارية الزم الجبل ..؟

أتم ذلك عن طريق ما يسمى فى الغرب « التلباثى » أى التخاطب عن بعد .

وإذا كان هذا قد تم فى عصرنا الراهن . ولكن كيف تمت الرؤيا والمشاهدة؟

أتم ذلك عن طريق الفراسة التى يقول عنها رسول الله ـ ﷺ ـ اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ؟

وإذا كانت فراسة عمر أوحت له بأن جيش المسلمين يحاط به ، ويوشك أن يقع كله فى براثن الأعداء .

فكيف تم التخاطب ..؟

وكيف حمل الأثير صوت عمر إلى كل فرد من أفراد الجيش الذى يزيد تعداده على الثلاثين ألف مقاتل ..؟

أيكون قد تم ذلك عن طريق البصيرة التى زود بها الإنسان والتى يقول عنها الله تعالى :

﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [الحج]

البصيرة التى تجعل الإنسان يرى ما لم يكن يرى ، ويبصر ما لم يكن يبصر والتى أخبر عنها الحديث القدسى بقوله تعالى :

« ما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ولأن سألنى لأعطيته ، ولأن استعاذنى لأعيذنه » .

ويقول أيضاً : « عبدى أحببنى تكن ربانيا تقول للشىء كن فيكون » .

إن الخطابى يقول عن هذا الحديث : عبر بذلك عن سرعة إجابة الدعاء والنجح فى الطلب . وقال أبو عثمان الجيزى : معناه كنت أسرع إلى قضاء حوائجه من سمعه فى الأسماع وعينه فى النظر ويده فى اللمس ورجله فى المشى .

وقال الطوفى : هذا الحديث أصل فى السلوك إلى الله والوصول إلى معرفته ومحبته .

أم أن ما حدث لعمر نتيجة ما قاله الرسول ـ ﷺ ـ إن يكن فى أمتى محدثون فعمر منهم ..

أيكون التحديث هو الإلهام .. ؟

أيكون التحديث هو الشفافية والإشراق ..؟!

إن الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه :

﴿ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) ﴾ [آل عمران]

والربانى هو العالم الحكيم ، وقيل الربانى الذى يجمع إلى العلم البصر والبصيرة ، وقيل الربانى : العارف بالله ، الخبير بما كان وما يكون .

« كونوا ربانيين » منتسبين إلى الرب عُبّاداً له وعبيداً توجهوا إليه وحده بالعبادة وخذرا عنه وحده منهج حياتكم حتى تخلصوا له وحده فتكونوا « ربانيين » .

ويعجبنى ما قاله الشاعر فى ترك البصر والاعتماد على البصيرة التى يهيئها الله لبعض عباده قال :

إذا سماؤك يوما تلبدت بغيوم
اغمض جفونك تبصر فوق الغيوم نجوم
والأرض تحتك أما توشحت بثلوج
اغمض جفونك تبصر فوق الثلوج مروج
وإذا بليت بداء وقيل داء عياء
اغمض جفونك تبصر فى الداء كل الدواء
وإذا قضيت والقبر يفتح فاه
اغمض جفونك تبصر فى القبر كل الحياة

وكأن هذه الشطرة الأخيرة تفسير لحديث الرسول - ﷺ - :

« الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » .

محمد بن مسلمة الأنصارى

رضى الله عنه

قال الرسول - ﷺ - :

« يا محمد بن مسلمة جاهد بهذا السيف فى سبيل الله حتى إذا رأيت من المسلمين فئتين تقتتلان ، فاضرب به الحجر حتى تكسره ، ثم كف لسانك ويدك ، حتى تأتيك منية قاضية ، أو يد خاطئة » .

طبقات ابن سعد - ٣ : ٤٤٥

■ من قبيلة الأوس صاحبة العز والشرف فى الجاهلية .

ومن السابقين الأولين إلى الإسلام .

ومن فضلاء الصحابة الذين نأوا بأنفسهم عن الفتنة وويلاتها .

وفارس الفوارس الذى قتل كعب بن الأشرف اليهودى .

ومن الرجال العقلاء الذين استخلفهم الرسول - ﷺ - على المدينة فى غزوة تبوك .

والده : مسلمة الأنصارى صاحب الكلمة المسموعة فى قبيلة الأوس والرأى الحكيم فى الشدائد .

عمل جاهداً على تصفية الخلافات بين الأوس والخزرج وعمل على إتمام الصلح بينهما . وأراد أن يوثق هذا الصلح فتزوج منهم أم البنين والبنات خليدة بنت أبى عبيد الخزرجية . فكانت له نعم الزوجة المطيعة ، العاملة على إسعاد زوجها وتربية أولادها ، على الخلق الكريم والسجايا الحسنة .

إسلام محمد بن مسلمة

قلنا كان من السابقين إلى الإسلام على يد مصعب بن عمير مبعوث الرسول - ﷺ - إلى المدينة .

وما كادت مبادىء الإسلام تستقر فى قلبه حتى تحول إلى إنسان جديد، فوهب نفسه لفعل الخير ، ونصرة الحق ، ونصفة المظلوم .

وكان دائماً فى شوق غامر لرؤية الرسول - ﷺ - ولقد همّ بالذهاب إلى مكة - ولكن سعد بن حضير أخبره بأن الرسول - ﷺ - على أهبة الحضور إلى المدينة .

عندها كان يخرج كل يوم إلى أسوار المدينة ليكون فى استقبال خاتم النبيين محمد بن عبد الله .

وما كادت عيناه تقع على موكبه - ﷺ - حتى انخرط إلى خطام ناقته تبركاً بها - حتى أناخت أمام منزل الصحابى الجليل أبى أيوب الأنصارى ومن هذا التاريخ أخذ محمد بن مسلمة لا يغيب عن مجلس الرسول - ﷺ - وهو يفقه الصحابة ، ويرشدهم إلى تعاليم دينهم ، ويلقى على مسامعهم آخر ما نزل من الوحى عليه .

ولقد حضر مع الرسول - ﷺ - غزوة بدر ، وكان فارساً مغواراً فيها ، وقتل من قريش مقتلة عظيمة ، وعندما هزم الله جيش الكفر والنفاق ، كان مسئولاً مع مجموعة من المهاجرين والأنصار فى جمع الأسلاب والغنائم والسلاح من أرض المعركة .

محمد بن مسلمة ومقتل كعب بن الأشرف

كعب بن الأشرف اليهودى ما كاد يسمع بهزيمة قريش فى غزوة بدر حتى كُبتَ وذل ، وقال : بطن الأرض خير من ظهرها اليوم ، فخرج حتى قدم مكة ، فبكى قتلى قريش وحرّضهم على الثأر وأخذ يتشبب بنساء المسلمين ، ويرميهن بأقذع الألفاظ . ووصل هذا كله إلى مجلس الرسول - ﷺ - وغضب المسلمون وتنادوا فيما بينهم إلى السلاح وخشى الرسول عليه السلام أن تعم الفتنة ، وتدور رحى المعركة بين المسلمين واليهود . فاستشار الرسول أصحابه فى ذلك ..

فأشاروا عليه بقتل كعب ، حتى تستقر الأمور ، وتهدأ النفوس ، ويتم القضاء على الفتنة ..

عندها قال الرسول - ﷺ - : مَنْ لكعب بن الأشرف ..؟

قال محمد بن مسلمة : أنا لك به يا رسول الله ، أنا أقتله .

قال عليه السلام : فافعل إن قدرت على ذلك .

قال محمد بن مسلمة ذلك استجابة لأمر الرسول - ﷺ - ولكنه بعد أن تدبر الأمر ، شعر بأنه تسرع فى وعده .

إن الأمور فى حاجة إلى دراسة وتريث .. وكعب بن الأشرف ، يعيش فى حصن منيع وحوله رجال أشداء ، وهو من الفوارس الشجعان ، وإلا لما أقدم

على ما أقدم عليه ، من تحالفه مع قريش ، ونقض عهده مع رسول الله ـ ﷺ ـ .

وبقى محمد بن مسلمة ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب ، وركبته الهموم وتناوشته الأفكار السود من كل جانب .

لقد وعد الرسول ـ ﷺ ـ وعليه أن ينفذ ما وعد مهما كلفه ذلك من جهد ، حتى لو كان ذلك فى إزهاق روحه ، على شريطة أن يحقق وعد الرسول ـ ﷺ ـ ورغبة المسلمين ولاحظ الصحابة ما يعانيه ابن مسلمة من ضجر وضيق ، وهمٍّ كبير فذكروا ذلك للرسول ـ ﷺ .

فدعاه الرسول وقال له : لمَ تركت الطعام والشراب . ؟

قال : يا رسول الله ، قلت قولاً لا أدرى أفى به أم لا .. ؟

قال عليه الصلاة والسلام : إنما عليك الجهد .

قال ابن مسلمة : يا رسول الله ، إنه لابد لنا أن نقول .

قال الرسول ـ ﷺ ـ : قولوا ما بدا لكم ، فأنتم فى حل من ذلك .

يقول الإمام الطبرى :

اجتمع فى قتله محمد بن مسلمة ، وسلكان بن سلامة ، وكان أخاً لكعب من الرضاعة ، وعباد بن بشر بن وقش والحارث بن أوس بن معاذ . وكان لابد من وضع خطة لا تثير ضجيجاً ولا تدعو القوم إلى الالتحام .

إن المقصود فقط فى تلك الآونة كعب بن الأشرف ، فلا داعى لأن يقتل معه أحد .

والمسلمون فى تلك الآونة حريصون على عدم إراقة الدماء ، وإزهاق الأرواح، واتفق الرجال على أن يرسلوا له أخاه من الرضاعة سلكان بن سلامة.

وذهب سلكان إليه ، وتحدث مع كعب حديثاً طويلاً وتناشدا شعراً وكان سلكان يقول الشعر أيضاً .

ثم قال سلكان : ويحك يا ابن الأشرف .. إنى قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فأكتم علىَّ ما أقول ..؟

قال كعب : افعل .

قال سلكان : كان قدوم هذا الرجل ـ يعنى الرسول ـ ﷺ ـ بلاءً علينا .

عادتنا العرب ورمونا عن قوس واحدة . وقُطعت عنا السبل حتى ضاع العيال ، وجهدت الأنفس ، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا .

فقال كـعب : أنا ابن الأشرف ، أما والله لقد كنت أخبـرتك يا ابن سـلامة بأن الأمر سيصير إلى ما كنت أقول .

فقال سلـكان : إنى أردت أن تبيعنا طعامـاً ونرهنك ، ونوثق لك وتحسن فى ذلك .

وسكت كـعب لحظة ، وأمسـك بذقنه مفكراً ، وبـعد برهة قـال : « ارهنونى نساءكم » .

فـضحك ابن سلكان وربت على كـتف ابن الأشـرف قائلاً له : كـيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب .. ؟

قال : إذن ارهنونى أبناءكم .. !!

وهنا اقترب منه ابن سلكان ، وكأنه يستعطفه قائلاً له :

أتريد أن تفضحنا أمام العرب ، ويتحدثون عنا ويقولون : يرهنون أبناءهم .!

وأنا لست وحدى ، إن معى أصحابنا على مثل رأيى ، وقد أردت أن آتيك بهم فتبـيعهم وتحسن إليهم . ثم سكت ابن سلكان وكـأنه يستجمع شجاعـته وقال له : ونرهنك يا ابن الأشرف السلاح والسلاح كما تعلم فيه وفاء لك .

وأراد ابن سلكان بذلك ألا ينكر كعب السـلاح ، أو يخاف ، إذا ما جاءوا به .

فقال كعب : صدقت يا سلكان .. إن فى السـلاح لوفاء .

ورجع سلكان يسـرع السير إلى أصـحابه ، ويخبـرهم خبـره ، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ، فينطلقوا ويجتمعوا إليه .

يروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ أنهم اجتمعوا عند رسول الله ـ ﷺ ـ ثم سار معهم الرسول إلى بقيع الغرقد ، ثم وجههم وقال :

« انطلقوا على اسم الله .. اللهم أعنهم » .

ثم رجع الرسول ـ ﷺ ـ إلى بيته فى هذه الليلة المقمرة .

وسارت الكتيبة الصغيرة ، الكتيبة المؤمنة إلى وجهتها باسم الله .

حتى انتهوا إلى حصن ابن الأشرف . فهتف به ابن سلكان وكان حديث عهد بعرس .

فوثب فى ملحفته يريد النزول .

فأمسكت به زوجه ، وأرادت أن تمنعه من النزول قائلة له :

« إنك امرؤ محارب ، وإن صاحب الحرب لا ينزل فى مثل هذه الساعة» .

فقال لها : « إنه ابن سلكان أخى فى الرضاعة ، ولو وجدنى نائماً لما أيقظنى .

قالت المرأة وهى ـ فى رأيى ـ قد تكون أصدق حدساً من الرجل : يا كعب ، والله إنى لأعرف فى صوته الشر .

قال كعب بصلف وكبرياء : إليك عنى ، لو دعى الفتى لطعنة أجاب . فما بالك إذا كان الداعى أخى من الرضاعة ..

ولما لم تجد الزوجة من حيلة فى منعه ـ خلت بينه وبين النزول فنزل كعب، فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه .

إن الليلة مقمرة ، والسماء صافية ، ونسمات رخية تملأ الكون وكل ما حولهم يغرى بالسهر والمسامرة .

فقالوا : هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شُعب العجوز ، حيث عيون الماء الفوارة ، وخريرها العذب ، وأغصان الشجر التى تلامس صفحة مياهها . فنتحدث بقية ليلتنا هذه .. ؟

قال : إن شئتم وكما أحببتم ، فخرجوا يتماشون ، ثم إن سلكان وضع يده على شعر رأسه ثم شم يده فقال : ما رأيت كالليلة طيب عطر قط .

وكان كعب مشهوراً بين قبائل العرب بوضع العطور ، ثم مشى ساعة ثم عاد سلكان لمثلها من وضع يده على شعره ثم يشمها . حتى اطمأن كعب ، وأخذوا يطربونه وهم يتحدثون عن عطره وطيبه . وفى المرة الثالثة أخذ سلكان بشعر رأس كعب وجذبه إلى أسفل وقال لأصحابه : « اقتلوا عدو الله » .

فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئاً ـ وكاد يتفلت منهم .

ولو فعل ما نجا منهم أحد . قال محمد بن مسلمة ـ رضى الله عنه ـ فذكرت سكيناً فى سيفى ، حين رأيت أسيافنا لا تغنى شيئاً ، فأخذته وقد صاح عدو الله صيحة ، لم يبق من حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار .

قال محمد بن مسلمة : فوضعته فى ثندؤته ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته ووقع عدو الله .

يقول عباد بن بشر :

صـــرخت بــــه فـــلم يعـــرض لـصـــوتى
ووافى طــــالعــــاً مــــن رأس جـــــدر
فـــعــــدت لـه فـــقــــال مَــــنْ المنــــادى
فـــقلت أخـــــوك عــــبــــاد بن بشــــر
وهـذى درعنــا رهـنــاً فـــــخـــــذهــا
لشــــهـــر إن وفى أو نـصف شــــهــــر
فــقـال مــعـاشــر سـغـبـوا وجـاعــوا
ومـــا عـــرفـــوا الغنـى من غـــيـــر فـــقـــر
فـــأقـــبل نحـــونا يهـــوى ســـريعـــاً
وقـــال لنا لـقـــد جـــئـــتم بأمـــر
وفـى إيمــــــاننـا بـيض جـــــداد
مـــجـــردة بـهـــا الـكـفـــار تفـــرى
فـــعـــانقـــه ابن مـــسلمـــة المردّى
بـه الكـفـــار كـــالـلـيـث الهـــزبـر
وشـــد بســـيـــفــــه صـلتـــاً عليـــه
فـــقـطره أبـو عـــبـس بن جـــبـــر
وكـــــان الله ســــــادسـنـا فـــــأبـنـا
بأنـعم نـعـــمـــة وأعـــز نصـــر
وجـــاء بـرأســـه نـفـــر كـــرام
همـــو نـاهيـك مـــن صـــدق وبـــر

ولكن الكتيبة المؤمنة لم تعد سالمة ، فقد أصيب أحد رجالها .

أصيب من أسيافهم ، وحملوا صاحبهم عائدين إلى رسول الله ـ ﷺ ـ .

وكان الليل قـد أوشك أن ينتهى ، فوجدوا رسول الله ـ ﷺ ـ قـائماً يصلى . فلما انتهى من صلاته خرج إليهم فأخبروه بقتل عدو الله .

وتناول عليه الصلاة والسلام جريحهم فمسح على جرحه ، ودعا له وتفرق كل منهم إلى منزله تشيعه عناية الله ودعوات الرسول الكريم .

محمد بن مسلمة وحصون خيبر

لما افتتح رسول الله ـ ﷺ ـ حصون خيبر ، وحاز من الأموال ما حاز ، كانت آخر حصونهم السُّلالم فحاصرهم رسول الله ـ ﷺ ـ بضع عشرة ليلة .

ثم خرج منها مرحب اليهودى وقد جمع سلاحه وهو يرتجز ويقول :

قـــد علمت خيبر أنى مــرحب
شـاكى السـلاح بطـل مجرَّب
أطعـن حينـاً وحينـاً أضـــرب
إن حمـــاى للحمـــى لا يُقـــرب

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ مَنْ لهذا ..؟

قال محمد بن مســلمة : أنا له يا رسول الله ، أنا والله الموتور الثائر قتل أخى بالأمس .

فقال عليه السلام : فقم إليه . اللهم أعنه عليه .

قال: فلما دنا أحدهما من صاحبه، دخلت بينهما شجرة قديمة، من شجر العشر.

فجعل أحدهما يلوذ بها من صاحبه ، كلمـا لاذ بها منه اقتطع صاحبه بسيفه ما دونه منها حتى برز كل واحد منهما لصاحبه وصارت بينهما كالرجل القائم ما فيها فنن ثم حمل مرحب على محمـد بن مسلمة فضربه فاتقاه بالدرَّقة فوقع سيفه فيها وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله .

محمد بن مسلمة على أرض فارس

سمع عـمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أن سعد بن أبى وقـاص أقام باباً بينه، وبين الرعية، فأرسل وزيره محمد بن مـسلمة، وأمره بحرق الباب ـ فسار إلى الكوفة، وكان معـه أمر عمر بحرق باب دار الحكم . فنفذ محـمد بن مسلمة ما أمر به عمر من حرق الباب .

أمر عمر بذلك ، لاعتقاده أن إقـامة مثل هذا الباب يحجب الوالى عن الرعية ، والوالى يجب أن يكون قريباً من الرعـية . ولن يتم ذلك بالكامل إلا إذا كانت دار الحكم مفتحة الأبواب . ليسهل على المتقـاضين وذوى الحاجات الدخول فيه بعد الاستئذان . لقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) ﴾ [النور]

ثم أمر محمـد بن مسلمة ، سعد بن أبى وقاص بالجلوس فـى المسجد عقب

كل صلاة لفترة من الوقت ليتعرف على أحوال الرعية ، ويستمع إلى شكواهم إن كانت هناك شكوى ، أو يفقههم فى دينهم ، إن عميت عليهم بعض أمور دينهم ، ثم عاد سفير عمر إليه ليضع أمامه جملة ما رآه أو استمع إليه من الوالى والرعية .

حصار الخليفة عثمان بن عفان
وموقف محمد بن مسلمة من هذا الحصار

عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ قال : لما جاء المصريون من بلادهم نزلوا بمكان يسمى « ذى الخشب » وقرروا إما قتل عثمان ، وإما أن يتنازل عن الخلافة وإما الاستجابة لمطالبهم ، التى وضعوها بين يديه .

فأرسل عثمان ـ رضى الله عنه ـ إلى محمد بن مسلمة ، فلما حضر إليه قال له عثمان ـ رضى الله عنه ـ :

اذهب إلى هؤلاء الثائرين فارددهم عنى ، وأعطهم الرضا ، وأخبرهم بأنى محقق لهم الأمور التى طلبوها ، ونازع عن الأمور التى اعترضوا عليها .

فركب محمد بن مسلمة إليهم .

قال جابر : وأرسل معه عثمان خمسين راكباً من الأنصار أنا فيهم .

فأتاهم محمد بن مسلمة فقال :

« إن أمير المؤمنين يقول كذا ويقول كذا ، وأخبرهم بقوله ، فلم يزل بهم حتى قرروا الرجوع إلى بلادهم .

وفى طريق عودتهم رأوا جملاً عليه ميسم الصدقة فأخذوه ، فإذا غلام لعثمان ـ رضى الله عنه ـ فأخذوا متاعه وفتشوه ، فوجدوا فيه قصبة من رصاص فيها كتاب إلى عبد الله بن سعد بن أبى السرح والى مصر من قبل الخليفة عثمان . يقول فيه : افعل بفلان كذا وبفلان كذا من القوم الذين حاصروا عثمان ، فرجع القوم ثانية ، ونزلوا بـ « ذى الخشب » .

فأرسل عثمان ـ رضى الله عنه ـ إلى محمد بن مسلمة ـ وقال له : اخرج فارددهم عنى !!

قال ابن مسلمة : لا أفعل .

قال : عندها تقدم الثائرون وحاصروا عثمان .

ونتساءل : لماذا لم يحاول محمد بن مسلمة مرة أخرى مع الثائرين ، وإصلاح ذات البين بينهم وبين الخليفة عثمان ..؟

أتراه ظن أن عثمان خدع هؤلاء الناس ، وكتب إلى واليه لينتقم له منهم .. ؟

إن عثمـان ـ رضى الله عنه ـ برىء من ذلك ، ولقد أثبتت وقـائع التاريخ أن هذه الرسالة دست على عـثمان ، وأن الذى كان وراء هذه الدسيـسة الحكم بن العاص ، الذى نفاه الرسـول ـ ﷺ ـ إلى الطائف ، فلم يزل به حـتى ولى عثمان الخلافة فرده إلى المدينة .

أم أن محمد بن مسلمة رأى فيـما حدث ويحدث من بوادر الفتنة التى حذره منها رسول الله ـ ﷺ ـ فآثر الابتعاد لذلك .

قال محمد بن مسلمة : أعطانى رسول الله ـ ﷺ ـ سيفاً ، ثم قال : «يا محمد ابن مسلمة جاهد بهذا السيف فى سبـيل الله ، حتى إذا رأيت من المسلمين فئتين تقتـتلان، فاضـرب به الحجر حـتى تكسره ، ثم كف لسانـك ويدك حتى تأتيك منية قاضية أو يد خاطئة» .

فلما قُتل عـثمان ، وكان من أمر الناس ما كان ، خـرج إلى صخرة فى فنائه فضرب الصخرة بسيفه حتى كسره .

ويقول حصين الثعلبى : كنا جلوسا مع حذيفة ـ رضى الله عنه ـ فقال :

« إنى لأعلم رجلاً لا تنقصه الفتنة شيئاً » .

فقلنا : مَنْ هو .. ؟

قال : محمد بن مسلمة الأنصارى .

فلما مات حـذيفة وكانت الفتنة ، خرجت فيـمن خرج من الناس، فأتيت أهل ماء ، فإذا أنا بفسطاط مضروب تضربه الرياح .

فقلت : لمن هذا الفسطاط ..؟

قالوا : لمحمد بن مسلمة .

فأتيتـه ، فإذا هو شيخ . فقلت : يرحمك الله . أراك رجلاً من خـيار المسلمين تركت بلدك ودارك وأهلك وجيرتك .

قال : تركته كراهة الشر ، ما فى نفسى أن تشتمل على مصر من أمصارهم حتى تنجلى عمَّا انجلت ..!!

وفاة محمد بن مسلمة

ثم ماذا : لـكل أجل كتـاب ولكل سافرة حـجاب إلا الموت ، فـإنه لا أوبة له ، ولا رجـعة فـيـه . لقد مـات محـمـد بن مسـلمة بالمدينة فـى صفـر سنة ست وأربعين ، وهو يومئذ ابن سبع وسبعين سنة .

رحم الله محـمد بن مسلمـة فارس رسول الله ـ ﷺ ـ وأسكنه فـسيح جناته مع الشهداء والصديقين . إنه سميع مجيب الدعاء .

رســالة عـاجـلة

إلى رؤساء وحكام الأمة الإسلامية والعربية :
السلام بيننا وبين العدو الإسرائيلى

■ نقلت صحيفة (الأهرام) المصرية الصادرة بتاريخ ١٥/٤/٢٠٠١م عن صحيفة (نيويورك تايمز) الأمريكية : [أن شارون رئيس الوزراء الإسرائيلى شطب كلمة السلام من قاموسه ولم يعد لهذه الكلمة وجود فى برنامجه شخصياً ، ولا برنامج حكومته] .

وقالت الصحيفة : إن هذا الاعتقاد تأكد بصورة أكبر عندما أعلن شارون فى تصريحات صدرت له أخيراً أن له ثلاثة أهداف يسعى لتحقيقها على المستوى القومى فى إسرائيل .

أولاً : زيادة مستوى الهجرة اليهودية إلى إسرائيل .

ثانياً : تطوير منطقة صحراء النقب .

ثالثاً : توسيع نطاق التعليم اليهودى من أجل استعادة الشعور بعدالة النضال فضلاً عن الإحساس بأن لإسرائيل حقاً مطلقاً على هذه الأرض ..

وما قاله رئيس الوزراء الإسرائيلى عن رفضه السلام يتفق تماماً مع ما قاله الله تعالى فى آخر كتبه السماوية المنزلة .

والذى يحدد ويؤكد أنه لن يكون لهذه الفئة اليهودية سلام على الأرض إلى قيام الساعة تنفيذاً لقدر الله الذى قدره عليهم بقوله :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .. (١٦٧) ﴾ [الأعراف]

وخاصة اليهود وعامتهم يعرفون قدر الله الذى قدّره عليهم وأنه لن يهدأ لهم بال ولن يقر لهم قرار حتى تقوم الساعة .

فكيف نطالبهم بالسلام ونلح عليه .. ؟

مخالفين في ذلك حكم الله وقدره .

فإذا جَبُنا وتكاسلنا عن تنفيذ قدر الله (وهو أن نسوم اليهود سوء العذاب) كان الله تعالى منفذا لوعده الآخر الذي وعده لنا بقوله :

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد]

أي لا يكونوا أمثالنا في الضعف والتفكك والخوف أمام الذين لعنهم الله وجعل منهم القردة والخنازير لعبادتهم الطاغوت . وترك عبادة الواحد الأحد . الفرد الصمد .

إن اليهود قديماً وحديثاً لهم تاريخ أسود كالح يدل على خبث نفوسهم وحقد قلوبهم ، فهم الذين حرفوا الكتب السماوية .

قال تعالى :

﴿ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة]

وادّعوا أنهم أبناء الله وشعبه المختار .. قال تعالى على لسانهم :

﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة]

وتقوّلوا على الله ما لم يقله ، أو ينزل به وحيه ، وصوروه في صورة بشر يخطىء ويصيب ، ويبكي على خطئه كما تبكي النساء ، ويلطم خديه ، ويلجأ إلى الحاخامات ليأخذ برأيهم ويستأنس بأفكارهم . وفي هذا يقول الرابي مناحم :

« إن الله يستشير الحاخامات على الأرض عندما توجد مسألة معضلة لا يمكن حلها في السماء » .

أي إله هذا الذي يفعل ما يتقوّلون يا أتباع محمد عليه السلام ؟

أهو الله سبحانه وتعالى الذي خلق السموات والأرض . وأوجد الظلام والنور ، والحياة والموت ، والبعث والحساب ، وخلق الإنسان في أحسن تقويم ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بأذنه .. ؟

محال أن يكون هو ، وتعالى الله عن ذلك .

إن إلههم الذي يخطىء ويصيب ، ويلطم خديه ، هو الذي أوجدوه في

مخيلتهم ، وصنعوه بأيديهم على صورة عجل له خوار .

قال تعالى :

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) ﴾ [طه]

يا أتباع محمد عليه السلام ، هل تتصورون ، أو يخطر لكم فى بال أو خيال أن أحفاد الذين اتخذوا العجل إلهاً يريدون السلام حقيقة .. ؟

ويعملون من أجل إيجاده .. ويتخذون الوسائل الناجحة لتنفيذه ؟

وإذا كان هذا اعتقادهم فى ربهم وتصوراتهم عن ذاته .

أترى أن لهم عقلاً يقدر السلام .. ؟

وبصيرة تدلهم على طرقه ومسالكه .. ؟

وفقهاً يدفعهم للعمل من أجل تحقيقه .. ؟

أم تُرى أنهم يعبثون بدعوة السـلام .. ؟ ويسخرون من دعاته .. ؟ ويقولون ما لا يفعلون .. ؟ ويظهرون بخلاف ما يبطنون ..؟

وليحتفظ كل منا بالإجابة لنفسه بعض الوقت .

لقد زعمت بعض كتبهم أن « إسرائيل » سأل ربه قائلاً :

لماذا خلقت خلقاً سوى شعبك المختار ..؟

فأجابهم قائلاً : (لتركبوا ظهورهم ، وتمتصوا دماءهم ، وتحرقوا أخضرهم وتلوثوا طاهرهم وتهدموا عامرهم ..) .

هذا هو مـخططهم الذى وضعـوه فى التلمـود ، وتواصوا فـيمـا بينهم على تنفيذه بدقة ومهارة .

فهل يرى المسلمون والعرب قاطبة وأهل الديانات السماوية الأخرى ، أنه فى مقدور العصابـات الصهيونية أن يخالفوا وصايا التلمـود ، ويمتنعوا عن ركوب ظهور الخلق .. ؟

ويكفوا عن امتصاص الدماء .. ؟

ويستجيبوا لدعوة السلام التى عرضتها عليهم مصر .. ؟

أم تراهم يعتقدون كما نعتقد ويجزمون كما نجزم بأن تلك العصابة لا تفكر فى السلام ولا تعمل له لأسباب ترتبط بجبلتهم وطبيعتهم ومعتقدهم .. ؟

وهى أنهم لا يطيقون سعادة البشرية لأنها تؤلمهم .

ولا يتصورون سلام العالم لأنه يكشفهم .

وهم لا يريدون لهـذا الكون سلامـاً ولا أمناً ـ وإنما يريدون له حرباً دائـمة وناراً مشتعلة حتى تروج تجارتهم ، وتنتج مصانعهم ، ويسوقون أسلحتهم ..

فهل يعتقد عاقل أن هذه الجبلة اليهـودية قد تنسلخ من طبيعتها وتخرج عن فطرتها وتعمل من أجل السلام .. ؟

أم أننا نرى ونعتقد أن تاريخهم فى الماضى والحاضر يقول غير ذلك .. ؟

أعتقد أننا جميعاً نعلم تمام العلم كراهية اليهود للسلام .

ولقد كان الزعيم الأمريكى « بنيامـين فرنكين » يعلم ذلك ويعتقده ، ويذيعه بين شعبه ويطيب لى أن أثبت تلك الوصيـة التى ألقاها هذا الزعيم على شعبه ، محذراً إياهم من خبث مخططاتهم .. ومنبهاً لهم عن مكرهم وختلهم فقال :

« هناك خطر كبيـر يهدد الولايات المتحدة الأمريكيـة .. هذا الخطر الكبير هو اليهودية ، ففى أى مكان حل فـيه اليهود كانوا السبب فى خنق القـيم الأخلاقية وانحطاط الأمانة التجارية .

إذا لم نمنعـهم من دخول أمريـكا بموجب الدستـور ، ففى أقل من مـائة عام يتدفـقون إلى هذه البـلاد بأعداد هائلة إلى درجة أنهم سـيحكمـون ويحطمون نظام الحكم القائم الذى بذلنا نحن الشعب الأمريكى من دمنا وضحينا بأرواحنا وممتلكاتنا وحريتنا الشخصية فى سبيل إقامته .

إذا لم نمنع اليهود من الإقامة فى أمريـكا بموجب الدستور ، ففى خلال مائة سنة سيكون أطفـالنا يعملون كخـدم فى الحقول ليطعـموا اليهـود بينما يجلس هؤلاء فى بيوتهم يفركون أيديهم وهم يحصون ما ربحوا .. » .

أترى الشعب الأمريكى قد استجاب لهذا النداء .. ؟

وهل وضعه موضـع التنفيذ ..؟

الحقيـقة أن الخطر الدائم من وراء بقائهم فى أمريكا جعلهم يفكرون كـثيراً لإبعـادهم عن بـلادهم ، وقـدمت أمـريكا العـتـاد والـرجـال والسـلاح ، وكل ما تستطيعه من دعم لإقامة دولة لهم على أرض فلسطين ، واستطاعت بذلك أن تبـعد عن بلادها خطر الكـثرة العـددية ، والهجـرات المتـتابعـة . ولكن بقى فى داخلها النفوذ اليهودى والمخطط اليهودى الـذى يتحكم فى اقتصادياتها ويحرك سياستها ويطوع أجهزتها الإعلامية لصالح اليهود ، ومخططات اليهود .

وتحققت وصية تلمودهم الأولى التى تدعوهم ليركبوا ظهور الخلائق .

لقد ركبوا ظهور الشعب الروسى بالتخـطيط لثورته والقضاء على قياصرته وإقامة أعلام الإلحاد بين أبنائه .

وركبوا ظهور الشعب العربى باستـيلائهم على قطعة غالية من أرضه لتكون قـاعدة لـتحطيم قـيم أبنائه ، وإنـهاك اقـتـصادياتـه ، ونشر المذاهب الـهدامـة والفوضوية بين أبنائه .

أما الوصـية الثانيـة : وهى امتصـاص الدماء فهـى حقيـقة لا تنكر ، وواقع لا يمكنهم الخـلاص منه ، وقد جـرت العادة أن يتـولى هذه العمـلية الحـاخام الأكبر.

وهم يعتقدون أن هذا الدم البشرى تتميم لفروض طقوسهم الدينية .. !!

وسجـلات المحاكم الجنائية فى القـاهرة ودمشق وبغـداد تحتفظ بكثـير من القضايـا التى اتهم فيها يهـود بخطف الأطفال الصغار لابتـزاز دمائهم وصنع الفطيرة منها .

فهل فى الإمكان الإقلاع عن تلك العادة .. ؟؟

وهل فى الإمكان منعهم عن إراقة الدماء .. ؟

أعتقد أنه من المستحيل أن يتم ذلك ..

لأن إراقة الدماء جزء لا يتجزأ من معتقداتهم ..

إن تلمودهم الذى كـتبوه بأيـديهم يجوّز لهم القتل والبـغى والسلب والنهب والظلم والعدوان فى سبيل إسرائيل ومصلحـة إسرائيل ، ويحضهم على تدمير كافـة المؤسسات البشـرية ، والقواعد الإنسـانية ، والمبادىء الخلقيـة ، وكل ما تحمله الديانات من حب ، وخير ، وسلام .

إن هؤلاء لا يريدون السلام ، ولكنهم يحلمون بإقامـة الحكومة العالمية التى يسيطرون بها على العالم ، وعلى إنجازات البشرية كلها فى تاريخها الطويل .

ولكن هيهات هيهات ..

فلن يكون ذلك ، ولن يتم لهم ما يريدون مهما وقفت خلفهم أمريكا أو شدت من أزرهم دول العالم كله ، لأن حكم الله نافذ ، وإرادته قائمة ، ولابد أن يتحقق فيهم إلى يوم القيامة ما أخبر عنه الله بقوله :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .. (١٦٧) ﴾
[الأعراف]

ونحن نثق فى عهد الله ونؤمن به .

ولا شك أن الجيش الذى هزم جيوش التتار وتتبع فلولهم وحطم شوكة الغرب ، واقتص من تجمعاتهم ، قادر على إلقاء إسرائيل وعصابتهم فى البحر .

فإن أحجم الجيش المصرى الذى خاض كل المعارك عن أداء واجبه ـ ولا نخاله يحجم ـ فإن أحفاد الأبطال الذين أخرجوهم من خيبر وأبعدوهم عن الجزيرة العربية سيقومون بتلك المهمة ، ويحققون أمر الله تعالى فيهم . لأننى ألمحهم على الأفق مقبلون ..

خالد بن سعيد بن العاص

رضى الله عنه

■ من السابقين الأولين إلى الإسلام ، العاملين لنصرة دين الله .

ومن المهاجرين إلى أرض الحبشة ، الفارين بدينهم إلى الله تعالى .

ومن الشهداء الذين قاتلوا وصبروا ، ففازوا بجنة ربهم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

ومن الولاة الأمناء الذين سعدت بهم رعيتهم عندما خافوا الله تعالى وراقبوه فى أعمالهم .

والده : سعيد بن العاص ، من أشراف قريش وسراتها ، ومن أهل الرأى فيها . كان من أشد أعداء الإسلام ، المحاربين لأتباعه ، النابذين لهديه ، واستمر على ذلك حتى وسد فى قبره .

وأمه : أم خالد بنت حباب بن عبد ياليل زعيم ثقيف ، ومن أهل الرأى والمشورة فى الجاهلية .

وعبد ياليل وإخوته هم الذين وفد عليهم رسول الله ـ ﷺ ـ عندما ذهب إلى الطائف يدعو أهلها للإسلام ، فأغروا به سفهاءهم يقذفونه بالحجارة ، ويرمونه بالنبل حتى أدموا جسمه وقدميه فلما كف عنه هؤلاء جلس تحت شجرة ، وتوجه إلى ربه بالشكوى قائلاً :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى : إلى من تكلنى .. ؟ إلى بعيد يتجهمنى .. ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ..؟ إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ،

وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل علىَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » .

ولخالد بن سعيد سبعة من الإخوة الذكور قُتل أحدهم وهو أُحيحة يوم الفجار . وقُتل العاصى وعبيدة يوم بدر كافرين . وأسلم بعده أربعة : إبان بن سعيد الذى أجار عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ حين بعثه رسول الله ـ ﷺ ـ إلى قريش عام الحديبية وحمله على فرس حتى دخل مكة وقال له :

أقبل وأدبر ولا تخف أحداً

بنو سعيد أعزة الحرم

واستعمله الرسول ـ ﷺ ـ على البحرين .

والثانى : الحكم بن سعيد سماه رسول الله ـ ﷺ ـ عبد الله .

والثالث : عمرو بن سعيد شهد مع الرسول ـ ﷺ ـ الفتح وحنين والطائف وتبوك ومات شهيداً يوم (أجْنَادين) فى خلافة أبى بكر الصديق .

والرابع : سعيد بن سعيد بن العاص ـ قُتل مع رسول الله ـ ﷺ ـ فى حصار الطائف .

إسلام خالد بن سعيد

لقد كان إسلام خالد قديماً ، وكان أول إخوته دخولاً إلى الإسلام وكان بدء ذلك : أنه رأى فى النوم أنه واقف على شفير النار ، فذكر من سعتها ما الله به أعلم .

ورأى فى النوم أن أباه يدفعه فيها ورأى رسول الله ـ ﷺ ـ آخذ بحقويه لئلا يقع فيها ..!!

ففزع من نومه فقال لنفسه : أحلف بالله إن هذا لرؤيا حق .

وما كاد يظهر نور الفجر ، حتى انطلق إلى بيت أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وقص عليه رؤياه .

فقال أبو بكر : أريد بك خيراً إن شاء الله . ثم تابع كلامه قائلاً : هذا رسول الله ـ ﷺ ـ فاتبعه ، وادخل معه فى الإسلام الذى يحجزك من أن تقع فى النار . ثم صمت أبو بكر وكأنه يتذكر شيئاً ثم قال : وأبوك واقع فيها .

فانطلق خالد إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : يا محمد إلامَ تدعو ؟

قال : أدعو إلى الله وحده لا شريك له .

وأن محمداً عبده ورسوله ، وخلع ما أنت عليه من عبادة حجر ، لا يسمع ولا يبصر ، ولا ينفع ولا يضر ، ولا يدرى مَنْ عبده ممن لم يعبده ؟!

قال خالد : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله .

فسر رسول الله - ﷺ - بإسلامه .

وذاع وشاع خبر إسلام خالد بن سعيد بين قريش ، وانتقل بين أرجائها انتقال النار وسط الهشيم ، وجن جنون والده ، وأخذ يزمجر ويبرطم ويتهدد ويتوعد ، وقال لأولاده السبعة : ابحثوا عنه فى أى مكان واحضروه لى حياً أو ميتاً .

وانطلق الإخوة يبحثون وينقبون عن أخيهم ، حتى وجدوه جالساً فى فناء الكعبة يسند ظهره إليها ، ويتمتم بينه وبين نفسه بكلمات غير مفهومة . فحملوه إلى والده أبو أُحيحة كما كان يكنى .

ووقف خالد بين يدى أبيه الذى أخذ يؤنبه ويبكته ويضربه بمقرعة كانت فى يده حتى كسرها على رأسه . ثم قال :

« أتبعت محمداً وأنت ترى خلافه مع قومه ، وما جاء به من عيب آلهتهم وعيب من مضى من آبائهم .. ؟

قال خالد : قد صدق والله واتبعته .

فغضب أبو أُحيحة ونال من ابنه وشتمه . ثم قال : اذهب يا لُكع حيث شئت والله لأمنعنك القوت .

فقال خالد : إن منعتنى ، فإن الله يرزقنى ما أعيش به .

فأخرجه . وقال لبنيه : لا يكلمه أحد منكم إلا صنعت به ما صنعت به المخالف العاق !!

فانصرف خالد إلى رسول الله - ﷺ - .

ثم جاء به إخوته مرة أخرى .

فوضعوه فى محبسه ومُنع عنه الطعام والشراب ، ثم بعد ذلك أخرجوه إلى رمضاء مكة وقذفوه فيها مقيداً .. ثم يعودون به إلى السجن الذى أعدوه له . ولكن خالد وجد كوة فى سجنه ، فنفذ منها ، واختفى فى أرجاء مكة . وكان يحضر مجلس الرسول - ﷺ - للتفقه مع الذين أسلموا . ولقد شكوا إلى الرسول - ﷺ - ما يحل بهم من العذاب والهوان على يد تلك الفئة الباغية من

طغاة قريش. وما حدث لسمية أم عمار بن ياسر، وقتلها بيد الطاغية أبى جهل .

عندها قال لهم الرسول - ﷺ - :

« لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » .

الهجرة إلى الحبشة

عندها كان خالد بن سعيد من أوائل المهاجرين إلى أرض الحبشة ومعه زوجه التى أسلمت بإسلامه ، ثم لحق به بعد مدة أخوه عمرو بن سعيد مسلماً. ووجدوا بجوار النجاشى الأمان والاطمئنان والعيشة الرغدة وكان من المهاجرين إلى أرض الحبشة عبيد الله بن جحش ، وزوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان - رضى الله عنها - .

قالت أم حبيبة : رأيت فى النوم عبيد الله بن جحش زوجى بأسوأ صورة وأشوهها ، ففزعت .

فقلت : تغيرت - والله - حاله ، فإذا هو يقول لى عندما أصبح : يا أم حبيبة إنى نظرت فى الدين ، فلم أر ديناً خيراً من النصرانية .

فقلت : والله ما خير لك ، وأخبرته بالرؤيا التى رأيت له ، فلم يحفل بها وأكب على الخمر حتى مات .

فرأيت فى النوم كأن آتياً يقول : يا أم المؤمنين .

ففزعت فأوَّلتها أن رسول الله يتزوجنى .

قالت : فما هو إلا انقضت عدتى فما شعرت إلا برسول النجاشى على بابى يستأذن ، فإذا جارية له يقال لها أبرهة ، كانت تقوم على ثيابه ودُهنه فدخلت علىَّ فقالت :

« إن الملك يقول لك إن رسول الله - ﷺ - كتب إلىَّ أزوجكه » .

فقلت : بشرَّك الله بخير .

قالت : يقول لك الملك وكلى مَنْ يزوجك ..؟

فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكلته ، وأعطت أبرهة سوارين من فضة ، وخواتيم فضة كانت فى أصابع رجليها سروراً بما بشرتها . فلما كان العشى ، أمر النجاشى جعفر بن أبى طالب ، ومَنْ هناك من المسلمين فحضروا فخطب النجاشى فقال :

الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، العزيز الجبار ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأنه الذى بشر به عيسى ابن مريم - ﷺ - .

أما بعد : فإن رسول الله كتب إلىَّ أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فأجبت إلى ما دعا إليه رسول الله - ﷺ - وقد أصدقها أربع مائة دينار .

ثم سكب الدنانير بين يدى القوم .

ثم قام خالد بن سعيد فتكلم فقال :

الحمد لله أحمده وأستعينه واستنصره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون .

أما بعد : فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله وزوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فبارك الله رسول الله .

ثم قام النجاشى . فدفع الدنانير إلى خالد بن سعيد فقبضها . ثم أرادوا أن يقوموا . فقال النجاشى : اجلسوا ، فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج . فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا .

قالت أم حبيبة : فلما وصل إلىَّ المال أرسلت إلى أبرهة التى بشرتنى .

فقلت لها : إنى كنت أعطيتك ما أعطيتك يومئذ ، ولا مال بيدى فهذه خمسون مثقالاً فخذيها فاستعينى بها ، فأبت .

ثم أخرجت حُقًا فيه كل ما كنت قد أعطيتها فردته علىَّ وقالت :

« عزم علىَّ الملك أن لا أرزأك شيئاً وأنا التى أقوم على ثيابه ودُهنه وقد اتبعت دين محمد رسول الله - ﷺ - وأسلمت لله وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكل ما عندهن من العطر » .

قالت أم حبيبة : فلما كان الغد جاءتنى بعود وورس ، وعنبر ، وغير ذلك كثير فقدمت بذلك كله على النبى - ﷺ - فلم ينكره .

ثم قالت أبرهة : فحاجتى إليك أن تقرئى رسول الله منى السلام وتعلميه أنى قد اتبعت دينه .

قالت: ثم لطفت بى ، وكانت هى التى جهزتنى فكانت كلما دخلت علىَّ . تقول : لا تنسى حاجتى إليك .

قالت أم حبيبة : فلما قدمت على رسول الله - ﷺ - أخبرته كيف كانت الخطبة . وما فعلت بى أبرهة .

فتبسم رسول الله ، وأقرأته منها السلام فقال :

« وعليها السلام ورحمة الله وبركاته » .

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قوله تعالى :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً .. ۝٧ ﴾ [الممتحنة]

قال : حين تزوج النبى - ﷺ - أم حبيبة بنت أبى سفيان - رضى الله عنهما - :

رحم الله أم المؤمنين رملة بنت أبى سفيان لقد احتملت آلام الغربة وضلال الزوج ، وارتداده عن دينه ، بإرادة قوية ، وإيمان غامر ، وقدرة فائقة على تحمل الشدائد . فكافأها الله تعالى بأن أصبحت زوجة لخير البرية ، وقد حظيت بلقب أم المؤمنين ، كل المؤمنين حتى يرث الله الأرض ومن عليها[1] .

خالد بن سعيد فى عمرة القضاء

قدم خالد بن سعيد من أرض الحبشة سنة سبع من الهجرة وكان النبى - ﷺ - قد فرغ من خيبر ، فأسهم لكل الذين كانوا على أرض الحبشة .

ثم عاد مع الرسول - ﷺ - إلى المدينة وأقام بها ، حتى أمر الرسول - ﷺ - بالتجهز لعمرة القضاء فخرج معه خالد وأخوه عمرو بن سعيد .

وهذه العمرة هى المذكورة فى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ .. ۝٢٧ ﴾ [الفتح]

وهى الموعودة فى قوله عليه السلام لعمر بن الخطاب حين قال له : « ألم تكن تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ..؟

قال : بلى . أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا .. ؟

قال : لا .

قال : فإنك آتيه ومطوف به » .

وهى المشار إليها فى قول عبد الله بن رواحة حين دخل بين يدى رسول الله - ﷺ - إلى مكة يوم عمرة القضاء وهو يقول :

(١) راجع طبقات ابن سعد ٨ : ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ .

خلوا بنى الكفار عن سبيله
خلوا فكل الخير فى رسوله
قد أنزل الرحمن فى تنزيله
فى صحف تتلى على رسوله
فاليوم نضربكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله
ويذهب الخليل عن خليله[1]

ودخل الرسول - ﷺ - مكة وأقام بها ثلاث ليال ، فلما أتى الصبح من اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ورسول الله - ﷺ - فى مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عبادة فصاح حويطب : نناشدك الله والعقد ، لما خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث .

عندها أمر رسول الله - ﷺ - أبا رافع فأذّن بالرحيل . وركب رسول الله وجيشه حتى نزلوا ببطن سرف . فأقام به حتى عرس بزوجته ميمونة . ثم انطلقوا إلى المدينة مهللين مكبرين خاضعين قانتين يرجون من ربهم تجارة لن تبور .

خالد بن سعيد وبيعة أبى بكر

ما كادت تنتهى عمرة القضاء حتى كان خالد بن سعيد على صدقات اليمن بأمر من الرسول - ﷺ - واستقر على أرضها حتى كان فتح مكة ، وغزوة حنين ، فاستأذن رسول الله - ﷺ - فى حضور غزوة حنين فأذن له . هذه الغزوة التى نزل فيها قول الله تعالى :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ﴾

[التوبة]

لقد جمع مالك بن عوف الجموع ، وجهز لهم الدروع والسيوف ، وأوقف لهم الخيل المطهمة الأصيلة . وحشر خلفهم النساء والصبيان والمتاع وقال لهم :

(١) البداية والنهاية ٤ : ٢٢٩ .

هذا يوم له ما بعده ، وحضر معهم فى هذا الحشد الكبير دريد بن الصمة، فلما نزل قال دريد : بأى واد أنتم .. ؟

قالوا : بأوطاس .

قال : نعْمَ مجال الخيل لا حزن ضرس ولا سهل دَهْس[1] . ثم قال : ما لى أسمع رُغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ويعار الشاة[2] .

قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم .

قال : أين مالك ؟

قيل : هناك مالك . ودُعى له .

فلما جاء : قيل دريد : يا مالك ، إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام ، ما لى أسمع رُغاء البعير ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ويُعار الشّاة ..؟

قال مالك : سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم .

قال : ولِمَ ذلك .. ؟

قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم .

قال : فزجره دريد وقال له : راعى ضأن ـ أى لا خبرة لك بالقتال وإدارة المعارك .

ثم قال : والله .. وهل يرد المهزوم شىء .. ؟

إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك .

ثم قال دريد : ما فعلت قبيلة كعب وكلاب ..؟

قالوا : لم يشهدها منهم أحد .

قال دريد : غاب الحَد والجد[3] . ولو كان اليوم يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب ، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب . فمَنْ شهدها منكم.. ؟

قالوا : عمرو بن عامر ، وعوف بن عامر .

---

(١) أى مكان معتدل لجريان الخيل لا هو مرتفع ملىء بالحجارة ، ولا سهل لين تغوص فيه أقدام الخيل فتعوقها عن الحركة .

(٢) أى أصوات الإبل والحمير والغنم والأطفال .

(٣) أى غاب عنها الرجال الشجعان ذوو الحزم والعزم .

قال دريد : ذاك الضعيفان من عامر لا ينفعان ولا يضران[1] ..!!

ثم وجه كلامه إلى مالك فقال :

إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة[2] هوازن إلى نحور الخيل شيئاً ارجعهم إلى حصون بلادهم ، وعليا قومهم . ثم قاتل الصُّبَاءَ[3] ـ المسلمين ـ على متون الخيل ، فإن كانت الحرب لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك تكون قد أحرزت أهلك ومالك .

قال مالك : والله لا أفعل ذلك .

ثم قال : إنك يا دريد قد كبرت وكبر عقلك[4] . والله لتطيعنى يا معشر هوازن أو لأنكسنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى .

وكره مالك أن يكون لدريد بن الصمة ذكر أو رأى فى هذه الحرب التى ستدار بينه وبين محمد ـ ﷺ ـ .

فقالت هوازن : قد أطعناك .

فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ولم يفتنى ..

ثم أنشد شعراً فقال :

يا ليتنى فيها جذعْ[5]
أخُب فيها وأضعْ[6]
أقود وطفاء الزَّمَعْ[7]
كأنها شاةٌ صَدَعْ[8]

ثم خرج رسول الله ـ ﷺ ـ ومعه ألفان من أهل مكة مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه لفتح مكة ، فكانوا اثنى عشر ألفاً ، ثم مضى رسول الله ـ ﷺ ـ على وجهه يريد لقاء هوازن . ثم انحدروا فى واد من أودية تهامة

---

(١) أى الذين ليست لهم خبرة بالقتال ولا الصبر على أهوالها .
(٢) بيضة الرجل : جماعته وأهله .
(٣) كانوا يقولون صبأ فلان أى دخل الإسلام وأصبح له ديناً .
(٤) أى لا تحسن تدبير الأمور .
(٥) الجذع : الشاب القوى الجلد الذى يكون فى عنفوان شبابه .
(٦) الخب والوضع : نوعان من السير السريع والبطىء .
(٧) الوطفاء : الخيل الطويلة الشعر وهى من الخيل الجياد المدربة على القتال .
(٨) وهى تشبه الوعل الذى يتسلق الجبال ويسير بين الصخور .

أجوف . وهو واد مظلم وكانت هوازن قد سبقت إليه وكمنت فيه ، فهجموا على جيش المسلمين ، فكانت هزيمتهم وزحفهم إلى الخلف .

ولقد ثبت الرسول - ﷺ - ومعه جماعة من أهل بيته وصحابته ونادوا وصرخ العباس :

يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السَّمُرة .

فأجابوا : لبيك لبيك ..!

ثم زحفوا على المشركين فأجلوهم عن أماكنهم ، وفروا منهزمين ، ولحق بهم المسلمون يأسرون ويقتلون . وانجلت المعركة عن هزيمتهم هزيمة منكرة . وتفرغ خالد بن سعيد ومعه مجموعة من الصحابة فى حيازة الأسرى من الأطفال والنساء والشيوخ .

وتفرغ آخرون فى جمع الأغنام والأموال والخيل والإبل وسائر ما كانت تحمله هوازن من متاع وطعام .

إن هذه المعركة تعرض الانشغال عن الله تعالى والاعتماد على قوة غير قوته وهى كثرة العدد أو العددية « لن نغلب اليوم عن قلة » أو كثرة السلاح والدروع.

إن الكثرة العددية ليست بشىء ، وإن الكثرة لتكون أحياناً سبباً فى الهزيمة، لأن بعض الداخلين فيها التائهين فى غمارها ممن لم يدركوا حقيقة الإيمان ، تتزلزل أقدامهم وترتجف فى ساعة الشدة، فيشيعون الاضطراب والهزيمة فى الصفوف ، فوق ما تخدع الكثرة أصحابها ، فتجعلهم يتهاونون فى توثيق صلتهم بالله ، انشغالاً بهذه الكثرة الظاهرة .

لقد قام دين الإسلام وانتشر فى أركان الأرض بالصفوة المختارة لا بالزبد الذى يذهب جفاء ، ولا بالهشيم الذى تذروه الرياح يمنة أو يسرة . وكان هذا درساً وعاه جماعة المسلمين فى تلك الغزوة .

خالد بن سعيد والخليفة أبو بكر الصديق
- رضى الله عنهما -

انتهت غزوة حنين ، وقسَّم رسول الله - ﷺ - غنائمها على المحاربين من جيش الإسلام ، وعاد خالد مرة أخرى إلى أرض اليمن . حتى سمع بوفاة الرسول - ﷺ - وقد تمت البيعة للخليفة أبى بكر الصديق .

ولما علم خالد بذلك توجه لعلى بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان وغيرهما .

وقال : أرضيتم بنى عبد مناف أن يلى هذا الأمر عليكم غيركم .. ؟

فنقلها عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إلى أبى بكر ، فلم يحملها أبو بكر على خالد ، وحملها عمر عليه .

وأقام خالد ثلاثة أشهر لم يبايع أبا بكر .

ثم مرَّ عليه أبو بكر فى يوم من الأيام فى وقت الظهيرة فى بيته ..

فتكلما فى أمور المسلمين وما يصلحهم بعد وفاة رسولهم ، وانقطاع الوحى الذى كان يرسم لهم حياتهم ، ويبين لهم طريقهم .

عندها قال خالد : يا أبا بكر أتحب أن أبايعك .. ؟

فقال أبو بكر : أحب أن تدخل فى صلح ما دخل فيه المسلمون .

قال خالد : موعدك يا أبا بكر العشية أبايعك .

ثم جاء وأبو بكر على المنبر فبايعه .

وكان رأى الخليفة أبو بكر فى خالد حسناً ، وكان معظماً له . فلما أراد أبو بكر أن يبعث الجيش إلى أرض الشام جعل له قيادة إحدى الكتائب ، وبعث له اللواء إلى بيته .

فكلم عمر بن الخطاب الخليفة أبا بكر قائلاً له :

« تولى خالداً وهو القائل ما قال » فلم يزل به حتى أرسل أبا أروى الدوسى يطالبه برد اللواء إليه .

فما كان من خالد بن سعيد إلا أن دفعه إليه وقال : والله ما سرتنا ولايتكم ولا ساءنا عزلكم .

فما كان من الخليفة إلا أن ذهب إلى خالد وقال له : قد يكون فى ذلك خير لكم . لقوله تعالى : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ .. (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وما كاد الجيش يتحرك إلى جهة الشام حتى كان خالد بن سعيد قد انخرط جندياً عادياً فى صفوف الجيش ، إنهم الرجال الذين تربوا فى مدرسة الإسلام فتشربوا روح الإيمان ، وكانوا نماذج عالية فى تاريخ البشرية ، ولمعة مضيئة على جبهة التاريخ . لقد انضم خالد تحت إمرة القائد شرحبيل بن حسنة : الصحابى الجليل لرسول الله ـ ﷺ ـ .

ويعلم الخليفة أبو بكر بانضمام خالد إلى كتيبة شرحبيل بن حسنة .

فيقول له : يا شرحبيل ، انظر خالد بن سعيد، فاعرف له من الحق عليك مثل ما كنت تحب أن يعرفه لك من الحق عليك لو خــرج والياً عليك وقد عرفت مكانه فى الإسلام .

وأن رسول الله ـ ﷺ ـ توفى وهو له وال . وقد كنت وليـته ثم رأيت عزله ، وعسى أن يكون ذلك خيراً له فى دينه . وقدّ خيرته فى أمراء الأجناد، فاختارك على غيرك .

ثم قال أبو بكر : يا شرحبيل بن حسنة ، إذا نزل بك أمر تحتاج فيه إلى رأى المشير الناصح الأمين ، فيكون أول من تبدأ به أبو عـبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ، وخالد بن سعيد .

فإنك واجـد عندهم نصحـاً وخيـراً ، وإياك واستبـداد الرأى عنهم أو تطوى عنهم بعض الخبر ..!!

إن هؤلاء الرجال كانوا أمناء على دينهم حتى يكون كل منهم لمعة مضيئة لمن حوله ، وكانوا أمناء على أنفســهم أن يداخلها الشيطان فيفسـد عليهم حياتهم ، وكانوا أمناء على البشرية كلها وإخراجها من ظلام الكفر إلى نور الإيمان .

فمتى يعود المسلمون فى عصرنا الراهن إلى كتاب ربهم يحكمونه فيما بينهم حتى يعيدوا للـبشرية رشدها ، وينقذوها من الهوان والتـشتت والانقسام الذى تعيش فيه ..؟

خالد بن سعيد معرساً بين
أسنة الرماح والسيوف

شـهـد خالد بن سعيـد ـ رضى الله عنه ـ فتح أجنادين ، ومرج الصُّـفَر وهو جندى خبيـر بفنون القتال وفارس عرفـته صهوات الخيل . وكـانت معهم على أرض الشام الصحـابية الفاضلة أم حكيم بنت الحارث بن هشـام زوجة عكرمة ابن أبى جهل . وقد قُتل شـهيداً فى معركـة اليرموك . فاعتدّت عليه أربعة أشـهر وعشراً .

فتقدم يزيد بن أبى سفيان لخطبتها ، وكان خالد بن سعيد يتعرض لخطبتها أيضاً ، وفى النهاية اختارت خالد بن سعيـد ليكون زوجاً لها وأمهرها أربعمائة دينار .

فلما نزل المسلمـون مرج الصُّفَـر ، أراد خالد أن يُعرس بأم حكيم ، فـجعلت

تقول : لو أخرت الدخول حتى يفض الله هذه الجموع ..؟

فقال خالد : يا أم حكيم إن نفسى تحدثنى إنى استشهد غداً ، فلا تمنعينى من ذلك .

قالت أم حكيم : فدونك .

فأعرس بها عند مكان يسمى (القنطرة) فبها سميت قنطرة أم حكيم .

وأولم عليها فى صبح مدخله .

وما كاد الجنود يفرغون من طعامهم . حتى صفت الروم جنودها وطالبت المسلمين أن يخرجوا للقتال .

ثم تقدم منهم رجل معلم يدعو للبراز .

فبرز إليه أبو جندل بن سهيل بن عمرو .

فنهاه القائد أبو عبيدة ، ثم برز حبيب بن مسلمة ، فقتله حبيب ورجع إلى موضعه .. ثم برز خالد بن سعيد فقاتل حتى قُتل .

قُتل الفارس المغوار ، وانتقلت روحه إلى بارئها . حيث الخلود الدائم والخير العميم والرزق الوفير . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ﴾ [آل عمران]

دروس وعــبر ..
الأسرة فى الإسلام

■ خالد بن سعيد : بطل من أبطال الإسلام ، وفارس له دوره الفعال فى المعارك والحروب . ومع ذلك كانت الأسرة محط رحاله ومعقد آماله . فهى معه فى السلم والحرب ، فى الظعن والإقامة ، وعندما افتقد الزوجة فى إحدى المعارك بحث عن زوجة أخرى ، لأن الزوجة فى حياة البطل خالد ، كان لها سحر عجيب ، وفضل كبير ، وكأنه كان يستمد منها القوة والشجاعة ، والصبر والأمل على هزيمة الأعداء .

وفى معركة (أجنادين) والرقاب تتطاير ، والشهداء يتساقطون يتقدم خالد فى فترة الراحة بين الجولتين ، ويخطب أم حكيم زوجة الشهيد عكرمة بن أبى جهل الذى استشهد فى معركة (اليرموك) من أربعة شهور .

واستجابت الزوجة الصابرة المؤمنة على الزواج من خالد على أرض المعركة بعد أن مضت عدتها من الزوج السابق . لتقوم الأسرة ، وتمتد الحياة حتى لو كان ذلك من خلال مصرع الرجال وجندلة الأبطال .

فعلت أم حكيم ذلك . لأن الأسرة فى الإسلام هى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع ، ويحرص الإسلام على إحاطتها بمجموعة من الضمانات حتى تستطيع أن تؤدى واجبها كاملاً إزاء أبنائها وأبناء المجتمع .

والأسرة لن تستطيع أن تقوم بتربية الأولاد تربية تتفق مع شرع الله تعالى إلا إذا كان المجتمع ملتزماً بهذا الشرع قائماً به ، يحتكم إليه ، لأنه إذا كان المجتمع لا يقيم وزناً للقيم ولا للأخلاق ، وينخرط فى السلك المادى ، ومهما

حاولت الأسرة أن تقوم بواجبها فى تربية الأولاد ، فإن ذلك ستكون له آثار عكسية .

إذا كانت الأسرة تعلِّم أبناءها الصدق فى القول ، والصدق فى العمل ، والصدق فى كل ما يأتى المرء وما يدع .

ثم يخرج هذا الابن إلى المجتمع ، فيجد أن الصدق بضاعة كاسدة ، وعملة لا تروج . ويرى أن الذى يتقدم الصفوف هو الذى يتقن فن المداهنة ويجيد أساليب التملق ، ويحرص على إرضاء الرؤساء ، حتى لو كان هذا على حساب كل القيم وكل الأخلاق .

لا شك أن هذا التباين بين ما يتعلمه من الأسرة الصغيرة ، وما شاهده على صفحة المجتمع سيكون له أكبر الأثر على اتزان شخصيته ، واعتدال سلوكه .

ومـاذا يفعل الابن الذى تلقى على يد والديه : العفة فى اللسان وصيانة الأعراض ، وضبط النفس ، والحيلولة دون التطلع إلى جسد حرام أو مال حرام ، ويخرج هذا الابن إلى المجتمع ، فيرى أجساداً عارية ، وعورات مكشوفة ، وأعراضاً مباحة .

هذه الأعراض ينهش منها كل واغل ، وكل فاسق ، والمجتمع يرى ذلك فلا يغيره ، والحكومات تشاهد ذلك فلا تحرمه ، بل فى كثير من الأوقات تشجع عليه ، وتدعو له .

نعم تدعو له عن طريق إقامة الأماكن وتهيئة الأسباب ، حتى ينشغل الشباب به عن إسفاف الحاكم ، أو يلهوا به عن لصوصية القائمين على الحكم .

إن الأسرة تستطيع أن تفعل الكثير والكثير من أجل تربية أبنائها شريطة أن تقف الدولة بجانبها ، تشد من أزرها ، وتقيم قواعد المجتمع على أسس سليمة من القيم والأخلاق .

ولكن المشاهد فى هذا القرن الذى نعيش فيه أن الكثير من أجهزة الإعلام فى كثير من البلدان الإسلامية تعمل على إفساد المجتمع ، وعلى تفتيت الأسرة ، وعلى إشاعة الرجس بين الأبناء والفتيات .

إن الصحافة فى سبيل الحصول على الربح ، تعمل جاهدة على إذكاء الغرائز وتهييج الشهوات بما تقدمه من مادة فى الكتابة ، والصور العارية والكلمات

المثيرة ، تدفع الشباب دفعاً إلى الانسلاخ من كل القيم والأخلاق التى اكتسبها من خلال الأسرة .

زد على ذلك السوءات المكشوفة ، والأجساد الملفوفة ، والجنس المتنمر الذى لا يقف عند حد .

وإذا كانت الصحافة تفعل ذلك ، ومستمرة فيه ، فإن الإذاعة تعمل أيضاً على تقديم الأغانى الخليعة ، والكلمات المبتذلة ، والكفر البواح فى بعض الأوقات .

ثم جاء التلفاز والإنترنت وتفنن القائمون عليه ، فى أن يقدموا للمجتمع كل ما من شأنه أن يرضى الغرائز ويدفع إلى الانحلال .

إن الصحافة ، والإذاعة ، والتلفاز والإنترنت ، وكل المخترعات الحديثة ، أجهزة تعاونت البشرية ـ كل البشرية ـ فى إنشائها ، لتكون وسيلة من وسائل بناء المجتمع ، وعاملاً قوياً فى تشييد أركانه وأن يكون لها الدور الفعال والمفيد فى زيادة الإنتاج ، وتثبيت المبادىء العامة وأخلاقيات المجتمع .

نقول : يمكن أن يكون لها هذا الدور إذا التزمت بشرع الله وسارت على قواعد الدين والخلق .

إن الصحافة يمكن أن يكون لها الدور الأكبر فى التوجيه والتربية وإقامة رأى عام يدعو إلى الخير ويفعله .

والإذاعة أيضاً : عامل من عوامل التثقيف والإرشاد ، لكل طبقات الأمة ، فهى تستطيع أن تشارك الفلاح فى مزرعته ، ترشده إلى خير الطرق فى تنمية الزراعة ، وتجديد خصوبة التربة ، وإكثار الإنتاج . وتستطيع أيضاً أن تشارك الصانع فى مصنعه .

والطالب فى مدرسته أو جامعته .

والموظف فى عمله وديوانه .

والجندى وهو مرابط على الحدود لحماية الثغور .

كل هؤلاء يمكن أن تقدم لهم الجديد المبتكر فى كل علم وفن ، حتى تتقدم الحياة ، ويرقى المجتمع ويعم الرخاء .

وما تفعله الإذاعة يمكن أن يفعله التلفاز ويكون تأثيره أكبر ، فهو يقدم مع الكلمة الهادفة ، الكلمة الطيبة ، المثل والدليل، فتكون الفائدة أكبر والنفع أكثر .

وإذا لم تتدارك الأمم الإسلامية ذلك ، وتعود إلى كتاب ربها وإلى سنة

رسولها ، لا شك أنه يـصيبها مـا أصاب الأمم قبلها من الدمـار والخراب . قال تعالى فى شأن الذين انحرفوا عن جادة الحق وأهملوا شرع الله :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠) ﴾ [الحاقة]

ثم قال الله تعالى : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) ﴾ [محمد]

معاوية بن سفيان بن حرب

رضى الله عنه

عن عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - قالت :

دق الباب داق فقال النبى - ﷺ - :

- انظروا مَنْ هذا ؟

قالوا : معاوية .

قال : ائذنوا له . فدخل وعلى أذنه قلم يخط به .

فقال : ما هذا القلم على أذنك يا معاوية ؟

قال : قلم أعددته لله ولرسوله .

فقال له : جزاك الله عن نبيك خيراً ، والله ما استكتبتك إلا بوحى من الله .

قال الطبرانى : تفرد به السرى عن عاصم عن عبد الله بن يحيى

■ عملاق من عمالقة الولاة .

وداهيـة من دهاة السيـاسة . يقـول عن نفـسه : لو كـان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت لو شدوا أرخيت ، ولو أرخوا شددت .

وكاتب من كتّاب الوحى لعلمه وفضله .

وخليفة اتسـعت رقعت الإسلام فى عهـده ، وأجبر الشرك على الاسـتسلام والاستكانة والدخول فى دين الله .

والده : أبو سفيـان بن حرب كان من أشد الناس عـداوة للدين الجديد حتى شرح الله صدره للإسلام قبل فتح مكة .

كان محاربا صلباً له خبرة ودراسة فى تكتيك المعارك وإدارة دفة الحروب ، وتحقيق النصر فى النهاية .

فقئت إحدى عينيه فى غزوة الطائف ، وفقئت الثانية فى معركة (اليرموك) .

وهو سـيد من سـادات مكة ، ومن رؤساء دار الـندوة . ومن كبـار التجـار فى قريش .

وأمه : هند بـنت عتبـة بن ربيعـة تزوجها الفـاكهـة بن المغيـرة المخزومى ، وتعرضت يوماً لشك زوجها . وحين كـثر اللغط والكلام . قرر الفاكهة ووالدها عتـبة الاحـتكام إلى بعض كهـان اليمن ، فـخرج كل واحـد منهما مـع وفد من قومه .

وحين رأى الكاهن هند جالسة مع بعض النسوة تقدم إليها وقال :

انهضى غير غوية ولا زانية ، ولتلدن ملكاً يقال له معاوية .

وحين نهض إليها الفاكهة ليأخذ بيدها .

قالت : إليك عنى . فوالله لأحرص أن يكون ذلك من غـيرك ، ثم قالت لأبيها : إنى امرأة ملكت أمرى فلا تزوجنى رجلاً حتى تعرضه علىَّ .

فقال لها : لك ذلك . ثم تزوجها أبو سفيان .

فكان من أولادها يزيد بن أبى سفيـان ومعاوية بن أبى سفيان . وأم حـبيبة أم المؤمنين زوجة رسول الله ـ ﷺ [1] ـ .

عاش معاوية كما عاش أترابه على بطحاء مكة ، وفتَّح عينيه على وفود الحج التى تأتى إلى بيت الله الحرام لتقـدم القرابين والولاء للأصنام وتذرف الدموع أمامـها علها ترق وتكفـر عنهم خطاياهم . ولكن عقلية الفـتى معاوية اللمـاحة ، كانت لا تسـتريح لهذا كله . لأنه كـان كثيراً مـا يلمس الأصنام بيديه ويدفعـها بقدميه ، ويناديها فلا ترد النداء ، ويخاطبها فلا يسمع منها خطاباً ، وكان والده ينهره كلما رآه يفعل ذلك ، وينذره بعـاقبة غضبها عليه ، أن تصـيبه بعذاب فلا يستطيع الفكاك منه .

ولقد سـمع الفتى معاوية كـلام والده ، فابتعد عن الأصنام ، وقـاطع دخول بيت الله الحرام، فلم يذهب إليه من أجلـها ، وعاش عيشة قلقـة لم يستطع عقله الصغير أن يرشده إلى طريق الصواب فيها .

وكان الفـتى يراقب والده وهو واقف أمام الأصنام يتـمتم بكلمـات لا تبين، يطلب منها أن تبـارك رحلته إلى أرض الشام وهو ذاهب للتجـارة ، ويلح عليها فى الطلب أن تعيده مرة أخرى إلى مكة سالماً رابحاً .

يقول أبو هريرة : رأيت هند بمكة كأن وجهها فلقة قمر ، ومعها صبى يلعب، فمر رجل فنظر إليه فقال :

« إنى لأرى غلاماً إن عاش ليسودن قومه » .

فقالت هند : إن لم يسد قومه ، فأماته الله .

وقال محمد بن سعد : نظر أبو سفـيان يوماً إلى معاوية ـ وهو غلام ـ فقال لهند : إن ابنى هذا لعظيم الرأس ، وإنه لخليق أن يسود قومه .

فقالت هند : قومه فقط . ثكلته إن لم يـسد العرب قاطبة . وكانت هند تحمله

(١) راجع ترجمة وافية عن أم حبيبة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ فى كتابنا . (نساء أنزل الله فيهم قرآناً) .

وهو صغير وتقول :

إن بنى معرق[1] كريم ... محب فى أهله حليم
ليس بفحاش ولا لئيم ... ولا ضجور ولا سؤوم
صخر بنى فهر به زعيم ... لا يخلف الظن ولا يخيم

واستمر الفتى فى حياته الرتيبة ، التى لا جديد فيها ولا تغيير حتى بلغ مبلغ الشباب ، وصار والده يركن إليه ويستعين به فى كثير من شئون التجارة ومتطلبات الحياة .

حتى كان يوم سمع بنداء محمد على الصفا - يدعو قريش بنبذ عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الديان ، حيث أرسله الله تعالى رسولاً إلى قومه خاصة وإلى الناس عامة بقوله تعالى :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) ﴾ [الشعراء]

ولكن قريشاً بقيادة أبيه وقفت سداً منيعاً أمام هذه الدعوة وحاربت محمداً بكل ما تملك من قوة ، وأنزلت بأتباعه صنوف العذاب .

ثم هاجر محمد إلى يثرب ووجد هناك أنصاراً وأصحاباً ، واشتبك مع قريش فى معركة بدر وانتصر فيها انتصاراً باهراً .

عندها أخذ معاوية يتابع أخبار محمد ، ويطلب من أهل يثرب الذين يفدون إلى مكة لزيارة البيت الحرام سماع ما نزل على محمد من الوحى - وكانوا يستجيبون له ، وكلما استمع إلى شيء تفتح قلبه لهذا الدين الجديد .

ولكنه لم يستطع إظهار ذلك أو التحدث به .

إسلام معاوية - رضى الله عنه -

يقول معاوية عن نفسه : أسلمت يوم القضية ، ولكنى كتمت إسلامى عن أبى ، ثم علم بذلك فقال لى :

يا بنى : هذا أخوك يزيد ، وهو خير منك على دين قومه .

فقلت له : لم آل نفسى جهداً .

(١) أى صاحب أصل ونسب وكريم .

ثم يقول : ولقد دخل رسول الله ـ ﷺ ـ مكة : عمرة القضاء ، وإنى لمصدق به .

ثم لما دخل عام الفتح أظهرت إسلامى فجئته فرحب بى ، وكتبت بين يديه عندها قالت هند : والله يا بنى ، إنه قل إن تلد حرة مثلك ، وإن هذا الرجل قد استنهضك فى هذا الأمر ، فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت وقال له أبوه : يا بنى إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا .

قال : فذهبت فدعوته له فقيل : إنه يأكل .

فأتيت رسول الله ـ ﷺ ـ فقلت : إنه يأكل .

فقال : اذهب فادعه .

فأتيته الثانية فقيل : إنه يأكل فأخبرته .

فقال عليه السلام فى الثلاثة : لا أشبع الله بطنه .

قال : فما شبع بعدها .

وقد انتفع معاوية بهذه الدعوة فى دنياه وأخراه ، أما فى دنياه ، فإنه لما صار إلى الشام أميراً ، كان يأكل فى اليوم سبع مرات . ويقول : والله ما أشبع وإنما أعيا . وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك .

وأما فى الآخرة : فقد أتبع الإمام مسلم هذا الحديث بالحديث الذى رواه البخارى وغيرهما عن جماعة من الصحابة .

أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال :

« اللهم إنما أنا بشر فأيما عبد سببته أو جلدته ، أو دعوت عليه . وليس لذلك أهلاً فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة[1] » .

وأورد ابن عساكر بسنده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ـ ﷺ ـ «استشار جبريل فى استكتابه معاوية .

فقال جبريل : استكتبه ، فإنه أمين » .

وأورد الطبرانى بسنده عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : لما كان يوم أم حبيبة من النبى ـ ﷺ ـ دق الباب فقال النبى ـ ﷺ ـ : انظروا مَنْ هذا ؟

قالوا : معاوية .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الدعوات ٣٤ ومسلم فى كتاب البر ٩٠ .

قال : ائذنوا له ، فدخل وعلى أذنه قلم يخط به .

فقال عليه السلام : ما هذا القلم على أذنك يا معاوية ؟

قال : قلم أعددته لله ولرسوله .

فقال عليه السلام : جزاك الله عن نبيك خيراً ، والله ما استكتبتك إلا بوحى من الله ، وما أفعل صغيرة ، ولا كبيرة إلا بوحى من الله .

كيف بك لو قمصك الله قميصاً ـ يعنى الخلافة .. ؟

فقالت أم حبيبة فجلست بين يديه وقالت : يا رسول الله وإن الله مقمصه قميصاً .. ؟

قال عليه السلام : نعم ولكن فيه هنات وهنات .

فقالت : يا رسول الله ، فادع الله له .

فقال : «اللهم اهده بالهدى ، وجنبه الردى واغفر له فى الآخرة والأولى»[1].

وروى الإمام أحمد بسنده عن العرباض بن سارية السلمى قال : سمعت رسول الله ﷺ يدعونا إلى السحور فى شهر رمضان فقال : « هلم إلى الغداة المبارك ثم سمعته يقول : اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب»[2] .

معاوية والياً على الشام

توفى رسول الله ـ ﷺ ـ فارتدت الجزيرة العربية ، وامتنعت عن دفع الزكاة لأبى بكر خليفة المسلمين ، لكن صلابة الخليفة وقوة إيمانه لم يصبر على ذلك، بل جَيّش الجيوش وأرسل الفرسان إلى هؤلاء المرتدين حتى عادوا مرة أخرى إلى رحاب الإسلام .

ثم انطلقت هذه الجيوش خارج الجزيرة العربية ، تحمل كتاب الله فى يد لهداية الراغبين ، وضمهم إلى ساحة الإسلام ، وتحمل فى اليد الأخرى سيف الله ، لإزالة هؤلاء الواقفين أمام الإسلام ، والحائلين بينه وبين عباد الله فى كل الأصقاع والبقاع .

يقول صالح بن الوجيه كتب عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إلى يزيد بن معاوية يأمره بغزو قيسارية فغزاها ، وبها بطارقة الروم فحاصرها أياماً ،

(١) قال الطبراني: تفرد به السرى عن عاصم عن عبد الله بن يحيى بن أبى كثير عن هشام.
(٢) تفرد به أحمد ، ورواه ابن جرير من حديث ابن مهدى .

وكان معه معاوية أخوه ، فخلّفه عليها وصار يزيد والياً على دمشق، فأقام معاوية على قيسارية حتى فتحها فى شوال سنة تسع عشرة .

وتوفى يزيد فى ذى الحجة من ذلك العام فى دمشق وجاء البريد بموت يزيد على عمر - رضى الله عنه - وأبو سفيان عنده . فلما قرأ الكتاب بموت يزيد قال لأبى سفيان : أحسن الله عزاك فى يزيد ورحمه .

ثم قال له أبو سفيان : من وليت مكانه يا أمير المؤمنين .. ؟

قال : أخاه معاوية .

قال : وصلتك رحم يا أمير المؤمنين .

وسار معاوية مع الرعية سيرة حسنة ، وأغدق عليهم الأموال ، وجيّش الجيوش ، وحارب الشرك وأهله ، ودعا إلى الإسلام وجنده ، حتى تقلص نفوذ الروم فى تلك البلاد ، وعاشوا فى رعب وهلع من جنود الإسلام وكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قد أزمع السير إلى الشام لتفقد أحوال المسلمين على أرضها . وعلم معاوية - رضى الله عنه - بما عزم عليه عمر ، فأعد العدة للقائه واستقباله .

معاوية وعمر - رضى الله عنهما - على أرض الشام

قدم عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إلى أرض الشام فتلقاه معاوية فى موكب عظيم ، فلما دنا من عمر قال له :

« أنت صاحب الموكب العظيم ؟

قال : نعم يا أمير المؤمنين .

قال : هذا حالك مع ما بلغنى من طول وقوف ذوى الحاجات ببابك ؟

قال : هو ما بلغك من ذلك .

قال : ولم تفعل هذا .. ؟ لقد هممت أن آمرك بالمشى حافياً إلى بلاد الحجاز .

قال : يا أمير المؤمنين، إنَّا بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة ، فيجب أن نظهر من عز السلطان ما يكون فيه عز الإسلام وأهله ونرهبهم به ، فإن أمرتنى إئتمرت وإن نهيتنى انتهيت .

فقال له عمر : يا معاوية ، ما سألتك عن شىء إلا تركتنى فى مثل رواجب الضرس لئن كان ما قلت حقاً إنه لرأى أريب .

ولئن كان باطلاً إنه لخدعه أديب .

قال معاوية : فمرنى يا أمير المؤمنين بما شئت .. ؟

قال عمر : لا آمرك ولا أنهاك .

فقال عبد الرحمن بن عوف : يا أميـر المؤمنين، ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه .

فقال عمر : لحسن موارده ومصادره جشمناه ما جشمناه ..

روى ابن أبى الدنيـا بسنده عن عـبـد الرحـمن المدنى قـال : كان عـمـر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إذا رأى معاوية قال :

« هذا كسرى العرب » .

وعن يحـيى بن سعـيد عن جـده قال : دخل مـعاوية على عـمر وعليـه حلة خضـراء ، فنظر إليه الـصحابة ، فلـما رأى ذلك عمـر وثب عليه بالـدرة وجعل يضربه بها وجعل معاوية يقول :

« يا أمير المؤمنين الله الله فىَّ » .

فرجع عـمر إلى مجلســه ، فقال له القـوم : لِمَ ضربته يا أمـير المؤمنين .. ؟ وما فى القوم مثله ؟

فقال : والله ما رأيت إلا خيراً ، وما بلغنى إلا خير ، ولو بلغنى غير ذلك لكان منى إليه غير ما رأيتم . ولكن رأيته ـ وأشار بيده ـ أن أضع منه ما شمخ .

إنهم الرجال الذين تربوا فى مـدرسة الإسلام . نصحة بعـضهم لبعض، كل منهم يعمل على إصلاح الآخر ، ليكون كل منهم شـهادة لدينه أمام الآخرين. إن هؤلاء الصفوة الذين اختارهم الله تعالى لحمل دينه إلى البشرية كلها، فيجب أن يكون كل منهم ترجمة صادقة لكتاب الله تعالى فى الصغير والكبير .

فعمر صادق مع ربه ، وصادق مع نفسه ، وصادق مع الناس .

وهو يهتم بمصالح الآخرين أكثر من اهتمامه بنفسه .

وهو متواضع لله فلا يشمخ بأنفه لأنه أمير المؤمنين .

وهين لين فلا يمشى فى الأرض مرحاً كمشية الملوك .

وهو عطوف رؤوف فلا يتكبـر ولا يختال لأن الله تعالى لا يحب كل مـختال فخور وكيف يفخر على الخلق الذين هم عيال الله ، وأحبهم إلى الله أحسنهم إلى

عياله.. ويتقبل معاوية أفعال عمر بالرضا والاطمئنان والهدوء والسكينة فلا يغضب ولا يثور ولا يتقول أو يعارض .

ويسير ركب الصحابة الميمون إلى خير وجه إلى الفرار إلى الله تعالى .

مقتل عثمان ومعركة (صفين) بين علىً ومعاوية

قُتل الخليفة عثمان ـ رضى الله عنه ـ قتلته الفئة الباغية ، ودخل المسلمون فى فتنة رعناء ، ولفهم ليل داج لا فجر له ، وتحولت سيوف المسلمين إلى الداخل بعد أن كانت متوجهة إلى الخارج .

ووسط هذا الهول والفزع تمت البيعة بالخلافة للإمام علىً ـ رضى الله عنه . وأوشكت الفتنة أن تزول وضوء الفجر هاجم الليل حتى كانت فتنة أشد ضراوة تلف المسلمين جميعاً . من ذلك أن أهل الشام بقيادة معاوية بن أبى سفيان رفضوا البيعة لعلى ، حتى يسلموا لهم قتلة عثمان ـ رضى الله عنه .

عندها تحرك الإمام على بجيشه ، وتحرك معاوية بجيشه ، والتقى الجيشان على مشارف (صفين) .

عندها أرسل الإمام علىً ـ رضى الله عنه ـ وفداً إلى معاوية بقيادة عدى بن حاتم يدعوه إلى البيعة . فلما دخلوا عليه : قال عدى بعد أن حمد الله وأثنى عليه . أما بعد .

« يا معاوية ، فإنا جئناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمرنا ، ويحقن به الدماء ، ويأمن به السبل ، ويصلح ذات البين .

ثم تابع عدى حديثه قائلاً :

يا معاوية : إن ابن عمك سيد المسلمين أفضلها سابقة ، وأحسنها فى الإسلام أثراً وقد استجمع له الناس ، وقد أرشدهم الله بالذى رأوا، فلم يبق أحد غيرك ، وغير من معك من شيعتك . فانته يا معاوية ، لا يصيبك الله وأصحابك مثل يوم الجمل .

فقال له معاوية : كأنك إنما جئت مهدداً ولم تأت مصلحاً ، هيهات يا عدى كلا والله إنى لابن حرب لا يقعقع له بالشنان .

ثم تكلم شبيث بن ربعى ، وزياد بن حفصة فذكرا من فضل علىً وقالا : اتق الله يا معاوية ، ولا تخالفه ، فإنا والله ما رأينا رجلاً قط أعمل بالتقوى ولا أزهد فى الدنيا ، ولا أجمع لخصال الخير كلها منه » .

فتكلم معاوية فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد : فإنكم دعوتمونى إلى الجماعة والطاعة ، فأما الجماعة فمعنا هى ، وأما الطاعة فكيف أطيع رجلاً أعان على قتل عثمان وهو يزعم أنه لم يقتله !

ونحن لا نرد ذلك عليه ولا نتهمه به ، ولكنه آوى قتلته ، فيدفعهم إلينا حتى نقتلهم ، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة .

وعاد الوفد ولم يحرز تقدماً فى قمع الفتنة وإجلال الصلح ، وأخبروا الإمام علىَّ - رضى الله عنه - بما كان من موقف معاوية - رضى الله عنه .

ثم أرسل معاوية وفداً إلى علىَّ - رضى الله عنهما - بقيادة حبيب بن مسلمة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد .

« فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهدياً عمل بكتاب الله وسنة رسول الله - ﷺ - وثبت لأمر الله، فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته فعدوتم عليه ، فقتلتموه فادفع إلينا قتلته إن زعمت أنك لم تقتله ثم اعتزل أمر الناس، فيكون أمرهم شورى بينهم، فيتولى الناس أمرهم من جمع عليه رأيهم .

فقال له علىَّ : وما أنت لا أم لك ، وهذا الأمر ، وهذا العزل ، فاسكت فإنك لست هناك ولا بأهل لذاك .

فقال له حبيب : أما والله لترينى حيث تكره .

فقال له علىَّ : وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك لا أبقى الله عليك إن أبقيت ، اذهب فصعد وصوب ما بدالك .

ثم عاد وفد معاوية ولم يحرز تقدماً يذكر .

المعركة بين جيش العراق وجيش الشام

هنا استعد كل من الجيشين للقتال . ثم قام عمار فقال : إئتونى بشربة لبن، فإن رسول الله - ﷺ - قال : «آخر شربة تشربها من الدنيا تشربها يوم تقتل» .

ثم حمل عمار بن ياسر عليهم فحمل عليه ابن جوى السكسكى وأبو الغادية الفزارى ، فأما أبو الغادية فطعنه وأما ابن جوى فاحتز رأسه .

وقد كان ذو الكلاع قد سمع قول عمرو بن العاص : قال رسول الله - ﷺ - لعمار بن ياسر : « تقتلك الفئة الباغية وآخر شربة تشربها صاع لبن » [1] .

(١) الحديث رواه البخارى فى الصلاة ٦٣ ومسلم في الفتن ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ والترمذى فى المناقب ٣٤ وأحمد بن حنبل فى المسند ٢ : ١٦١ ، ١٦٤ ، ٢٠٦ (حلبى) .

ثم قُتل ذو الكلاع فقال عمرو لمعاوية : ما أدرى بقتل أيهما أنا أشد فرحاً بقتل عمار أو ذى الكلاع . والله لو بقى ذو الكلاع بعد قتل عمار لمال بعامة أهل الشام ولأفسد علينا جندنا .

ثم اختصما رجلان فى سلب عمار وفى قتله، فأتيا عبد الله بن عمرو بن العاص ليتحاكما إليه وهو عند معاوية .

فقال عبد الله بن عمرو : ليطب كل واحد منكما نفساً لصاحبه بقتل عمار ، فإنى سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول :

« تقتله الفئة الباغية » .

فقال معاوية لعمرو : ألا تنهى عنا مجنونك هذا .. ؟ ثم أقبل على عبد الله فقال : فلمَ تقاتل معنا .. ؟

فقال له : إن رسول الله ـ ﷺ ـ أمرنى بطاعة والدى ما كان حياً ، وأنا معكم ولست أقاتل .

يقول عبد الرحمن السلمى : قُتل عمار وهاشم بن عتبة حامل راية علىٍّ بن أبى طالب فلما كان الليل قلت لأدخلن إلى عسكر الشاميين حتى أعلم هل بلغ منهم قتل عمار ما بلغ منا .. ؟

وكنا إذا توادعنا من القتال تحدثوا إلينا وتحدثنا إليهم ، فركبت فرسى وقد هدأت الرجل ثم دخلت عسكرهم ، فإذا أنا بأربعة يتسامرون :

١ - معاوية بن أبى سفيان .

٢ - وأبو الأعور الأسلمى .

٣ - وعمرو بن العاص .

٤ - وابنه عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهم أجمعين .

قال : فأدخلت فرسى بينهم مخافة أن يفوتنى ما يقول بعضهم لبعض ، فقال عبد الله لأبيه :

يا أبت ، قتلتم هذا الرجل فى يومكم هذا وقد قال فيه رسول الله ـ ﷺ ـ ما قال .

قال : وما قال ؟

قال : ألم يكن معنا ونحن نبنى المسجد والناس ينقلون حجراً حجراً ولبنة

لبنة ، وعمار ينقل حجرين حجرين ولبنتين لبنتين ، فأتاه رسول الله فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول : « ويحك يا ابن سمية . الناس ينقلون حجراً حجراً ولبنة لبنة ، وأنت تنقل حجرين حجرين ولبنتين لبنتين رغبة منك فى الأجر وكنت مع ذلك « ويحك تقتلك الفئة الباغية » .

قال : فرجع عمرو صدر فرسه ثم جذب معاوية إليه فقال :

« يا معاوية أما تسمع ما يقول عبد الله ؟

قال : وما يقول ؟

قال : يقول وأخبره الخبر .

فقال معاوية : إنك شيخ أخرق ولا تزال تحدث بالحديث وأنت تدحض فى بولك ، أو نحن قتلنا عماراً ، إنما قتل عماراً من جاء به ؟

قال : فخرج الناس من عند مواقعهم وأخبيتهم وهم يقولون : إنما قتل عماراً من جاء به ، فلا أدرى من كان أعجب هو أو هم ؟

وقف المعارك

أوشكت الهزيمة أن تنزل بجيش الشاميين ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية إنى رأيت أمراً لا يزيدنا هذه الساعة إلا اجتماعاً ، ولا يزيدهم إلا فرقة . أرى أن نرفع المصاحف وندعوهم إليها ، فإن أجابوا كلهم إلى ذلك برد القتال وإن اختلفوا فيما بينهم فشلوا وذهب ريحهم .

فلما رُفعت المصاحف قال أهل العراق : نجيب إلى كتاب الله وننيب إليه .

فقال عليٌّ رضى الله عنه :

« عباد الله أمضوا إلى حقكم وصدقكم وقتال عدوكم ، فإن معاوية وعمرو ابن العاص ، وابن أبى معيط ، وحبيب بن مسلمة وغيرهم ليسوا يريدون كتاب الله ، وأنا أعرف بهم منكم ، صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً، فكانوا شر أطفال وشر رجال ، ويحكم والله إنهم ما رفعوها إلا خديعة ودهاء ومكيدة .

فقالوا : ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله . ثم قرأ رجل منهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ﴾ [آل عمران] واستجاب جيش عليٍّ وأوقف القتال .

قضية التحكيم بين علىٍّ ومعاوية

تراوض الفريقان على التحكيم وهو أن يحكِّم كل واحد من الأميرين علىٌّ ومعاوية رجلاً من جهته ، ثم يتفق الحكمان على ما فيه مصلحة للمسلمين ، فوكل معاوية عمرو بن العاص ووكل علىٌّ أبا موسى الأشعرى ، وكتبوا بينهم كتاباً إلى أجل يجتمع فيه الحكمان .

ثم اجتمع الحكمان فى شهر شوال وبعث على أربعمائة فارس مع شريح بن هانىء ، ليكونوا مع أبى موسى الأشعرى .

وبعث معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة فارس من أهل الشام، فتوافوا بدومة الجندل .

وحضر معهم مجموعة من أعيان الصحابة . ولم يحضر سعد بن أبى وقاص قال ابن جرير : إن عمر بن سعد بن أبى وقاص خرج إلى أبيه وهو على ماء لبنى سليم فى البادية معتزل .

فقال يا أبت : قد بلغك ما كان من الناس بصفين ، وقد حكَّم الناس أبا موسى الأشعرى ، وعمرو بن العاص ، وقد شهدهم نفر من قريش فأشهدهم فإنك صاحب رسول الله - ﷺ - وأحد أصحاب الشورى ، ولم تدخل فى شىء كرهته هذه الأمة ، فاحضر إنك أحق الناس بالخلافة .

فقال : لا أفعل . إنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إنها ستكون فتنة خير الناس فيها الخفى التقى »(1) .

والله لا أشهد شيئاً من هذا الأمر أبداً .

فلما اجتمع على أن يعزلا علياً ومعاوية ثم يجعلا الأمر شورى بين الناس ليتفقوا على الأصلح لهم منهما أو من غيرهما .

ثم جاء إلى المجمع الذى فيه الناس ، وكان عمرو لا يتقدم بين يدى أبى موسى ، بل يقدمه فى كل الأمور أدباً وإجلالاً .

فقال له : يا أبا موسى ، قم فاعلم الناس بما اتفقنا عليه .

فخطب أبو موسى ، فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على رسول الله - ﷺ - ثم قال :

« أيها الناس إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة ، فلم نرى أمراً أصلح لها ولا ألم

(1) الحديث رواه الإمام أحمد بسنده عن عمر بن سعد .

لشعثهـا من رأى اتفقت أنا وعمرو عليه ـ وهو أنا نخلع علياً ومعاوية ، ونترك الأمر شـورى ، وتستقـبل الأمة هذا الأمـر فيولوا عليـهم من أحبـوه ، وإنى قد خلعت علياً ومعاوية ثم تنحى ، وجاء عمرو فقـام مقامه . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن هذا قد قال مـا سمعتم ، وإنه قد خلع صاحبـه وإنى والله قد خلعته كما خلعه وأثبت صاحبى معاوية ، فـإنه ولى عثمان بن عفان ، والمطالب بدمه ـ وهو أحق الناس بمقامه .

فهل هدأت الفتنة وهل استقام الأمر .. ؟

إن الوقائع التى حدثت بعد ذلك تقول غير ذلك .

واستـمرت أمور المسلمـين فى أخذ ورد حـتى قُتل الإمام علىٌ ـ رحـمه الله ورضى الله عنه ـ وبويع لابنـه الحسن بالخـلافـة . ولكن الحـسن ـ رضى الله عنه ـ أراد أن يحـقن الدمـاء وأن يجـمع المسلمـين ، وأن يوحـد صـفـوفـهم ، ويجعلهم على الجادة ، والعمل على نشر دين الله والعمل على مرضاته ، فتنازل عن الخلافة لمعاوية ـ رضى الله عنه .

وبعدها دخل مـعاوية إلى الكوفـة فخطب الناس بها بعـد البيعـة . وذكر ابن جرير أن عمرو بن العاص أشار على معاوية أن يأمر الحسن بن علىٍّ أن يخطب فى الناس ويُعلمهم بنزوله عن الأمر لمعاوية .

فأمـر معاوية الحسن ، فـقام فى الناس خطيبـاً فقال : بعد حـمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسوله ـ ﷺ .

أما بعد : أيها الناس ، فإن الله هداكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا وإن لهذا الأمـر مدة ، والدنيـا دول ، وإن الله تعالى قـال لنبيـه : ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ ﴾ [الأنبياء]

فلما قـالها غضب مـعاوية وأمره بالجـلوس ، وعتب على عمـرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ على إشارته بذلك .

وقد روى الطبرانـى بسنده عن معاذ بن جبل وأبى عـبيدة وغيرهـما قالوا : قـال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن هذا الأمـر بدأ رحـمـة ونبوة ، ثم يـكون رحمـة وخـلافة ، ثم كـائن عتـواً وجبـرية وفـساداً فى الأرض ، يسـتحلون الحـرير والفـروج والخـمـور ، ويرزقـون على ذلك وينصـرون حـتى يلقـون على ذلك وينصرون حتى يلقوا الله عز وجل » .

معاوية ـ رضى الله عنه ـ
فى مدينة الرسول ﷺ

قال الأصمعى عن الشعبى : لما قدم معاوية المدينة عام الجماعة تلقته رجال من وجوه قريش فقالوا : الحمد لله الذى أعز نصرك وأعلا أمرك .

يقال : فما رد عليهم جواباً ثم قصد المسجد وعلا المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد .

« فإنى والله ما وليت أمركم حين وليته ، وأنا أعلم أنكم لا ترون بولايتى ولا تحبونها ، وإنى لعالم بما فى نفوسكم من ذلك ، ولكنى خاللتكم بسيفى هذا مخالة .

ثم قال : ولقد رمت نفسى على عمل ابن أبى قحافة ، فلم أجدها تقوم بذلك ولا تقدر عليه .

وأردتها على عمل ابن الخطاب فكانت أشد نفوراً وأعظم هرباً من ذلك وحاولتها على مثل نيات عثمان فأبت علىَّ ، وأين مثل هؤلاء ؟ ومَنْ يقدر على أعمالهم ؟ هيهات أن يدرك فضلهم أحد ممن بعدهم . رحمة الله ورضوانه عليهم.

ثم قال : غير أنى سلكت بها طريقاً لى فيه منفعة ، ولكم فيه مثل ذلك ، ولكن فيه مواكلة حسنة ، ومشاربة جميلة ، ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة، فإن لم تجدونى خيركم فأنا خير لكم ، والله لا أعمل السيف على من لا سيف معه ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دبر أذنى وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله، فارضوا منى ببعضه ، وإن السيل إذا جاء يبرى ، وإن قل أغنى ، وإياكم والفتنة فلا تهموا بها ، فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة . واستغفر الله لى ولكم ـ ثم نزل » .

ثم خطب أخرى فقال :

« يا أيها الناس : ما أنا بخيركم وإن منكم لمن هو خير منى ، عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو وغيرهما من الأفاضل . ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولاية ، وأنكأكم فى عدوكم ، وأدركم حلباً » .

ثم قال : وهو على منبر دمشق يوم جمعة :

« يا أيها الناس : اعقلوا قولى ، فلن تجدوا أعلم بأمور الدنيا والآخرة منى ، أقيموا وجوهكم وصفوفكم فى الصلاة ، أو ليخالفن الله بين قلوبكم ، خذوا على

أيدى سفهائكم ، أو ليسلطن الله عليكم عدوكم فليسومنكم سوء العذاب تصدقوا ولا يقولن الرجل إنى مقل ، فإن صدقة المقل أفضل من صدقة الغنى ، وإياكم وقذف المحصنات ، وأن يقول الرجل سمعت وبلغنى فلو قذف أحدكم امرأة على عهد نوح لسئل عنها يوم القيامة » .

إن معاوية فى هذه الخطبة تكلم بكلام بليغ إنه يطالبهم بإقامة الصلاة . ومن إقامة الصلاة إتمام ركوعها وسجودها ، ومن إقامة الصلاة عدم السهو فيها قال تعالى :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الماعون]

ومن إقامة الصلاة الخشوع فيها قال تعالى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [المؤمنون]

ومن إقامة الصلاة تسوية الصفوف وسد الفرج ، لأن تسوية الصفوف من إتمام الصلاة .

وقوله : خذوا على أيدى سفهائكم والسفهاء : الجهال والخرفاء ، وأصل السفه فى كلام العرب : الخفة والرقة ، وتسفهت الشىء استحقرته ، والسفه ضد الحلم قال الله تعالى فى شأن اليهود :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [البقرة]

وأيضاً يطالبهم بالصدقة حتى لو كانت قليلة لقول الرسول ـ ﷺ ـ : « اتقوا النار ولو بشق تمرة »[1] .

ويطالبهم بحفظ لسانهم وعدم التعرض للمحصنات أو قذفهن . وذلك لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور] .

(١) الحديث رواه البخارى فى الزكاة ٩ ، ١٠ والمناقب ٢٥ ومسلم فى الزكاة ٦٦ – ٦٨ والترمذى فى القيامة والزهد ٣٧ .

وقوله أيضاً :

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ④ ﴾ [النور]

ويطالبهم معاوية ـ رضى الله عنه ـ بالتثبت والتأكد فى نقل الأخبار ولا يردد ما يقوله الآخرون دون علم أو دليل ـ وذلك لقول الرسول ـ ﷺ ـ :

« إن رأيت مثل الشمس فاشهد أو فدع » .

وفى مثل هذه الأمور لا تجوز شهادة الفرد وحده ، ولابد من أربعة شهود عدول . ويقال : إن رجلاً ذهب إلى الرسول ـ ﷺ ـ وتكلم عن رجل يفعل الفاحشة فقال له عليه السلام : أمعك شهود؟

قال الرجل : لا يا رسول الله .

عندها قال عليه السلام : لو سترته بطرف ثوبك لكان خيراً .

وما حدث مع عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عندما شاهد رجلاً وامرأة يفعلان الفاحشة ، فوقف على المنبر وقال : أيها الناس لا تنصرفوا بعد الصلاة لإقامة الحد على فلان وفلانة ؟

فتقدم إليه علىٌّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قائلاً : يا أمير المؤمنين أمعك مَنْ يشهد بذلك ؟

قال عمر : لا .

قال علىٌّ ـ رضى الله عنه ـ والله لو ذكرت الأسماء لأقمنا عليك حد القذف . حتى لو كنت أميراً للمؤمنين .

حلم معاوية ـ رضى الله عنه ـ

الحلم من قوة النفس ، وسلامة الضمير ، ونقاء السريرة ، وصفاء الإيمان ومَنْ ملك نفسه عند الغضب كان جديراً بأن يسود قومه ، وأن يرتفع شأنه . وأن يكون من هؤلاء الذين عناهم الله بقوله :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ١٩٩ ﴾ [الأعراف]

وروى سفيان بن عيينة أن النبى ﷺ حين نزلت هذه الآية قال يا جبريل : ما هذا ؟

قال : لا أدرى حتى اسأل العالم . ثم عاد جبريل وقال : يا محمد ، إن ربك يأمرك بأن تصل من قطعك .

وتعطى من حرمك .

وتعفو عمن ظلمك .

ولقد كان معاوية بن أبى سفيان ـ رضى الله عنه ـ من الحلماء والكرماء صاحب أريحية صادقة ، ونفس طيبة وعقل كبير زانه الحلم والعفو قال الشعبى : جرى بين رجل يقال له أبو الجهم وبين معاوية كلام ، فتكلم أبو الجهم بكلام فيه غمز لمعاوية .

عندها أطرق معاوية ثم رفع رأسه فقال : يا أبا الجهم ، إياك والسلطان ، فإنه يغضب غضب الصبيان ، ويأخذ أخذ الأسد ، وإن قليله يغلب كثير الناس ، ثم أمر معاوية لأبى الجهم بمال .. عندها قال أبو الجهم يمدح معاوية :

نميل على جوانبه كأنا ... نميل إذا نميل على أبينا

نقلبه لنخبر حالتيه ... فنخبر منهما كرماً ولينا

فكأن معاوية ـ رضى الله عنه ـ عندما غضب تذكر قول الله تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

فكظم غيظه عن أبى الجهم .

وعفا عنه أحسن العفو .

وأحسن إليه أجمل الإحسان .

ومن ذلك روى عن ميمون بن مهران[1] أن جارية جاءت ذات يوم بصفحة فيها مرقة حارة وعنده أضياف ، فعثرت فصبت المرقة عليه ، فأراد ميمون أن يضربها . فقالت الجارية : يا مولاى ، تذكر قول الله تعالى : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ قال لها : قد فعلت .

فقالت : اعمل بما بعدها ﴿ والعافين عن الناس ﴾

فقال : قد عفوت عنك .

عندها قالت الجارية : ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ .

قال ميمون : قد أحسنت إليك ، فأنت حرة لوجه الله تعالى .

قيل للأحنف بن قيس : ممن تعلمت الحلم ؟

(١) فقيه من القضاة ، كان عالم الجزيرة وسيدها واستعمله عمر بن عبد العزيز على خراجها وقضائها ، وكان على مقدمة الجند الشامى مع معاوية بن هشام بن عبد الملك لما عبر البر غازياً إلى قبرص سنة ١٠٨ هـ .

قال من قيس بن عاصم ـ رأيته يوماً جالساً بفناء داره محتبياً بحمائل سيفه يحدّث قومه . إذ أُتى برجل مكتوف ، وآخر مقتول .

فقيل له : هذا ابن أخيك قتل ابنك .

قال : فوالله ما حل حبوته ، ولا قطع كلامه ، فلما أتمه التفت إلى ابن أخيه .

فقال : يا ابن أخى ، بئس ما فعلت أثمت بربك ، وقطعت رحمك ، وقتلت ابن عمك ، ورميت نفسك بسهمك .

ثم قال لابن له آخر : قم يا بنى فوار أخاك ، وحل كتاف ابن عمك ، وسق إلى أمك مائة ناقة دية ابنها فإنها غريبة.

لهذا قال الرسول ـ ﷺ ـ : « ليس الشديد بالصرعة ، ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب »[1] .

وروى أنس أن رجلاً قال : يا رسول الله ما أشد من كل شىء ؟

قال : غضب الله .

قال : فما ينجى من غضب الله ؟

قال : لا تغضب

ولذا قال العرجى الشاعر :

وإذا غضبت فكن وقوراً كاظماً
للغيظ تصر ما تقول وتسمع
فكفى به شرفاً تصبر ساعة
يرضى بها عنك الإله وترفع

وكان معاوية يقول : يا بنى أمية ، فارقوا قريشاً بالحلم ، فوالله لقد كنت ألقى الرجل فى الجاهلية فيوسعنى شتماً وأوسعه حلماً . فأرجع وهو لى صديق . إن استنجدته انجدنى ، وأثور به فيثور معى ، وما وضع الحلم عن شريف شرفه ولا زاده إلا كرماً .

ثم قال : آفة الحلم الذل .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى الأدب ١٠٢ ورواه مسلم فى كتاب البر ١٠٦ ، ١٠٨ وصاحب الموطأ فى حُسن الخلق ١٢ وأحمد بن حنبل فى المسند ٣٨٢/١ (حلبى) .

وقال : لا يبلغ الرجل مبلغ الرأى حتى يغلب حلمه جهله ، وصبره شهوته ولا يبلغ الرجل ذلك إلا بقوة الحلم .

فالحلم إذن من أشرف الأخلاق ، وأحقها بذى الألباب ، لما فيه من سلامة العرض وراحة الجسد واجتلاب الحمد .

وكان النبى - ﷺ - يقول :

« أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم ؟

قالوا : وماذا كان يفعل يا رسول الله ؟

قال عليه السلام : كان إذا خرج من منزله قال : « اللهم إنى تصدقت بعرضى على عبادك » .

وروى عن النبى - ﷺ - أيضاً :

« إن الله يحب الحليم الكريم ويبغض الفاحش البذى »[1] .

وقال عبد الله بن الزبير - رضى الله عنه - لله در ابن هند ، إن كنا لنفرقه وما الليث على براثنه بأجرأ منه ، فيتفارق لنا .

وإن كنا لنخدعه وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا .

والله لوددت أنا متعنا بما دام فى هذا الجبل حجر - وأشار إلى أبى «قبيس» .

وقال رجل لمعاوية : من أسود الناس ؟

قال : أسخاهم نفساً حين يسأل ، وأحسنهم فى المجالس خلقاً ، وأحلمهم حين يستجهل .

وقال عبيدة بن معمر بن المثنى : كان معاوية يتمثل بهذه الأبيات :

فما قتل السفاة مثل حلم
يعود به على الجهل الحليم
فلا تسفه وإن ملئت غيظاً
على أحد فإن الفحش لوم

(١) الحديث رواه الترمذى فى كتاب البر باب ما جاء فى حُسن الخلق بسنده عن أبى الدرداء .

ولا تقطع أخـــاً لك عنـــد ذنب

فـــإن الذنب يغـــفـــره الكريم

وقال القاضى الماوردى فى الأحكام السلطانية : أتوا لمعاوية بمجموعة من اللصوص . فقطعهم حتى بقى واحد من بينهم فقال شعراً :

يمـــينى أمـــيـــر المؤمنين أعـــيـــذها

بعـــفـــوك أن تلقى مكاناً يـشـــينهـــا

يدى كانت الحسناء لو تم ســـترها

ولا تعدم الحسناء عيـــبـاً يشـينها

فلا خير فى الدنيا وكانت حبيبة

إذا ما شمـــالى فارقتها يمينها

فقال معاوية : كيف أصنع بك وقد قطعنا أصحابك ؟

فقالت أم السارق : يا أمير المؤمنين اجعلها فى ذنوبك التى تتوب منها . فخلى سبيله فكان أول حد ترك فى الإسلام .

ونعتقد أن هذا ليس من الحلم فى شىء ، فهو جرأة على الله تعالى فى عدم تنفيذ حدود الله . وتعطيل له لقول الرسول ـ ﷺ ـ : « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

بعد قوله : يا أيها الناس إنما أُهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد »[1] .

لعل معاوية اجتهد : والمجتهد إذا أصاب فله أجران ، وإذا أخطأ فله أجر .

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم فى كتاب الحدود ، باب قطع السارق الشريف وغيره ٨ (١٦٨٨) بسنده عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : وذكره . ورواه البخارى فى المغازى ٥٣ والأنبياء وأبو داود فى الأقضية ١٤ والترمذى فى الحدود ٦ .

معاوية والكلم الطيب

كان معاوية ـ رضى الله تعالى عنه ـ حكيماً عاقلاً ، صاحب بصيرة نافذة وعقل راجح ، وفراسة ساس بها الرعية ، ورفعته إلى مقعد الخلافة ومن أقواله التى وعتها ذاكرة الدهر :

« المرءوة فى أربع :

العفاف فى الإسلام ، واستصلاح المال ، وحفظ الإخوان وتفقد أحوال الجار» .

وقال أيضاً : «أفضل الناس مَنْ إذا أُعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر ، وإذا غضب كظم ، وإذا قدر غفر ، وإذا وعد أنجز ، وإذا أساء استغفر » .

وقال ابن أبى الدنيا : آخر خطبة خطبها معاوية أن قال :

« أيها الناس : إن مَنْ زرع حصد ، إنى قد وليتكم ولن يليكم أحد بعدى خير منى ، وإنما يليكم من هو شر منى ، كما كان من وليكم قبلى خيراً منى » .

ثم خاطب ابنه يزيد بقوله :

« يا يزيد ، إذا دنا أجلى فول غسلى رجلاً لبيباً ، فإن اللبيب من الله بمكان فلينعم الغسل ، وليجهر بالتكبير ، ثم أعمد إلى منديل فى الخزانة فيه ثوب من ثياب رسول الله ـ ﷺ ـ وقراضة من شعره وأظافره ، فاستودع القراضة أنفى وفى أذنى وعينى ، واجعل ذلك الثوب مما يلى جلدى دون لفافى .

ويا يزيد ، احفظ وصية الله فى الوالدين ، فإذا أدرجتمونى فى جريدتى ، ووضعتمونى فى حفرتى ، فخلوا معاوية وأرحم الراحمين .

ثم قال :

لعمرى لقد عمرت فى الدهر برهة
ودانت لى الدنيا بوقع البواتر
واعطيت حمر المال والحكم والنهى
ولى سلمت كل الملوك الجبابر
فأضحى الذى قل كان مما يسرنى
كحكم مضى فى المزمنات الغوابر

فيا ليتنى لم أعن فى الملك ساعة
ولم أسع فى لذات عيشى نواضر
وكنت كذى طمرين عاش ببلغة
فلم يك حتى زار ضيق المقابر

ثم أوصى بأن يرد نصف ماله إلى بيت المال ، ثم ثقل عليه المرض فقال : تباً لك من دار ملكتك أربعين سنة عشرين أميراً وعشرين خليفة ، ثم هذا حالى فيك ، ومصيرى منك تباً للدنيا ولمحبيها .

ثم قال : اللهم أقل العثرة ، واعف عن الزلة ، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يرج غيرك ، فإنك واسع المغفرة ، ليس لذى خطيئة من خطيئته مهرب إلا إليك . ثم فاضت روحه إلى بارئها .

رحمه الله رحمة واسعة بمقدار ما قدم من خير للإسلام والمسلمين ، وأسكنه فسيح جناته إنه نعم المولى ونعم النصير .

عظات وعبر..
الرقابة على أعمال الحاكم

■ الإسلام دين عام للناس كافة ، وعقيدة ارتضاها الله سبحانه وتعالى ختاماً لرسالاته ، واصطفاها لتصنع على أعين الناس .

الناس الذين قال الله تعالى فيهم .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران]

والحكم فى الإسلام عقد بين متعاقدين بين الحاكم من جهة ، وبين الرعية من جهة أخرى ، وهو من قبيل التعاون على البر والتقوى ، لأن الحياة الإنسانية فى كل صورها لا تقوم إلا بالتعاون ، ولا تستقيم إلا بهذا النظام .

والأمة الإسلامية فى حقيقتها هى مصدر السلطات ، وليس للملوك ، ولا الرؤساء فى الدولة الإسلامية من الأمر إلا ما تريده الأمة وترضاه . فهى التى تقيم الدولة ، وهى التى تنظمها ، وهى التى تختار أولياء الأمر فيها ، وهى التى تصدر مصالحها ، وتدرأ مفاسدها ، وليس الحكام إلا وكلاء عن مجموع الشعب يستمدون سلطانهم منه .

فالحاكم فى منهج الإسلام : ليس شخصاً مقدساً ، ولا حاكماً بأمره ، وليس وارثاً لملك ، ولا مهيمناً على عقائد الناس وقلوبهم ، إنه طرف فى عقد ليقوم بأعمال الوكالة باسم المجموع .

يقول الإمام ابن حزم الأندلسى رحمه الله :

« البيعة من قبل التعاون على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فالمتتبع لأخبار الخلفاء الراشدين يجد أن البيعة كانت أساس الاختيار ، وأنها كانت العقد الذى يعقد بين الإمام والأمة ، وهو عقد موثق بالإيمان يجعل على كلا

الفريقين التزاماً دقيقاً يجب عليه تنفيذه ، والقيام بحقه ، ويلزم الإمام بإقامة كتاب الله وسنة رسوله ، ويلزم الأمة بالسمع والطاعة فى المنشط والمكره ، ما لم يكن عصياناً لأمر الله ونهيه ، فإن كان عصياناً فلا سمع ولا طاعة[1] .

قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ .. (٢) ﴾ [المائدة]

وإذا كان هذا موقف الإمام ابن حزم فيما يكون بين الحاكم والمحكوم، فإن الإمام ابن تيمية فى كتابه (السياسة الشرعية) يرى أن الحكم أمانة ، وأن آية الأمراء فى القرآن هى قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) ﴾ [النساء]

وقال تعالى أيضاً :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) ﴾ [النساء]

قال العلماء : نزلت الآية الأولى فى ولاة الأمور . عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل ، فإن خانوا الأمانة سُلبت منهم الولاية .

ونزلت الآية الثانية فى الرعية . عليهم أن يؤدوا أمانة الطاعة ، إلا أن يؤمروا بمعصية ، فإذا أمروا بمعصية فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

والفيصل الحكم ، والميزان القسط بين الحاكم والرعية ، هو كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله الكريم ، فإذا اختلف بين طرفى الأمانة ردوا الخلاف إلى الكتاب والسنة ليفصلا بينهما ، وعليهما السمع والطاعة[2] .

وإذا كان الحاكم فى رأى العالمين الجليلين فرداً من أفراد الأمة ، ووكيلاً عنها ويستمد سلطانه منها . فإن الإمام محمد عبده ـ رحمه الله ـ له رأى آخر أيضاً . يوضح لنا فيه : حقيقة خليفة المسلمين وموقف الرعية منه ؟

يقول الإمام : « الخليفة على المسلمين ليس بالمعصوم ، ولا من حقه

(١) (ابن حزم) للشيخ محمد أبو زهرة .
(٢) (السياسة الشرعية) للإمام ابن تيمية .

الاستـئثار بتفسير الكتـاب والسنة ، ولا يخصه الدين فى فـهم الكتاب والسنة والعلم بالأحكام بمزيـة ، ولا يرتفع به إلى منزلة ، بل هو وسـائر طلاب الفـهم سواء إنما يتفاضلون بصفاء العقل ، وكثرة الإصابة فى الحكم .

فـالأمـة أو نائب الأمـة ، هو الذى ينصـبـه والأمة هى صـاحـبـة الحق فى السيطرة عليه ، وهى التى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها »[1] .

وهكذا وضع الإسـلام أسس الرقـابة العامـة التى تمكّن الأمـة من مـراقبـة الحكام والسـيطرة على الأمور فى الدولة ، ومنـها الانحراف والـفساد قـبل أن يزيد ويستفحل ، وتتمثل هذه الأسس فى مجموعة من القواعد منها :

١ – وجوب الشورى .

٢ – مسئولية ولى الأمر أمام الأمة .

٣ – حرية الرأى ونقـد الحكام ـ إذا أخطأوا ـ ومناصحتـهم عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

أما عن الشورى : فهى دعامة من دعـائم الحكم فى الإسلام ، وقاعدة صلبة من قواعده ، وهى بهذا التصور تعـطى الأمة الحق فى إدارة شئونها والإشراف عليها ، وتمثل ضمانة أساسية تحـول دون مخالفة الحاكم للقواعد والأصول أو الانحراف فى استـعمال السلطة ، لأن القرار الذى يقدم عليـه الحاكم لن يخرج إلى حيز التنفـيذ إلا بعد بحث واستقـصاء وتحرى المصلحة العامـة ، ومشاورة المختصين .

يقول الإمام ابن تيمية فى كتابه السابق « السياسة الشرعية » : إن الله تعالى أمر نبـيه ـ ﷺ ـ بالشورى لتكون شـرعة ملزمة لمن بعـده وقد جعلهـا الله ثمة صفـة للمؤمنين فى قـوله تعالى : ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) ﴾

[الشورى]

ولما كان الغرض من الـرقابة على أعمال الحكام هو تحقـيق الالتزام بأحكام الشريعـة ، وذلك بالحيلولة دون استـبدادهم بالسلطة وانحرافـهم عن المصلحة العامـة ، فإن الإسـلام لم يكتف بتحـقيق الرقـابة السابقـة على أعمـال الحكام

(١) (الإسلام والنصرانية) للشيخ محمد عبده .

المتمثلة فى إيجاب مبدأ الشورى ، وإنما كفل وجود رقابة دائمة ومستمرة على أعمال الحكام للحيلولة بينهم وبين مخالفة أحكام الشرع فى التطبيق ، وذلك بأن أوجب على الأمة وألزمها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ووجوب مناصحة أولى الأمر .

أما عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : فقد تضافرت النصوص على تأكيد واجب الأمة فى الرقابة على أعمال الحكام ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر .

أولاً : من القرآن الكريم : قال تعالى :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104) ﴾ [آل عمران]

وقوله أيضاً : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) ﴾ [التوبة]

وثانياً : من السنة : من ذلك ما رواه أبو داود عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ إن أول ما دخل النقص فى بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا ، اتق الله ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد . وهو على حاله ـ فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قرأ :

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79) ﴾ [المائدة]

ثم قال عليه السلام والله لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ـ أى تقرونه على الحق قهراً . أو ليضربن بعضكم بقلوب بعض ثم تدعون فلا يستجاب لكم » .

من هنا نقول : إن الرقابة التى يجب أن يمارسها كل مسلم تكون رأياً عاماً تكون له الهيمنة على المثل العليا ، والقيم الفاضلة فى المجتمع ، وإذا تحقق ذلك، فإنه سيكون ضمانة من الضمانات الأكيدة التى تحفظ المجتمع وتؤكد على قيمه ومثله ويعتبر سياجاً منيعاً وقوة لها وزنها ضد أى انحراف أو مخالفة للقانون .

صور من تطبيقات الرقابة

إن ما ذكرناه من رقابة الأمة على أعمال الحكام ليس مجرد نصوص جامدة على الورق لم تخرج إلى حيز التنفيذ ، بل إنها مورست في عهود الحكم الإسلامى على اختلاف صورها من مجرد النصيحة إلى العزل والقتل وامتثل الحكام لها باعتبارها أساساً من أسس الحكم الذى يقوم عليه النظام الإسلامى .

ولقد قام عامة المسلمين وخاصتهم ، عالمهم وجاهلهم بهذا الواجب خير قيام. من ذلك ما يروى أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ جاءته بُرُود من اليمن، فوزعها على المسلمين بالتساوى ـ كل مسلم على برد ، ثم بعد هذه الواقعة . وقف عمر يخطب وهو يلبس ثوباً منها فقال :

« أيها الناس اسمعوا وأطيعوا » .

فقام إليه رجل من المسلمين وقال : لا سمع ولا طاعة .

قال عمر : ولمَ ذلك يا أخا العرب .. ؟

قال : لأنك اسَتأثرت علينا .

قال عمر : بأى شىء ؟

قال : إن الأبراد اليمنية لما فرقتها ، وحصل كل واحد من المسلمين على برد منها وكذلك حصل لك ، والبرد الواحد يكفى الواحد منا ، ونراك قد فصلته ثوباً تاماً ، وأنت رجل طويل القامة ، فلو لم تكن أخذت أكثر منا لما جاءك منه ثوب .

فالتفت عمر إلى ابنه عبد الله وقال : يا عبد الله ، أجبه عن كلامه . فقام عبد الله وقال : « إن أمير المؤمنين عمر لما أراد تفصيل برده لم يكفه فناولته بردى فأتممه منه » .

فقال الرجل : أما الآن . فقل نسمع ونطيع » .

إن هذه الرقابة الواعية من أفراد الرعية تلحظ كل شىء ، وتراقب ما يحيط بها حتى ثوب الحاكم لم يخل من تلك المراقبة ، وعندما يجدونه وهو الطويل يلبس ثوباً كاسياً مع علمهم أن الأثواب التى جاءت من اليمن لا تكفى إلا متوسطهم أو قصار القامة ، يرتابون فى نية الأمير ، ولا يهدأ لهم بال ، أو يستريح لهم فكر حتى يتعرفوا على حقيقة الأمر .

وعندما تتكشف لهم الأمور ، وتستقيم على الجادة تكون الإجابة ، ويكون السمع ويقودون إلى الحق ، ويفيئون إلى الصواب ، ويقولون للحاكم الذى كان موضع مساءلة من لحظات :

قل يا عمر : الآن نسمع ونطيع .

لم يغضب الحـاكم من هذه المساءلة لأنهـا من حق الرعيـة ، بل من واجبـها وتعتبر آثمة إن قصرت فى أدائها .

ولم يتغاض المحكومـون عن شىء يرون فيه أن الحاكم قـد قصر فى أدائه ، أو ميز نفسه عنهم بقطعة من ثوب .

إنهم الرجال الذين تربوا فى مدرسة الإسلام وعبوا من هدى القرآن .

وشىء آخر .. مر عـمر ـ رضى الله عنه ـ بخولة بنت ثعلبة فى أيام خـلافته فقالت المرأة : قف يا عمر .

فدنا منها وأصغى إليها ، فقالت له : إيه يا عـمر ، عهدتك وأنت تسمى عميراً وأنت فى سوق عكاظ ترعى القيان بعصـاك فلم تذهب الأيام حتى سُميت عمر ، ثم لم تذهب الأيام حتى سُـميت أمير المؤمنين ، فاتق الله فـى الرعية ، وأعلم أنه مَنْ خاف الوعيد قرب عليه البعيد ، ومَنْ خاف الموت خشى الفوت .

فقال الجارود وكان فى رفقة عمر: قد أكثرت أيتها المرأة على أمير المؤمنين .

فقال عمر : دعها أما تعرفها ؟

إنها خولة بنت ثعلبة امرأة عبـادة بن الصامت التى سمع الله قولها من فوق سبع سمـوات فعمر والله أحق أن يسمـعها مشيـراً بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ① ﴾ [المجادلة]

وليست هذه فحسب ولكن غيرها كثير من ذلك .

إن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ خطب يوماً فقال : لا تزيدوا فى مهور النســاء على أربعـين أوقـيـة وإن كـانت بنـت ذى القـصعـة يـعنى ـ يزيد بن الحصين ـ فمَنْ زاد ألقيت الزيادة فى بيت المال .

فقامت امرأة وقالت معترضة على ذلك : ما ذاك لك .

قال عمر : ولمَ ..؟

قالت : لأن الله تعالى يقول :

﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ⑳ ﴾ [النساء]

فقال عمر : أصابت امرأة ، وأخطأ عمر .

وهكذا كانت المرأة أيضاً تشارك مشاركة فعالة فى صدر الإسلام فى واجب الرقابة ، والرقابة على الحاكم والرقابة على الرعية .

فالأولى : تذكر الحاكم بحياته الأولى ، وكأنها خشيت على عمر أن يبطره الجاه ، أو تنال منه زخارف الحياة فذكرته الموت ، وبما هو كائن بعد الموت ، حيث لا ينفع الإنسان إلا ما قدم من عمل صالح .

والثانية : أرادت أن تبين للحاكم الخطأ الذى يقع على الرعية من تقييد المهور، فردته إلى الصواب وبينت له منهج القرآن الكريم فى مثل هذه المسألة .

ولم يغضب الحاكم ، ولم يشعر مطلقاً بأن هذا الشىء ينتقص من هيبة الحكم أو يقلل من قيمة الحاكم بين جماعة المسلمين .

إن التبعة التى يحملها الحاكم ، ومسئولية الرعية وشئون الدولة ليست خاصة به وحده ، ولكن المسلمين جميعاً شركاء فى تلك المهمة ، فإذا انحرف الحاكم ولم تأخذ الأمة على يده ، أوشك الله أن يعمهم بعذاب من عنده قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال]

ويحدثنا أبو حامد الغزالى ـ رحمه الله ـ حديثاً مستفيضاً عن قيام المسلمين بواجب الرقابة على حكامهم فيضع بين أيدينا هذه الواقعة فيقول :

« روى أن معاوية بن أبى سفيان ـ رضى الله عنه ـ حبس عطاء الناس، فقام إليه أبو مسلم الخولانى فقال له :

« إنه ليس من كدك ولا من كد أبيك ولا من كد أمك !

فقال معاوية ـ بعد أن سكن غضبه ـ : صدق أبو مسلم إنه ليس من كدى ولا من كد أبى ، فهلموا إلى عطائكم » .

وروى أيضاً أن أبا بكرة ـ دخل على معاوية فقال له :

« اتق الله يا معاوية ـ وأعلم أنك فى كل يوم يخرج عنك وفى كل ليلة تأتى عليك لا تزداد من الدنيا إلا بعداً ، ومن الآخرة إلا قرباً ، وعلى أثرك طالب لا تفوته ، وقد نصب لك علماً لا تجوزه فما أسرع ما تبلغ العلم وما أوشك ما يلحق بك الطلب ، وإنا ما نحن فيه زائل ، وفى الذى نحن إليه صائرون . إن خيراً فخير وإن شراً فشر » .

ودخل أعرابى على سليمان بن عبد الملك . فقال : « تكلم يا أعرابى .

فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى مكلمك بكلام فاحتمله ـ وإن كرهته ـ فإن وراءه ما تحب أن قبلته .

فقـال : يا أعرابى ، أن لنجـود بسعة الاحـتمـال على مَنْ لا نرجو نصـحه ، ولا نأمن غشه . فكيف بمَنْ نأمن غشه ونرجو نصحه ؟

فقـال الأعرابـى : يا أميـر المؤمنين ، إنه قد تكنفـك رجال أسـاءوا الاختـيار لأنفسـهم ، وابتاعوا دنياهم بدينهم ورضـاك بسـخط ربهم ، خافوك فى الله تعالى ولم يخـافوا فـيك ، حرب الآخرة ، سـلم الدنيا فـلا تأمنهم على ما ائتـمنك الله تعالى عليه ، فإنهم لم يألوا فى الأمانة تضييعاً ، وفى الأمة خسفاً وعسفاً وأنت مسـئول عما اجـترحوا ، وليـسوا بمسئولين عـما اجتـرحت ، لا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس غبناً من باع آخرته بدنيا غيره .

فقال له سليمان : يا أعرابى أما أنك سللت لسانك وهو أقطع سيفيك ؟

قال : أجل يا أمير المؤمنين ، ولكن لك لا عليك » .

إن هذا الرجل ـ الذى هو من أفراد الرعـية ـ وضـع الحاكم أمام مسـئولياته وبصَّره بعيوب الحـاشية ، وما تفعله من وراء ظهره ، فـإن كان يعلم بذلك فهو مشارك لهم فيما يقترفونه من إثم ، وما يجترحونه فى حق الرعية .

وإن كان لا يعلم ، فإن ذلك أيضاً لا يعفيه من المسئولية ، المسئولية أمام ربه والمسئولية أمام نفسه ، والمسئولية أمام رعيته .

وقديماً قال الشاعر :

إن كنت تدرى فتلك مصيبة   وإن كنت لا تدرى فالمصيبة أعظم

إن ما حل بالمسلمين فى هذا العـصر الذى نعيش فيه من انهزامـهم فى كثير من مـعاركـهم الحربيـة والسـياسـية والفكـرية ، يرجع أولاً وأخيـراً إلى فقـر المجتمـعات الإسلاميـة من أمثال هؤلاء الرجـال .. الرجال الذين يكون لهم دور إيجابى فـى الرقابة على أعـمال الحكام لمجرد النـصيحـة والشكوى من الحكام لتغـيير الحال ، بل إن الأمـر تعدى إلى إزالة المخالفة باليـد ، وإن أدى الأمر إلى عزل الولاة ومنعهم من مباشرة عملهم وقتلهم أن استدعى الأمر .

والإمام الطبرى يحدثنا فى تاريخه أن أهل البصـرة منعوا أميرهم المغيرة بن شعبة من القيام بعمله وقالوا له : لا تصل بنا ، واتهموه فى خلقه ودينه وكتبوا إلى عمـر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بذلك ، فعـزله واستقـدمه مع الشـهود وولى بدلاً منه أبا موسى الأشعرى .

والذى فعله أهل البصرة ، فعله أيضاً أهل الكوفـة وطردوا أميرهم سعيد بن

العاص ومنعوه من دخول البلاد لسوء سيرته فيهم ، وكتبوا إلى عثمان ـ رضى الله عنه ـ إنا والله ما منعنا عاملك الدخول لنفسد عليك عملك ، ولكن لسوء سيرته فينا وشدة عذابه لنا ، فابعث إلى عملك من أحببت .

ومن قبل سعيد بن العاص ـ كان الوليد بن عقبة واليًا على الكوفة ، فتقدم وفد من أهلها إلى عثمان ـ رضى الله عنه ـ يتهمونه ـ أى الوالى ـ بشرب الخمر ويطلبون عزله .

وتجمعت الأدلة لدى عثمان على إدانة الوليد فعزله وأحضره إلى المدينة وكلف الإمام علىّ ـ رضى الله عنه ـ بأن يقيم عليه الحد .

فقال الإمام علىّ ـ كرم الله وجهه ـ لعبد الله بن جعفر : قم يا ابن أخى، فنفذ فيه حد الشرب ؟

فأخذ السوط وجلده وعثمان يعد عليه حتى بلغ أربعين . فقال علىّ ـ رضى الله عنه ـ أمسك يا ابن أخى ، جلد رسول الله ـ ﷺ ـ فى الخمر أربعين ـ وجلد أبو بكر أربعين .

وجلد عمر ـ رضى الله عنه ـ ثمانين وكلٌ سُنَّة .

وكان من رأى عمر قتل الإمام الظالم ، فخطب يومًا فقال : أما والله لوددت أنى وإياكم فى سفينة فى لجة بحر نذهب شرقًا وغربًا فلن يعجز الناس أن يولوا رجلاً منهم . فإن استقام اتبعوه ، وإن جنف قتلوه .

فقال طلحة : وما عليك لو قلت : إن تعوج عزلوه .

فقال : لا . القتل أنكل لمن بعده !

إن الأمة الإسلامية الآن فى حاجة ماسة إلى ابن خطاب جديد يعزل القائد فى أوج انتصاره ، ويقاسمه أمواله ما دامت خمرة النصر قد قلبت موازينه فأسرف فى العطاء .

وإلى عثمان آخر لم تمنعه صلة الرحم أن يعزل أخاه عن ولاية الكوفة ، ويقيم عليه حد الشرب فى الميدان العام .

وإلى حاكم من نوع فريد كعمر بن عبد العزيز يحبس الولاة المعزولين حتى يدفعوا لخزينة الدولة آخر درهم أخذوه بغير حقه ، أو استولوا عليه بطريقة غير مشروعة .

الطفيل بن عمرو الدوسى

رضى الله عنه

قصة إسلام الطفيل
كما يرويها عن نفسه

■ قال: قـدمت مكة ورسول الله ـ ﷺ ـ بها ، فـمشى إلىَّ رجـال من قريش فقالوا :

يا طفيل ، إنك قـدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد اشـتد أمره ، وقد فرق جمـاعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسِّـحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الـرجل وبين أخيه ، وبين الـرجل وبين زوجته ، وإنا نخـشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا . فلا تكلمنه ، ولا تسمعن منه شيئاً .. !!

قال : فـوالله ما زالوا بى حتى أجـمعت ألا أسمع منه شـيئاً ولا أكلمـه حتى حشـوت فى أذنى ـ حين عدوت إلى المسـجد ـ قطناً خوفـاً من أن يبلغنى شىء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه .

قال : فقدمت إلى المسجد ، فإذا رسول الله ـ ﷺ ـ قائم يصلى عند الكعبة .

قال : فقمت منه قريباً ، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله .

قال : فسمعت كلاماً حسناً .

قال : فقلت فى نفسى واثكل أمى ، والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى علىَّ الحسن من القبيح . فما يمنعـنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول .. ؟ فإن كان الذى يأتى به حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته .

قال : فمكـثت حتى انصرف رسول الله ـ ﷺ ـ إلى بيـته ، فأتبعـته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه .

فقلت : يا محمد : إن قـومـك قـد قالـوا لى كذا وكـذا للـذى قالـوا ، فـوالله

ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذنى بقطن لئلا أسمع قولك .. ؟! ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك ، فسمعته قولاً حسناً ، فاعرض علىَّ أمرك ..؟

قال : فعرض علىَّ رسول الله - ﷺ - الإسلام، وتلا علىَّ القرآن. قال تعالى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) ﴾ [الأنعام]

فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه .

قال : فأسلمت ، وشهدت شهادة الحق .

وقلت : يا نبى الله ، إنى امرؤ مطاع فى قومى ، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه .

فقال : اللهم اجعل له آية .

قال : فخرجت إلى قومى ، حتى إذا كنت بثنية[1] تطلعنى على الحاضر[2] وقع نور لفراقى دينهم .

قال : فتحول النور فوقع فى رأس سوطى . فجعل الناس يتراءون ذلك النور فى سوطى كالقنديل المعلَّق ، وأنا أهبط إليهم من الثنية .

قال : حتى جئتهم فأصبحت فيهم .

قال : فلما نزلت أتانى أبى - وكان شيخاً كبيراً - قال : فقلت : إليك عنى يا أبت . فلست منك ولستَ منى .

قال : ولمَ يا بنى ..؟

قال : قلت : أسلمت وتابعت محمداً - ﷺ - .

قال : أى بنى ، فدينى دينك .

قال : فقلت : فاذهب ، فاغتسل وطهر ثيابك ثم تعال حتى أعلمك ما عُلمت .

قال : فذهب ، فاغتسل وطهر ثيابه ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم .

---

(١) الثنية : الفرجة بين الجبلين .

(٢) الحاضر : القوم أو القبيلة النازلون على الماء .

قال : ثم أتتنى زوجتى ، فقلت : إليك عنى ، فلستُ منك ولست منى .

قالت : لمَ ..؟ بأبى أنت وأمى .

قال : قلت قد فرق بينى وبينك الإسلام ، وتابعت دين محمد ـ ﷺ ـ .

قالت : فدينى دينك .

قال : فاذهبى إلى حنية الوادى[1] فتطهرى منه .

فقالت : أتخشى على العبية من ذى الشرى[2] شيئًا ؟

قلت : لا . أنا ضامن لذلك .

فذهبت ، فاغتسلت ، ثم جاءت فعرضت عليها الإسلام ، فأسلمت .

قال : ثم دعوت دوسًا إلى الإسلام فأبطئوا علىَّ .

ثم جئت رسول الله ـ ﷺ ـ بمكة فقلت :

« يا نبى الله ، إنه قد غلبنى على دَوْس الزنا[3] فادع الله عليهم » .

فقال ـ ﷺ ـ :

« اللهم أهد دوسًا » .

ثم قال : ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم ، امتثالاً لقوله تعالى :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]

قال : فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام ، حتى هاجر رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة ، ومضى بدر وأحد والخندق ثم قدمت على رسول الله ـ ﷺ ـ وهو بخيبر . حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتًا من دوس . ثم لحقنا برسول الله ـ ﷺ ـ بخيبر ، فأسلم لنا مع المسلمين .

ثم لم أزل مع الرسول ـ ﷺ ـ حتى فتح الله عليه مكة الذى سُمى الفتح العظيم .

قال : قلت : يا رسول الله أبعثنى إلى ذى الكفلين ـ صنم عمرو بن حُمَمَه ـ حتى أحرقه .

فأذن له الرسول ـ ﷺ ـ فى ذلك .. فخرج إليه .

(١) حنية الوادى : غدير فيه ماء كثير كانوا يستعملونه للغسيل والتطهير .

(٢) صنم من أصنام دوس التى كانت تقدم لها القرابين ويخشى ضررها من دون الله تعالى.

(٣) اللهو واللعب وسفاف الأمور والبعد عن معاليها.

يقول : فجعلت أوقد عليه النار وأقول :

ياذا الكفلين لست من عبَّادكا
ميلادنا أقدم من ميلادكا
إنى حشوت النار فى فؤادكا[1]

قال الطفيل : ثم رجعت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فكنت معه بالمدينة إلى أن قبض الله رسوله إليه .

فلما ارتدت العرب ، خرج مع المسلمين . فسار معهم إلى طليحة الأسدى وقومه ، ومن انضم إليه من قبائل فزارة وغيرهم . ومع الطفيل رسالة أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ إلى القبائل العربية من ارتد عن دينه ، ومن بقى منهم على إسلامه .

بسم الله الرحمن الرحيم :

« من أبى بكر خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ إلى من بلغه كتابى هذا من عامة وخاصة ، أقام على إسلامه أو رجع عنه . سلام على من اتبع الهدى ، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى . فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله .

نقرُّ بما جاء به ، ونكفِّر من أبى ونجاهده . أما بعد :

فإن الله تعالى أرسل محمداً بالحق من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . فهدى الله بالحق من أجاب إليه ، وضرب رسول الله ـ ﷺ ـ بإذنه من أدبر عنه ، حتى صار إلى الإسلام طوعاً وكرهاً .

ثم توفى رسول الله ـ ﷺ ـ وقد نفذ لأمر الله ، ونصح لأمته ، وقضى الذى عليه ، وكان الله قد بين له ذلك ولأهل الإسلام فى الكتاب الذى أُنزل فقال :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر]

وقال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنبياء]

وقال للمؤمنين :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران]

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٣٨٥ .

فمَنْ كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات ، ومَنْ كان يعبد الله، فإن الله له بالمرصاد ، حى قيوم لا يموت » .

إلى قوله وإنى بعثت إليكم فلاناً فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وأمرته ألا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله . فمَنْ استجاب لـه وأقر كف وعمل صالحاً قُبل منه وأعانه عليه ومَنْ أبى .. أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يُبقى على أحدَ منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ، ويقتلهم كل قتله ، وأن يسبى النساء والذرارى ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، فمَنْ اتبعه فهو خير له ، ومَنْ تركه فلن يعجز الله .

وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم . والداعية الأذان، فإذا أذن المسلمون فأذَنُوا وكُفُّوا عنهم . وإن لم يؤذنوا عاجلوهم ، وإن أذنوا اسألوهم ما عليهم ، فإن أبوْا قاتلوهم . وإن أقروا قُبل منهم وحملهم على ما ينبغى لهم » .

وسار الجيش بقيادة خالد بن الوليد إلى ديار طليحة الأسدى مدعى النبوة. والتقى الجيشان عند طليحة ، فأرهقهم خالد وجنده ، وطليحة كان لا يقاتل معهم ـ ولكنه ملتف فى كساء له بفناء بيت له من شعر . يتنبأ لهم والناس يقتلون .

فلما هزت عيينة الحرب ، وضرس القتال ، كرَّ على طليحة . فقال :

هل جاءك جبريل بعد .. ؟

قال طليحة : لا .

فرجع عيينة فقاتل حتى إذا ضرس القتال وهزت الحرب كرَّ عليه فقال :

لا أبا لك أجاءك جبريل بعد .. ؟

قال : لا والله .

يقول عيينة غاضباً حتى متى ..؟ قد والله بلغ منا ..؟؟

ثم رجع فقاتل ، حتى إذا بلغ كرَّ عليه فقال :

هل جاءك جبريل بعد .. ؟

قال : نعم .

قال : فماذا قال لك .. ؟

قال : قال لى : « إن لك رحاً كرحاه ، وحديثاً لا تنساه » .

يقول عيينة : أظن أن قد علم الله أنه سيكون حديثاً لا تنساه ، يا بنى فزارة : هذا والله كذاب فانصرفوا .

فانصرفوا وانهزم الناس واتجهوا إلى طليحة يقولون : ماذا تأمرنا .. ؟

وكان قد أعدّ فرساً عنده ، وهيأ بعيراً لامرأته النوار . فقام فوثب على فرسه ، وحمل امرأته ثم نجا بها .

وقال : مَنْ استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله ، فليفعل وسلك طريقاً وعرة حتى لحق بالشام وتفرق جمعه .

عندها ثابت الجموع إلى رشدها وأقبلوا على خالد يقولون: كف جنودك عنا، لندخل فيما خرجنا منه ، ونؤمن بالله ورسوله ، ونسلم لحكمه فى أموالنا وأنفسنا .

أمر خالد ـ رضى الله عنه ـ الطفيل بن عمرو أن يمتطى صهوة جواده ليخبر خليفة المسلمين بما كان من أمر طليحة وعودة قبائل سليم وهوازن وفزارة إلى دين الله والدخول فى رحاب الإسلام والالتزام بأوامره ونواهيه[1] .

وقبل أن تبرد ظهور الخيل أمر خالد منادياً يدعو كتائب الجيش بالمسير إلى أرض اليمامة . وكان الطفيل قد ذهب إلى المدينة ومعه ابنه وقد تحرك الجيش إلى أرض مسيلمة الكذاب وجنده .

ثم عاد الطفيل ومعه ابنه إلى أرض اليمامة بعد أن بلَّغ خليفة المسلمين ما حمَّله به خالد ـ رضى الله عنه .

الطفيل بن عمرو على أرض اليمامة

على أرض اليمامة شاهد خالد ـ رضى الله عنه ـ حصوناً محكمة وكتائب منظمة وطاعة لمسيلمة لا حد لها ، وقبل أن يبدأ القتال ويتساقط القتلى . رأى الطفيل رؤيا ، أزعجته وطلب من أصحابه أن يفسروها له قال :[2] .

« رأيت أن رأسى حُلق، وأنه خرج من فمى طائر ، وأنه لقيتنى امرأة فأدخلتنى فى فرجها ، ورأيت ابنى يطلبنى حثيثاً ، ثم رأيته حبس عنى » .

قالوا : خيراً .

قال : أما أنا والله فقد أولتها .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك جـ ٣ ص ٢٥٣ - ٢٦١ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٣٨٥ .

قالوا : ماذا ؟

قال : أما حلق رأسى ، فهو الشهادة فى سبيل الله .

وأما الطائر الذى خرج من فمى ، فهى روحى .

وأما المرأة التى أدخلتنى فرجها ، فهى الأرض يُحفر فيها قبرى .

فأغيب فيها .

وأما طلب ابنى إيادى ثم حبسه عنى ، فإنى أراه سيجهد أن يصيبه ما أصابنى[1] .

ودارت المعركة ، وأوشك المسلمون أن ينهزموا ، ولكنهم عادوا إلى ربهم وطلبوا منه العزيمة والنصر ، وتحقق لهم ما أرادوا وقُتل مسيلمة كافراً ومع ما يقرب من عشرة آلاف قتيل وجريح وقُتل العبد الصابر المؤمن صاحب الكرامة من ربه الطفيل بن عمرو . رحم الله الشهداء . فهم أحياء عند ربهم ، كما أخبر الله سبحانه وتعالى فى كتابه :

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ﴾ [آل عمران]

ولقد جرح ابنه عمرو بن الطفيل جراحة شديدة ، ولكنه شفى منها ثم قُتل عام (اليرموك) فى خلافة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ[2]

---

(١) راجع تاريخ الرسل والملوك للطبرى جـ ٣ ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٣٨٥ .

سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل

رضى الله عنه

كتب معاوية بن أبى سفيان - رضى الله عنه - إلى مروان بن الحكم وهو بالمدينة أن يأخذ البيعة لابنه يزيد ..

فقال له رجل من أهل الشام : ما يحبسك عن أخذ البيعة ..؟

قال مروان : حتى يجىء سعيد بن زيد فيبايع ، فإنه سيد هذا البلد ، إذا بايع بايع الناس .. ؟

فجاءه الشامى : وقال له : إن لم تبايع ضربت عنقك ..؟؟ فقال سعيد بن زيد : يأمرنى مروان أن أبايع لقوم ضربتهم بسيفى حتى أسلموا .. ؟!

تهذيب تاريخ ابن عساكر
١٣٠:٦

■ نشأ فى بيت التوحيد والإيمان ، وعلى ملة إبراهيم عليه السلام وحماه الله برعايته وحفظه بعنايته ، فلم يسجد لصنم ، ولم يتقرب لوثن ، ولم يتقرب بقربان لغير الله تعالى .

وكان من السابقين الأولين لدعوة الإسلام .

ومن الأوابين العابدين لله تعالى .

وأحد العشرة المبشرين بالجنة .

وأحد الولاة العادلين الساهرين على مصالح الرعية .

وأحد الفرسان المغاوير حول الرسول ـ ﷺ .

والده : زيد بن عمرو بن نفيل أحد الذين دانوا بالحنيفية السمحة ، ملة إبراهيم عليه السلام .

ويروى ابن اسحاق جانباً من تعبده فيقول :

« اجتمعت قريش يوماً فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم ، كانوا يعظمونه وينحرون له ، ويعكفون عنده . فخلص منهم أربعة نفر نجباء ، ثم قال بعضهم لبعض تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض .

قالوا : أجل . وهم :

١ - ورقة بن نوفل بن أسد ابن عم خديجة زوج النبى ـ ﷺ ـ والذى قال لها عندما أخبرته بما سمعه رسول الله ـ ﷺ .

« قدوس قدوس . والذى نفس ورقة بيده . لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى عليه السلام،وإنه لنبى هذه الأمة».

٢ – عبيد الله بن جحش ولقد أقام على ما هو عليه حتى أسلم ، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة فتنصر .

٣ – عثمان بن الحويرث قدم على قيصر الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده .

٤ – زيد بن عمرو بن نفيل توقف ، فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان[1] .

ونهى عن قتل المؤودة ، وقال : أعبد رب إبراهيم وبادى قومه بعيب ما هم عليه[2] .

ثم خرج يطلب دين إبراهيم عليه السلام ، ويسأل الرهبان والأحبار ، حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها ثم أقبل فجال الشام كله حتى انتهى إلى راهب فى ربوة مرتفة من أرض البلقاء ، كان ينهى إليه علم النصرانية فيما يزعمون .

فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام .. ؟

فقال : إنك تطلب ديناً ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ، ولكن قد أطل

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ١ : ٢٢٣ – ٢٢٤ بتصرف .

(٢) ومن شعره فى ذلك :

أرباً واحداً أم ألف رب ... أدين إذا تُقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعاً ... كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا أنبتهبها ... ولا ضنمى بنى عمرو أزور
ولا هبلاً أدين وكان رباً ... لنا فى الدهر أذ حلمى يسير
عجبت وفى الليالى معجبات ... وفى الأيام يعرفها البصير
بأن الله قد أفنى رجالاً ... كثيراً كان شأنهم الفجور

إلى أن يقول :

ترى الأبرار دارهم جنان ... وللكفار حامية سعير
وخزى فى الحياة وإن يموتوا ... يلاقوا ما تضيق به الصدور

وقد رثاه ورقة بن نوفل بقوله :

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما ... تجنبت تنوراً من النار حاميا
بدينك رباً ليس رب كمثله ... وتركك أوثان الطواغى كما هما
وإدراكك الدين الذى قد طلبته ... ولم تكن عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت فى دار كريم مقامها ... تعلل فيها بالكرامة لاهيا
تلاقى خليل الله فيها ولم تكن ... من الناس جباراً إلى النار هاويا
وقد تدرك الإنسان رحمة ربه ... ولو كان تحت الأرض سبعين وادياً

زمان نبى يخرج من بلادك التى خرجت منها ، يبعث بدين إبراهيم الحنيفية فالحق به ، فإنه مبعوث الآن ، وهذا زمانه .

فخرج سريعاً حين قال له ذلك الراهب ما قاله ، يريد مكة ، حتى إذا توسط بلاد لخم خرجوا عليه فقتلوه(١) .

وأمه : فاطمة بنت بعجة بن مليح الخزاعية ، من المؤمنات القانتات العابدات طوفت مع زوجها زيد وقطعا الفيافى والقفار واخترقا السهول والوديان بحثاً عن الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام .

وزوجه : فاطمة بنت الخطاب أخت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما .

أسلمت قبل إسلام زوجها وهاجرا معاً إلى الحبشة ثم إلى يثرب ليكونا قريبين من الرسول ـ ﷺ .

سعيد بن زيد وإسلام عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ

كيف أسلم عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ؟

وما هى الدوافع التى جعلته يقترب من الإسلام ..؟

أتراه وقع تحت مؤثرات قاربت بينه وبين ذلك .. ؟ وإذا كان فما هى .. ؟

أيكون ذلك عندما استمع إلى الرسول ـ ﷺ ـ وهو يقرأ القرآن فى جوف الكعبة .. ؟

أم يكون ذلك عندما رأى بعض المستضعفين يخرجون من مكة مهاجرين تاركين الأهل والوطن .. ؟

أم أنه تأثر عندما رأى الدم ينبثق من وجه أخته عندما لطمها لطمة شديدة لقراءتها القرآن هى وزوجها .. ؟

قد يكون لكل ذلك أثره الكبير فى اقترابه من الإسلام ، وابتعاده عن معسكر الكفر .

ولنستمع إليه يحدثنا عن ذلك فيقول :

---

(١) راجع سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٣٢

« كنت للإسلام مباعداً ، وكنت صاحب خمر في الجاهلية أحبها وأشربها[1] وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش . فخرجت أريد جلسائي أولئك فلم أجد منهم أحداً فقلت لو أنني جئت فلاناً الخمار، وخرجت فلم أجده. قلت : لو أنني جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين ، فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة فإذا رسول الله ـ ﷺ ـ قائم يصلي وكان إذا صلى استقبل الشام ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، واتخذ مكاناً بين الركنين الركن الأسود ، والركن اليماني. فقلت حين رأيته : والله لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول ، وقام بنفسي أني لو دنوت أسمع لردعته ، فجئت من قبل الحجب فدخلت تحت ثيابها ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة فلما سمعت القرآن رقَّ له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام[2] .

وقد رقَّ قلب عمر لسماع كلمات الكتاب العزيز ، وعمر رجل تطربه بلاغة القول ويأخذ بلبه الكلام الحسن .

فما بالك إذا استمع إلى القرآن ، يتلى بصوت الرسول ـ ﷺ ـ ..؟

إنها لحظات تضيف إلى العمر جديداً وتباركه وتزكيه .

ومن قبل عمر ، كان أساتذة فن القول والكلام في قريش .. إذا استمعوا إلى القرآن خروا سجداً وآمنوا وأعلنوا إسلامهم .

---

(١) قال عمر ـ رضي الله عنه ـ : اللهم بيّن لنا بياناً شافياً في الخمر فنزل قول الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة] ـ فشربها عمر وقال : اللهم بيّن لنا بياناً شافياً في الخمر فنزل قول الله تعالى : ﴿ لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ.. (٤٣) ﴾ [النساء] فشربها عمر وقال : اللهم بيّن لنا بياناً شافياً في الخمر فنزل قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ.. (٩٠) ﴾ [المائدة]

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٦٨ .

من ذلك : إن الشاعر لبيد بن ربيعة[1] الشهير ببلاغة منطقه وفصاحة لسانه، ورصانة شعره ، سمع أن محمداً يتحدى الناس بكلامه .

فقال بعض الأبيات رداً على ما سمع وعلقها على باب الكعبة ..وكان التعليق على باب الكعبة امتيازاً لم تدركه إلا فئة قليلة من كبار شعراء العرب . وحين رأى أحد المسلمين هذا أخذته العزة فكتب بعض آيات الكتاب الكريم ، وعلقها إلى جوار أبيات لبيد .

ومرَّ لبيد بباب الكعبة فى اليوم التالى ، ولم يكن قد أسلم بعد ، فأذهلته الآيات القرآنية . حتى أنه صرخ من فوره قائلاً :

« والله ما هذا بقول بشر وأنا من المسلمين » .

وهناك حادثة أخرى تروى عن عمر ـ رضى الله عنه ـ للتقريب بينه وبين الإسلام من ذلك :

إنه كان يقف فى طرقات مكة ، وشاهد هؤلاء الضعفاء الذين أعلنوا الإسلام فوقفت لهم قريش بالمرصاد ، وصبت عليهم العذاب ألواناً ، فآثروا الهجرة إلى الحبشة لعلهم يجدون بجوار ملكها الصالح الاطمئنان والأمن .

شاهد عمر هذا المنظر فاقترب من أم عبد الله بنت حنتمة وقال لها :

إلى أين يا أم عبد الله ..؟

قالت : الهجرة ، والله لنخرجن من أرض آذيتمونا وقهرتمونا إلى أرض أخرى حتى يجعل الله لنا فيها فرجاً ومخرجاً ..!!

فتركها تنطلق وهو يدعو لها بالسلامة .

فذكرته بخير .

فسألها عامر بن ربيعة مستغرباً مستبعداً : كأنك قد طمعت فى إسلام عمر..؟

قالت : نعم .

قال : إنه لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب[2] !؟

ولكن الرجل أخطأ وصدقت المرأة ، عندما لمحت جانب الرقة فى عمر طمعت فى إسلامه .

---

(١) لبيد بن ربيعة بن مالك ، أبو عقيل العامرى ، أحد الشعراء الفرسان الأشراف فى الجاهلية أدرك الإسلام ووفد على النبى :

ما عاتم المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

وسكن الكوفة .

(٢) الكامل لابن الأثير ٢ : ٨٤ .

وهناك الحادثة الثالثة التى انتـهت بذهابه إلى دار الأرقم حيث أعلن إسلامه ونطق بالشهادتين أمام رسول الله ـ ﷺ

وهى التى تعنينا فى هذا المقام لارتباطها بالصحابى الجليل سعيد بن زيد .

عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال :

خرج عمر متقلداً السيف فلقيه رجل من بنى زهرة قال :

أين تريد يا عمر ..؟

قال : أريد أن أقتل محمداً !؟

قال : وكيف تأمن فى بنى هاشم ، وبنى زهرة وقد قتلت محمداً ..؟

فقال عمر : ما أراك إلا قد صبوت ، وتركت دينك الذى أنت عليه .

قال : أفلا أدلك على العجب يا عمر .. إن خنتك وأختك قد صبوا وتركا دينك الذى أنت عليه ؟

فمشى عمر ثائراً حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب بن الأرت ، فلما سمع خبـاب صوت عمر توارى فى البيت ، فدخل عليهـما . فقال : ما هذه الهيمنة التى سمعتها عندكم .. ؟ وكانوا يقرأوون سورة « طه » .

فقالا : ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا .

قال : فلعلكما قد صبوتما ..؟

فقال له سعيد بن زيد : أرأيت يا عمر ، إن كان الحق فى غير دينك ..؟

فوثب عمر على سعيد فوطئه وطأ شديداً ، فـجاءت أخته فدفعته عن زوجها، فضربها ضربة فدمى وجهها .

فقالت وهى غـضبى : يا عمر ، إن كان الحق فى غيـر دينك . أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

فلما يئس عمـر : قال أعطونى هذا الكتاب الذى عندكم فأقرأه ، وكـان عمر ـ رضى الله عنه ـ يقرأ الكتب .

فقالت أختـه : إنك نجس ولا يمسه إلا المطهرون ، فقم ، فـاغتسل أو توضـأ، فقام عمر فاغتسل ثم أخذ الكتاب فقرأ قول الله تعالى :

﴿ طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦) وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧)

اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ ﴾ [طه]

فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ دلونى على محمد :

فلما سمع خباب[1] قول عمر خرج من البيت فقال : أبشر يا عمر، فإنى أرجو أن تكون دعوة رسول الله ـ ﷺ ـ لك ليلة الخميس : اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمر بن هشام .

فانطلق عمر حتى أتى الدار التى وصفت له ، فأسلم ، وحسن إسلامه ، وكان كلما تذكر عمر ، وابن عمه سعيد بن زيد تشابكهما بالأيدى فى بيت سعيد حتى ضحكا واستغرقا فى الضحك سروراً بالنتيجة التى وصل لها سعيد وهى إسلام عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه .

سعيد بن زيد مع صحابة رسول الله

أخرج الحافظ وابن منده عن سهل بن سهل بن مالك عن أبيه عن جده قال : لما رجع رسول الله ـ ﷺ ـ من حجة الوداع إلى المدينة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس : إن أبا بكر لم يسؤنى قط ، فاعرفوا ذلك له .

يا أيها الناس : إنى راض عن عمر ، وعثمان ، وعلىٍّ ، وطلحة ، والزبير وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعيد بن زيد ، والمهاجرين الأولين ، فاعرفوا ذلك لهم .

أيها الناس : إن الله قد غفر لأهل بدر والحديبية .

يا أيها الناس : احفظونى فى أصحابى وأصهارى وفى أختانى ، لا يطلبنكم الله بمظلمة أحد منهم ، فإنها مما لا توهب .

(١) هو خباب بن الأرت بن جندلة صحابى من السابقين ، قيل أسلم سادس ستة .

أيها الناس : ارفعوا ألسنتكم عن المسلمين . وإذا مات أحد من المسلمين فقولوا فيه خيراً »(١) .

وقال سعيد بن جبير : كان مقام أبى بكر وعمر ، وعثمان ، وعلىٍّ ، وطلحة والزبير ، وسعيد وعبد الرحمن بن عوف أمام رسول الله - ﷺ - فى القتال وخلفه فى الصلاة فى الصف . وليس لأحد من المهاجرين والأنصار أن يقوم مقام أحد منهم شهد أو غاب .

إنهم وغيرهم من المهاجرين والأنصار الذين نزل فيهم قول الله تعالى :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ [الفتح]

هؤلاء الرجال الذين تربوا فى مدرسة الإسلام ، جاءوا إلى الدنيا والظلام شامل والجهل حاكم والعقائد زيف وأباطيل فمدّنوا الدنيا ، وهذّبوا العالم وقرروا الحق للإنسان .

وكان سعيد بن زيد حريصاً على التفقه فى دينه ، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر ، ملازماً لرسوله ، عارفاً بكتاب ربه ، ساعياً إلى الخير وداعياً له .

سعيد بن زيد وأروى بنت أويس

أخرج الحافظ أبو يعلى عن عروة أن أروى بنت أويس ادعت على سعيد أنه أخذ شيئاً من أرضها، فخاصمته إلى مروان بن الحكم - والى المدينة فى ذلك الوقت - فقال سعيد : كيف آخذ من أرضها شيئاً ، وقد سمعت رسول الله - ﷺ - يقول :

« من أخذ شيئاً من الأرض طوقه إلى سبع أرضين » .

فقال له مروان : لا أسلك بينة بعد هذا .. ؟؟

(١) رواه الحافظ وابن منده وزاد فى آخره : ثم نزل ، ويؤيد حديثه : اسكن أحد فما عليك إلا نبى أو صحابى أو شهيد ، وحديث العشرة المبشرين بالجنة .

فقال سعيد : اللهم إن كانت كاذبة، فاعم بصرها واقتلها فى أرضها(1) .

قال : فماتت بعد أن ذهب بصرها ، وبينما هى تمشى فى أرضها إذ وقعت فى حفرة، فماتت .

إننا نؤمن بأن لكل أجل كتاباً مصداقاً لقول الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً .. (١٤٥) ﴾ [آل عمران]

ونؤمن أيضاً بأن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ .. (١٨٦) ﴾ [البقرة]

وقال أيضاً :

﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ .. (٦٠) ﴾ [غافر]

ولقد جاء أجل أروى ، ولم يكن دعاء سعيد إلا من الأسباب التى قدرها الله تعالى فى أزله لموتها . والله عالم بخلقه ، وقدر آجالهم وأرزاقهم وهم فى عالم الذر . سبحانه جلت قدرته وعلت عظمته ، يحكم بين عباده ولا راد لحكمه وهو العلى القدير .

سعيد بن زيد وبيعة يزيد

كتب معاوية بن أبى سفيان ـ رضى الله عنه ـ إلى مروان بن الحكم والى المدينة فى ذلك الوقت أن يأخذ البيعة لابنه يزيد .

فقال له رجل من أهل الشام : ما يحبسك عن أخذ البيعة .. ؟

فقال مروان : حتى يجىء سعيد بن زيد فيبايع ، فإنه سيد أهل البلد .. فإذا بايع بايع الناس .

قال الشامى : أفلا أذهب إليه فابتدىء به ..؟

قال مروان : اذهب ..

فجاءه الشامى وقال له : إن لم تبايع ضربت عنقك .

قال سعيد : تضرب عنقى وأنت تدعونى لمبايعة قوم أنا قاتلتهم على الإسلام.

فرجع الشامى إلى مروان فأخبره .

فقال له مروان : اسكت .

---

(1) الحديث رواه مسلم ، ورواه أبو يعلى عن عمر بن محمد عن أبيه وزاد فى آخره : وقال : رأيتها عمياء تلتمس الجد ، وتقول : أصابتنى دعوة سعيد . ورواه بنحوه الطبرانى .

وفى رواية : أنه قال للشامى : يأمرنى مروان أن أبايع لقوم ضربتهم بسيفى حتى أسلموا .. ؟ والله ما أسلموا ولكن استسلموا(١) .

ومما روى من شعره :

ويك إن من لم يكن له نشب
يحب ومن يفتقر يعش ضر
ويحب شراً ليحيى .. لكن
أخا المال محضر كل شر

ولما ماتت أم سلمى أوصت أن يصلى عليها سعيد بن زيد ، ولما أُخبر مروان بموتها قيل له : ألا تصلى على أم المؤمنين .

فقال : أوصت أن يصلى عليها سعيد بن زيد(٢) .

هكذا أوصت أم المؤمنين أن يصلى عليها الرجل الأواب ، القانت لربه ، الساهر ليله ، الصائم نهاره . من الرجال الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) ﴾ [السجدة]

وفاة سعيد بن زيد

إذا كان لكل بداية نهاية ، ولكل سافرة حجاب ، ولكل أجل كتاب . فقد جاء أجل سعيد بن زيد وكان ذلك سنة خمسين أو إحدى وخمسين بالمدينة عن عمر يناهز السبعين عاماً رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته إنه سميع قريب مجيب الدعاء .

---

(١) راجع تهذيب ابن عساكر ٦ : ١٣٠ وما بعدها بتصرف .
(٢) المصدر السابق .

البشرية وقضية التوحيد

■ أريد أن أصحب القارىء معى إلى رحلة متأنية إلى الزمن البعيد حيث بدء الخليقة .. ونتساءل سوياً . متى خُلق آدم عليه السلام ..؟

وكيف استقبلت الخلائق قبله خبر إيجاده ..؟

وهل فى مقدورنا أن نحدد الزمن والتاريخ لهذا الحدث الجليل .. ؟

إن أوثق المصادر التى بين أيدينا تقول : إن الله سبحانه وتعالى ، أراد أن يُوجد خليفة فى الأرض من جنس البشر، فبهت الملائكة لهذا الخبر ، وقالوا لربهم :

﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ..(٣٠) ﴾ [البقرة]

قال الله تعالى : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ [البقرة]

ونقول : أتلك طبيعة البشر كما عبرت عنها الملائكة : الإفساد والقتل . وإذا كان ذلك كذلك . فلماذا أوجده الله .. ؟

أوجد لهذه الغاية ، غاية تدمير الكون وإشاعة الفحشاء فى كل جوانبه ؟ وإذا لم يكن كذلك . فلماذا وصفت الملائكة الإنسان بهذه الصفة ؟ أتكون لجبلته الترابية أثر فى هذه الطبيعة ..؟

ولكن الله سبحانه وتعالى قال للملائكة : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ..(٢٩) ﴾ [الحجر]

إذن هذا المخلوق فيه روح الله ، وما دام الأمر كذلك ، ففيه الهدى والضلال، فيه الإفساد والإصلاح ، فيه طبيعة القتل وروح الإحياء .

والله سبحانه يعلم ذلك ، فكان لابد للبشرية من رسول ومرشد يوجهها، فلا تضل ويرشدها فلا تنحرف .

وأخذت رسل الله تترى ورسل الله يتعاقبون الواحد تلو الآخر ، كلها تدعو إلى فطرة الله التى فطر الناس عليها ألا وهى الإسلام .

نوح ـ عليه السلام ـ يقرر ذلك ويدعو قومه إلى الإقرار بكلمة التوحيد والدخول فى دين الله . قال تعالى على لسان نوح ـ عليه السلام ـ .

﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) ﴾ [يونس] إلى قوله ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾ [يونس] فماذا كان منه .. ؟ لقد صدع بالأمر ونفذ ما أُمر به من ربه ، وأخذ يدعو قومه إليه : دعاهم إلى الإسلام ، ونهاهم عن عبادة الأصنام ، فماذا كان من أمر قومه .. ؟

إن القرآن يحدثنا عن قوم نوح ـ عليه السلام ـ بأنهم رفضوا دعوته ، ولم يستجيبوا لأمر ربهم ..!!

وقال بعضهم لبعض ـ كما عبر القرآن الكريم :

﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا .. (٢٤) ﴾ [نوح]

فهاجر نوح إلى ربه ، وفرَّ إلى مولاه وقال له :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) ﴾ [نوح]

إن نوحاً ـ عليه السلام ـ لا يمل ولا يفتر من دعوة قومه .

ولكن قومه يفرون منه .

يفرون من الداعى إلى الله ، مصدر الوجود والحياة ، ومصدر النعم والآلاء . ومصدر الهدى والنور .

والداعية لا يطلب أجراً على السماح ولا ضريبة على الاهتداء .

فماذا كانت نتيجة عصيانهم ..؟

جاء الطوفان ليغرق الأخضر واليابس .

جاء الطوفان ، فطهر الأرض من الشرك والكفر .

وحطم الأصنام ، وأغرق البهتان ، واكتسح الكفر وأهله .

وعادت البشرية إلى إسلام الوجه لله ، عادت إلى نور الإيمان إلى كلمة : لا إله إلا الله .

ونتساءل : هل استمر ذلك طويلاً ؟

كم عدد السنين والحقب التى عاشتها البشرية مسلمة وجهها لله ؟

أكانت فترة طويلة .. ؟

وإذا كان ذلك كذلك . فكيف بدأ الانحراف .. ؟

ومتى عادت البشرية إلى اتباع الهوى .. ؟

لا أحد يدرى ..!؟

وجاء هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ داعياً إلى ربه ، داعياً إلى دين الفطرة، داعياً إلى الإسلام مرشداً إلى نور التوحيد .

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف]

إنها دعوة التوحيد ، إنها دعوة الرسل جميعاً ..

دعوة لتخليص البشرية مما تردت فيه .

ولكن قوم عاد استمروا فى ضلالهم ، وعكفوا على أصنامهم ، وأصموا آذناهم ورفضوا دعوة الإخلاص .

إنهم المتكبرون فى الأرض . وأصحاب المصلحة فيها . أصحاب الجاه والسلطان .

إنهم أعداء كل الرسل والأنبياء ، ووقفوا موقف التحدى من دعوة هود نبى الله عليه السلام .

وتمسكوا بأهوائهم .

وتحصنوا بجهالاتهم .

واعتقدوا أنهم فى مأمن مما يحرفهم به هود ، وقالوا كلمتهم: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأعراف]

أين عذاب ربك يا هود ..؟ أين نيرانه ولهيبه ..؟ أين خسفه ونسفه ؟

وكان لابد من تعجيل العقوبة ، وتطهير الأرض من الشرك والرجس لأنها

أعدت مقراً لخليفة الله تعالى ، فمحال أن تكون لغير ذلك .

وكانت العاصفة التى دمرت كل شىء ولم تبق على شىء .

ويصور القرآن الكريم هلاك قوم عاد ، يصور مصرع الشرك والكفر قال الله تعالى :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۞ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۞ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ۞ ﴾ [الحاقة]

لقد كانت عاصفة ، وكانت ريحاً عاتية شديدة . اكتسحت الشرك من الأرض .

وأهوت بالأصنام إلى القاع ، وعصفت بالبهتان ، ودمرت الكفر وأهله .

وعادت البشرية إلى إسلام الوجه لله ، عادت إلى نور الإيمان إلى كلمة : لا إله إلا الله .

هل استمر ذلك طويلاً ..؟

كم من السنين والحقب عاشتها البشرية مسلمة وجهها لله ..؟

أكانت فترة طويلة .. ؟ وإذا كان ذلك كذلك . فكيف بدأ الانحراف ..؟

ومتى عادت البشرية إلى اتباع الهوى ..؟

لا أحد يدرى ..؟؟

وجاء صالح ـ عليه السلام ـ إلى قوم ثمود .

جاءهم بدين الفطرة ، والدعوة إلى توحيد الله تعالى .

ودعاهم إلى الإسلام : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ .. ۞ ﴾ [آل عمران]

والإسلام : هو إسلام القلب لله ، وإسلام الجوارح له ، وإسلام الكيان كله ، إنه التسليم الكامل لخالق الأرض والسماء ، وموجد الحياة والموت ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ .. ۞ ﴾ [الأعراف]

هكذا خاطب صالح ـ عليه السلام ـ قومه ، وتلك كانت دعوته .

واستجاب له بعض المؤمنين ، وتابعه بعض المخلصين ، وانقسم المجتمع إلى فريقين : فريق الإيمان وفريق الكفر .

فريق الذين يؤمنون بالغيب ، وفريق الجاحدين بكل رسالات السماء ، وأخذت حلقات المجادلة تتسع .

وخاف الأباطرة على أنفسهم أن يذهب جاههم ، وعلى مصالحهم أن يصيبها الكساد بعد الرواج ، وخافوا على نفوذهم ، وركبوا رءوسهم وقالوا للمؤمنين بصالح المستجيبين لدعوته :

﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ .. (٧٥) ﴾ [الأعراف]

أبعث الله بشراً رسولاً ..؟

ويرد المخلصون المؤمنون: ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) ﴾ [الأعراف]

إن كل الشواهد الصادقة تدل على أنه رسول من ربه : وما يدعو إليه صالح عليه السلام : هو من عند الله .

إنه يدعو إلى الإيمان ، وينهى عن الكفر ، يدعو إلى الفضيلة ويترك الرذيلة يدعو إلى عبادة الواحد الأحد ، وينهى عن عبادة بشر أو حجر ، ولكنهم يرفضون ذلك كله ويقولون :

﴿ إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) ﴾ [الأعراف]

كفروا بربهم ، وركبوا عقولهم ، وعقروا الناقة آية الله لنبيهم ، وعتوا عن أمر ربهم ، ووقفوا موقف التحدى وقالوا :

﴿ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) ﴾ [الأعراف]

واستجاب صالح لما طلبه الجاحدون الكافرون . قال تعالى :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) ﴾ [هود]

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) ﴾ [القمر]

إنها صيحة البعث ، صيحة الإيمان ، صيحة التوحيد ، إنها صيحة القوة التى اقتلعت الشرك ، وطوحت بالأصنام ، وأبادت البهتان وخسفت بالكفر كله وأعادت البشرية إلى إسلام الوجه لله ، عادت إلى نور الإيمان ، إلى كلمة لا إله إلا الله .

هل استمر ذلك طويلاً .. ؟ كم من السنين والحقب عاشتها البشرية مسلمة وحبها لله .. ؟ أكانت فترة طويلة ..؟ إذا كان ذلك كذلك . كيف بدأ الانحراف..؟

ومتى عادت البشرية إلى اتباع الهوى ..؟

لا أحد يدرى .

ثم كان إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام جاء يدعو قومه إلى الإسلام وترك عبادة الأصنام ، والاتجاه إلى الله الواحد الأحد .

لقد كان قومه يعبدون الأصنام .

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ۝ ﴾ [الشعراء]

ورد عليهم أبو الأنبياء قائلاً :

﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝ ﴾ [الشعراء] .. ؟

ثم عبدوا الأفراد وألهوا الملوك ، وخضعوا للأباطرة . يقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ ﴾ [البقرة]

وعبدوا النجوم والكواكب ، وألهوا الشمس والقمر ، يقول الله تعالى : ﴿ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝ ﴾ [فصلت]

ويصدع إبراهيم بحقيقة موقفه من ذلك كله قائلاً :

﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا ..۝ ﴾ [الأنعام]

ويؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة مبيناً دعوة إبراهيم بقوله :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ۝ ﴾ [آل عمران] لقد تبرأ إبراهيم من الشرك ، وتبرأ من عبادة الأصنام ، وتبرأ من عبادة الكواكب ، وسخر من تأليه الآلهة الذين يمشون على الأرض ، وتمسك بالحنفية السمحاء ، تمسك بالإسلام ، وتمناه لذريته ، ورجاه لأحفاده من بعده ، وتضرع إلى الله فى صدق وإخلاص أن يبعث من ذريته المسلمة رسول الإسلام وخاتم النبيين محمداً ـ ﷺ ـ .

يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ﴾ [البقرة]

ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى للمؤمنين أتباع محمد ـ ﷺ ـ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ

إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) ﴾ [الحج]

فهل استجاب له قومه ..؟

هل أجابوا داعي الله ..؟

أدخلوا في دين الإسلام .. ؟ أتركوا هذا الزيف المتراكم من عبادة الأصنام والشجر والحجر .. ؟

أتركوا تأليه الكواكب والنجوم ..؟

إن القرآن ينفي كل ذلك ويقرر أنهم أرادوا كيداً لإبراهيم ، أرادوا الكيد به ورغبوا في تحريقه بالنار ، أرادوه ـ ليكون ـ عبرة لكل الراغبين إلى كلمة حق .

ولكن إرادة الله ـ في النهاية ـ هي النافذة . قال تعالى :

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا .. (١٠٣) ﴾ [يونس]

وصدر الأمر الإلهي بنجاة إبراهيم ـ عليه السلام ـ واستجابت النار لأمر ربها : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

فتحولت النار على الأعداء شواظاً محرقاً ، واشتعلت باللهب المستعر فتطهرت الأرض من الشرك ، وتحطمت الأصنام ، واحترق البهتان ، وتلاشى الكفر وأهله ، وعادت البشرية إلى إسلام الوجه لله تعالى .

عادت إلى نور الإيمان إلى كلمة : لا إله إلا الله . فهل استمر ذلك طويلاً ..؟

إذا كان ذلك كذلك . فكيف بدأ الانحراف ..؟

ومتى عادت البشرية إلى اتباع الهوى .. ؟ لا أحد يدري ..

وإذا كان الإسلام هو إسلام الوجه لله ، وإخلاص القلب والجوارح له .

وعبادة الواحد الأحد ، وتفويض الأمر كله إليه .

فيوسف ـ عليه السلام ـ كان مسلماً ويقرر ذلك ويتمنى من ربه أن يتوفاه وهو على الإسلام . يقول الله تعالى على لسان يوسف ـ عليه السلام ـ :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾ [يوسف]

والحواريون أصحاب عيسى ـ عليه السلام ـ يقرون بإسلامهم ، ويطلبون من نبيهم أن يشهد بإسلامهم . قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) ﴾ [آل عمران]

وسحرة فرعون يجادلونه فى إفكه وكفره ، ويتساءلون : لماذا ينقم عليهم فرعون ويهددهم بالقتل والصلب ؟ وكل ما يرجونه من ربهم أن يتوفاهم على الإسلام . يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) ﴾ [الأعراف]

فالإسلام إذن هو دعوة نوح ـ عليه السلام ـ ، ودين إبراهيم الخليل ، ومطلب إسماعيل الذبيح ، والحقيقة التى يموت عليها أبناء يعقوب ، والفكرة التى يتقبل الموت من أجلها أتباع موسى ، ويرفضون الحياة وزخرفها عند فقدها . وإذا كان الإسلام هو القاسم المشترك بين أنبياء الله ورسله جميعاً فإن الدعوة إلى عبادة الواحد الأحد هى الفكرة الأساسية فى كل دين .

يقول الله تعالى مخاطباً الرسول الكريم محمداً ـ ﷺ ـ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾ [الأنبياء] ومن هذا نرى نوحاً ـ عليه السلام ـ يقول لقومه :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) ﴾ [نوح]

وهود ـ عليه السلام ـ يدعو قومه للتوحيد ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ .. (٦٥) ﴾ [الأعراف]

ويقول له قومه : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ..(٧٠) ﴾ [الأعراف]

وصالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ دعا قومه إلى التوحيد. قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ .. (٧٣) ﴾ [الأعراف]

وشعيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ .. (٨٥) ﴾ [الأعراف]

ولوطاً ـ عليه السلام ـ ويوسف وإسماعيل وإبراهيم ، وإدريس وكل الأنبياء كانوا يدعون إلى التوحيد .

والله سبحانه وتعالى يقول مخاطباً موسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) ﴾ [طه]

وعندما همَّ قوم فرعون بقتل موسى - عليه السلام - انبرى لهم أحد الصالحين قائلاً :

﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ .. (٢٨) ﴾ [غافر]

ويحكي القرآن الكريم قول عيسى - عليه السلام - ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ .. (٧٢) ﴾ [المائدة]

ويقرر حقيقة موقفه من أول يوم تطأ قدمه الأرض قائلاً : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) ﴾ [مريم]

وعندما انحرفت المسيحية عن حقيقة التوحيد ونادت بالتثليث صدع القرآن بالقول الفصل في تلك القضية قائلاً :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ .. (٧٣) ﴾ [المائدة]

لقد أرادوا قتل عيسى وعملوا على صلبه ورغبوا في إخفاء نور الله بأفواههم . قال تعالى :

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ .. (١٥٧) ﴾ [النساء]

وظهرت الحقيقة للعيون المبصرة . وصلب الشرك وأهله ، وتلاشت الأصنام وفقئت عين البهتان ، وعادت البشرية إلى إسلام الوجه لله ، عادت إلى نور الإيمان إلى كلمة لا إله إلا الله .

هل استمر ذلك طويلاً ؟

كم من السنين والحقب عاشتها البشرية مسلمة وجهها لله .. ؟

أكانت فترة طويلة ..؟

إذا كان ذلك كذلك. فكيف بدأ الانحراف ؟ ومتى عادت البشرية إلى اتباع الهوى ..؟ لا أحد يدرى ..

لقد كانت الجزيرة العربية، بل المعمورة كلها تتخبط في عبادتها، فعبدوا الملائكة والجن والكواكب ، ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة: أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ..؟ بل كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله ، فيتخذونهن شفعاء لهم يعبدونهن من دون الله .

قال تعالى : ﴿ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) ﴾ [الصافات]

وعبدوا الجن واتخذوهم شركاء لله وآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم . قال تعالى :

﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) ﴾ [سبأ]

قال الكلبى صاحب كتاب (الأصنام) : « كانت بنو مليح من خزاعة إحدى قبائل العرب يعبدون الجن » .

وقال صاعد فى كتاب (طبقات الأمم) : «كانت حمير تعبد الشمس وكنانة تعبد القمر وجزام تعبد المشترى ، وطيء تعبد سهيلاً ، وقبيلة أسد تعبد عطارد هذا بالإضافة إلى الأصنام التى كانت تنحت من الحجارة» .

روى البخارى عن أبى رجاء العطاردى قال : «كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا بالآخر ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثوة من تراب ثم جئنا بالشاة ، فحلبنا عليها ثم طفنا به » .

وأما عن المسيحية ، فإن أصحابها كفروا بعبادة الواحد الأحد ، واتخذوا آلهة ثلاثة نتيجة تعاليم بولس الذى طمس نورها وطعمها بخرافات الجاهلية التى انتقل منها . حتى وجدنا مَنْ يقول : إن المسيح ابن الله متابعين اليهودية التى قالت : عزير ابن الله .

يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) ﴾ [التوبة]

وجاء محمد ـ ﷺ ـ بالهدى وبالحق ، كما عبر القرآن الكريم جاء بلا إله إلا الله محمد رسول الله .

فإذا نطق العبد بالشهادتين تهاوت أمامه كل الألوهية المزيفة من شجر أو حجر أو إنسان ، فيكون قريباً من ربه فى حضرة مولاه إذا دعاه أجابه وإذا طلبه وجده قريباً منه . قال تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ .. (١٨٦) ﴾ [البقرة]

ويشهد العبد بأن محمداً رسول الله .

ويشهد بأنه يوحى إليه . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) ﴾ [النجم]

ويشهد بأنه خاتم النبيين . قال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ .. (٤٠) ﴾ [الأحزاب]

وبأنه رسول للبشرية جميعاً أُرسل إلى الناس كافة . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا .. (٢٨) ﴾ [سبأ]

إذا تحقق العبد بذلك ، إذا صدق بها قلبه ، إذا التزمت بها جوارحه ، فلا بد من المبايعة ، لابد من الاقتداء .. مبايعة الرسول فى كل ما يأتى وما يدع ، والاقتداء به فى كل شئون الحياة .

قال الله تعالى :

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾ [النساء]

أبو العاص بن الربيع

رضى الله عنه

■ فارس من فـوارس الجاهلية والإســلام ، وتاجر عرفـته أسواق التـجارة بالصدق والأمانة وحسن الأحدوثة ، والوفاء فى البيع والشراء .

والده : الربيع بن عبد الـعزى .. من أصحاب الرأى والحكمة ، وأحـد أعضاء دار الندوة فى الجاهلية ، ومن أهل المشورة فيها .

وأمه : هالة بنت خويلد أخت خديجة زوج النبى ـ ﷺ .

عن خديجة عن إسماعيل قـال : قلت لعبد الله بن أبى أوفى : أكان رسول الله ـ ﷺ ـ بشَّر خديجة ببيت فى الجنة ؟!

قال : نعم بشَّرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب(1) .

وخـديجـة ـ رضى الله عنها ـ كـانت تحب ابن أخـتـهـا أبا العـاص ، تحبـه لرجولتـه المبكرة وصدقه القـول ، وحسن معاملـته الآخرين ، والأمانة مـعهم . فكانت لهذا تقـربه إليها وتثنى عليه خـيراً أمام الرسول ـ ﷺ ـ وهـذه الأشياء التى تنم عن الود والمحبة ، جعلت العاص يتقـدم لخالته طالباً منها أن تتكلم مع زوجـها ـ رســول الله ﷺ ـ ليتـزوج من ابنتـها زينب ـ رضى الله عنهـا ـ ولم تتردد خديجة فى قبول أبى العـاص زوجاً لزينب ـ رضى الله عنهما ـ وأخبرت الرسول بذلك ، فـوافق على هذا الزواج وباركه ، ومـا هى إلا فترة وجـيزة فى عمر الزمن حتى انتقلت زينب إلى بيتها الجديد مع زوجها أبى العاص .

وسارت حياة الزوجين رخاءً ترفرف عليـها السعادة ويملأها الحب والوفاق

(1) رواه البـخارى ١٠٤ ومـسـلم رقم ٢٤٣٣ فى فـضـائل الصـحابـة : باب من فضـائل خديجة .

ويعبق فى جنباتها أريج الحياة وعطر الوجود .

فالزوج يعرف دائماً واجباته تجاه زوجته ، والزوجة نشأت وتربت فى بيت النبوة ، وبين يدى الرسول الكريم ـ ﷺ ـ الذى وصفته آيات القرآن بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④ ﴾ [القلم]

ومرت الأيام هنيئة رخية على الزوجين حتى كان يوم وقف رسول الله على جبل الصفا وهتف : يا صبحاه ..

فقالوا : مَنْ هذا الذى يهتف ؟

قيل : محمد .

فاجتمعوا إليه .

فقال ـ ﷺ ـ : « يا بنى عبد فلان ، يا بنى فلان ، يا بنى فلان ، يا بنى عبد مناف ، يا بنى عبد المطلب . » .

فاجتمعوا إليه فقال :

« أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل . أكنتم مصدقى .. ؟

قالوا : ما جربنا عليك كذباً .

قال : فإنى نذير لكم من بين يدى عذاب شديد .

فقال أبو لهب : تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا .. ؟

ثم قال فنزل قول الله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤ ﴾ [المسد]

آمنت خديجة ، وآمنت زينب ، وبقية البيت النبوى ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ وبقى أبو العاص على كفره .

واشتدت العداوة بين رسول الله ـ ﷺ ـ وبين الكفار من قريش ولجأ الكفار إلى حيلة وسبب ينالون به من رسول الله ـ ﷺ ـ فهم يحاربونه فى نفسه وماله ، ويحاربونه فى أتباعه وأنصاره ، ولكن كل ذلك لم يغنهم فتيلاً .

فقال بعضهم لبعض : إنكم قد فرغتم محمداً من همه .

قالوا : ماذا نفعل ؟

قالوا : ردوا عليه بناته فاشغلوه بهن . فتقدموا إلى أبى العاص فمنوه الأمانى ، وأغروه بالمال والتجارة ، وقالوا له فى النهاية : فارق زوجتك ونحن

نزوجك أى امرأة من قريش ؟!

فقال لهم : لا والله ما أريد أن أفارق زوجتى ، وما أحب أن لى بامرأتى امرأة أخرى من قريش . ومع ذلك لم يستجب إلى نداء الإسلام .

ولم يرد الرسول - ﷺ - أن يفرق بينهما لعل الله يشرح صدره للإسلام وأقامت زينب - وهى على إسلامها - وهو على كفره .

وهاجر الرسول - ﷺ - إلى يثرب ، ولم تلحق به زينب .

ثم كانت غزوة بدر - تلك الغزوة - التى انتصر فيها المسلمون انتصاراً كبيراً وأيدهم الله تعالى بنصره وبجند من عنده . وانهزمت عصابة الكفر ، وولت الأدبار ، وقُتل منهم فريق ، وأُسر فريق آخر ، وكان أبو العاص بن الربيع أحد هؤلاء الأسرى .

واشترط الرسول - ﷺ - ألا يطلق أسيراً إلا بفدية أو بتعليم عشرة من الصحابة القراءة والكتابة .

وأرسلت قريش فى فداء أسراها ، وأرسلت زينب فى فداء زوجها ودخل رسول الله - ﷺ - وقُدم له فى فداء أبى العاص قلادة من ذهب .

وما كاد الرجل يظهر القلادة حتى عرفها رسول الله - ﷺ - وعاد بذاكرته إلى الماضى ، إنها قلادة زوجته خديجة ، التى قدمتها لابنتها زينب ليلة زفافها .

ويعلم الرسول - ﷺ - كم كانت هذه القلادة عزيزة عليها ولهذا قدمتها إلى أعز البنات إليها .

وتذكر رسول الله خديجة ، خديجة التى وقفت بجواره عندما انفض عنه الناس ، خديجة التى قدمت مالها وكل ما تملك لنصرة الإسلام ، خديجة التى قالت - عندما رجع مرعوباً خائفاً من الغار قائلاً : لقد خشيت على نفسى - : « كلا والله لا يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتقرى الضيف ، وتحمل الكلأ وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر » .

عندها قال الرسول - ﷺ : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا » .

فقالوا : نعم يا رسول الله .

وأطلق سراح الأسير أبى العاص بن الربيع الذى وعد رسول الله - ﷺ - أن يطلق سراح زينب عند وصوله إلى مكة .

وانطلق بمطيـته حتى وصل إلى مكة ، واسـتقـبلت الزوجة الصـابرة العائد الأسير ، وأخـبرها برغبة أبيـها أن تلحق زينب به فى يثرب ، واستـقبلت زينب أمر أبيها بالرضا والاطمئنان .

تقول زينب ـ رضى الله عنهـا ـ : « بينما أنا أتجهز بمكة للحـاق بأبى جاءت إلىَّ هند بنت عتبة فقالت : يا زينب ، ألم يبلغنى أنك تريدين اللحاق بأبيك .. ؟

فقالت : ما أردت ذلك ..

فقالت : أى ابنة عمى لا تنكرى ذلك ـ ثم تابعت حـديثها قائلة : إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك فى سفـرك ، أو بمال تتبلغين به إلى بيتك، فإن عندى حاجتك فلا تنكرى منى ، فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال .

تقول زينب ـ رضى الله عنها ـ والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل » .

ولكن خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك ، وفرغت زينب من جهازها وأخبرت زوجها بذلك ، فكلف أخاه كنانة بن الربيع أن يبلغها مأمنها .

وخرج بها نهاراً يقود بها وهى فى هودج لها .

وعلمت قريش بخـروج زينب مهاجـرة إلى أبيها ، فخـرجوا فى طلبهـا حتى أدركوها بمكان يقال له : ذو طوى .

فكان أول من سـبق إليها هبـار بن الأسود فـروّعها هبـار بالرمح وهى فى هودجها وكانت حاملاً فيما يزعمون ، فطرحت ذا بطنها .

وما كـان كنانة بن الربيع يرى ذلك حـتى نثر كنانته ثـم قال : والله لا يدنو منى رجل إلا وضـعت فيـه سهـماً ـ فابـتعد الـناس عنه ـ ولكنهم أغلقوا علـيه الطريق .

وأتى أبو سفيان فى جماعة من قريش فقال : أيها الرجل كف عنا بذلك حتى نكلمك . فاستجاب له . فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه وقال :

– إنك لم تصب ، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية .

فقال كنانة : وما فى ذلك يا أبا سفيان ؟

قال : إنك تعرف مصـيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من مـحمد ، فيظن الناس إذا خرجت ابنته إليه عـلانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك على ذل أصابنا عن مصيبتنا وأن ذلك منا ضعف ووهن .

وأراد كنانة أن يتكلم ، فقال له أبو سفيـان : استمع حتى أفرغ من كلامى –

ثم تابع قوله ـ ولتـعلم أننا ما لنا بحبسـها عن أبيها من حاجـة وما لنا فى ذلك من ثأر . ولكن ارجع بالمـرأة حتى إذا هدأت الأصـوت ، وتحـدث الناس أن قـد رددناها فخذها سراً وألحقها بأبيها .

واستـجاب كنانة لما قـاله أبو سفيـان ، وعادت زينب مرة أخـرى إلى بيتـها فأقامت ليـالى حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حـتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه وكان رسول الله ـ ﷺ ـ أرسلهمـا ليحضرا زينب، فسارا حتى قدما على رسول الله ـ ﷺ .

ودخلت زينب ـ رضى الله عنهـا ـ على أبيها وهى منـهوكة القـوى ضعيـفة البنية وعلم الرسول ـ ﷺ ـ بما كان من أمر هبار .

يقول أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ بعث رسول الله سرية أنا فـيها فقال لنا : إن ظفرتم بهبار بن الأسود ونافع بن عبد القيس فحرقوهما بالنار ..؟!!

يقول أبو هريرة : فلما كان الغد بعث إلينا فقال : « إنى كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إن أخذتموهمـا ثم تذكرت أنه لا ينبغى لأحـد أن يعذب بالنار إلا الله ، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما ؟» .

أى قسـوة وضعها الله سـبّحانه وتعالى فى قلوب هؤلاء الناس ؟ مـاذا كان يريد هبار بن الأسود من زينب ـ رضى الله عنها ـ ؟

أكان يريدها أن تنازله فى حلبة صراع أو قتال ؟

إنها امرأة والنساء لسن للحرب ، ولا يستطعن أن يتحملن ما فيها من أهوال، إنهن كما قال الشاعر :

كـتب القـتل والقـتـال علـينا
وعلى الغـانيـات جـر الذيول

إن الذين فعلوا هذه الفـعلة مع بنت الرسول ـ ﷺ ـ ما كـان لهم أن يفعلوها ولا أن يقتربوا من فـتاة ذاهبة إلى أبيها فـارة بدينها ـ وهى لا تملك من وسائل الدفاع ما يغنى فى مثل هذه المواقف ـ وأراد الله سبحانه ، ونجت زينب وعاشت مكرمة فى المدينة بجوار أبيها .

وعاش زوجها بمكة يتقلب فى الحياة بين الظعن والإقامة جرياً وراء التجارة وبحثاً عن الرزق الحلال الطيب .

حتى إذا كان قبل فتح مكة بوقت يسير ، خرج أبو العاص متاجراً إلى الشام

بمال له وأموال أخرى لقريش . وما هى إلا فترة يسيرة حتى فرغ من تجارته وحمل قافلته من تجارة الشام وكر راجعاً إلى مكة .

وفى الطريق بالقرب من مدينة الرسول - ﷺ - التقت به سرية من سرايا المسلمين ، وعرفوا أن هذه العير لقريش ، وهذه التجارة لهم .

فأحاطوا بها واستولوا عليها ، وساقوها إلى المدينة ليضعوها بين يدى رسول الله - ﷺ .

أما أبو العاص فقد انفلت منهم واتجه إلى مدينة الرسول - ﷺ - واستطاع تحت جنح الظلام أن يتجه إلى زينب - رضى الله عنها - إنها زوجته وأحب الناس إليه . وأم الأبناء فلابد من الالتجاء إليها والتوجه لمنزلها .

وطرق الباب ووصل صوته خائفاً مضطرباً إلى أسماع زينب وفُتح الباب وشاهدت زينب زوجها ووالد أبنائها فى هذه الحالة المفزعة المضطربة فرحبت به وأجلسته ، فوضع بين يديها جملة حاله ، وما أصاب قافلته على أيدى جنود رسول الله وطلب منها أن تجيره .

وما كاد يصل إلى هذا الحد من حديثه حتى هزَّ صمت الوجود صوت بلال - رضى الله عنه - يؤذن لصلاة الفجر : الله أكبر ، الله أكبر .

وتمتمت زينب ورددت مع المؤذن ، ثم انفلتت قائمة لتتهيأ لصلاة الفجر ، وما كاد المسلمون يكبرون للصلاة حتى صرخت زينب من صُفَّة النساء :

- أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع .

ووصلت كلمات زينب إلى أذن كل مسلم فى داخل المسجد .

فلما سلم رسول الله - ﷺ - من الصلاة أقبل على الناس فقال : أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ..؟

قالوا : نعم .

قال : أما والذى نفس محمد بيده ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم .

ثم قال : إنه يجير على المسلمين أدناهم .

ثم انصرف رسول الله - ﷺ - فدخل على ابنته فقال : « أى بنية أكرمى مثواه ، ولا يخلص إليك ، فإنك لا تحلين له » .

لقد وجد أبو العاص الأمن والأمان إلى جوار زينب بنت الرسول ﷺ .

أمن على نفسه أن ينالها أذى ، وأمن على روحه أن تزهق ، ونال الإكرام والتكريم بأمر من الرسول ـ ﷺ . (ثم ماذا بعد هذا ؟) .

يقول عبد الله بن أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ بعث رسول الله ـ ﷺ ـ إلى السرية الذين أصابوا مال أبى العاص فقال : إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم . وقد أصبتم له مالاً ، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له ، فإنا نحب ذلك ، وأن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به » .

قالوا يا رسول الله ، بل نرده عليه .

واستجاب المسلمون لتوجيه نبيهم وآثروا العفو والإكرام ، وردوا عليه جميع ماله الصغير والكبير ، حتى أنه لم ينقص منه شىء ، ولم يفقد من حق عنبر صغير . إنها النفوس الأبية التى تربت فى مدرسة القرآن . إنها القناعة التى لا تقف عند حد .

ثم أخذ أبو العاص ماله واتجه إلى مكة ـ اتجه إليها هذه المرة بقلب جديد ونفس جديدة .

لقد رأى من شئون المسلمين وأعمالهم ما جعله يؤمن إيماناً كاملاً بأن ما يأتى به محمد ـ ﷺ ـ هو من عند الله . وإلا ما استطاع أن يغير هذا التغيير الكبير فى النفوس فى تلك الفترة الوجيزة ، لقد تركوا كل ما غنموه منه ، وردوا عليه كل ماله وتجارته . وخرجوا لوداعه حافين به كأنهم أقاربه وأحبابه .

إنه الإسلام إذن الذى فعل فيهم ذلك ، نقلهم من رعاة إبل، جفاة ، غلاظ يزهقون الأرواح لأوهى الأسباب إلى هداة ودعاة ، هداة إلى الخير ، ودعاة إلى الله الواحد الأحد .

وأخذت هذه الأفكار والآراء تسيطر على أبى العاص فى رحلته من المدينة إلى مكة ، وسيطرت عليه وهو يقسّم لأهل مكة تجارتهم وأموالهم ، وسيطرت عليه وهو يشاهد الفرق الكبير بين أتباع محمد ـ ﷺ ـ الذين يعفون عن المغنم ويتخلقون بأخلاق الأنبياء ، وبين إخوة وآباء لهم فى قريش .. يحكّمون شريعة الغاب ـ شريعة السلب والنهب ، ينتهبون كل نهبة ، ويأتون من الصغائر ما يأنف منه الرجل الكريم .

وفرغ من أعمال التجارة ، وأعطى كل ذى حق حقه .

عندها وقف على ربوة عالية وقال : يا معشر قريش ، هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟

قالوا : لا . فجزاك الله خيراً فقد وجدناك وفياً كريماً .

قال : فأنا أشهد أن لا إلَه إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله - ﷺ - والله ما منعنى من الإسلام عند رسول الله - ﷺ - إلا تخوف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت .

ثم جمع ماله من مكة واتجه مرة أخرى إلى مدينة الرسول - ﷺ - لينضم إلى فرسان مدرسة النبوة .

ثم ماذا يا أمة الإسلام؟!..
الأمانة فى منهج الإسلام

■ الإسلام دين يربى معتنقيه على أن يكون لكل منهم ضمير حى يقظ .

تصان به الحقوق جميعها .

حقوق الله وحقوق الناس .

وتحرس به الأعمال والأمانات دون تفريط أو إفراط .

ومن ثم أوجب على المسلم أن يكون أميناً .

والأمن والأمانة فى المجتمع الإسلامى يرمزان إلى معانٍ شتى مناطها شعور المرء بتبعيته فى كل أمر يوكل إليه .

وإدراكه بأنه مسئول عنه أمام الله تعالى .

وذلك على النحو الذى فصله حديث الرسول - ﷺ - :

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

وعن أنس - رضى الله عنه - قال :

ما خطبنا رسول الله - ﷺ - إلا قال :

« لا إيمان لمن لا أمانة له . ولا دين لمن لا عهد له » .

أى أن الذى يخون الأمانة لا يوصف بالإيمان . لأن المؤمن أمين على كل شىء ، حافظ للودائع .

مؤتمن على حقوق الله تعالى ، وحقوق الآخرين .

يأمنونه على أسرهم . ويأمنونه على أمانتهم . ويأمنونه على حرماتهم .

والرجل الأمين فى منهج الإسلام : هو الذى يضع كل شىء موضعه وفى المكان اللائق الجدير به .

فلا يسند منصب إلا لصاحبه الذى تؤهله كفاءته وخلقه له .

والوظائف العامة ، والمؤسسات المتخصصة وحكام الأقاليم ، وقيادة الجيوش ، والمسئولون عن أموال الدولة . كل هذه الأشياء تعتبر من الأمانات المهمة فى الدولة . وعلى الحاكم أن يختار لها الأكفاء الأقوياء ، الأمناء أصحاب الضمائر اليقظة والخلق الكريم .

فعن أبى ذر الغفارى ـ الصحابى الجليل ـ رضى الله عنه .

قال : قلت يا رسول الله ألا تستخلفنى ..؟

قال : فضرب بيده على منكبى ثم قال :

« يا أبا ذر : إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها » .

إنك ضعيف . فهو بهذا يفتقد شرطاً من شروط الولاية ، وقد يكون ضعفاً فى جسده ، أو ضعفاً لرحمته مَنْ لا يستحق الرحمة ، أو لانشغاله بأمور كالتجارة أو الزراعة تحول بينه وبين أداء واجب الولاية على الوجه الأكمل .

ومن شروط من يلى عملاً صغيراً أو كبيراً أن يكون قوياً فى نفسه ، قوياً فى عدله ، قوياً فى أداء الواجب ، قوياً فى حفظ المال والأنفس ، قال تعالى على لسان ابنة شعيب ـ عليه السلام ـ :

﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) ﴾ [القصص]

والأمانة فى الدولة تقتضى ألا تستند الوظائف إلا لمن يستحقها وتتوافر فيه مواصفاتها ومبادئها . فإذا مال ولاة الأمر بها إلى غير مستحقيها لهوى أو رشوة أو قرابة ، أو مصلحة مشتركة . فيكونون بذلك قد ارتكبوا ـ بتنحية القادر وتولية العاجز ـ خيانة فى حق الرعية وخيانة فى حق الوطن .

قال الرسول ـ ﷺ ـ :

« مَنْ استعمل رجلاً على عصابة ، وفيهم من هو أرضى لله عنه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » .

والأمة التى لا أمانة لها ـ هى الأمة التى تعبث فيها الشفاعات بالمصالح المقررة ، وتطيش بأقدار الرجال الأكفاء لتهملهم ، وتقدم من دونهم ، وقد بينت السنة المطهرة أن هذا العمل يعد من مظاهر الفساد الذى سوف يستشرى فى آخر الزمان .

جاء رجل إلى الرسول - ﷺ - فقال :

يا رسول الله : متى تقوم الساعة ؟

فقال عليه السلام : إذا ضُيعت الأمانة ، فانتظر الساعة .

فقال الرجل : وكيف إضاعتها يا رسول الله ..؟

قال : إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة ..

ومن الأمانة أن يحرص المرء على أداء واجبه كاملاً فى العمل الذى يناط به ، وأن يخلص فيه ويجوِّده ، وأن يسهر على حقوق العباد بين يديه ، حتى يوصلها إلى مستحقيها .

فإن استهان الفرد بما كُلف به - وإن كان صغيراً - استتبع ذلك شيوع الإهمال ، والتفريط فى حياة الجماعة كلها ، ثم يعم الفساد ويستشرى فى كيان الأمة كلها .

ومن الأمانة ألا يستغل الموظف وظيفته التى أسندت إليه لجر منفعة إلى شخصه أو قرابته ، فإن ذلك فى شرع الإسلام جريمة يعاقب عليها والمعروف أن المؤسسات العامة ، ودواوين الدولة تمنح العاملين بها أجوراً محددة ، فمحاولة أخذ ما يزيد على ذلك بالطرق الملتوية هو كسب حرام يعاقب عليه فى الدنيا ، إن كشف ستره ، ويعاقبه الله يوم القيامة عقاباً أليماً .

قال رسول الله - ﷺ - :

« مَنْ استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً حسناً فما أخذ بعد ذلك غلول ، لأنه اختلاس من مال الجماعة الذى يجب أن ينفق فى حقوق الضعفاء والفقراء ، ويرصد للصالح العام » .

قال الله تعالى :

﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦١) ﴾ [آل عمران]

وقد استعمل رسول الله - ﷺ - رجلاً من الأزد - يقال له ابن اللتبية - على الصدقة - فلما قدم بها قال : هذا لكم ، وهذا أهدى إلىَّ قال : فقام رسول الله - ﷺ - فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أم بعد . فإنى أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى الله فيأتى ويقول :

هذا لكم وهذا هدية أهديت إلىَّ . أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً .. ؟

والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقى الله يحمله يوم القيامة فلا أعرف أحداً منكم لقى الله يحمل بعيراً له رغاء أو بقرةً لها خوار أو شاةً تعير ، ثم رفع يديه حتى رؤى بياض إبطه يقول :

« اللهم إنى قد بلغت » .

إن رسول الله ـ ﷺ ـ الحاكم للدولة الإسلامية قد وضع فى هذا الحديث سياسة الحلال والحرام ، ما يأخذ منه بحقه ، وما لا يجوز أخذه بحال من الأحوال .

ومن الأمانة فى الدولة أن تحفظ حقوق المجالس التى تشارك فيها ، وأن تكون كتوماً على أسرارها ، وخصوصاً ما يتعلق بأمن الوطن والمواطنين، فليس كل ما يُعرف يقال . وليس كل ما يسمعه المرء عرضة أن يذاع .

إن كل الأمانات فضيلة ضخمة لا يستطيع حملها الرجال المهازيل ولا النساء العابثات بشرع الله .

ولقد أبان الله تعالى أن الأمانة تثقل كاهل الوجود كله ، فلا ينبغى للإنسان أن يستهين بها ، أو يتهاون فى حفظها أو يعمل على ضياعها قال تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

خالد بن الوليد سيف الله

رضى الله عنه

قال الرسول - ﷺ:
« خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله الله على المشركين » .
رواه البخارى فى فضائل الصحابة ٢٥

قال الصديق أبو بكر - رضى الله عنه -:
« عجزت النساء أن يلدن مثل خالد بن الوليد » .
الاستيعاب فى معرفة الأصحاب

■ بطل من أبطال المعارك لا يشق له غبار .

وفارس مقاتل لم يعرف طعم الهزيمة قط .

وسيف من سيوف الله ، سلّه الله على المشركين .

والده : الوليد بن المغيرة . كان يقال له العدل . لأنه كان يكسو الكعبة عاماً ، وتكسوها قريش كلها عاماً آخر .

من هنا جاء لقب العدل ، وهو أحد قضاة العرب فى الجاهلية .

ومن زعماء قريش فى دار الندوة .

يصفه بعض المؤرخين ، بأنه كان رزيناً هداه عقله إلى بعض الحق . منها أنه عرف أن الخمر لا تليق بالرجل الوقور ..

عندئذ حرمها على نفسه قبل ظهور الإسلام .

وقد تناوله القرآن الكريم فى أكثر من موضع . منها أنه عندما سمع الوليد بدعوة الإسلام التى جاء بها محمد ـ ﷺ ـ وتتابع الوحى على يتيم بنى طالب ـ كما كانوا يسمونه ـ انتفخت أوداجه كبراً وصلفاً . وأخذته العزة بالإثم .

ثم زعم بأنه أحق الناس بالنبوة والقرآن .

وقال : أينزل القرآن على محمد وأُترك .. ؟

وأنا كبير قريش وسيدها .. ؟

ويردد القرآن أمانيهم الباطلة ، وأحلامهم الواهية ، وتدخلهم فى شئون الخالق جل وعلا . وهم أنفسهم لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ

يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾ [الزخرف]

وأم خالد : لبابة بنت الحارث . أخت ميمونة زوج النبى ـ ﷺ .

وأخت أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه .

ولخالد عشرة من الإخوة الذكور .

منهم : الوليد بن الوليد الذى أسره المسلمون فى غزوة بدر . فقدم فى فدائه أخواه خالد وهشام وافتدياه بأربعة آلاف درهم .

فلما افتدياه أسلم . فقيل له : هلا أسلمت قبل أن تُفتدى وأنت مع المسلمين..؟

فقال : كرهت أن تظنوا بى أنى جزعت من الإسار فأسلمت .. !

وعندما نطق بالشهادتين حبسوه بمكة فكان رسول الله ـ ﷺ ـ يدعو له فيمن دعا لهم من مستضعفى المؤمنين بمكة .

إســلام خــالـد

يقول خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ شـرح الله صدرى للإسلام، فأزمعت الهجرة إلى رسول الله ـ ﷺ .

ثم أردت صاحباً يرافقنى فلقيت عثمان بن طلحة ، فذكرت له الذى أريد .

فأسرع بالإجابة .

وخرجنا ليلاً فلما كنا « بالهل » إذا عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه .

فقال : مرحباً بالقوم .

قلنا : وبك .

قال : أين مسيركما .. ؟

فأخبرناه بوجهتنا فقال : وأنا أريد ذلك .

فسرنا حتى قدمن المدينة على رسول الله ـ ﷺ ـ .

فلما وقفت بين يدى الرسول ـ ﷺ ـ سلمت عليه بالنبوة .

فرد علىَّ السلام بوجه طلق .

فأسلمت وشهدت شهادة الحق .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ :

« قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير » .

وبايعت رسول الله - ﷺ - وقلت استغفر لى كل ما قدمت من صد عن سبيل الله ..

فقال : الإسلام يجُب ما كان قبله .

قلت : يا رسول الله ادعو لى ..؟

فقال : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما قدم من صد عن سبيلك .

وقال خالد : وتقدم عمرو بن العاص . وعثمان بن طلحة فأسلما وبايعا رسول الله - ﷺ - .

أسلم خالد ، وعمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة . وقال الرسول - ﷺ - عندما رآهم مقبلين عليه للصحابة :

« رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها » .

ونقول : هل بقى فى مكة لدى قريش الجاحدة بدين الإسلام أمثال هؤلاء الفرسان الشجعان ملوك المعارك .. ؟

إن وصول الفرسان الثلاثة إلى مدينة الرسول - ﷺ - معناه أن قريش استسلمت ، وألقت بكل أسلحتها .

وقد فشلت استراتيجيتها ، ويئست فى دخول معركة جديدة مع محمد وفرسانه .

ليس هذا فحسب . ولكن أصبحت حصون مكة جميعها مفتحة بالكامل أمام القوة الضاربة لجيش المسلمين .

هذا بالإضافة إلى وجود هدنة بين الرسول - ﷺ - وبين قريش .

إذن لا بد من تأمين الجزيرة العربية من جيوش الروم التى تعسكر على مشارف الشام . وتهدد الداخل والخارج .

خالد فى غزوة (مؤتة)

لهذا كانت أولى الغزوات التى اشترك فيها خالد بن الوليد بعد إسلامه - هذه الغزوة .

ولقد ظهرت عبقريته الحربية . عندما رأى أن الروم قد حشدت لهم أكثر من مائتى ألف جندى ، مع وفرة المعدات الحربية التى يملكونها ..

عندها قسَّم خالد جيشه الذى لا يتجاوز عدده الثلاث آلاف جندى إلى قسمين .

قسم واجه العدو ، وأخذ فى مناوشته ، ومبارزة جنوده .

وقسم آخر ابتعد تحت جنح الظلام عن أرض المعركة ، وأخذ يجرى بالخيل فى الصحارى الممتدة ، فتثير الغبار ، ويتصاعد إلى عنان السماء .

عندها شعر جيش الأعداء بأن مدداً جاء للمسلمين ، فانحازوا بعيداً عن مسرح المعركة .

عندها انحاز المسلمون متهيئين للسير إلى المدينة .

وبذلك استطاع خالد أن ينقذ جيشه من هزيمة محققة ويعود بتلك الكوكبة من الفرسان سالمين إلى المدينة .

وفوت فرصة النصر أمام جيش جرار لا تغيب عنه الشمس .

خالد فى فتح مكة

اشترك خالد فى فتح مكة . وشاهد الرسول - ﷺ - وهو آخذ بأستار الكعبة ويقول :

(جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) .

ويكرر . لا إله إلا الله .

صدق وعده ، ونصر عبده .

وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

يا أهل مكة . يا سدنة بيت الله الحرام . ما تظنون أنى فاعل بكم .. ؟

قالوا : خيراً : أخ كريم وابن أخ كريم .

عندها قال عليه السلام :

« اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

المعارك الجانبية فى فتح مكة
وسماحة فرسان الإسلام

لقد وقعت بعض المعارك الجانبية فى فتح مكة مع عصابات الشرك والكفر وشاهد الإمام علىٌّ - كرم الله وجهه - أحد فرسان المشركين يجندل جنود المسلمين ويعمل سيفه فى رقابهم .

وكأنه النار المحرقة التى تكتسح أمامها كل شىء .

وما كاد الإمام علىٌّ يرى ذلك . حتى انقض عليه ، وانتزعه من على فرسه ، وألقى به أرضاً .

وقبل أن ينتزع الفارس جسمه من الأرض كان الإمام علىٌّ يهبط عليه كالصاعقة من فوق فرسه ، ويضع قدميه على ذراعيه . ويقبض على سيفه ، ليقطع رأسه مع رقبته ..

ثم ماذا ؟! مضت برهة . ولم يفعل الإمام شيئاً .

ثم رفع قدميه من على ذراعى المشرك . ووضع سيفه فى قرابه ، واعتلى صهوة جواده . وتركه ملقى على الأرض .

وكان بلال - رضى الله عنه - ومعه جماعة من المقاتلين . يشاهدون ذلك، فتعجبوا من أمر علىٍّ .؟؟

كيف لم يقتله - وقد أمكنه الله منه - وهو مستسلم بين يديه .. ؟

عندها صرخ بلال فى وجه الإمام علىٍّ قائلاً :

ويحك يا علىُّ لمَ لم تقتله ..؟

وكان رد الإمام المؤمن . القائد الورع الذى تربى فى مدرسة النبوة والذى يملأ الإيمان كل جارحة من جوارحه :

يا أخى يا بلال لقد بصق هذا المشرك فى وجهى ، فخشيت أن أقتله، فيكون قتلى له غضباً لنفسى لا لله .

نعم إنهم أبناء وفرسان مدرسة النبوة .

كانوا يحملون سيوفهم ، ومن وراء سيوفهم أخلاقهم ، فكأن سيوفهم نفسها ذات أخلاق .

لقد حررهم الإسلام من الحقد والضغينة .

وحررهم من أسر الخصومة والظلم . وصدق ربى فى قوله :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا (٢٩) ﴾ [الفتح]

خالد فى حروب الردة

فى يوم ليس كمثله يوم نعى الناعى رسول الله - ﷺ - وردد الكون قول الله تعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [آل عمران]

ومـا كادت الجـزيرة العربيـة تسمع خـبر وفـاة الرسول - ﷺ حـتى نكس البعض على عـقبيه ، وامتنعـوا عن أداء الزكاة لخليفة رسـول الله وكان لابد من محاربة هؤلاء المرتدين .

عندها جُيـشت الجيوش لذلك . واختـار الخليفة خـالد بن الوليد - رضى الله عنه - لقيادة الجيش الأول لقتال بنى حنيفة .

بنو حنيفة أتباع مسيلمة الكذاب - مدعى النبوة .

وانخرط فى هذا الجـيش نخبـة كبيـرة من صحـابة رسول الله - ﷺ - ومن فرسان مدرسة النبوة .

روى الإمام أحمـد عن طريق وحشى بن حرب . أن أبا بكر الصـديق لما عقد لخالد بن الوليد على قتال أهل الردة قال : « سمعت رسول الله - ﷺ - يقول :

« نعم عبد الله وأخو العشيـرة خالد بن الوليد . سيف من سيوف الله سلّه الله على الكفار والمنافقين »

وقبل أن يتحرك الجيش قال له أبو بكر : « ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً »

وأتق الله فى أمرك ، فإن الله مع الذين أتقوا والذين هم محسنون .

جد فى أمرك ولا تلن ، ولا تظفر بأحـد من المشكرين قتل فرداً من المسلمين إلا نكلت به » .

مقتل مسيلمة الكذاب

حشـد مسيلمة جـيشاً جراراً وجـعل على ميمنتـه المحكم بن الطفيل . وعلى الميسرة الرحال بن عنفوة .

وجاء خالد بن الوليد بجيشه . فلما تقابل الجيشان قال مسيلمة لقومه :

اليوم يوم الغـيرة . اليوم إن هزمتم تستنـكح النساء سبيات ، وينـكحن غير حظيات .

فقاتلوا عن أحسابكم وأمنعوا نساءكم .. ؟؟

وتقدم المسلمون حتى نزل بهم خالد على كثيب يشرف على أرض اليمامة .

فضرب به عسكره . وراية المهاجرين مع سالم مولى أبى حذيفة .

وراية الأنصار مع ثابت بن قيس .

واصطدم المسلمون والكفار فكانت جولة . وانهزمت الأعراب حتى دخلت بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد ..

عندها غضب الصحابة وقال ثابت بن قيس :

« بئس ما عودتم أقرانكم . ونادى من كل جانب . أخلصنا يا خالد .

فخلصت ثلة من المهاجرين والأنصار . وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يعهد مثله وجعلت الصحابة يتواصون بينهم ويقولون : « يا أصحاب سورة البقرة » .

بطل السحر اليوم .

وحفر ثابت بن قيس لقدميه فى الأرض إلى أنصاف ساقيه ، وهو حامل لواء الأنصار بعد ما تحنط وتكفن .

فلم يزل ثابتاً حتى قُتل فى مكانه ..

وقال المهاجرون لسالم مولى أبى حذيفة : نخشى أن نؤتى من قبلك .. ؟

فقال : بئس حامل القرآن أنا إذا ..

وقال زيد بن الخطاب : أيها الناس عضوا على أضراسكم ، واضربوا فى عدوكم وأمضوا قدماً .

ثم قال : والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله ، أو ألقى الله فأكلمه بحقى .

فقُتل شهيداً ـ رضى الله عنه .

عندها حمل خالد بن الوليد حتى جاوزهم وسار إلى مسيلمة ، وجعل يترقب أن يصل إليه فيقتله .

ثم رجع ووقف بين الصفين ودعا إلى المبارزة وقال :

« أنا ابن الوليد العود . أنا ابن عامر وزيد . ونادى بشعار المسلمين ..

يا محمداه .

وجعل لا يبرز له أحد إلا قتله ، ولا يخرج له فارس إلا كان طعمة لسيفه ودارت رحى الحرب . ثم اقترب خالد من مسيلمة ، فعرض عليه النصف فقال خالد : إن قبلنا فأى الأنصاف تعطينا .. ؟

وصبر الصحابة فى هذا الموطن صبراً لم يعهد مثله ، ولم يزالوا يتقدمون إلى نحور عدوهم حتى فتح الله عليهم .

عندها ولى الكفار الأدبار ، فأتبعوهم يضعون السيوف فى رقابهم حيث شاءوا حتى ظهر مسيلمة .

فتقدم إليه وحشى بن حرب ـ رضى الله عنه ـ فرماه بحربته فأصابه ، وخرجت من الجانب الآخر .

وسارع إليه أبو دجانة سماك بن خرشة فضربه بالسيف فسقط عدو الله .
قُتل رأس الكفر مسيلمة الكذاب .
قُتل مَنْ جمع الجموع وجيّش الجيوش لحرب المسلمين .
وبقتله عادت الجزيرة العربية مرة أخرى إلى رحاب الإسلام وإلى دفع الزكاة ، لتعود مرة أخرى إلى فقرائهم .
عادت الجزيرة العربية إلى الإسلام .
وارتفعت فوق مآذنها كلمة التوحيد .
عندها انطلق المسلمون إلى أرض فارس والروم ليخلصوا البشرية كلها من عبادة العباد إلى عبادة الواحد الأحد .
فأين خالد بن الوليد فى هذه التبعة الملقاة على أكتاف المسلمين ..؟

خالد خارج الجزيرة العربية

ما كاد يفرغ البطل العملاق خالد بن الوليد من حروب الردة ، وعادت الجزيرة العربية إلى رحاب الإيمان ، إلى كلمة التوحيد .
حتى صدرت الأوامر من خليفة المسلمين أبى بكر الصديق إلى الجيوش الإسلامية بالتوجه إلى أرض فارس .
ذات الخضرة اليانعة .
والبساتين الفواحة بالعطر ، المليئة بالثمر .
والتى تتخللها القنوات الكثيرة التى تقذف على أراضيها المنبسطة بالماء العذب من نهر دجلة . ولقد حدد الخليفة خط السير للجيش المحارب على أن يبدأ بمدينة « الأبلة » .
ويأتى العراق من أعاليها .
فإذا وصل الجيش إلى تلك البلاد ، دعا أهلها إلى واحدة من ثلاثة :
١ – الإيمان بالله وحده وترك ما عداه من الألوهية الزائفة .
٢ – دفع الجزية للجيش المحارب على أن تأخذ منهم فى كل عام .
٣ – الحرب والقتال .
وكان من وصايا الخليفة للقائد العام ألا يُكره أحداً على المسير معه ولا يستعين بمن ارتد عن الإسلام ، وإن كان قد عاد إليه .
ثم ماذا ..؟

سار خالد بجيشه حتى نزل مدينة « قريات » وما كاد أهلها يسمعون بجيش المسلمين حتى سارع أهل الرأى فيها وصالحوه على دفع الجزية فى كل عام، لقد اعتزوا بديانتهم . وخافوا على أنفسهم وأولادهم ونسائهم من القتل فاختاروا الجزية .

ثم سار خالد بجيشه حتى وصل « الحيرة » عروس أرض فارس ـ فى ذلك الوقت ـ فخرج إليه أشرافها مع رجل يسمى قبيصة بن إياس والى منطقة الحيرة . وكان قد أمَّره عليها كسرى بن النعمان المنذر .

فقالوا : ماذا تريدون منا . ولم نغر على أرضكم ولم يكن بيننا قتال .. ؟

قال خالد : جئنا ندعوكم إلى عبادة الله تعالى ، والدخول فى دين الإسلام، فإن أجبتم فأنتم من المسلمين لكم ما لهم وعليكم ما عليهم .

فإن أبيتم الإسلام كان عليكم جزية تدفع كل عام من خالص أموالكم .

وإلا فالحرب .

وقد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة .. ثم جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم ..؟

فقال له قبيصة : ما لنا بحربك من حاجة، بل نقيم على ديننا ونعطيكم الجزية.

فتعجب خالد من رفضهم الإسلام .

وقال : تباً لكم . إن الكفر فلاة مضلة ، وأعمى العرب من يسلكها ثم صالحهم على مائة ألف درهم .

وكانت أول جزية أخذت من العراق ثم حملت إلى المدينة ومن سبقها من جزية « القريات » .

موقعة (الأنبار)

ثم توجه جيش الفتح، جيش عمالقة الإسلام إلى (الأنبار) ، فرأى المسلمون فيها قصوراً عالية ، وأبراجاً مرتفعة .

وبساتين مثمرة ، وأسواقاً مزدحمة .

وبيوتاً كثيرة لطلاب العلم والمعرفة .

إنها الدنيا الجديدة التى بهرت الجيش الإسلامى .

وكان فرسان (الأنبار) يقاتلون على ظهور الفيلة ـ وهى دبابة الفرس ،

وتتناول بخرطومها الفارس من على ظهر جواده فى لمح البصر وتدوسه بأقدامها.

عندها أمر خالد أن يضربوا رماة الأعداء فى أعينهم ، وكان جيش المسلمين على درجة عالية من ذلك .

وما هى إلا سويعات قليلة حتى فر جيش الأعداء . وهربت الفيلة بعد أن أصيبت فى أعينها ، إصابات بالغة .

ثم ماذا ..؟

تم الفتح والنصر . ومن هذا التاريخ أُطلق على جيش المسلمين رماة الحدق . لأنهم لم يخطئوا الهدف وسميت هذا الغزوة بذات العيون .

إن هذا الجيش لم تكن مهمته القتال فحسب ، ولا هزيمة الأعداء وكفى ولكنهم كانوا هداة ودعاة .

هداة إلى الله ودعاة إلى دينه وشرعه .

وكانوا يعلّمون مَنْ يدخلون فى الصلح الإسلام وتعاليمه ، والدين وأوامره والقرآن وهديه .. امتثالاً لأمر الله تعالى بقوله :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ .. ﴿٦﴾ ﴾ [التوبة]

خالد على أرض الشام

عزم خليفة المسلمين أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - على جمع الجنود ليبعثهم إلى أرض الشام عملاً بقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [التوبة]

وبقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [التوبة]

واقتداء بالرسول - ﷺ - فإنه جمع المسلمين لغزو الشام .

وذلك فى غزوة تبوك حتى أنه وصلها فى حر شديد ، وجهد جهيد .

ثم بعث قبل موته أسامة بن زيد - رضى الله عنه - على جيش كبير فيه مجموعة من الصحابة ليغيروا على تخوم الشام .

وكان أول لواء عقده الخليفة لخالد بن سعيد بن العاص - وخرج معه ماشياً يوصيه ومن معه من المسلمين وجعل له دمشق .

والثانى : عقده لأبى عبيدة بن الجراح ، وخرج معه ماشياً يوصيه وجعل له نيابة حمص .

والثالث : عقده لعمرو بن العاص - وخرج معه ماشياً يوصيه ، ويحدد له ما يجب فعله وجعل له فلسطين .

ثم أمر كل قائد أن يسلك طريقاً غير طريق الآخر مقتدياً فى ذلك بنبى الله يعقوب - عليه السلام - عندما قال لبنيه :

﴿ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ .. (٦٧) ﴾ [يوسف]

ولما توجهت هذه الجيوش إلى الشام أفزع ذلك الروم، فكتبوا إلى هرقل فلما انتهى إليه الخبر قال لهم :

« ويحكم إن هؤلاء أهل دين جديد ، وإنهم لا قبل لأحد بهم فأطيعونى .

وصالحوهم على نصف خراج الشام ، ويبقى لكم جبال الروم .

وإن أنتم أبيتم ذلك ، أخذوا منكم الشام وضيقوا عليكم جبال الروم .. » .

ولكنهم رفضوا ما قاله هرقل . وطالبوه بالحرب ..؟

عندها أمر الخليفة أبو بكر الصديق خالد بن الوليد بالتوجه إلى الشام .

فأسرع خالد إلى الشام ، بعد أن استناب عنه على أرض فارس المثنى بن حارثة .

واصطحب معه تسعة آلاف مقاتل ، وسلك بهم طريقاً وعرة ، وسار يطوى الليل والنهار حتى وطأ أرض الشام ، وطوق جيش الروم من الخلف ..

ثم أمر بتجميع جيوش المسلمين . وقال لقادتهم تعالوا نتعاور الإمارة .

فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً وهذا بعد غد حتى يفتح الله لنا .

ودعونى اليوم للقيادة .

فأمّروه عليهم . وهم يظنون أن الحرب أمدها يطول .

علمنى الإسلام يا خالد .. !!

وما كاد الجيشان يتلاقيان ويقتربان حتى خرج من جيش الروم القائد « جرجير » ونادى على خالد بن الوليد .

فجاء إليه خالد حتى تقابلت أعناق خيلهما .

فقال « جرجير» : يا خالد ، أخبرنى وأصدقنى ولا تكذبنى ، فإن الحر لا يكذب ..؟ ولا تخادعنى ، فإن الكريم لا يخادع ..؟؟

هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء ، فأعطاكه ، فلا تسله على أحد من الأعداء إلا هزمته .. ؟

قال خالد : لا لم يحدث .

قال : ففيم سميت سيف الله ..؟

قال : إن الله بعث فينا نبيه فدعانا إلى الإسلام فنفرنا منه ، ونأينا عنه جميعاً، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا كذبه وباعده ..

وكنت فيمن كذبه وباعده ، ثم إن الله تعالى أخذ بقلوبنا ، ونواصينا فهدانا به وبايعناه .

فقال لى : أنت سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين ، ودعا لى بالنصر فسميت سيف الله بذلك .

فأنا من أشد الناس على المشركين .

فقال جرجير : يا خالد إلى ما تدعون .. ؟

قال : إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والإقرار بما جاء به من عند الله عز وجل .

قال : فمَنْ لم يجبكم ..؟

قال : يدفع الجزية ونمنعهم ..

قال : فإن لم يعطها ..؟

قال : نؤذنه بالحرب ثم نقاتله ..

قال : فما منزلة مَنْ يجيبكم ويدخل فى هذا الأمر .. ؟

قال : منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا ووضيعنا .

قال جرجير : فلمَنْ دخل فيكم اليوم من الأجر مثل ما لكم من الأجر والثواب..؟

قال : نعم وأفضل ..

قال : كيف يساويكم وقد سبقتموه .. ؟

قال خالد : إنا قبلنا هذا الأمر وبايعنا نبينا وهو حى تأتيه أخبار السماء ويرينا الآيات . وحق لمن رأى ما رأينا ، وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع .. وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب . فمَنْ دخل فى هذا الدين بحقيقة ونية كان أفضل منا .

قال جرجير : بالله لقد صدقتنى ولم تخادعنى .. ؟

قال : تالله لقد صدقتك وأن الله ولى ما سألت عنه .

عند ذلك قلب جرجير الترس ومال مع خالد وقال :

« علمنى الإسلام يا خالد » .

ثم ماذا ..؟

التقى الجيشان فى حرب طاحنة . وتساقطت القتلى من الجانبين وانهزم جيش الروم وفروا هاربين ، وتبعهم الجيش الإسلامى يأسرون ويقتلون .

وقدر عدد القتلى بمائة وعشرين ألف قتيل من الروم ..

هرقل يستقبل فلول الجيش المنهزم

قال ابن إسحاق : وقف هرقل - وهو فى انطاكية يشاهد فلول الجيش المنهزم. وهم يتساقطون من الهلع والخوف والتعب .

فقال لهم : ويلكم أخبرونى عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسو بشراً مثلكم .. ؟

قالوا : بلى .

قال : فأنتم أكثر أم هم .. ؟

قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافاً مضاعفة .

قال : فما بالكم تنهزمون .. ؟

فقال شيخ من كبرائهم : لأن أصحاب الدين الجديد يقومون الليل لعبادة الله ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ويتناصحون فيما بينهم .

وحق لمن يفعل ذلك أن يكون الله معه وناصره .

أما نحن أيها الملك : فإننا نشرب الخمر .

ونرتكب الفحشاء ونزنى .

ونفعل الحرام . وننقض العهد .

ونغتصب ، ونظلم ونأمر بالسخط .

وكل هذا مما نهى الله عنه فكيف ينصرنا ، ونحن لم ننصره .. ؟

فالأرض كل الأرض وما فيها وما عليها ستكون لهؤلاء الرجال . رجال الله مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء]

عزل خالد عن القيادة

يحطم الجيش الإسلامى بقيادة خالد بن الوليد آخر قلاع الروم فوق أرض اليرموك .

وما كاد المسلمون ينفضون أيديهم من هزيمة القوة الضاربة للروم .

ويلقون بجنودها إلى قاع المحيط .

حتى تقام أيام النصر ، ويتبارى الشعراء فى وصف البطولة ، وتصوير المعارك ، وتساقط القتلى وهلع الفلول المنهزمة .

ويدخل هذه الحلبة الأشعث بن قيس ـ رضى الله عنه ـ ويمدح خالد ويغرق فى المدح . ويقول فيحسن القول .

وما كاد يفرغ من قوله ، حتى أعطاه القائد المنتصر مبلغاً كبيراً من المال .

ويصل خبر هذا العطاء إلى الحاكم العام ـ أمير المؤمنين ـ عمر بن الخطاب رضى الله عنه . عمر الساهر على أمر الرعية .

نقول يصل خبر العطاء السخى الذى قدمه خالد إلى الأشعث ، عندها يرسل عمر إلى ابن الجراح ـ رضى الله عنه ـ أمين الأمة وشريك خالد فى قيادة الجيش قائلاً : أما بعد .

فقد بلغنى أن ابن الوليد قد قدم للشاعر الذى مدحه خمسمائة دينار .

وهذا مبلغ كبير يكفى لإشباع خمسمائة جائع . فإذا جاءك خطابى فاعزله عن القيادة. وأسأله عن هذا المال على رؤوس الأشهاد.. أهو من ماله الخاص.. ؟ فإن كان كذلك فقد أسرف ، والإسراف صفة لا يصح أن يتصف بها قادة المسلمين . وبذر أمواله ـ والمبذرون إخوان الشياطين .

والخيانة أيضاً ليست من صفات القيادة ..

ويصدع أبو عبيدة بالأمر ، ويتم عزل خالد ، ويقاسمه جميع ماله .

فهل انتهت قضية العزل عند هذا الحد .. ؟

لا . إنها لم تنته ، لأن فرسان بنى أمية أولاد عمومة خالد وشبابها لم يرضهم هذا العزل .

وأخذوا يتساءلون : كيف يُعزل قائد فى أوج انتصاره .. ؟

لا . إن هذا لا يكون ..

إنهم فرسان الحرب ، ورهبان الليل ، لا يعرفون طعم الهزيمة أو التراجع .

ويتقدم أحدهم إلى خالد بن الوليد قائلاً :

« إنها الفتنة يا خالد » .

ويرد عليه القائد المنتصر المعزول . وماذ نفعل يا رفيق السلاح .. ؟

ماذا نفعل يا أخا العرب ، وقد رغب ابن الخطاب فى ذلك وأمر بتنفيذه ..

ويرد عليه آخر :

« سنملؤها خيلاً ورجلاً على ابن الخطاب فى المدينة » .

وهنا يقول خالد الذى تربى فى مدرسة النبوة ، فى مدرسة الفرسان، فى مدرسة الحب والإيمان :

لا يا إخوتى فى الله .. يا رفقاء المعارك . لقد حطمنا المدائن على أرض فارس، ودمرنا القلاع على بطاح الروم . فهل توجد قوة ضاربة تقف أمام المسلمين وتحتاج لسيف خالد .. ؟

ويرددون جميعاً لا . لا توجد قوة ضاربة تقف أمام جيش المسلمين .

عندها يقول خالد :

إذن الدولة الآن فى حاجة إلى عقل عمر أكثر من حاجتها لسيف خالد . لن تكون فتنة وابن الخطاب موجود .

ثم ماذا .. ؟

انخرط جندياً عادياً فى جيش الفتح ، جيش : لا إله إلا الله .

ونقول :

على ذلك كان إسلام أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ .

وعلى ذلك كانت عروبة خالد وسعد بن أبى وقاص وأبى عبيدة بن الجراح .

وكان خلفاؤهم يجمعون بين إمامة الصلاة ، وقيادة المعركة ، حتى بلغوا من القوة أن فعل كتاب الرشيد ما يفعل الجيش .

وبلغوا من المروءة أن سيّر المعتصم الخليفة العباسى جيشاً لإنقاذ امرأة .

فلما شتت الوحدة ، وتفرقت الجماعة وصارت سيوف المسلمين خشباً يحملها خطباؤهم على المنابر ، ومصاحفهم تمائم يعلقها مرضاهم على الصدور.

أصبحت دولهم تبعاً لكل غالب ، وثراهم نهباً لكل غاصب ، وبلغوا من التخاذل والفشل .

إن الأندلسيين يجليهم النصارى عن أقطارهم بالأمس، فلم يجدوا الرشيد ..؟

وإن الفلسطينيين يشردهم اليهود عن ديارهم اليوم فلا يجدوز المعتصم ؟!

إن مسلمى هذا الزمن صاروا من جهلهم بالدين وعجزهم فى الدنيا على أخلاق العبيد يطأطىء أشرافهم فلا يحمى لهم أنف .

وتنقص أطرافهم فلا يندى لهم جبين .

وتنزل بهم الشدة ، فيتخاذلون تخاذل القطيع عاث فيه الذئب .

ويغير عليهم العدو ، فيتواكلون تواكل الإخوة دب فيهم الحسد.

وتجمعهم الخطوب ، فيفرقهم الطمع والهوى .

ويلجأون إلى هيئة الأمم المتحدة ، فيخذلهم العدو والصديق .

كأن الإسلام الذى كان عامل قوة وائتلاف قد انقلب ـ فى عصرنا هذا ـ إلى علة واختلاف .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

شرحبيل بن حسنة الكندى

رضى الله عنه

مؤمن صادق الايمان ، تقى نقى ورع ، مأمون النقيبة ، كريم مضياف شهم غيور ، له رواية عن النبى ﷺ . وكان يحسن القراءة والكتابة ، وهو من كتاب الوحى . توفى بالطاعون سنة ثمانى عشر للهجرة . رضى الله عن الصحابى الجليل القائد الانسان فاتح الأردن شرحبيل بن حسنة .

■ فارس الفوارس ، وقائد الكتائب ، وأمير الركب وفاتح الاردن ..

من صفوة الصفوة ، ومن الصحابة الأجلاء ، ومن السابقين إلى الإسلام ، ومن المهاجرين إلى أرض الحبشة فاراً بدينه ومهاجراً إلى ربه .

عزفته المعارك بطلها المغوار ، وشهدته المحافل خطيبها المفوه ، وعلى أرض الحبشة كان متبتلاً قانتاً فقيهاً فى شوق دائم إلى صاحب الدعوة ، وإلى الوحى المتتابع الذى ينزل به الروح الأمين .

كان حليفاً لبنى زهرة ، وأمه حسنة لها صحبة تزوجها سفيان بن معمر الجمحى وهاجر بها إلى أرض الحبشة ـ وبعدها إلى المدينة . وكان معهما شرحبيل[1] .

ولزم شرحبيل مجلس الرسول ـ ﷺ ـ وكان من كتّاب الوحى . وكان دائماً شغوفاً بأحاديث الجهاد يكررها ، ويستنبط معانيها . وكلما دعا داعى الجهاد كان من السابقين إليه ، المنخرطين فى كتائبه وتشكيلاته . وكان يردد دائماً قول الرسول ـ ﷺ ـ :

« من مات مرابطاً فى سبيل الله ، أمن من عذاب القبر ، ونما له أجره إلى يوم القيامة »[2] .

ورواه بإسناد آخر وفيه قال شرحبيل : طال رباطنا أو إقامتنا على حصن،

(١) راجع الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ج٢ ص ٦٣٠ .
(٢) الحديث رواه النسائى فى الجهاد ٣٩ والترمذى فى فضائل الجهاد ٢٥ وابن ماجة فى الجهاد ٧ وأحمد بن حنبل فى المسند ٥ : ٤٤٠ ، ٤٤٤ (حلبى) .

فاعتزلت من المعسكر أنظر فى ثيابى لما آذانى منها ، فمر بى سلمان الفارسى .

فقال : ما تعالج يا أبا السمط ..؟ فأخبرته . فقال : إنى لأحسبك تحب أن تكون عند أم السمط فكانت هى تعالج هذا منك .

قلت : إى والله ..

قال : لا تفعل فإنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول :

« رباط يوم وليلة كصيام شهر وقيامه ، ومن مات مرابطاً أُجرى عليه مثل ذلك الأجر ، وأجرى عليه الرزق ، وأمن من الفتان »[1] . واقرأوا إن شئتم .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا .. (٥٨) ﴾ [الحج]

ويروى أن رسول الله - ﷺ - نظر إلى رجل لا يتم ركوعه ، وينقر فى سجوده فقال عليه السلام :

« لو مات هذا على حاله هذه لمات على غير ملة محمد » .

ثم قال : « الذى لا يتم ركوعه ، وينقر فى سجوده ، مثل الجائع يأكل التمرة والتمرتين لا يغنيان عنه شيئاً » .

يقول عنه ابن سعد فى الطبقات : كان قديم الإسلام بمكة ، وهو من مهاجرى الحبشة فى المرة الثانية ، وغزا مع النبى - ﷺ - غزوات .

وهو أحد الأمراء الذين عقد لهم أبو بكر ، وكان قد قدم مصر رسولاً من النبى - ﷺ - وتوفى النبى - ﷺ - وهو بها .

ولما قدم المهاجرون من الحبشة مع جعفر نزل شرحبيل هو وأخواه لأمه على بنى زريق ثم تحول فى خلافة عمر إلى بنى زهرة فحالفهم . فخاصمه أبو سعيد بن المعلى الزريقى إلى عمر ، وقال : حليفى ليس له أن يتحول عنى إلى غيرى .

فقال شرحبيل : ما كنت لهم حليفاً إنما نزلت مع أخوى فى ربعهما وقومهما .

فكان أحب الناس إلىّ وأقربه بى رحماً . فلما مات أخو أخوى اخترت لنفسى، فحالفت مَنْ أردت .

فقال عمر : يا أبا سعيد ، إن جئت ببينة وإلا فهو أولى بنفسه .

فلما لم يأت أبو سعيد ببينة بقى شرحبيل فى بنى زهرة .

(١) راجع تهذيب ابن عساكر ٦ : ٣٠٠ .

شرحبيل وحروب الردة

لما توفى رسول الله ـ ﷺ ـ ارتدت أحياء كثيرة من الأعراب ونجم النفاق بالمدينة ، وجعلت الوفود تقدم على الخليفة أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ يقرون بالصلاة ، ويمتنعون عن أداء الزكاة .

واحتجوا بقوله تعالى :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ .. (١٠٣) ﴾ [التوبة]

قالوا : فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى مَنْ صلاته سكن لنا وأنشد بعضهم :

أطعنا رسول الله إذا كان بيننا   فوا عجبا ما بال ملك أبى بكر[(١)]

وقد تكلم الصحابة مع الصديق فى أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان فى قلوبهم ، ثم هم بعد ذلك يزكون .

فامتنع الصديق من ذلك وأباه .

وروى أن أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ جاءه عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وقال له : علام تقاتل الناس .. ؟ وقد قال الرسول ـ ﷺ ـ أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها »[(٢)] .

فقال أبو بكر : والله لو منعونى عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ـ ﷺ ـ لأقاتلنهم على منعها .

إن الزكاة حق المال ، والله لأقاتلن مَنْ فرق بين الصلاة والزكاة .

قال عمر : فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال ، فعرفت أنه الحق . وقد قال الله تعالى : ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ .. (٥) ﴾ [التوبة]

عندها بعث أبو بكر الصديق عكرمة بن أبى جهل على رأس جيش إلى مسيلمة الكذاب .

ثم أرسل شرحبيل فى إثر عكرمة ، فوصله كتاب أبى بكر يأمره بالمقام حتى

---

(١) البداية والنهاية ٦ : ٣١١ .

(٢) الحديث رواه البخارى فى الاعتصام ٢ ـ ٢٨ ومسلم فى الإيمان ٣٢ ـ ٣٦ وأبو داود فى الجهاد ٩٥ والترمذى فى التفسير ٨٨ .

يأتيه أمره . ثم كتب إليه قبل أن يوجه خـالد بن الوليد إلى اليمامة إذا قدم عليك خالد ثم فرغتم إن شاء الله، فالحق بقضاعة ، حتى تكون وعمرو بن العاص على مَنْ أبى منهم وخالف .

وسار خالد نحو مسيلمة ، وتولى هو بنفسه قيادة الجيش .

غير أن شـرحبيل عجَّل هو الآخـر بلقاء عدوه . فنكب كما نكب عـكرمة قبله فلامه خالد بن الوليد على تعجُّله لما قدم عليه .

وسار خالد نحو مسيلمة وتولى هو بنفسه قيادة المقدمة ، ومـعه شرحبيل فكان شرحبيل على رأس قوات المسلمين الأوائل التي اصطدمت بقوات مسيلمة من بني حنيفـة وحلفائهم . حيث أبلى شـرحبيل في هذه المعركـة أعظم البلاء . حـتى تحقق النصـر . وهُزم مسيلمة الكذاب وعـاد أتباعه إلى رحـاب الدين الحنيف. وتطهرت أرض اليمامة من الأوثان والأصنام وعبادة غير الله تعالى .

شرحبيل على أرض العراق

قُتل مسيلمة الكذاب وعـادت أرض اليمامـة مرة أخرى إلى رحـاب الإيمان عندها طلب الخليفة من خـالد بن الوليد أن يتجه إلى أرض العراق . فـاستجاب خالد لأمر الخليفة وصحب معه شرحبيل بن حسنة . حتى وصلوا بجيشهم إلى أرض الحيـرة فخرج إليهم أشـرافها مع قـبيصة بن إياس الطائي ، وكـان أمَّره عليها كسرى بعد النعمان بن المنذر .

فقـال لهم خالد : أدعـوكم إلى الله وإلى الإسلام فإن أجـبتم إليـه، فأنتم من المسلمين لكم مـا لهم وعليكم ما عليـهم ، فإن أبيتم فالجـزية ، فإن أبيتم، فـقد أتيتكم بأقـوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة ، جـاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم .

فقـال له قبيصة : مـا لنا بحربك من حـاجة، بل نقـيم على ديننا ونعطيكم الجزية .

فـقـال لهم خـالد : « تبـاً لكم إن الكفـر فلاة مـضلة ، فـأحـمق العـرب من سلكها ..؟ » .

ثم صالحهم على تسعـين ألفاً وفي رواية مائة ألف درهم، فكانت أول جزية أُخذت من العراق ، وحُملت إلى المدينة .

ثم حمل شرحبيل هذه الأموال الطائلة إلى خليفة المسلمين بالمدينة .

ونتساءل : هل عاد شرحبيل مرة أخرى وحضر موقعة ذات السلاسل ، وموقعة ذات العيون ووقعة عين التمر .؟

إن أوثق المصادر تؤكد أن شرحبيل لم يعد مرة أخرى إلى أرض العراق، بل أمّره أبو بكر وأمره بالتوجه إلى الشام وندب معه الناس .

شرحبيل على أرض الشام

سار شرحبيل بجيش تعداده ثلاثة آلاف مقاتل على طريق تبوك حتى وصل إلى أرض الشام ، ولم يزل أبو بكر يمد أمراءه بالرجال حتى صار مع شرحبيل سبعة آلاف وخمسمائة رجل .

مرحى يا أبناء الصحراء : إنهم جنود الإسلام الذين يحملون آخر رسالة يرسلها الله إلى خاتم النبيين والمرسلين وبها كمل الدين وتمت النعمة ـ قال الله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا . .(٣) ﴾ [المائدة]

سبعة آلاف وخمسمائة قذيفة تدك صروح البهتان والشرك والكفر . سبعة آلاف وخمسمائة مصباح من نور الله لتبدد الظلام الذى عاشت فيه البشرية ردحاً من الزمن تحت عبادة الكواكب والنجوم والأصنام والأوثان وعبادة الطواغيت .

وظهر الفجر الجديد . واستطاع جنود مدرسة النبوة فى فترة وجيزة من عمر الزمن أن يطهروا الأرض من كل آثار الشرك ويعمروا قلوب الخلائق ، بنور الإيمان وسماحة الإسلام وهدى النبوة .

وما كادت جيوش المسلمين تصل إلى مشارف الشام ، حتى أرسل « هرقل » قادته وجيوشه باتجاه قادة وجيوش المسلمين .

فعل هرقل ذلك حتى يحول دون تعاون قادة المسلمين فيما بينهم ، ولتضعف كل فرقة من المسلمين عمّن بإزائها من الروم .

ولكن قادة المسلمين فوتوا على « هرقل » هذه الفرصة ..

لقد كتبوا إلى عمر بن الخطاب يسألونه الرأى . فكاتبهم بالاجتماع فى (اليرموك) وأيد الخليفة أبو بكر هذا الرأى .

إن الحرب تكتيك واستراتيجية ، والقائد العبقرى هو الذى ينتظر أمس الاحتمالات من عدوه ، ويضع الاستراتيجية الناجحة التى تبطل كل خططه وتكتيكاته .

« الحرب خدعة » وهذا ما فعله قادة المسلمين إزاء الخطة التى وضعها هرقل وقصد بها تشتيت القوة الضاربة للمسلمين وتفرقتهم وإضعاف قوتهم .

حتى كانت المعركة الفاصلة على أرض الشام معركة « اليرموك » التى حشد لها الروم أكثر من مائتى ألف من الجنود .. لقد كان لديهم وفرة فى العتاد والسلاح وهم يحاربون على أرضهم . ويعرفون كل مداخلها ومخارجها.

عندها اختار خالد بن الوليد مائة فارس من أبطال المسلمين من المهاجرين والأنصار منهم شرحبيل بن حسنة . وكل فارس من هؤلاء المائة يرد جيشاً ويقاتل ألفاً .

فعل خالد ذلك وسماها كتيبة الفداء والاختراق . حتى يؤثر بهؤلاء المغاوير على معنويات الروم .

وفى ابتداء نشوب القتال تولى شرحبيل قيادة أحد كراديس الميمنة ، وكان له أثر مرموق فى تمزيق القوة الضاربة للروم وتعجيل النصر الذى لم يعرف التاريخ له مثيلاً فى الحروب التى اشتعلت أو المعارك التى أثيرت .

شرحبيل على مشارف الأردن

قلنا إن معركة (اليرموك) لم يكن لها نظير فى التاريخ ، ويقال إن الذين ماتوا غرقاً فى البحر من الروم أكثر من مائة وعشرين ألفاً ، وأما الباقى فقد فروا هاربين كالجرذان التى تفر مذعورة إلى جحورها .

عندها سار أبو عبيدة إلى « فحل » على مشارف الأردن وعلى مقدمته خالد ابن الوليد وعلى الناس شرحبيل بن حسنة . وكان أهل « فحل » قد قصدوا (بيسان) مدينة بالأردن وفجروا مياه المنطقة، فأصبحت مغمورة بالمياه الموحلة . ولكن ماذا تفعل هذه العقبات أمام فرسان الإسلام؟!.. إنهم لا يهابون الموت ، فهل يتهيبون المياه .. ؟ محال أن يكون ذلك . ولقد صدق شاعرهم عندما قال :

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ما يمر به الوحول

وأيضاً قوله :

فلن يرتاع من خوض السواقي   فتى قد خاض في البحر الكبير

وبعد حصار دام طويلاً هجم الأعداء على المسلمين واقتتلوا قتالاً شديداً حتى إذا جاء الليل بظلمته هُزموا فضلوا الطريق، فأسلمتهم هزيمتهم إلى الوحل الذى صنعوه بأيديهم ، فلم يفلت منهم إلا الشريد .

لقد كان الفضل في تحطيم هجوم الروم المفاجيء يعود إلى قيادة شرحبيل الذى كان لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبئة كاملة .

إذ لولا حذره الشديد لأدى هجوم الروم المباغت إلى عواقب وخيمة على المسلمين .

ولما فرغ شرحبيل من معركة « فحل » سار بالناس ومعه عمرو بن العاص إلى « بيسان » فتحصن أهلها فحاصرهم شرحبيل أياماً حتى خرج أهلها فقاتلوا المسلمين ولكنهم دُحروا ، فصالح شرحبيل بقية أهلها على مثل صلح دمشق .

وبلغ أهل « طبرية » خبر « بيسان » فصالحوا شرحبيل على مثل صلح دمشق ، وبذلك أكمل شرحبيل فتح الأردن .

وبذلك دانت منطقة الشام إلى الحكم الإسلامي وارتفعت في أرجائها القباب والمآذن . لتعلن : الله أكبر فلا كبير غيره ، المتوحد فلا شريك له . العزيز الجبار المتكبر سبحان الله وتعالى عما يصفون . وفرح المسلمون بنصر الله ودخول الناس في دين الله أفواجاً .

عزل شرحبيل عن القيادة

دانت بلاد الشام بالإسلام وارتفعت في أرجائها راية التوحيد وفكر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن يزور تلك البلاد ليتفقد حال أهلها ، ويتأكد من سلامة جند الله المرابطين على تلك البلاد .

وما كاد عمر يتعرف على تلك الأحوال حتى أصدر قراراً بعزل خالد بن الوليد وشرحبيل بن حسنة عن القيادة ، وأن يتفرق جنودهما على بقية الكتائب الأخرى .

لماذا تم عزل القائدين اللذين حققا النصر وفتحا تلك البلاد ..؟

إن كلاهما لم يُهزم في معركة واحدة .

أيكون العزل للخيانة ؟!

إن الوثائق التى بين أيدينا لا تسجل لهما شائبة واحدة . فلماذا العزل ..؟

لقد تقدم شرحبيل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قائلاً : يا أمير المؤمنين أعجزت أم خنت ..؟

فقال عمر : إنك لم تعجز ولم تخن .

فقال : فلمَ عزلتنى .. ؟

قال : تحرجت أن أؤمرك وأنا أجد أحرى وأليق منك ..

قال : فاعذرنى يا أمير المؤمنين فى الناس .

قال عمر : سأفعل ولو علمت غير ذلك لم أفعل .

فقام عمر فعذره .

ثم أمَّر عمرو بن العاص بالمسير إلى مصر ، وبقى بالشام أبو عبيدة ويزيد ابن أبى سفيان .

شرحبيل والطاعون على أرض الشام

لما نزل الطاعون بالشام عام عمواس . قال عمرو بن العاص :

« إن هذا الرجز قد وقع فتفاروا فى الأودية والشعاب ، فبلغ ذلك شرحبيل فجاء وهو معلق نعليه بشماله فقال : « يا أيها الناس إنى قد سمعت قول صاحبكم ، وإنى والله قد أسلمت وصليت وصحبت رسول الله ـ ﷺ ـ وإن هذا الطاعون دعوة نبيكم ورحمة ربكم ، ووفاة الصالحين قبلكم » .

فبلغ ذلك معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ فقال : اللهم اجعل نصيب آل معاذ الأوفر ، فماتت ابنتاه فدفنهما فى قبر واحد ، وطُعن ابنه عبد الرحمن فقال :

﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) ﴾ [آل عمران]

وقال : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات]

وطُعن هو فى ظهر كفه فجعل يقلبه ويقول : هى أحب إلىَّ من حمر النعم .

ورأى رجل يبكى عنده يقال له عُميرة .

فقال : ما يبكيك ..؟

فقال : ما أبكى على دنيا كنت قد أصبتها منك ولكن أبكى وأبكى على العلم الذى كنت أصيبه منك .

قال : فلا تبك ، فإن إبراهيم كان فى الأرض وليس بها عالم فآتاه الله علماً ، فإذا أنا مت فاطلب العلم عند أربعة :

عند : عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ الذى قال له الرسول ـ ﷺ ـ أنت رجل معلم .

وعند : عبد الله بن سلام ـ رضى الله عنه ـ يقول سعد بن أبى وقاص : ما سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول لأحد يمشى على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام .

وعند : سلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ الذى قال عنه كعب الأحبار « سلمان حشى علماً وحكمة » .

وعند : عويمر « أبو الدرداء » ـ رضى الله عنه ـ الذى قال عنه رسول الله ـ ﷺ ـ « عويمر حكيم أمتى »[1] .

ثم يقول : شرحبيل سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول :

« إذا وقع الطاعون بأرض وأنتم بها فلا تهربوا ، فإن الموت بأعناقكم ، وإذا كان بأرض فلا تدخلوها ، فإنه يحرق القلوب »[2] .

وفاته ـ رضى الله عنه ـ

توفى ـ رحمه الله ـ على أرض الشام فى طاعون عمواس سنة ثمانى عشرة ، وهو ابن سبع وستين سنة[3] .

رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته .. إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

---

(١) راجع الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ٤ : ١٦٤٦ . ترجمة ٢٩٤٠

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم فى كتاب السلام ٣٢ باب الطاعون والطيرة والكهانة ٩٢ (٢٢١٨) بسنده عن عامر بن سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنهما ـ أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد ماذا سمعت من رسول ـ ﷺ ـ فى الطاعون فقال أسامة : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره ورواه البخارى فى الطب ٣٠ وعند مسلم أيضاً ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٠ .

(٣) راجع تهذيب ابن عساكر ٦ : ٣٠١ ـ ٣٠٤ وطبقات ابن سعد ٤ : ١٢٧ والاستيعاب فى معرفة الأصحاب ٢ : ٦٩٨ .

ثم ماذا يا أمة الإسلام ..؟
أخلاقيات الوظيفة العامة

■ هناك مجموعة من الصفات التي يجب أن يتصف بها رجل الوظيفة العامة وهي صفات لابد منها لمن يكون عمله ووظيفته تتصل اتصالاً مباشراً مع أفراد المجتمع وهذه الصفات لا شك لها دور مهم في إنجاز الأمور وحل المشكلات وإدخال الطمأنينة والارتياح في نفوس مَنْ يتعامل معه حتى يحقق له ما يريد . ومن أولى هذه الصفات الصدق .

أولاً : الصدق : من أخلاقيات الوظيفة العامة ، الصدق في كل شأن ، وتحريه في كل قضية والمصير إليه في كل حكم وهو دعامة ركنية في أخلاقيات الوظيفة العامة .

وعلى صاحبها محاربة الظنون ، ونبذ الشائعات والبعد عن الأوهام ، لأن الحقائق الثابتة وحدها هي التي يجب أن تظهر وتتغلب . يقول الرسول ـ ﷺ ـ: « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث »[1] .

وقال أيضاً : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة » .

وقد نعى القرآن الكريم على أقوام جريهم وراء الظنون التي ملأت عقولهم بالخرافات وأفسدت حاضرهم ومستقبلهم بالأكاذيب فقال : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) ﴾ [النجم]

(١) الحديث أخرجه البخاري في الوصايا ٨ والنكاح ٤٥ والفرائض ٢ والأدب ٥٧ ، ٥٨ ومسلم في البر والترمذي في البر ٥٦ وصاحب الموطأ في حسن الخلق ١٥ وأحمد بن حنبل . في المسند ٢ : ٢٤٥ ، ٢٨٧ .

ولقد جاءت المعالم الأولى لأصحاب الوظائف العامة فى الدولة الإسلامية صدق الحديث ، ودقة الأداء ، وضبط العمل .

أما الكذب والإخلاف والتدليس والافتراء فهى أمارات النفاق وانقطاع الصلة بشرع الله تعالى .

والكذب رذيلة محضة تنبئ عن تغلغل الفساد فى نفس صاحبها ، وعن سلوك ينشئ الشر إنشاء .

ولقد سُئل رسول الله ـ ﷺ ـ : أيكون المؤمن جباناً .. ؟

قال : نعم ، قيل أيكون المؤمن بخيلاً .. ؟ قال : نعم ، قيل أيكون المؤمن كذاباً .. ؟

قال : لا . المؤمن لا يكذب ..

ثانياً : الصبر :

يقول الرسول ـ ﷺ ـ : « الصبر ضياء » .

فإذا استحكمت الأزمات وتعقدت حبالها وترادفت المصائب وطال لبثها، فالصبر وحده هو الذي يشع النور العاصم من التخبط .

ورجل الوظيفة العامة يجب أن يتحلي بالصبر حتى لا يغضبه صاحب حاجة، ولا يؤثر عليه إلحاح ملح عجول .

وقد أكد الله تعالي أن ابتلاء الناس لا مفر منه ، حتى يأخذوا أهبتهم للنوازل المتوقعة فلا تذهلهم المفاجآت .

والتريث والمصابرة خصال تتسق مع سنة الكون القائمة ونظمه الدائمة، فالزرع لا ينبت ساعة البذر والجنين يظل فى الحمل شهوراً حتى يستوى خلقه وقد أعلمنا الله عز وجل أنه خلق العالم فى ستة أيام، فأصحاب الوظائف العامة، لماذا يقلقون ولا يصبرون .. ؟

إن عملهم أشرف الأعمال ، ومهنتهم من أرقي المهن ما داموا يعملون لسد حاجة المجتمع وإسعاد أفراده .

أما الصبر علي النكبات ، والصبر علي تقلبات الأيام والصبر على فراق الأحبة ، فهذه من عزائم الرجال .

عن القاسم بن محمد قال : هلكت امرأة لـي ، فأتاني محمد بن كعب القرظي يعزيني بها . فقال : إنه كان في بني إسرائيل رجل فقيه، عالم، عابد، مجتهد،

وكانت له امرأة وكان بها معجباً، فماتت فوجد عليها وجداً شديداً حتى دخل فى بيت وأغلق على نفسه واحتجب فلم يكن يمكّن أحداً من الدخول عليه، فسمعت به امرأة من بنى إسرائيل فجاءته فقالت : « إن لى إليه حاجة أستفتيه فيها وليس يكفينى إلا أن أشافهه بها ولزمت بابه .. ؟

فأخبر بها . فأذن لها .

فقالت : أسألك فى أمر .

قال : ما هو .. ؟

قالت : إنى استعرت من جارة لى حلياً فكنت ألبسه زماناً ثم أنها أرسلت تطلبه أفأرده إليها ..؟

قال : نعم والله .

قالت : إنه مكث عندى زماناً .

فقال : ذاك أحق لردك إياه .

قالت له : يرحمك الله . أفتأسف على ما أعارك الله ثم أخذه منك .. ؟ وهو أحق به منك .. ؟

« فأبصر ما كان فيه ، ونفعه الله بقولها »(١) .

ثالثاً : الوقت :

على رجل الوظيفة العامة أن يهتم بالوقت اهتماماً كبيراً لأن كل مفقود عرضة أن تسترجعه ، إلا الوقت فهو إن ضاع لم يتعلق بعودته أمل ولذلك كان الوقت أنفس ما يملكه إنسان .

ومن الحكم التى تغيب عن بال الجماهير : الواجبات أكثر من الأوقات والزمن لا يقف محايداً . فهو إما صديق ودود أو عدو لدود .

ومن كلمات الحسن البصرى : « ما من يوم يشرق فجره إلا نادى مناد من قبل الحق : يا ابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد فتزود منى بعمل صالح فإنى لا أعود إلى يوم القيامة » .

ومن محافظة الإسلام على الوقت حثه على التبكير ورغبته فى أن يبدأ المسلم أعمال يومه نشيطاً طيب النفس مكتمل العزم ، فإن الحرص على الانتفاع

---

(١) ذكره الإمام مالك فى الموطأ .

من أول اليوم يستتبع الرغبة القوية فى ألا يضيع سائره سدى وفى الحديث : « اللهم بارك لامتى فى بكورها »[1] .

وإنه لمن الغفلة والحرمان أن يألف أقوام النوم حتى الضحى فتطلع عليهم الشمس وهم يغطون فى نوم عميق على حين تطلع على آخرين وهم منهمكون فى وسائل معاشهم ومصالحهم .

روى أن فاطمة بنت محمد ـ رضوان الله عليها ـ قالت : « مر بى رسول الله ـ ﷺ ـ وأنا مضطجعة متصبحة فحركنى برجله ثم قال : « يا بنية قومى اشهدى رزق ربك ولا تكونى من الغافلين فإن الله يقسم أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس » .

إذ أن الجادين والكسالى يتميزون فى هذا الوقت فيعطى كل امرىء حسب استعداده من خير الدنيا والآخرة .

رابعاً : الرحمة :

الرحمة فى أفقها الأعلى وامتدادها المطلق صفة المولى تباركت أسماؤه ، فإن رحمته شملت الوجود كله وعمت الملكوت بأسره فحيثما أشرق شعاع من علمه المحيط بكل شىء أشرق معه شعاع الرحمة الغامرة ولذلك كان من صلاة الملائكة ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ⑦﴾ [غافر]

وقد جاء فى الحديث القدسى عن رب العباد:« إن رحمتى تغلب غضبى »[2] .

وما ترى فى الأرض من تواد وبشاشة وتعاطف وبر أثر من رحمة الله تعالى أودع جزء منها فى قلوب الخلائق .

أما غلاظ الاكباد من الجبارين والمستكبرين فهم فى الدرك الأسفل من النار وفى الحديث : « إن أبعد الناس من الله تعالى القاسى القلب » .

إن القسوة فى خلق الإنسان دليل نقص كبير وفى تاريخ أمة دليل فساد خطير ، فلا عجب إذا حذر الإسلام منها واعتبرها علة الفسوق عن أمر الله وسر

(١) الحديث رواه الترمذى فى البيوع ٢٦ وابن ماجة فى التجارات ٤١ وأحمد بن حنبل فى المسند ١ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ (حلبى) .

(٢) الحديث رواه البخارى فى التوحيد ٥٥ وبدء الخلق ومسلم فى التوبة ١٤ - ١٦ وابن ماجة فى الزهد ٣٥ وأحمد بن حنبل ٢ : ٢٤٢ ، ٢٥٨ (حلبى) .

الشرود عن صراطه المستقيم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) ﴾ [الحديد]

والإسلام رسالة خير وسلام وعطف على البشرية كلها وقد قال الله لرسوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء]

وقد تأخذ الرحمة طابع القسوة وليست كذلك . إن الأطفال عندنا يساقون إلى التعليم كرهاً ويحفظون الدروس زجراً ولو تركوا لأهوائهم لقتلهم اللهو واللعب ولشبوا لا يحسنون صنعاً .

والطبيب عندما يجري بالجسم جراحة يستخدم مبضعه لتقطيع اللحم وقد يضطر لتهشيم العظام وبتر أعضاء وما يفعل ذلك إلا رحمة بالمريض .

فليست الرحمة حناناً لا عقل له أو شفقة تتنكر للعدل والنظام ، كلا إنها عاطفة ترعى هذه الحقوق جميعاً .

إن منظر الرجل وهو تضرب رقبته بالسيف قصاصاً قد يثير الشفقة والرحمة وكذلك منظر المشنوق وجسمه يتأرجح في الهواء ولكن لو أطلق سراح القاتل لأصبحت الأرض فوضى قال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) ﴾ [البقرة]

إننا نريد من صاحب الوظيفة العامة في الدولة ،الرحمة التي لها عقل حتى تقيم العدل وتزن الموازين بالقسط وتساهم مساهمة فعالة في سير عجلة الحياة إلى الأمام . فهل نحن فاعلون . نرجو من الله تعالى أن يحقق ذلك .

حنظلة بن أبى عامر الراهب الأنصارى

رضى الله عنه

قال رسول الله ـ ﷺ ـ : إن صاحبكم لتغسله الملائكة ـ يعنى حنظلة ـ فسألوا أهله .. ما شأنه .. ؟

فسئلت صاحبته ، فقالت : خرج وهو جنب حين سمع نفير الحرب..؟؟

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لذلك غسلته الملائكة ، وكفى بهذا شرفا ومنزلة عند الله تعالى .

راجع أسد الغابة ٢ - ٦٦

■ من فرسان المعارك الذين سجلوا أعظم الانتصارات فى غزوة بدر . ومن الشهداء الذين وقفوا أمام القوة الباغية التى تريد القضاء على المسلمين وأنصارهم حتى سقط شهيداً فى ساحة القتال .

ومن الأوفياء الكرماء الذين بذلوا أموالهم وأرواحهم فى سبيل نصرة الدين ، ودخول الناس فى دين الله أفواجاً .

ومن الفئة المؤمنة الذين سماهم رسول الله ـ ﷺ ـ الأنصار ، وقال : لولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار .

ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شِعْب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناءَ الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .

والده : عمرو بن صيفى بن زيد بن أمية أبو عامر الراهب . وكان أبو عامر هذا ، وعبد الله بن أبى سلول قد حسدا رسول الله ـ ﷺ ـ على ما منَّ الله به عليه ، بغياً من عند أنفسهما .

فأما عبد الله بن أبى فأضمر النفاق ، وأظهر الإيمان ونزل القرآن الكريم ليكشف حقيقته ومن على شاكلته أمام المسلمين قال الله تعالى :

﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾ [البقرة]

وأما أبو عامر فخرج إلى مكة، ثم قدم مع قريش يوم أحد محارباً ، فسماه رسول الله ـ ﷺ ـ الفاسق ، وأقام بمكة ، فلما فُتحت هرب إلى هرقل في بلاد الروم، فمات كافراً هناك سنة تسع ، وكان معه كنانة بن عبد ياليل ، وعلقمة بن علالة ، فاختصما في ميراثه إلى هرقل فدفعه إلى كنانة ، وقال لعلقمة : هما من أهل المدر ، وأنت من أهل الوبر .

نشأ حنظلة على أرض يثرب ، وسُمي والده راهباً لأنه أنف من عبادة الأصنام ، ولكن أشرك مع الله غيره ، وجعل له ولداً ، ولقد جبههم الله تعالى بكلمة الكفر قال تعالى :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) ﴾ [التوبة]

ولما شبَّ عن الطوق اتقن حرفة التجارة ، وتوالت رحلاته إلى أرض الشام ولقد كان لهذه الرحلات الأثر الكبير في صفاء نفسه ، وتطهير قلبه ، وشفافية روحه ، عندما كان يشاهد السماء المرفوعة والأرض المبسوطة . السماء التي قال الله تعالى عنها :

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ .. (٥) ﴾ [الملك]

والأرض المبسوطة التي قال الله عنها :

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) ﴾ [الحجر]

لهذا ما كاد حنظلة يعلم بوصول الرسول ـ ﷺ ـ إلى المدينة وأنه يدعو إلى عبادة الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى خلق الأرض والسماء وأوجد الحياة والموت حتى سارع إليه ، ونطق بالشهادتين بين يديه .

ومن هذا التاريخ تحول حنظلة إلى إنسان جديد يؤدى فرائض ربه ، وينبع من مبادىء الإسلام سلوكه ، ولفظ نهائياً أساليب الجاهلية الاولى ، التى كانت لا تعرف إلا شريعة الغاب ، واستعمال المخلب والناب ، فلا تحليل ولا تحريم ولكن كما وصفهم الله تعالى بقوله :

﴿ أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ .. (١٧٩) ﴾ [الاعراف]

حنظلة في غزوة بدر

ثم كانت غزوة بدر ، التي أشعلت وقودها الفئة الباغية من كفار قريش وسارع المسلمون إلى الانضمام لجيش النصر - تلك الغزوة التي قال الله تعالى فيها لجماعة المسلمين :

﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون (١٢٣) ﴾ [آل عمران]

فأين حنظلة..؟ وأين موقعه بين الصفوف ..؟ إنه خلف رسول الله - ﷺ - يتابعه كظله ، لا يتخلف عنه قيد أنملة ، حتى عندما دخل - ﷺ - العريش ، ومعه أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - وقف حنظلة على بابه « ديدبان » يقظ ، وتسمعت أذناه دعاء الرسول - ﷺ - ومناشدته ربه قائلاً :

« اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد ، وأبو بكر يقول : يا نبي الله بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك ، ولقد غفلت عين الرسول - ﷺ - لحظة يسيرة ثم انتبه فقال :

« أبشر يا أبا بكر : أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثنايا النقع » .

ويقول الله تعالى لرسوله وللمسلمين بعد هذه الاستغاثة وطلب العون من الله تعالى :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ﴾ [الأنفال]

وتم النصر والفوز ، وفرَّ الرعاديد الجبناء إلى مكة ، وأخذت سيوف المسلمين تقصف رقابهم ، وتجندل فرسانهم ، وتقضي على كل مقاومة لديهم ، وألقيت جثث القتلى وتلك الجيف في باطن القليب ، ووقف الرسول - ﷺ - عليهم وأخذ ينادي ويقول : يا أهل القليب : يا عتبة بن ربيعة ، ويا شيبة بن

ربيعة ، ويا أمية بن خلف ، ويا أبا جهل بن هشام . هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ..؟

فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً ..

فقال حنظلة ومعه جماعة المسلمين : يا رسول الله أتخاطب قوماً قد جيفوا .. ؟

قال عليه السلام : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم . ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني ..؟؟

ويقول حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ :

ينـاديهم رسـول الله لمـا ... قـذفناهم كـبـاكب فـي القليب
ألم تجـدوا كلامي كـان حـقاً ... وأمـر الله يأخـذ بالقـلوب
فـما نطقـوا ولو نطقوا لـقالوا ... صـدقت وكنت ذا رأي مصيب

ثم عاد حنظلة مع الرسول ـ ﷺ ـ متجهين إلى المدينة ، وعندما اقتربت راحلته من ناقة الرسول ـ ﷺ ـ قال حنظلة : « يا رسول الله إن الحرب مهلكة ، ولا يصبر عليها إلا كل صبور ، فإذا اشتعلت أيمت النساء ، وأيتمت الأطفال ، وأثكلت الرجال ..؟ فهل هناك ما يعدل الجهاد في الأجر يا رسول الله ..؟

قال عليه السلام : لا تستطيعونه . فرد عليه مرتين أو ثلاث كل ذلك يقول : لا تستطيعونه . ثم قال في الثالثة :

يا حنظلة : مثل المجاهد في سبيل الله مثل القائم الصائم الذي لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله » .

عندها أسرعت براحلتي حتى زاويت ناقة رسول الله ـ ﷺ ـ وقلت يا رسول الله : أخبرني بعمل أعمله يدخلني الجنة ويباعد بيني وبين النار .. ؟

قال : لقد سألت عظيماً . وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . ثم سكت الرسول ـ ﷺ ـ هنيهة وقال : يا حنظلة :

قلت : نعم يا رسول الله .

قال : ألا أدلك على أبواب الخير ..؟

قلت : زدني يا رسول الله . قال : الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء النار الماء ، وصلاة الرجل في جوف الليل ثم قرأ :

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة]

وتصل المطى بهم إلى مشارف المدينة حيث اجتمع الأطفال والنساء والشيوخ لتهنئة العائدين من بدر وعلى رؤوسهم الفخار ، ونصر الله تعالى ، ولكن حنظلة له تهنئة خاصة غير تهنئة النصر حيث رزقه الله تعالى غلاماً ، وتقدم حنظلة إلى جانب أمه والفرحة تملأ كل جوانحه .

أحقاً ما تقولين يا أم حنظلة ..؟ هل رزقنى الله غلاماً .. ؟ وأصبحت أباً إنها أمنية غالية كنت أتمناها من ربى .

وهبط حنظلة ساجداً لله تعالى .

وما كادت أقدامه تطأ داره حتى تقدمت له زوجه ، وهى تشكر الله تعالى على سلامته ، ووضعت بين يديه فلذة كبده ، وأسرعت إلى الداخل لتعد له طعاماً ساخناً .

ثم عادت الزوجة الصابرة المؤمنة تحمل بين يديها ما رزقهم الله تعالى من طعام طيب وفاكهة ناضجة .

فقال حنظلة : بارك لله فيك وعليك يا أم عبد الله .

وأصبح من هذا التاريخ ينادى على حنظلة بيا أبا عبد الله .

وغردت الأيام لحنظلة ، وطابت جلساته مع حبيبه رسول الله - ﷺ - يعب من هديه ، ويتفقه فى دينه ، ويدعو إلى دين ربه ..

ثم ماذا ..؟ كرت الأيام وتوالت الليالى ، واستيقظ مبكراً على صوت بلال يهز الكون هزاً بكلمة الله أكبر . الله أكبر يؤذن لصلاة الفجر - ثم عاد من مسجد الرسول - ﷺ - فوجد أم عبد الله تغط فى نوم عميق فتقدم إليها ليوقظها ، ولكن ما كاد يتقرب إليها وهى نائمة حتى شاهد فتنة طاغية ، وعروساً مجلوة ، ومائدة شهية ، وكأنه يراها لأول مرة ، وتم بينهم ما يكون بين الرجل وزوجه. والذى عبر عنه قول الله تعالى :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

ثم جلسا يتسامران ويتناولان بعض اللقيمات ، وإذا بصوت النفير ، نفير الحرب ، ينادى فرسان مدرسة النبوة ، أبطال الإسلام ، ورجالات القرآن إلى الجهاد والقتال فى سبيل الله .

وما كاد حنظلة يسمع صوت النفير حتى قام مسرعاً ولبس ملابس القتال وجمع بين يديه سيفه ورمحه ودرعه ، وطبع على جبين ابنه وزوجه قبلة حانية ، وتركهما فى رعاية الله وحفظه ، ثم خرج مسرعاً لينضم إلى كتيبة الإيمان التى قدمت أرواحها فى سبيل الله ـ ليكون لهم الجنة ـ كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ .. (١١١) ﴾ [التوبة]

قال الحسن : مرَّ أعرابى على النبى ـ ﷺ ـ وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ﴾ .

فقال : كلام مَنْ هذا .. ؟

قال : كلام الله تعالى .

قال : بيع والله مربح لا نقيله ولا نستقيله . فخرج إلى الغزو وقاتل حتى استشهد »(١) .

وقال الأصمعى لجعفر الصادق ـ رضى الله عنه ـ :

أثامن بالنفس النفيسة ربها ... وليس لها فى الخلق كلهم ثمن
بها تشترى الجنات إن أنا بعتها ... بشىء سواها إن ذلكم غبن
لئن ذهبت نفسى بدنيا أصبتها ... لقد ذهبت نفسى وقد ذهب الثمن

ولهذا قال الرسول ـ ﷺ ـ : « إن فوق كل بر برٌّ حتى يبذل العبد دمه . فإذا فعل ذلك فلا برٌّ فوقه » .

وقال الشاعر :

الجود بالمال جود فيه مكرمة ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود(٢)

حنظلة فى غزوة أحد

إن قريشاً لم تنس هزيمتها فى غزوة بدر ، وكانت دائماً تتمنى أن يكون لهم مع الرسول ـ ﷺ ـ وصحبه جولة أخرى حتى يستأصلوا شأفة المسلمين جميعاً.

---

(١) تفسير الإمام القرطبى ٨ ـ ٢٦٧ .
(٢) راجع تفسير القرطبى ٨ : ٢٦٧ – ٢٦٨.

عندها مشى عبد الله بن ربيعة ، وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية فى رجال من قريش ، ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم ، وإخوانهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ، وما كانت له فى تلك العير من قريش تجارة . فقالوا : يا معشر قريش ، إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ففعلوا ..؟ وأنزل الله تعالى فى ذلك من القرآن :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) ﴾ [الأنفال]

وجاءت جموعهم ، وحشرت قواتهم ، وجمعوا كيدهم كله ، واستنفروا حلفاءهم من نجد وتهامة وغيرهما .

وخرج الرسول ـ ﷺ ـ مع صحابته لصد هؤلاء راجين من الله تعالى أن يشرح صدورهم للإسلام .

واشتبك الفريقان فى معركة ضارية ، وتساقط القتلى من الفريقين .. فأين حنظلة فى هذه الحرب الضارية ..؟

قال مصعب الزبيرى : بارز أبو سفيان بن حرب ، حنظلة بن أبى عامر الراهب فصرعه حنظلة واعتلى فوقه . فأتاه ابن شعوب ، فضربه بالسيف فقتله عندها قام أبو سفيان . وقال : حنظلة بحنظلة ـ يعنى ابنه حنظلة المقتول فى غزوة بدر(١) .

مات حنظلة شهيداً على أرض المعركة ، مات الموتة التى كان يريدها ويتمناها . مات أبو عبد الله ، ثم عادت له الحياة ـ حياة الشهداء ، وفرَّ إلى ربه ، وهاجر إلى مولاه فى جنة السموات والأرض عند مليك مقتدر كما قال الله تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ﴾ [آل عمران]

(١) راجع سيرة ابن هشام ٣ : ٦٤ .

حنظلة غسيل الملائكة

ذكر أهل السير أن حنظلة كان قد ألمَّ بأهله حين خروجه إلى غزوة أحد ولما سمع صوت النفير أعجله عن الغسل ، فلما قُتل شهيداً ، أخبر الرسول ـ ﷺ ـ أن الملائكة غسلته .

وروى حماد بن سلمة عن هشام عن عروة عن أبيه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لامرأة حنظلة بن أبي عامر الأنصاري :

ما كان شأن حنظلة..؟

قالت : كان جنباً . وغسلت أحد شقي رأسه فلما سمع الهيعة . خرج مسرعاً، ثم قتل ..؟؟

قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

« لقد رأيت الملائكة تغسله » .

رحمه الله ـ ورضي عنه بمقدار ما قدم من جهد وجهاد في رفع كلمة الله ونشر دينه في الآفاق .. إنه سميع قريب مجيب الدعاء .

دروس وعـبـر..
الجهاد فى سبيل اللّه

■ إن قوى البغى والعدوان منذ خلق الله البشر ، وهى تعمل عملها فى دنيا الناس . والمعركة مستمرة ودائمة بين أهل الإيمان وحزب الشيطان .

والصراع قائم بين أهل الهدى والضلال .

والحرب على أشدها بين عباد الرحمن وأبالسة الشيطان .

وعندما أخرجت قريش أتباع محمد - ﷺ - من ديارهم وصبت عليهم العذاب ألواناً . انتصر الله لعباده .

وانزل على رسوله - ﷺ قرآناً يتلى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ .. (٤٠) ﴾ [الحج]

عندها بدأت الفدائية المؤمنة تعمل عملها لصد عدوان المعتدين ، وتخليص الفئة المؤمنة من طغيان عصابات الشرك والكفر .

وكان بداية ذلك عن طريق الفدائى المؤمن والصحابى الجليل مرثد بن أبى مرثد الغنوى الذى كُلف من الرسول - ﷺ - بفك أسارى المؤمنين المحتجزين بين مخالب قريش .

ونقلهم إلى مدينة الرسول - ﷺ .

فكان مرثد يقوم بعملية شاقة بعيداً عن أعين قريش - وهى التعرف على أماكن هؤلاء المستضعفين المحتجزين .

فإذا خيم الليل بسدوله . خرج إلى أحدهم وأخبره بالاستعداد للرحيل ويحدد له يوماً لذلك .

يقول مرثد - رضى الله عنه - كنت تواعدت مع رجل من هؤلاء . فجئت فى نفس الموعد حتى انتهيت إلى حائط من حيطان مكة فى ليلة قمراء .

فجاءت « عناق » امرأة من قريش كان بينهما صداقة فى الجاهلية ، فأبصرت سواد ظلى بجانب الحائط .

فلما انتهت إلىَّ عرفتنى فقالت : مرثد .

قلت : نعم مرثد .

قالت : مرحبا وأهلاً ، هلم فبت عندنا الليلة ..؟

قال : قلت : يا « عناق » إن الله حرم الزنا ..!!

وعندما تأكدت « عناق » من تصميمى على الرفض ، ويأست من استجابتى لها .

قالت : يا أهل مكة ، هذا الرجل هو الذى يحمل أسراكم إلى يثرب .

قال : وما هى إلا لحظات حتى تبعنى ثمانية رجال ، فسلكت جبال مكة . حتى انتهيت إلى كهف من كهوفها فاختبأت فيه .

ولحقوا بى حتى قاموا على رأسى ولكن الله أعماهم عنى ، ولما يئسوا من العثور علىَّ عادوا من حيث أتوا .

وعدت إلى صاحبى فحملته ، وكان رجلاً ضخم الجثة ثقيلاً حتى انتهيت إلى خارج مكة . فجلست وفككت عنه أساره .

ثم أخذت فى حمله ، وكلما ثقل علىَّ ، جلست لاستريح ثم أعاود الحمل والسير حتى قدمت المدينة : ووضعته أمام الرسول - ﷺ - .

ولقد كانت هذه الفدائية تتكرر كثيراً فى العديد من الأيام .

وفى يوم من الأيام أردت أن يكون بيت « عناق » مأوى لراحتى وقربى من المحتجزين وأشركها معى فيما أقوم به من عمل إرضاءً لله ولرسوله ، وصالح المؤمنين .

فقلت يا رسول الله : أتزوج عناقاً ..؟

فأمسك رسول الله - ﷺ - فلم يرد علىَّ شيئاً .

حتى نزل قول الله تعالى :

﴿ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [النور]

فدعانى رسول الله - ﷺ - وقال : لا تتزوجها ..

ثم اتسع نطاق الفدائية المؤمنة عن طريق الصحابيين الجليلين « أبى بصير وأبى جندل » - رضى الله عنهما - ومعهما رفاق أشداء من حملة السلاح . والذين أجبروا قريشاً على التنازل عن شروطها المجحفة فى صلح الحديبية ، عندما قطعوا عليها طريق القوافل . واستولوا على كل ما تحمله من أموال وعروض التجارة .. وذهب زعيم قريش أبو سفيان بن حرب ذليلاً ، خاضعاً للرسول - ﷺ - راجياً مستعطفاً أن يضم أبا بصير وجماعته إليه ..

ولقد كان للوليد بن الوليد دوره الكبير فى فك أسار المسجونين من صحابة الرسول - ﷺ - بمكة ونقلهم إلى يثرب .

من ذلك أن الوليد بن الوليد ما كاد يعلن إسلامه ، حتى أُغلقت أمامه المنافذ ووضع مقيداً محجوزاً هو وصاحبيه قرابة ثلاثة أعوام .

حتى أراد الله سبحانه وتعالى أن يفك قيده ...

وما كاد الوليد يلتقى بالرسول - ﷺ - حتى سأله :

كيف حال عياش بن أبى ربيعة ، وسلمة بن هشام ..؟

قال الوليد : تركتهما فى ضيق وشدة وهما فى وثاق واحد ، رجل أحدهما مع رجل صاحبه .

عندها قال له الرسول - ﷺ - :

انطلق حتى تنزل مكة على القين الأشجعى فإنه قد أسلم ، فتغيب عنده واطلب الوصول إلى عياش وسلمة .

فإذا تمكنت من ذلك ، فأخبرهما أنك رسول رسول الله .. وهو يأمركما أن تخرجا حتى تنطلقا إليه .

قال الوليد : ففعلت ذلك ، فخرجا بعد أن كسرت قيدهما وخرجت معهما ، فكنت أسرع بهما مخافة الطلب والفتنة حتى انتهينا إلى أبواب مدينة الرسول - ﷺ - .

إنها الفدائية المؤمنة التى استجابت لقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ .. (١١١) ﴾ [التوبة]

وعندما جمعت قريش جموعها وبطونها وقبائلها ثم تعاقدت مع حلفائها اليهود بالمدينة على حرب محمد والقضاء على أصحابها .

وعبر القرآن الكريم عما حل بأهل يثرب من الخوف والرعب بقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (١١) ﴾ [الاحزاب]

عندها تقدم نعيم بن مسعود - رضى الله عنه - أحد الفرسان المغاوير والمحارب المحنك الخبير بنفوس الرجال إلى رسول الله - ﷺ - وقال : يا رسول الله إنى أسلمت ، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى . فمرنى بما شئت .

فقال رسول الله ﷺ :

« إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت .. فإن الحرب خدعة..

عندها خرج نعيم حتى أتى يهود بنى قريظة - وكان لهم نديماً فى الجاهلية - فقال : يا بنى قريظة ، قد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم .

قالوا : صدقت ، لست عندنا بمتهم .

فقال نعيم : إن قريشاً وغطفان ليسوا كانتم . البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، ولا تقدرون التحول إلى غيره .

وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره . فليسوا كانتم .

فإن رأوا نهزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجال ..

ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ..؟؟

فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه .

فقالوا : لقد أشرت بالرأى ..

ثم خرج حتى أتى قريشاً ، فقال لأبى سفيان بن حرب ، ومن معه من رجال قريش :

قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً ..

وإنه قد بلغني أمـراً قد رأيت عليَّ حقاً أن أبلغكمـوه ، نصحاً لكم ، فاكـتموا عني ..؟؟

فقالوا : نفعل .

قال : تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ـ وقد أرسلوا إليه :

إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشـرافهم فنعطيكهم فتضرب أعنـاقهم ، ثم نكون معك على مَنْ بقي منهم حتى تستأصلهم .. ؟

فأرسل إليهم : أن نعم .

فإن بعث إليكم مـعشر يهـود يلتمسـون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفـعوا إليهم منكم رجلاً واحداً .

عندها أرسل أبو سفيـان عكرمة بن أبي جهل لجماعة اليـهود فقال لهم : إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الإبل والخيل فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً .

فقـالوا : لسنا بالذين نقاتل محـمداً حتى تعطونا رهنـاً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً .

فإنـا نخشى إن نالت منكم الحـرب ، واشـتد عليكم القتـال أن تسرعـوا إلى بلادكم وتتركونا مع الرجل ـ والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك .

وعندما عاد عكرمة بما قاله اليهود .

قـالت قريش وغطـفان : والله إن الذي حـدثكم به نعـيم بن مـسعـود لحق. فأرسلوا إلى بني قريظة وقالوا : والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً .

عندها قالت بنو قريظة : إن الذي ذكر لكم نعيم إنه لحق .

وخذَّل الله بينهم . وبعث عليـهم الريح في ليال شاتية باردة فـملأت قلوبهم بالرعب والخوف ، وفروا هاربين إلى مكة . وكفى الله المؤمنين القتال . وكان الله قوياً عزيزاً .

ثبت بالمرجع

١ – القرآن الكريم .
٢ – فتح البارى شرح صحيح البخارى ـ ط . دار المعرفة – بيروت لبنان .
٣ – صحيح الإمام مسلم ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ـ ط. دار الحديث مصر .
٤ – سنن الإمام الترمذى ـ تحقيق أحمد محمد شاكر – دار الحديث مصر .
٥ – مسند الإمام أحمد بن حنبل ـ ط. وزارة الشئون الإسلامية – السعودية .
٦ – البداية والنهاية لابن كثير – ط. مكتبة المعارف – بيروت لبنان .
٧ – طبقات ابن سعد ـ ط. دار بيروت للطباعة والنشر .
٨ – سيرة ابن هشام ـ ط. مؤسسة علوم القرآن .
٩ – الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ـ تحقيق على البجاوى ـ ط. نهضة مصر.
١٠ – تاريخ الرسل والملوك للطبرى ـ ط. دار المعارف مصر .
١١ – الطبرانى الكبير ـ تحقيق حمدى عبد المجيد السلفى ـ ط. الأولى .
١٢ – دائرة المعارف الإسلامية – النسخة العربية – ط. دار الشعب .
١٣ – تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر ـ ط. دار المسيرة بيروت .
١٤ – دلائل النبوة للبيهقى ـ ط. دار الكتب العلمية بيروت .
١٥ – كشف الخفا ومزيل الألباس للعجلونى ـ تحقيق أحمد القلاش ـ مكتبة التراث الإسلامى .
١٦ – رجال ونساء أنزل الله فيهم قرآناً – دار اللواء – الرياض السعودية .
١٧ – نوادر الأصول : للحكيم الترمذى – ط. دار الجيل – بيروت لبنان .
١٨ – الطريق إلى الله – عبد الرحمن عميرة ـ ط. دار اللواء الرياض السعودية .
١٩ – هذا هو الطريق – عبد الرحمن عميرة ـ ط. دار اللواء الرياض السعودية.
٢٠ – العصيان المسلح فى الدولة الإسلامية – عبد الرحمن عميرة ـ ط. دار الجيل بيروت .

٥/

فهرس الكتاب